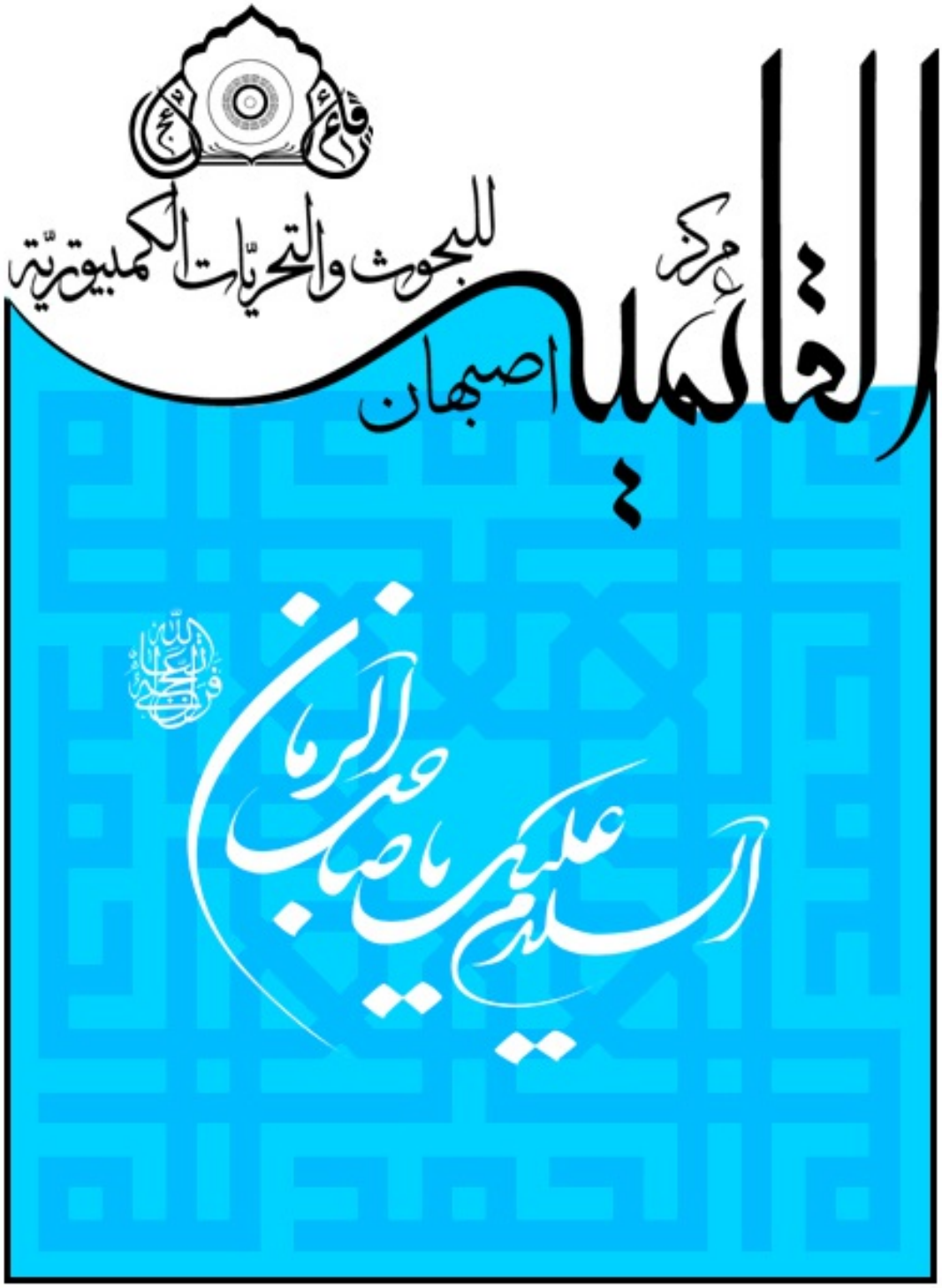

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

وذكر قدر ما لسانها من الأدب

للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

الجزء الثاني

تحقيق

محمد محيي الدين عبد الحميد

إشراف

مكتب البحوث والدراسات

في

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

كاتب:

مقرى، احمد بن محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالفكر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب المجلد ۲ ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
[تتمة القسم الاول] ----- ۱۶
الباب الرابع فی وصف الأندلس ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
[وصف قرطبة لابن سعید] ----- ۱۶
[وصف قرطبة لبعض العلماء] ----- ۱۸
[وصف قرطبة للحجاری] ----- ۱۸
[من محاسن قرطبة و عنایة القرطبیین بالکتب] ----- ۱۹
[قصور قرطبة و أبواب تلک القصور] ----- ۲۰
[أبواب قرطبة و أرباضها] ----- ۲۰
[متنزهات قرطبة] ----- ۲۱
[الرمان السفری فی قرطبة] ----- ۲۱
[متنزهات قرطبة و قصورها] ----- ۲۲
[نهر قرطبة و قنطرتها و نشأتها و اسباب دثورها] ----- ۲۸
[وصف المبانی العظیمة] ----- ۳۲
[من وصف الأنهار و البرک و وصف الدیار الدائرة] ----- ۳۷
[من رسائل لسان الدین بن الخطیب] ----- ۴۰
[جامع قرطبة] ----- ۴۵
[رجع إلی أخبار البنیان] ----- ۴۶
[ابن فرفور یشکو الدهر] ----- ۴۷
[رجع إلی أخبار البنیان- مدینة الزهراء] ----- ۴۷

[أخبار البنیان- قصر المأمون بن ذی النون] ۴۹
[وصف المجالس و القصور] ۵۰
[من نثر ابن خفاجة] ۵۳
[من نظم ابن خفاجة] ۵۴
[عود إلی وصف قرطبة و مشاهدها و مساجدها] ۵۵
[الزهراء و مسجدها] ۶۵
[ابین المنذر بن سعید و الناصر] ۶۷
[دثور الزهراء] ۷۰
[الزاهرة] ۷۱
[المنیة العامریة] ۷۲
[کثرة المنی فی الأندلس] ۷۳
[ابین المنصور و ابن شهید] ۷۴
[من أخبار المنصور بن أبی عامر] ۷۵
[دثور الزاهرة] ۷۶
[طرف من أخبار المنصور] ۷۶
[ترجمة المصحفی فی المطمح] ۷۷
[من أخبار المنصور] ۷۸
[رسالة ابن عبد البر إلی المنصور الصغیر] ۸۰
[من أخبار المنصور الکبیر محمد بن أبی عامر و المصحفی] ۸۱
[مآل مصحف عثمان الذی کان بالأندلس و بناء مسجد مراکش] ۸۳
[من أخبار الوزیر أبی المغیرة بن حزم] ۸۸
[ابین الرشید و المأمون و جاریة] ۸۹
[ترجمة الوزیر أبی المغیرة بن حزم] ۹۰
[ترجمة أبی عامر بن شهید] ۹۰

[استیلاء المعتمد بن عباد علی قرطبة] ----- ۹۲
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن زیدون (فی القلائد)] ----- ۹۳
[وصف المتنزهات من موشحة ابن الوکیل] ----- ۹۵
[وصف المتنزهات من رجع إلی ما یتعلق بقرطبة] ----- ۹۶
[وصف حیر الزجالی بقرطبة] ----- ۹۷
[وصف المتنزهات من ترجمة بنی القبطرنة] ----- ۹۸
[بین أبی بکر بن القبطرنة و الوزیر ابن الیسع] ----- ۹۹
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن حسدای] ----- ۹۹
[وصف المتنزهات من ترجمة المستعین ابن هود] ----- ۱۰۰
[وصف المتنزهات من ترجمة عبد اللّه ابن السید البطلیوسی] ----- ۱۰۱
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن العطار] ----- ۱۰۴
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن عمار] ----- ۱۰۵
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن وهبون] ----- ۱۰۷
[وصف الفتح لمجلس أنس بمنیة المنصور] ----- ۱۰۷
[کتاب من الفتح إلی بعض الملوک یصف متنزها] ----- ۱۰۸
[وصف المتنزهات من ترجمة الراضی بالله بن عباد] ----- ۱۰۹
[وصف المتنزهات من ترجمة المتوکل علی اللّه بن الأفطس] ----- ۱۱۰
[وصف المتنزهات من ترجمة المعتصم ابن صمادح] ----- ۱۱۱
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن رزین] ----- ۱۱۱
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن طاهر] ----- ۱۱۳
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن عمار] ----- ۱۱۳
[وصف المتنزهات من ترجمة أبی عیسی بن لبون] ----- ۱۱۴
[و ترجمة أبی بکر بن رحیم] ----- ۱۱۴
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن عبدون] ----- ۱۱۴

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن مالک] ۱۱۵
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن السقاط] ۱۱۵
[و من ترجمة ابن أضحی] ۱۱۶
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن خفاجة] ۱۱۶
[وصف المتنزهات من رسالة للفتح] ۱۱۷
[وصف المتنزهات من ترجمة ابن عطية] ۱۱۷
[وصف المتنزهات من شعر ابن خفاجة] ۱۱۸
[وصف المتنزهات من شعر ابن سعيد] ۱۲۴
الباب الخامس [فيمن رحل من الأندلسيين إلی المشرق] ۱۲۶
اشارة ۱۲۶
۱- منهم عالم الأندلس عبد الملک بن حبيب السّلمی: ۱۲۶
۲- و من الراحلين من الأندلس الفقيه المحدّث يحيی بن يحيی الليثی ۱۲۸
۳- و منهم القاضی أبو عبد اللّه محمد بن عيسی ۱۲۹
۴- و منهم عتيق بن أحمد بن عبد الباقی الأندلسی، ۱۳۰
۵- و منهم أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن يوسف، ۱۳۰
۶- و منهم القاضی منذر بن سعيد البلوطی، ۱۳۱
[۷- ترجمة أبی القاسم الشاطبی الرعينی المقری] ۱۳۴
[۸- ترجمة القاضی أبی بکر بن العربی المعافری] ۱۳۵
۹- و منهم أبو بکر محمد بن أبی عامر بن حجّاج، الغافقی، الإشبيلی. ۱۴۳
[۱۰- ترجمة جمال الدين بن ذی النون] ۱۴۳
۱۱- و منهم زياد بن عبد الرحمن بن زيادة اللخمیّ، المعروف بشبطون، ۱۴۴
۱۲- و منهم سوار بن طارق ۱۴۴
۱۳- و منهم بقی بن مخلد، ۱۴۵
۱۴- و منهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف، أبو محمد، البيّانی، و بيّانة: ۱۴۵

۱۵- و منهم قاسم بن ثابت، أبو محمد، العوفی، السّرقسطی، ---- ۱۴۵
۱۶- و منهم علم الدین أبو محمد المرسیّ اللّورقی ---- ۱۴۶
۱۷- و منهم قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سیار، ---- ۱۴۶
۱۸- و منهم أبو بکر الغسانی، ---- ۱۴۷
۱۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن إبراهیم بن حیّون، ---- ۱۴۷
۲۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن إبراهیم بن عبد اللّه بن إبراهیم بن غالب، المالقیّ ---- ۱۴۷
۲۱- و منهم الیقّوری، و هو أبو عبد اللّه محمد بن إبراهیم مصنف کتاب «إکمال الإکمال» ---- ۱۴۷
۲۲- و منهم أبو عبد اللّه الأنصاری، و هو محمد بن إبراهیم بن موسی بن عبد السلام، ---- ۱۴۷
۲۳- و منهم الشیخ الإمام الشهیر الکبیر الولی العارف باللّه ---- ۱۴۸
۲۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن علی بن الحسین بن أبی الحسین ---- ۱۴۹
۲۵- و منهم أبو بکر الجیّانی محمد بن علی بن خلف التّجیبی الإشبیلی، ---- ۱۴۹
۲۶- و منهم أبو بکر الأندلسی الجیّانی محمد بن علی بن عبد اللّه بن محمد بن یاسر، ---- ۱۴۹
۲۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن علی التّجیبی الدهان الغرناطی، ---- ۱۵۰
۲۸- و منهم أبو عمر محمد بن علی بن محمد بن أبی الربیع القرشی العثمانی الأندلسی الإشبیلی النحوی، ---- ۱۵۰
۲۹- و منهم أبو بکر أبو عبد اللّه محمد بن علی بن محمد بن علی بن هذیل. البلنسی ---- ۱۵۰
۳۰- و منهم أبو عبد اللّه، و یقال: أبو سلمهٔ، محمد بن علی البیّاسی الغرناطی ---- ۱۵۰
۳۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن علی بن یحیی بن علی بن الشامی الأندلسی، ---- ۱۵۰
۳۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عمار الکلاعی المیورقی ---- ۱۵۱
۳۳- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن یوسف بن الفخّار القرطبی الحافظ ---- ۱۵۱
۳۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عمروس القرطبی ---- ۱۵۱
۳۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عیسی بن عبد الواحد بن نجیح، المعافری ---- ۱۵۱
۳۶- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن فطیس الغافقی، الإلبیری ---- ۱۵۲
۳۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سیّار، القرطبی ---- ۱۵۲
۳۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشی الفهری ---- ۱۵۲

۳۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن لبّ الشاطبى ---- ۱۵۲
۴۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سراقة الشاطبى ---- ۱۵۲
۴۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الفرّيشى ---- ۱۵۳
۴۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن خيرون، ---- ۱۵۳
۴۳- و منهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بندار، القيسى، الأندلسى، المالقى. ---- ۱۵۴
۴۴- و منهم أبو بكر محمد الزّهرى، المعروف بابن محرز، البلنسى ---- ۱۵۴
۴۵- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق القاضى أبو الوليد الباجى صاحب التصانيف المشهورة. ---- ۱۵۴
[۴۶- أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى] ---- ۱۶۳
۴۷- و منهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشى ---- ۱۶۵
۴۸- و منهم القاضى الشهير الشهيد أبو على الصيرفى ---- ۱۶۵
۴۹- و منهم ابن أبى روح الجزيرى ---- ۱۶۶
۵۰- و منهم العالم أبو حفص عمر بن حسن الهوزنى ---- ۱۶۶
۵۱- و منهم أبو عمرو عثمان بن الحسين ---- ۱۶۷
۵۲- و منهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم ---- ۱۶۷
۵۳- و منهم الكاتب أبو عبد اللّه محمد بن عبد ربه المالقى ---- ۱۶۸
۵۴- و منهم الشاعر الأديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان، المالقىّ. ---- ۱۶۹
۵۵- و منهم الحافظ أبو الخطاب بن دحية ---- ۱۶۹
۵۶- و منهم: خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ ---- ۱۷۲
۵۷- و منهم: خلف بن سعيد بن عبد اللّه بن زرارة أبو القاسم بن المرابط، الكلبى، ---- ۱۷۲
۵۸- و منهم: سابق فضلاء زمانه، أبو الصّلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصّلت الإشبيلى. ---- ۱۷۲
۵۹- و منهم الفقيه أبو محمد عبد اللّه بن يحيى بن محمد بن بهلول السّرقسطى. ---- ۱۷۵
۶۰- و منهم الفقيه المقرئ أبو عامر التيارى ---- ۱۷۵
۶۱- و منهم الأديب الطبيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى. ---- ۱۷۶
[۶۲- أبو بكر محمد بن يوسف المعروف (بابن مسدى)] ---- ۱۷۶

۶۳- و منهم الإمام الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن فتّوح بن عبد اللّه الأزدی الحمیدی ---- ۱۷۶
۶۴- و منهم الکمال أبو العباس أحمد الشریشی ---- ۱۷۷
۶۵- و منهم أبو بکر یحیی بن سعدون بن تمام بن محمد، الأزدی، القرطبی ---- ۱۷۸
۶۶- و منهم الوزیر أبو عبد اللّه محمد، ابن الشیخ الأجل أبی الحسن بن عبد ربه ---- ۱۷۹
۶۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن الصفار، القرطبی ---- ۱۷۹
[أبو الولید بن الجنان الکنانی الشاطبی] ---- ۱۸۰
۶۹- و منهم أبو محمد القرطبی ---- ۱۸۲
۷۰- و منهم علی بن أحمد، القادسی، الکنانی ---- ۱۸۲
۷۱- و منهم أبو عبد اللّه بن العطار، القرطبی ---- ۱۸۲
[۷۲- أبو الولید عبد اللّه بن محمد الأزدی، القرطبی، (ابن الفرضی،)] ---- ۱۸۴
۷۳- و منهم الشیخ أبو بکر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه، البکری، الشریشی، المالکی ---- ۱۸۵
۷۴- و منهم أبو محمد عبد العزیز بن أحمد بن السید بن المغلّس، القیسی، الأندلسی، البلنسی. ---- ۱۸۶
۷۵- و منهم أبو الحکم عبید اللّه بن المظفر بن عبد اللّه، الحکیم، الأدیب، المعروف بالمغربی ---- ۱۸۶
۷۶- و من الراحلین من الأندلس إلی المشرق: ---- ۱۸۷
۷۷- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن عیسی بن عبد اللّه بن أحمد بن أبی حبیب، الأندلسی. ---- ۱۸۸
۷۸- و منهم أبو العباس أحمد بن علی بن محمد بن علی بن شکر، الأندلسی، المقرئ. ---- ۱۸۸
۷۹- و منهم العلامة ذو الفنون علم الدین القاسم بن أحمد المرینی، اللورقی، المقرئ، النحوی. ---- ۱۸۸
۸۰- و منهم أبو عبد اللّه بن أبی الربیع، القیسی، الأندلسی، الغرناطی. ---- ۱۸۸
۸۱- و منهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجی، القرشی، العبدری ---- ۱۸۹
۸۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سعدون، الباجی ---- ۱۸۹
۸۳- و منهم أبو بکر محمد بن سعدون، التمیمی، الجزیری، المتعبد. ---- ۱۸۹
۸۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سعد الأعرج، الطّلیطلی الخطیب. ---- ۱۹۰
۸۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سعید بن إسحاق بن یوسف، الأموی، القرطبی. ---- ۱۹۰
۸۶- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سعید بن حسان بن الحکم بن هشام، القرطبی. ---- ۱۹۰

۸۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سليمان، المعافرى، الشاطبى ---- ۱۹۰
۸۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن شريح، الرّعينى، الإشبيلى. ---- ۱۹۰
۸۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن صالح الأنصارى، المالقى. ---- ۱۹۱
۹۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن صالح، القحطانى، المعافرى، الأندلسى، المالكى. ---- ۱۹۱
۹۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن طاهر بن على بن عيسى، الخزرجى، الدانى، النحوى، ---- ۱۹۱
۹۲- و منهم القاضى الشهير محمد بن بشير، و هو محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل، المعافرى ---- ۱۹۱
۹۳- و منهم محمد بن عيسى بن دينار، الغافقى. ---- ۱۹۴
۹۴- و منهم محمد بن يحيى بن يحيى الليثى. ---- ۱۹۴
۹۵- و منهم محمد بن مروان بن خطاب، المعروف بابن أبى جمرة. ---- ۱۹۴
۹۶- و منهم محمد بن أبى علاقة، البواب، من أهل قرطبة. ---- ۱۹۴
۹۷- و منهم محمد بن حزم بن بكر، التّنوخى. ---- ۱۹۵
۹۸- و منهم محمد بن يحيى بن مالك بن يحيى بن عائذ ---- ۱۹۵
۹۹- و منهم محمد بن عبدون الجبلى، العدوى، من أهل قرطبة. ---- ۱۹۵
۱۰۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن، الأزدى، الفراء، القرطبى. ---- ۱۹۵
۱۰۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن صالح، المعافرى، الأندلسى. ---- ۱۹۶
۱۰۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الأنصارى، السّرقسطى. ---- ۱۹۶
۱۰۳- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عيسى بن بقاء، الأنصارى. ---- ۱۹۶
۱۰۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن طاهر بن على بن عيسى، الأنصارى، الخزرجى. ---- ۱۹۶
۱۰۵- و منهم محمد بن أبى سعيد الفرج بن عبد اللّه، البزار. ---- ۱۹۷
۱۰۶- و منهم أبو بكر محمد بن الحسين، الشهير بالميورقى، ---- ۱۹۷
۱۰۷- و منهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطّفيل ---- ۱۹۷
۱۰۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عيسى بن هشام بن جراح، الخزرجى ---- ۱۹۸
۱۰۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن على بن ياسر، الأنصارى، الجيّانى ---- ۱۹۸
۱۱۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن سعادة. ---- ۱۹۸

۱۱۱- و منهم محمد بن إبراهيم بن وضاح، اللخمى ---------- ۱۹۹
۱۱۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن، التجيبى، نزيل تلمسان. ---------- ۱۹۹
۱۱۳- و منهم الشيخ الأكبر، ذو المحاسن التى تبهر، سيدى محيى الدين بن عربى محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد اللّه، الحاتمى، ۲۰۰
۱۱۴- و منهم الصوفى الشهير أبو الحسن على الشّشترى ---------- ۲۱۲
۱۱۵- و منهم سيدى أبو الحسن على بن أحمد الحرالى الأندلسى ---------- ۲۱۴
۱۱۶- و منهم ولى اللّه العارف به الشيخ الشهير الكرامات، الكبير المقامات، سيدى أبو العباس المرسى ---------- ۲۱۵
۱۱۷- و منهم أبو إسحاق الساحلى، المعروف بالطّويجن ---------- ۲۱۷
۱۱۸- و منهم الشيخ الأديب الفاضل المعمر ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد بن يوسف بن عفيف، الخزرجى، الساعدى. ---------- ۲۱۷
۱۱۹- و منهم الفقيه الجليل، العارف النبيل، الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر، الشهير بابن سبعين، -- ۲۱۸
۱۲۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم، الشهير بابن غصن، الإشبيلى ---------- ۲۲۳
۱۲۱- و منهم الشيخ الفقيه، الأستاذ، النحوى، التاريخى، اللغوى، أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى، اللّبلى ---------- ۲۲۳
۱۲۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح القرطبى. ---------- ۲۲۴
۱۲۳- و منهم أبو القاسم بن حاضر، الجزيرى، الخزرجى، محمد بن أحمد. ---------- ۲۲۵
۱۲۴- و منهم أبو القاسم التّجيبى، محمد بن أحمد التّجيبى. ---------- ۲۲۵
۱۲۵- و منهم أبو بكر الخزرجى، محمد بن أحمد بن حسن، و قيل: محمد بن عيسى، المالقىّ، المالكى. ---------- ۲۲۵
۱۲۶- و منهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمى، مولاهم، لأن ولاءه لبنى العباس من أهل قرطبة. ---------- ۲۲۵
۱۲۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن سلمان بن أحمد بن إبراهيم، الزهرى، الأندلسى، الإشبيلى. ---------- ۲۲۶
۱۲۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم، القرطبى، المقرى المعروف بالورشى ---------- ۲۲۶
۱۲۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الباجى، اللخمى. ---------- ۲۲۶
۱۳۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عبد العزيز، العتبى، الأندلسى، القرطبى ---------- ۲۲۶
۱۳۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافرى، المقرى، الفرضى، الأديب. ---------- ۲۲۷
۱۳۲- و منهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل، أبو عبد اللّه، الأموى، الأندلسى، الطّليطلى، المعروف بالنقاش. ---------- ۲۲۷
۱۳۳- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد القيسى، القبرى، القرطبى، المؤدب. ---------- ۲۲۷
۱۳۴- و منهم جمال الدين أبو بكر الوائلى، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن سجمان، الشريشى، المالكى. ---------- ۲۲۷

۱۳۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرّج، القرطبى، المعروف والده بالقنتورى. ---- ۲۲۸
۱۳۶- و منهم أبو عبد اللّه القيسى، الوضاحى، محمد بن أحمد بن موسى. ---- ۲۲۸
۱۳۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل، العبدرى، البلنسى. ---- ۲۲۸
۱۳۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن نوح، الإشبيلى. ---- ۲۲۹
۱۳۹- و منهم محمد بن أسباط، المخزومى، القرطبى. ---- ۲۲۹
۱۴۰- و منهم أبو بكر محمد بن إسحاق، الشهير بابن السّليم، قاضى الجماعة بقرطبة. ---- ۲۲۹
۱۴۱- و منهم موسى بن بهيج، المغربى، الأندلسى، الواعظ، الفقيه العالم. ---- ۲۲۹
۱۴۲- و منهم أبو عمران موسى بن سعادة، مولى سعيد بن نصر. ---- ۲۲۹
۱۴۳- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن طاهر، الأزدى. ---- ۲۳۰
۱۴۴- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد اللّه بن مالك. ---- ۲۳۰
۱۴۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن طاهر القيسى التدّميرى، و يعرف بالشهيد. ---- ۲۳۶
۱۴۶- و منهم أبو عبد اللّه القيجاطى محمد بن عبد الجليل بن عبد اللّه بن جهور. ---- ۲۳۶
۱۴۷- و منهم أبو عبد اللّه- و يقال: أبو حامد- محمد بن عبد الرحيم، المازنىّ، القيسى، الغرناطى. ---- ۲۳۶
۱۴۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام، القرطبى، ---- ۲۳۷
۱۴۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج، القرطبى. ---- ۲۳۷
۱۵۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الملك بن ضيفون [ابن مروان]، اللخمى، الرصافى، القرطبى، الحداد. ---- ۲۳۷
۱۵۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الملك، الخزرجى، السعدى، القرطبى. ---- ۲۳۷
۱۵۲- و منهم أبو بكر بن السرّاج، النحوى، بتشديد الراء. ---- ۲۳۸
۱۵۳- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أحمد بن على بن سعيد العنسى ---- ۲۳۸
۱۵۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن الدفاع ---- ۲۳۸
۱۵۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن سعيد بن عابد، المعافرى، القرطبى. ---- ۲۳۸
۱۵۶- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن سليمان بن عثمان بن هاجد، الأنصارى البلنسى. ---- ۲۳۸
۱۵۷- و منهم أبو الوليد محمد بن عبد اللّه بن محمد بن خيرة، القرطبى، المالكى، الحافظ. ---- ۲۳۹
۱۵۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبى الفضل، السلمى، المرسى. ---- ۲۳۹

۱۵۹- و قال الجمال الیغموری ---- ۲۳۹
۱۵۹- و منهم أبو بکر محمد بن عبد اللّه، البنتی، الأندلسی، الأنصاری. ---- ۲۴۰
۱۶۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه، الخولانی، الباجی، ثم الإشبیلی، المعروف بابن القوق. ---- ۲۴۰
۱۶۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه، اللوشی، الطبیب. ---- ۲۴۰
۱۶۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبدون، العذری، القرطبی. ---- ۲۴۰
۱۶۳- و من الراحلین إلی المشرق من أهل الأندلس أبو مروان عبد الملک بن أبی بکر محمد بن مروان بن زهر، الإیادی، الأندلسی. ---- ۲۴۱
۱۶۴- و منهم أبو الحجاج الساحلی، یوسف بن إبراهیم بن محمد بن قاسم بن علی، الفهری، الغرناطی. ---- ۲۴۵
۱۶۵- و ممن ارتحل من الأندلس إلی المشرق شاعر الأندلس یحیی بن الحکم، البکری الجیانی الملقب بالغزال لجماله ---- ۲۴۵
۱۶۶- و منهم الشهیر بالمغارب و المشارق، المحلی بجواهره صدور المهارق، أبو الحسن علی بن موسی بن سعید العنسی. ---- ۲۴۹
فهرس الرسائل و الخطب و التنویهات للجزء الثانی من کتاب نفح الطیب ---- ۳۰۶
فهرس موضوعات الجزء الثانی من کتاب نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب للمقری ---- ۳۰۷
الباب الرابع فی وصف الأندلس ---- ۳۰۷
الباب الخامس فیمن رحل من الأندلسیین إلی المشرق ---- ۳۰۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۳۱۵

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد ۲

اشارة

نام كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

نويسنده: مقرى، احمد بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۰۴۱ ه. ق

محقق / مصحح: بقاعى، يوسف

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱۰

ناشر: دار الفكر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۹ ه. ق

[تتمة القسم الاول]

الباب الرابع فى وصف الأندلس

اشارة

فى ذكر قرطبة التى كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة، و جامعها الأموى ذى البدائع الباهية الباهرة، و الإلماع بحضرتى الملك الناصرية الزّهراء و العامرية الزاهرة، و وصف جملة من منتزهات تلك الأقطار و مصانعها ذات المحاسن الباطنة و الظاهرة، و ما يجر إليه شجون الحديث من أمور تقضى بحسن إيرادها القرائح الوقادة و الأفكار الماهرة.

[وصف قرطبة لابن سعيد]

قال ابن سعيد رحمه اللّه: مملكة قرطبة فى الإقليم الرابع، و إيالته للشمس، و فى هذه المملكة معدن الفضة الخالصة فى قرية كرتش، و معدن الزئبق و الزنجفر فى بلد بسطاسة، و لأجزائها خواصّ مذكورة فى متفرقاتها، و أرضها أرض كريمة النبات، انتهى.

و قدّم رحمه اللّه فى المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الأندلس و قال: إنما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الأندلسية لكون سلاطين الأندلس الأول اتخذوها سريرا لسلطنة الأندلس، و لم يعدلوا عن حضرتها قرطبة، ثم سلاطين بنى أمية و خلفاؤهم، لم يعدلوا عن هذه المملكة، و تقلبوا منها فى ثلاثة أقطار أداروا فيها خلافتهم: قرطبة، و الزهراء، و الزاهرة، و إنما اتخذوها لهذا الشأن لما رأوها لذلك أهلا، و قرطبة أعظم علما و أكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك، لاتصال الحضارة العظيمة و الدولة المتوارثة فيها.

ثم قسم ابن سعيد كتاب «الحلة المذهبة، فى حلى ممالك قرطبة». بالنظر إلى الكور إلى أحد عشر كتابا: الكتاب الأوّل كتاب: «الحلة الذهبية، فى حلى الكورة القرطبية».

الكتاب الثانى كتاب: «الدرر المصونة، فى حلى كورة بلكونة». الكتاب الثالث كتاب: «محادثة السير، فى حلى كورة القصير». الكتاب الرابع كتاب: «الوشى المصوّر، فى حلى كورة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴

المدوّر». الكتاب الخامس كتاب: «نيل المراد، فى حلى كورة مراد». الكتاب السادس كتاب:

«المزنة، فى حلى كورة كزنة». الكتاب السابع كتاب: «الدر النافق، فى حلى كورة غافق».

الكتاب الثامن كتاب: «النفحة الأرجة، فى حلى كورة إستجة». الكتاب التاسع كتاب:

«الكواكب الدرّية، فى حلى الكورة القبرية». الكتاب العاشر كتاب: «رقة المحبة، فى حلى كورة إستبة». الكتاب الحادى عشر كتاب: «السّوسانة»، فى حلى كورة اليسانة» انتهى.

قال رحمه اللّه تعالى: إن العمارة اتّصلت فى مبانى قرطبة و الزهراء و الزاهرة، بحيث إنه كان يمشى فيها لضوء السرج الممتدّة عشرة أميال حسبما ذكره الشّقندى فى رسالته، ثم قال:

و لكلّ مدينة من مدن قرطبة و أعمالها ذكر مختصّ به، ثم ذكر المسافات التى بين ممالك قرطبة المذكورة فقال: بين المدوّر و قرطبة ستة عشر ميلا، و بين قرطبة و مراد خمسة و عشرون ميلا، و بين قرطبة و القصير ثمانية عشر ميلا، و بين قرطبة و غافق مرحلتان، و بين قرطبة و إستبة ستة و ثلاثون ميلا، و بين قرطبة و بلكونة مرحلتان، و بين قرطبة و اليسّانة أربعون ميلا، و بين قرطبة و قبرة ثلاثون ميلا، و بين قرطبة و بيّانة مرحلتان، و بين قرطبة و إستجة ثلاثون ميلا، و كورة رندة كانت فى القديم من عمل قرطبة، ثم صارت من مملكة إشبيلية، و هى أقرب و أدخل فى المملكة الإشبيلية، انتهى.

ثم قسم رحمه اللّه تعالى كتاب «الحلة الذهبية، فى حلى الكورة القرطبية» إلى خمسة كتب: الكتاب الأول كتاب: «النّغم المطربة، فى حلى حضرة قرطبة». الكتاب الثانى كتاب:

«الصّبيحة الغرّاء، فى حلى حضرة الزهراء». الكتاب الثالث كتاب: «البدائع الباهرة، فى حلى حضرة الزاهرة». الكتاب الرابع كتاب: «كتاب الوردة، فى حلى مدينة شقنده». الكتاب الخامس: كتاب: «الجرعة السّيغة، فى حلى كورة وزغة».

و قال رحمه اللّه تعالى فى كتاب «النغم المطربة، فى حلى حضرة قرطبة»: إن حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكتها، و فى اصطلاح الكتاب أن للعروس الكاملة الزينة منصة، و هى مختصّة بما يتعلق بذكر المدينة فى نفسها، و تاجا، و هو مختصّ بالإيالة السلطانية، و سلكا، و هو مختص بأصحاب درر الكلام من النّثار و النظام، و حلة، و هى مختصّة بأعلام العلماء المصنفين الذين ليس لهم نظم و لا نثر، و لا يجب إهمال تراجمهم، و أهدابا، و هى مختصة بأصحاب فنون الهزل و ما ينحو منحاه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵

ثم فصّل رحمه اللّه تعالى ذلك كله بما تعدّدت منه الأجزاء و قد لخصت منه هنا بعض ما ذكر، ثم أردفته بكلام غيره، فأقول: قال فى كتاب أجار: إن قرطبة- بالطاء المعجمة- و معناه أجر ساكنها، يعنى عرّبت بالطاء، ثم قال و دور مدينة قرطبة ثلاثون ألف ذراع، انتهى.

و قال غيره: إن تكسيرها و مساحتها التى دار السور عليها دون الأرباض طولا من القبلة إلى الجوف ألف و ستمائة ذراع، و اتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا و فرسخين عرضا، و ذلك من الأميال أربعة و عشرون فى الطول، و فى العرض ستة، و كل ذلك ديار و قصور و مساجد و بساتين بطول ضفة الوادى المسمى بالوادى الكبير، و ليس فى الأندلس واد يسمّى باسم عربىّ غيره، و لم تزل قرطبة فى الزيادة منذ الفتح الإسلامى إلى سنة أربعمائة، فانحطّت، و استولى عليها الخراب بكثرة الفتن إلى أن كانت الطّامّة الكبرى عليها بأخذ العدوّ الكافر لها فى ثانى و عشرى شوّال سنة ستمائة و ثلاث و عشرين.

ثم قال هذا القائل: و دور قرطبة أعنى المسوّر منها دون الأرباض ثلاثة و ثلاثون ألف ذراع، و دور قصر إمارتها ألف ذراع و مائة ذراع، انتهى.

و عدد أرباضها أحد و عشرون، فى كل ربض منها من المساجد و الأسواق و الحمّامات ما يقوم بأهله، و لا يحتاجون إلى غيره، و بخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية، فى كل واحدة منبر و فقيه مقلّص تكون الفتيا فى الأحكام و الشرائع له، و كان لا يجعل القالص

عندهم على رأسه إلا من حفظ الموطّأ، و قيل: من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبيّ صلى اللّه عليه و سلم و حفظ المدوّنة، و كان هؤلاء المقلّصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة، و يسلّمون عليه، و يطالعونه بأحوال بلدهم. انتهى.

قال: و انتهت جباية قرطبة أيام ابن أبى عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار، بالإنصاف، و قد ذكرنا فى موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا، فاللّه أعلم، و ما أحسن قول بعضهم: [البسيط]

دع عنك حضرة بغداد و بهجتها و لا تعظّم بلاد الفرس و الصّين

فما على الأرض قطر مثل قرطبة و ما مشى فوقها مثل ابن حمدين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶

و قال بعضهم: قرطبة قاعدة الأندلس و دار الملك التى يجبى لها ثمرات كل جهة و خيرات كلّ ناحية، واسطة بين الكور، موفية على النهر، زاهرة مشرقة، أحدقت بها المنى فحسن مرآها، و طاب جناها.

و فى كتاب «فرحة الأندلس» لابن غالب: أما قرطبة فإنه اسم ينحو إلى لفظ اليونانيين، و تأويله القلوب المشككة.

و قال أبو عبيد البكرى: إنها فى لفظ القوط بالظاء المعجمة، و قال الحجارى: الضبط فيها بإهمال الطاء و ضمها، و قد يكسرها المشرقيون فى الضبط، كما يعجمها آخرون. انتهى.

[وصف قرطبة لبعض العلماء]

و قال بعض العلماء: أما قرطبة فهى قاعدة الأندلس، و قطبها، و قطرها الأعظم، و أمّ مدائنها و مساكنها، و مستقرّ الخلفاء، و دار المملكة فى النصرانية و الإسلام، و مدينة العلم، و مستقرّ السنة و الجماعة، نزلها جملة من التابعين و تابعى التابعين، و يقال: نزلها بعض من الصحابة، و فيه كلام.

و هى مدينة عظيمة أزلية من بنيان الأوائل، طيّبة الماء و الهواء، أحدقت بها البساتين و الزيتون و القرى و الحصون و المياه و العيون من كلّ جانب، و بها المحرث العظيم الذى ليس له فى بلاد الأندلس نظير و لا أعظم منه بركة.

و قال الرازى: قرطبة أم المدائن، و سرّة الأندلس، و قرارة الملك فى القديم و الحديث و الجاهلية و الإسلام، و نهرها أعظم أنهار الأندلس، و بها القنطرة التى هى إحدى غرائب الأرض فى الصّنعة و الإحكام، و الجامع الذى ليس فى بلاد الأندلس و الإسلام أكبر منه.

و قال بعضهم: هى أعظم مدينة بالأندلس، و ليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل، و سعة محلّ، و فسحة أسواق، و نظافة محالّ، و عمارة مساجد، و كثرة حمّامات و فنادق، و يزعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبى بغداد، و إن لم تكن كأحد جانبى بغداد فهى قريبة من ذلك و لا حقة به، و هى مدينة حصينة ذات سور من حجارة و محالّ حسنة، و فيها كان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷

سلاطينهم قديما، و دورهم داخل سورها المحيط بها، و أكثر أبواب القصر السلطانى من البلد و جنوب قرطبة على نهرها.

قال: و قرطبة هذه بائنة عن مساكن أرباضها ظاهرة و درت بها فى غير يوم فى قدر ساعة و قد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشيا.

[وصف قرطبة للحجارى]

و قال الحجارى: و كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الإسلام، و مجتمع علماء الأنام الأعلام، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية، و فيها تمحضت خلاصة القبائل المعدّية و اليمانية، و إليها كانت الرحلة فى رواية الشعر و الشعراء، إذ كانت مركز الكرماء، و معدن العلماء، و

لم تزل تملأ الصّدور منها و الحقائب، و يبارى فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب، و لم تبرح ساحاتها مجرّ عوال و مجرى سوابق، و محطّ معال و حمى حقائق، و هى من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، و الزّور، من الأسد، و لها الداخل الفسيح، و الخارج الذى يمتّع البصر بامتداده فلا يزال مستريحا و هو من تردّد النظر طليح.

و قال الحجارى: حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة هى كانت منتهى الغاية، و مركز الراية، و أمّ القرى، و قرارة أولى الفضل و التقى، و وطن أولى العلم و النهى، و قلب الإقليم، و ينبوع متفجّر العلوم، و قبة الإسلام، و حضرة الإمام، و دار صوب العقول، و بستان ثمر الخواطر، و بحر درر القرائح، و من أفقها طلعة نجوم الأرض و أعلام العصر و فرسان النظم و النثر، و بها أنشئت التأليفات الرائقة، و صنفت التصنيفات الفائقة، و السبب فى تبريز القوم حديثا و قديما على من سواهم أنّ أفقهم القرطبىّ لم يشتمل قط إلا على البحث و الطلب، لأنواع العلم و الأدب. انتهى.

و قال على بن سعيد: أخبرنى والدى أن السلطان الأعظم أبا يعقوب بن عبد المؤمن كان لوالده محمد بن عبد الملك بن سعيد: ما عندك فى قرطبة؟ قال: فقلت له: ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها، فقال السّلطان: إن ملوك بنى أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلى بصيرة، الدّيار الكثيرة المنفسحة و الشوارع المتسعة، و المبانى الضخمة، و النهر الجارى، و الهواء المعتدل، و الخارج النضر، و المحرث العظيم، و الشّعراء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸

الكافية، و التوسّط بين شرق الأندلس و غربها، قال: فقلت: ما أبقى لى أمير المؤمنين ما أقول.

ثم قال ابن سعيد: و من كلام والدى فى شأنها: هى من أحسن بلاد الأندلس مبانى، و أوسعها مسالك، و أبرعها ظاهرا و باطنا، و تفضل إشبيلية بسلامتها فى فصل الشتاء من كثرة الطين، و لأهلها رياسة و وقار، و لا تزال سمة العلم متوارثة فيهم، إلا أنّ عامّتها أكثر الناس فضولا، و أشدهم تشنيعا و تشغيبا، و يضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس فى القيام على الملوك و التشنيع على الولاة و قلة الرضا بأمورهم، حتى إنّ السيد أبا يحيى بن يعقوب بن أبى عبد المؤمن لما انفصل عن ولايتها قيل له: كيف وجدت أهل قرطبة؟ قال: مثل الجمل إن خففت عنه الحمل صاح، و إن أثقلته به صاح، ما ندرى أين رضاهم فنقصده، و لا أين سخطهم فنجتنبه، و ما سلّط اللّه عليهم حجّاج الفتنة حتى كان عامّتها شرّا من عامّة العراق، و إنّ العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندى ولايه، و إنى إن كلّفت العود إليها لقائل: لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين.

[من محاسن قرطبة و عناية القرطبيين بالكتب]

قال والدى: و من محاسنها ظرف اللباس، و التظاهر بالدين، و المواظبة على الصلاة، و تعظيم أهلها لجامعها الأعظم، و كسر أوانى الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها عليها، و التّستر بأنواع المنكرات، و التفاخر بأصالة البيت و بالجندية و بالعلم، و هى أكثر بلاد الأندلس كتبا، و أشدّ الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التّعيّن و الرياسة، حتى إنّ الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب، و ينتخب فيها ليس إلّا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، و الكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره، و الكتاب الذى هو بخطّ فلان قد حصّله و ظفر به.

قال الحضرمى: أقمت مرّة بقرطبة، و لازمت سوق كتبها مدة أترقّب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء، إلى أن وقع و هو بخط فصيح و تفسير مليح ففرحت به أشدّ الفرح، فجعلت أزيد فى ثمنه، فيرجع إلىّ المنادى بالزيادة علىّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له:

يا هذا، أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوى، قال: فأرانى شخصا عليه لباس رياسة، فدنوت منه، و قلت له: أعزّ اللّه سيدنا الفقيه! إن كان لك غرض فى هذا الكتاب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹

تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه؛ قال: فقال لى: لست بفقيه، و لا أدرى ما فيه، و لكنى أقمت خزانة كتب، و احتلفت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، و بقى فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيّد التجليد استحسنته، و لم أبال بما أزيد فيه، و الحمد للّه على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمىّ: فأحرجنى، و حملنى على أن قلت له:

نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك، يعطى الجوز من لا له أسنان، و أنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب، و أطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندى قليلا، و تحول قلة ما بيدى بينى و بينه.

قال ابن سعيد: و جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين الفقيه العالم أبى الوليد بن رشد و الرئيس أبى بكر بن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه: ما أدرى ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، و إذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية.

[قصور قرطبة و أبواب تلك القصور]

و سئل ابن بشكوال عن قصر قرطبة، فقال: هو قصر أولىّ تداولته ملوك الأمم من لدن عهد موسى النبىّ صلى اللّه على نبينا و عليه و سلم، و فيه من المبانى الأولية و الآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم و القوط و الأمم السالفة ما يعجز الوصف، ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان - منذ فتح اللّه عليهم الأندلس بما فيها- فى قصرها البدائع الحسان، و أثروا فيه الآثار العجيبة، و الرياض الأنيقة، و أجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة، و تموّنوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم، و أجروها فى كل ساحة من ساحاته و ناحية من نواحيه فى قنوات الرّصاص تؤدّيها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز و الفضة الخالصة و النحاس المموّه إلى البحيرات الهائلة و البرك البديعة و الصهاريج الغريبة فى أحواض الرّخام الرّومية المنقوشة العجيبة.

قال: و فى هذا القصر القصاب العالية السموّ، المنيفة العلوّ، التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض و مغاربها.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰

قال: و من قصوره المشهورة، و بساتينه المعروفة: الكامل، و المجدّد، و الحائر، و الروضة، و الزاهر، و المعشوق، و المبارك، و الرشيق، و قصر السرور، و التاج، و البديع.

قال: و من أبوابه التى فتحها اللّه لنصر المظلومين، و غياث الملهوفين، و الحكم بالحقّ الباب الذى عليه السّطح المشرف الذى لا نظير له فى الدنيا، و على هذا الباب باب حديد، و فيه حلق لاطون قد أثبتت فى قواعدها، و قد صورت صورة إنسان فتح فمه، و هى حلق باب مدينة أربونة من بلد الإفرنج، و كان الأمير محمد قد افتتحها، فجلب حلقها إلى هذا الباب، و له باب قبلىّ أيضا، و هو المعروف بباب الجنان، و قدّام هذين البابين المذكورين على الرصيف المشرف على النهر الأعظم مسجدان مشهوران بالفضل كان الأمير هشام الرضى يستعمل الحكم فى المظالم فيهما ابتغاء ثواب اللّه الجزيل، و له باب ثالث يعرف بباب الوادى، و له باب بشماليّه يعرف بباب قورية، و له باب رابع يدعى بباب الجامع، و هو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع على الساباط، و عدّد أبوابا بعد هذا طمست أيام فتنة المهدىّ بن عبد الجبار.

[أبواب قرطبة و أرباضها]

و ذكر ابن بشكوال رحمه اللّه أن أبواب قرطبة سبعة أبواب: باب القنطرة إلى جهة القبلة، و يعرف بباب الوادى، و بباب الجزيرة الخضراء، و هو على النهر، و باب الحديد، و يعرف بباب سرقسطة، و باب ابن عبد الجبار، و هو باب طليطلة، و باب رومية، و فيه تجتمع الثلاثة الرّصف التى تشقّ دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طرّكونة إلى أربونة مارّة فى

الأرض الكبيرة، ثم باب طلبيرة، و هو أيضا باب ليون، ثم باب عامر القرشيّ، و قدّامه المقبرة المنسوبة إليه، ثم باب الجوز، و يعرف بباب بطليوس، ثم باب العطارين، و هو باب إشبيلية، انتهى.

و ذكر أيضا أنّ عدد أرباض قرطبة عند انتهائها فى التوسّع و العمارة أحد و عشرون ربضا، منها القبلية بعدوة النّهر: ربض شقندة، و ربض منية عجب، و أما الغربية فتسعة: ربض حوانيت الرّيحان، و ربض الرقّاقين، و ربض مسجد الكهف، و ربض بلاط مغيث، و ربض مسجد الشّفاء، و ربض حمّام الإلبيرى، و ربض مسجد السّرور، و ربض مسجد الرّوضة، و ربض السّجن القديم، و أما الشمالية فثلاثة: ربض باب اليهود، و ربض مسجد أمّ سلمة، و ربض

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱

الرّصافة، و أمّا الشرقية فسبعة. ربض شبلار، و ربض قرن برّيل، و ربض البرج، و ربض منية عبد اللّه، و ربض منية المغيرة، و ربض الزاهرة، و ربض المدينة العتيقة.

قال: و وسط هذه الأرباض قصبة قرطبة التى تختصّ بالسّور دونها، و كانت هذه الأرباض بدون سور، فلما كانت أيام الفتنة صنع لها خندق يدور بجميعها و حائط مانع.

و ذكر ابن غالب أنه كان دور هذا الحائط أربعة و عشرين ميلا، و شقندة معدودة فى المدينة لأنها مدينة قديمة كانت مسوّرة.

[متنزهات قرطبة]

قال ابن سعيد فى «المغرب»: و لنذكر الآن من متنزهات قرطبة و معاهدها المذكورة فى الألسن نظما و نثرا ما انتهى إليه الضبط، من غير تغلغل فى غير المشهور منها و الأهمّ، و نوشّى ذلك بجميع ما يحضرنى من مختار النظم فى قرطبة، و ما يحتوى عليه نطاقها المذكور.

فأوّل ما نذكر من المتنزهات منتزه الخلفاء المروانية، و هو قصر الرّصافة، فنقول: كان هذا القصر مما ابتناه عبد الرحمن بن معاوية فى أول أيامه لنزهه، و سكناه أكثر أوقاته منية الرّصافة التى اتخذها بشمال قرطبة منحرفة إلى الغرب، فاتخذ بها قصرا حسنا، و دحا جنانا واسعة، و نقل إليها غرائب الغروس و أكارم الشجر من كل ناحية، و أودعها ما كان استجلبه يزيد و سفر رسولاه إلى الشأم من النوى المختارة و الحبوب الغريبة، حتى نمت بيمن الجدّ و حسن التربية فى المدة القريبة أشجارا معتمّة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعها.

قال: و سماها باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه، و لميله فى اختيار هذه، و كلفه بها، و كثرة تردّده عليها، و سكناه أكثر أوقاته بها- طار لها الذكر فى أيامه، و اتصل من بعده فى إيثارها.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲

قال: و كلهم فضّلها، و زاد فى عمارتها، و انبرى و صّاف الشعراء لها، فتنازعوا فى ذلك فيما هو إلى الآن مشهور مأثور عنهم، مستجاد منهم.

[الرمان السفرى فى قرطبة]

و قال ابن سعيد: و الرّمّان السّفرى الذى فاض على أرجاء الأندلس، و صاروا لا يفضلون عليه سواه، أصله من هذه الرّصافة. و قد ذكر ابن حيّان شأنه، و أفرد له فصلا، فقال: إنه الموصوف بالفضيلة، المقدّم على أجناس الرّمّان بعذوبة الطعم، و رقة العجم، و غزارة الماء، و حسن الصورة، و كان رسوله إلى الشأم فى توصيل أخته منها إلى الأندلس قد جلب طرائف منها من رمّان الرّصافة المنسوبة إلى هشام، قال: فعرضه عبد الرحمن على خواص رجاله مباهيا به، و كان فيمن حضره منهم سفر بن عبيد الكلاعى من جند الأردن، و يقال: هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى غزواته، قال: و هم يحملون الألوية بين يدى

الخلفاء من بنى أميـة، فأعطاه من ذلك الرمان جزءا فراقه حسـنه و خبره، فسار به إلى قريـة بكورة ريّـة، فعالـج عجمه و احتال لغرسه و غذائه و تنقيله حتى طلع شـجرا أثمر و أينع، فنزع إلى عرقه، و أغرب فى حسـنه، فجاء به عمّا قليل إلى عبد الرحمن، فإذا هو أشبه شىء بذلك الرّصافى، فسأله الأمير عنه، فعرّفه وجه حيلته، فاستبرع استنباطه، و استنبل همته، و شكر صنعه، و أجزل صلته، و اغترس منه بمنية الرّصافة و بغيرها من جنّاته، فانتشر نوعه، و استوسع الناس فى غراسه، و لزمه النسب إليه، فصار يعرف إلى الآن بالرمان السّفرى.

قال: و قد وصف هذا الرمان أحمد بن محمد بن فرح الشاعر فى أبيات كتب بها إلى بعض من أهداه له، فقال: [المتقارب]

و لابسة صدفا أحمرا أتتك و قد ملئت جوهرا

كأنّك فاتح حقّ لطيف تضمّن مرجانه الأحمرا

حبوبا كمثل لثات الحبيب رضابا إذا شئت أو منظرا

و للسّفر تعزى و ما سافرت فتشكو النّوى أو تقاسى السّرى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳

بلى فارقت أيكها ناعما رطيبا و أغصانها نضّرا

و جاءتك معتاضة إذ أتتك بأكرم من عودها عنصرا

بعود ترى فيه ماء النّدى و يورق من قبل أن يثمرا

هديّة من لو غدت نفسه هديّته ظنّه قصّرا

و قـال ابن سـعيد: و أخبرنى والـدى قـال: أخبرنى الوشّـاح المبرّز المحسن أبو الحسن المرينى قـال: بينمـا أنـا أشـرب مع نـدمانى بإزاء الرّصافة، إذا بإنسان رثّ الهيئة، مجفوّ الطلعة، قد جاء فجلس معنا، فقلنا له: ما هذا الإقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة؟

فقال: لا تعجلوا علىّ، ثم فكر قليلا و رفع رأسه فأنشدنا: [الخفيف]

اسقنيها إزاء قصر الرّصافه و اعتبر فى مآل أمر الخلافه

و انظر الأفق كيف بدّل أرضا كى يطيل اللّبيب فيه اعترافه

و يرى أنّ كلّ ما هو فيه من نعيم و عزّ أمر سخافه

كلّ شىء رأيته غير شىء ما خلا لذّة الهوى و السّلافه

[متنزهات قرطبة و قصورها]

قـال المرينىّ: فقبلت رأسه، و قلت له: بـالله من تكون؟ فقال: قاسم بن عبّود الرّياحىّ، الـذى يزعم الناس أنه موسوس أحمق، قال: فقلت له: ما هذا شـعر أحمق! و إن العقلاء لتعجز عنه، فباللّه إلا ما تممت مسـرتنا بمؤانسـتك و منادمتك و مناشدة طرف أشـعارك، فنادم و أنشـد، و ما زلنا معه فى طيبة عيش إلى أن و دعناه و هو يتلاطم مع الحيطان سـكرا، و يقول: اللهم غفرا. انتهى قال: و من قصور خارج قرطبة قصر السيّد أبى يحيى بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن، و هو على متن النهر الأعظم، تحمله أقواس، و قيل للسيّد: كيف تأنقت فى بنيان هـذا القصـر مع انحرافك عن أهل قرطبة؟ فقال: علمت أنهم لا يذكرون واليا بعد عزله و لا له عندهم قدر؛ لما بقى فى رؤوسـهم من الخلافة المروانية، فأحببت أن يبقى لى فى بلادهم أثر أذكر به على رغمهم.

قال ابن سعيد: و أخبرنى والدى أن ناهض بن إدريس شاعر وادى آش فى عصره أنشده لنفسه فى هذا القصر: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۴

ألا حبّذا القصر الّذى ارتفعت به على الماء من تحت الحجارة أقواس

هو المصنع الأعلى الّذى أنف الثّرى و رفّعه عن لثمه المجد و الباس

فأركب متن النّهر عزّا و رفعة و فى موضع الأقدام لا يوجد الرّاس

فلا زال معمور الجناب و بابه يغصّ و حلّت أفقه الدّهر أعراس

و قال الفتح فى قلائده، لما ذكر الوزير ابن عمار: و تنزه بالدمشق بقرطبة، و هو قصر شيده بنو أمية بالصّفّاح و العمد، و جرى فى إتقانه إلى غير أمد، و أبدع بناؤه، و نمّقت ساحاته و فناؤه، و اتّخذوه ميدان مراحهم، و مضمار أفراحهم، و حكوا به قصرهم بالمشرق، و أطلعوه كالكوكب المشرق، و أنشد فيه لابن عمّار: [الخفيف]

كلّ قصر بعد الدّمشق يذمّ فيه طاب الجنى و لذّ المشمّ

منظر رائق، و ماء نمير و ثرى عاطر، و قصر أشمّ

بتّ فيه و اللّيل و الفجر عندى عنبر أشهب و مسك أحمّ

و هى منسوبة للحاجب أبى عثمان جعفر بن عثمان المصحفى.

و ذكر الحجارى فى «المسهب» أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر المصحفى، اجتاز بالمنية المصحفية التى كانت لجدّه أيام حجابته للخليفة الحكم المستنصر، فاستعبر حين تذكر ما آل إليه حال جدّه مع المنصور بن أبى عامر، و استيلائه على ملكه و أملاكه، فقال: [الخفيف]

قف قليلا بالمصحفيّة و اندب مقلة أصبحت بلا إنسان

و اسألنها عن جعفر وسطاه و نداه فى سالف الأزمان

جعفر مثل جعفر حكم الدّه ر عليه بعسرة و هوان

و لكم حذّر الرّدى فصممنا لا أمان لصاحب السّلطان

بينما يعتلى غدا خافضا من ه انتساب لكفّة الميزان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۵

و منية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر الملثّم ملك قرطبة.

قال ابن سعيد: أخبرنى والدى عن أبيه قال: خرج معى إلى هذه المنية فى زمان فتح النّوّار أبو بكر بن بقىّ الشاعر المشهور، فجلسنا تحت سطر من أشجار اللّوز قد نوّرت، فقال ابن بقىّ: [البسيط]

سطر من اللّوز فى البستان قابلنى ما زاد شىء على شىء و لا نقصا

كأنّما كلّ غصن كمّ جارية إذا النّسيم ثنى أعطافه رقصا

ثم قال شعرا منه: [الطويل]

عجبت لمن أبقى على خمر دنّه غداة رأى لوز الحديقة نوّرا

و لا أذكر بقية الأبيات، قال: جدّى ثم اجتمعت به بعد ذلك بغرناطة، فذكرته باجتماعه فى منية الزبير، فتنهّد و فكر ساعة و قال: اكتبوا عنى، فكتبنا: [الطويل]

سقى اللّه بستان الزّبير، و دام فى ذراه مسيل النّهر ما غنّت الورق

فكائن لنا من نعمة فى جنابه كبزّته الخضراء طالعها طلق

هو الموضع الزّاهى على كلّ موضع أما ظلّه ضاف أما ماؤه دفق

أهيم به فى حالة القرب و النّوى و حقّ له منّى التّذكّر و العشق

و من ذلك النّهر الخفوق فؤاده بقلبى ما غيّبت عن وجهه خفق

قال: فقلت له: جمع اللّه بينك و بينه على الحالة التى تشتهى، قال: ذلك لك، قلت:

و كيف ذلك؟ قال: تدفع لى هذا السيف الذى تقلدت به أتزوّد به إليه، و أنفق الباقى فيه على ما تعلم، قال: فقلت له: هذا السيف شرّفنى به السلطان أبو زكرياء بن غانية، ما لعطائه سبيل، و لكن أعطيك قيمته، فخرج و أتى بشخص يعرف قيمة السيوف، فقدّره و جعل يقول: إنه سيف السلطان ابن غانية، ليعظم قدره فى عينه فيزيد فى قيمته، ثم قبض ما قدّر به، و أنشد ارتجالا:

[الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۶

أطال اللّه عمر فتى سعيد و بقّاه و رقّته السّعود

غدا لى جوده سببا لعودى إلى وطنى فها أنا ذا أعود

و ألثم كفّه شكرا و يتلو طريقى آى نعماه النّشيد

حبانى من ذخائره بسيف به لم يبق للأحزان جيد

و القصر الفارسى من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة، و قد ذكره الوزير أبو الوليد بن زيدون فى قصيد ضمنه من منتزهات قرطبة ما تقف عليه، و كان قد فرّ من قرطبة أيام بنى جهور، فحضره فى فراره عيد ذكّره بأعياد وطنه و معاهده الأنسية مع ولّادة التى كان يهواها و يتغزل فيها، فقال: [الطويل]

خليلىّ لا فطر يسرّ و لا أضحى فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

و ستأتى هذه القصيدة فى هذا الباب، كما ستأتى قصيدة أبى القاسم بن هشام القرطبى التى أولها:

يا هبّة باكرت من نحو دارين و فيها كثير من منتزهات قرطبة.

قال ابن سعيد: كان والدى كثيرا ما يأمرنى بقراءتها عليه، و يقول: و اللّه لقد أنبأت عن فضل لهذا الرجل، قال: و كان أبو يحيى الحضرمى يحفظها، و يزين بها مجالسه، و يحلف أن لا ينشدها بمحضر جاهل لا يفهم أو حاسد لا ينصف فى الاهتزاز لها، و إنه لجدير بذلك، و إنها لمن كنوز الأدب.

ثم قال: و المرج النّضير المذكور بها هو مرج الخزّ، أخبرنى والدى أنه حضر فى زمان الصّبا بهذا المرج على راحة، و معه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبى جعفر الوقّشىّ و المسنّ بن دويدة المشهور بخفة الروح، قال: فسبحت أمامنا إوز، و جعلت تمرح و تنثر ما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷

عليها من الماء فوق المرج، و المرج قد أحدق به الوادى، و الشمس قد مالت عليه للغروب، فقال لى أبو الحسين: باللّه صف يومنا و حسن هذا المنظر، فقلت: لا أصفه أو تصفه أنت، فقال: و لك منى ذلك، فأفكر كل منا على انفراد بعد ما ذكرنا ما نصف نثرا، فقال: أبو الحسين الوقّشىّ: [البسيط]

للّه يوم بمرج الخزّ طاب لنا فيه النّعيم بحيث الرّوض و النّهر

و للإوزّ على أرجائه لعب إذا جرت بدّدت ما بيننا الدّرر

و الشّمس تجنح نحو البين مائلة كأنّ عاشقها فى الغرب ينتظر

و الكأس جائلة باللّبّ حائرة و كلّنا غفلات الدّهر نبتدر

قال: فقلت: [الطويل]

ألا حبّذا يوم ظفرنا بطيبه بأكناف مرج الخزّ و النّهر يبسم

و قد مرحت فيه الإوزّ، و أرسلت على سندس درّا به يتنظّم

و مدّ به للشّمس فهو كأنّه لثام لها ملقى من النّور معصم

أدرنا عليه أكؤسا بعثت به من الأنس ميتا عاد و هو يكلّم

غدونا إليه صامتين سكينة فرحنا و كلّ بالهوى يترنّم

فأظهر كل منا لصاحبه استحسان ما قال تنشيطا و تتميما للمسرة، ثم قلنا للمسنّ:

ما عندك أنت تعارض به هاتين القطعتين؟ قال: بهذا، و رفع رجله و حبق حبقة فرقعت منها أرجاؤه، فقال له أبو الحسين: ما هذا يا شيخ السوء؟ فقال: الطلاق يلزمه إن لم تكن أوزن من شعركما، و أطيب رائحة، و أغنّ صوتا، و أطرب معنى، فضحكنا منه أشد ضحك، و جعلنا نهتزّ غاية الاهتزاز لموقع نادرته، فقال: و الدليل على ذلك أنكم طربتم لما جئت به أكثر مما طربتم من شعركم.

ثم قال ابن سعيد: و من منتزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق، مقصود للفرجة، يسرح فيه البصر، و تبتهج فيه النفس، أخبرنى والدى عن أخيه أبى جعفر بن عبد الملك بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸

سعيد قال: خرجت مع الشريف الأصمّ القرطبى إلى بسيط الجزيرة الخضراء- و قد تدبج بالنوار - فلما حركنا حسن المكان، و تشوقنا إلى الأركان، قال الشريف: لقد ذكرنى هذا البسيط بسيط فحص السرادق، فقلت له: فهل ثار فى خاطركم نظم فيه؟ قال: نعم، ثم أنشد: [الطويل]

ألا فدعوا ذكر العذيب و بارق و لا تسأموا من ذكر فحص السّرادق

مجرّ ذيول السّكر من كلّ مترف و مجرى الكؤوس المترعات السّوابق

قصرت عليه اللّحظ ما دمت حاضرا و فكرى فى غيب لمرآه شائقى

أيا طيب أيّام تقضّت بروضة على لمح غدران و شمّ حدائق

إذا غرّدت فيها حمائم دوحها تخيّلتها الكتّاب بين المهارق

و ما باختيار الطّرف فارقت حسنها و لكن بكيد من زمان منافق

قال أبو جعفر: فلما سمعت هذا الشعر لم أتمالك من الاستعبار، و حركنى ذلك إلى أن قلت فى حوز مؤمل سيد منتزهات غرناطة، و لم يذكر هنا ما قاله فيه، و ذكره فى موضع آخر لم يحضرنى الآن حتى أورده هنا، و اللّه أعلم.

و من منتزهات قرطبة السّدّ، قال ابن سعيد: أخبرنى والدى أن الشاعر المبرز أبا شهاب المالقى أنشده لنفسه واصفا يوم راحة بهذا السّد: [الطويل]

و يوم لنا بالسّدّ لو ردّ عيشه بعيشة أيّام الزّمان رددناه

بكرنا له و الشّمس فى خدر شرقها إلى أن أجابت، إذ دعا الغرب، دعواه

قطعناه شدوا و اغتباقا و نشوة و رجع حديث لو رقى الميت أحياه

على مثله من منزه تبتغى المنى فللّه ما أحلى و أبدع مرآه

شدتنا به الأرحا و ألقت نثارها علينا فأصغينا له و قبلناه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹

لئن بان؛ إنّا بالأنين لفقده و بالدّمع فى إثر الفراق حكيناه

و أنشدنى والدى موشحة لأبى الحسن المرينى معاصره و صاحبه يذكر فيها هذا السّدّ، و هى:

مطلع

فى نغمة العود و السّلافه و الرّوض و النّهر و النّديم

أطال من لا منى خلافه فظلّ فى نصحه مليم

دور

دعنى على منهج التّصابى ما قام لى العذر بالشّباب

و لا تطل فى المنى عتابى فلست أصغى إلى عتاب

لا ترج ردّى إلى صواب و الكأس تفتر عن حباب

و الغصن يبدى لنا انعطافه إذا هفا فوقه النّسيم

و الرّوض أهدى لنا قطافه و اختال فى برده الرقيم

دور

يا حبّذا عهدى القديم و من به همت مسعدى

ريم عن الوصل لا يريم مولّع بالتّودّد

ما تمّ إلّا به النّعيم طوعا على رغم حسّدى

معتدل القدّ ذو نحافه أسقمنى طرفه السّقيم

و رام طرفى به انتصافه فخدّ فى خدّه الكليم

دور

غضّ الصّبا عاطر المقبّل أحلى من الأمن و الأمل

ظامى الحشا مفعم المخلخل حلو اللّمى ساحر المقل

لكلّ من رامه توصّل لم يخش ردّا بما فعل

أشكو فيبدى لى اعترافه إن حاد عن نهجه القويم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰

لا أعدم الدّهر فيه رافه فحقّ لى فيه أن أهيم

دور

للّه عصر لنا تقضّى بالسّدّ و المنبر البهيج

أرى ادّكارى إليه فرضا و شوقه دائما يهيج

فكم خلعنا عليه غمضا و للصّبا مسرح أريج

ورد أطال المنى ارتشافه حتّى انقضى شربه الكريم

للّه ما أسرع انحرافه و هكذا الدّهر لا يديم

دور

يا من يحثّ المطىّ غربا عرّج على حضرة الملوك

و انثر بها إن سفحت غربا من مدمع عاطل سلوك

و اسمع إلى من أقام صبّا و احكك صداه لا فضّ فوك

بلّغ سلامى قصر الرّصافه و ذكّره عهدى القديم

و حىّ عنّى دار الخلافه وقف بها وقفة الغريم

قال ابن سعيد: و المنبر المذكور فى هذه الموشحة من منتزهات قرطبة، و السّدّ هو الأرحا التى ذكرها فى زجله قاسم بن عبّود الرياحى، رويته عن والدى عن قائله، و هو:

مطلع

بالله أين نصيب من ليس لى فيه نصيب

محبوبا مخالف و معو رقيب

دور

حين نقصد مكانو يقوم فى المقام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱

و يبخل علينا بردّ السّلام

أدخلت يا قلبى روحك فى زحام

سلامتك عندى هى شيء عجيب

و كيف بالله يسلم من هو فى لهيب

دور

بالله يا حبيبى أترك ذا النّفار

و اعمد أن نطيب فى هذا النّهار

و اخرج معى للوادى لشرب العقار

نتمّم نهارنا فى لذّة و طيب

فى الأرحا و إلّا فى المرج الخصيب

دور

أو عند النواعير و الروض الشريق

أو قصر الرصافة أو وادى العقيق

رحيق و اللّه دونك هو عندى الحريق

و فى حبّك أمسيت فى أهلى غريب

و ما الموت عندى إلّا حين تغيب

دور

اتّكل على اللّه و كن قط جسور

و إن رإيت فضولى فقل أى تمور

كمش عنىّ وجهك فإن رآك نفور

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۲

يهرب عنّك خائف و يبقى مريب

و امش أنت موقر كأنك خطيب

دور

ما أعجب حديثى إيش هذا الجنون

نطلب و ندبّر أمرا لا يكون

و كم ذا نهوّن شيئا لا يهون

و إيش مقدار ما نصبر لبعد الحبيب

ربّ اجمعنى معو عاجلا قريب

[نهر قرطبة و قنطرتها و نشأتها و اسباب دثورها]

قال ابن سعيد: و أما نهر قرطبة فإنه يصغر عن عظمه عند إشبيلية، بحيث صنع عليه قنطرة من حجارة لا يتأتى مثلها فى نهر إشبيلية، و منبعه من جهة شقورة يمرّ النصف منه إلى مرسية مشرقا و النصف إلى قرطبة و إشبيلية مغربا.

و لما ذكر الرازى قرطبة قال: و نهرها الساكن فى جريه، اللين فى انصبابه، الذى تؤمن مغبة ضرره فى حمله.

و قال هذا لأنه يعظم عند إشبيلية، فإذا حان حمله فى أيام الأمطار أشفت إشبيلية على الغرق، و توقع أهلها الهلاك.

و القنطرة التى على هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس و أعجبها، أقواسها سبعة عشر قوسا، و بانيها على ما ذكره ابن حيّان و غيره السّمح بن مالك الخولانى صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه، و شيدها بنو أمية بعد ذلك و حسنوها، قال ابن حيان:

و قيل: إنه قد كانت فى هذا المكان قنطرة من بناء الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتى سنة أثّرت فيها الأزمان بمكابدة المدود حتى سقطت حناياها، و محيت أعاليها، و بقيت أرجلها و أسافلها، و عليها بنى السّمح فى سنة إحدى و مائة، انتهى.

و قال فى مناهج الفكر: إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا، بنيت زمن عمر بن

عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد اللّه الغافقى، و طولها ثمانمائة ذراع، و عرضها عشرون باعا، و ارتفاعها ستون ذراعا، و عدد حناياها ثمان عشرة حنية، و عدد أبراجها تسعة عشر برجا، انتهى.

رجع إلى قرطبة- ذكر ابن حيان و الرازى و الحجارى أن التنبان - ثانى قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدنيا و صفّح نهر رومية بالصّفر، فأرخت الروم من ذلك العهد، و كان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان و ثلاثين سنة- أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس، فبنيت فى مدته قرطبة و إشبيلية و ماردة و سرقسطة، و انفرد الحجارى بأن التنبان المذكور وجّه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها، و سماها باسمه، و أن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك، و غير الحجارى جعل أسماء هذه المدن مشتقّة مما تقتضيه أوضاعها كما مرّ، و ذكروا أنه قد تداولت على قرطبة ولاة الروم الأخيرة الذين هم بنو عيصو بن إسحاق بن إبراهيم، على نبينا و عليهم الصلاة و السلام! إلى أن انتزعها من أيديهم القوط من ولد يافث المتغلبون على الأندلس، إلى أن أخذها منهم المسلمون، و لم تكن فى الجاهلية سريرا لسلطنة الأندلس، بل كرسيّا لخاصّ مملكتها، و سعدت فى الإسلام، فصارت سريرا للسلطنة العظمى الشاملة، و قطبا للخلافة المروانية، و صارت إشبيلية و طليطلة تبعا لها، بعد ما كان الأمر بالعكس، و اللّه يفعل ما يشاء، بيده الملك و التدبير، و هو على كل شىء قدير، لا إله إلا هو العلىّ الكبير.

و قال صاحب «نشق الأزهار» عند ما تعرض لذكر قرطبة: هى مدينة مشهورة، دار خلافة، و أهلها أعيان ناس فى العلم و الفضل، و بها جامع ليس فى الإسلام مثله، انتهى.

و من الأسباب فى سلب محاسن قرطبة عيث البربر بها فى دخولهم مع سليمان المستعين الأموى حين استولى على قرطبة فى دولته التى افتتحت بالقهر و سفك الدماء، و كان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان علىّ بن حمود من بنى علىّ بن إدريس بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب- رضى اللّه عنهم أجمعين!- و جدّه إدريس هرب من هارون الرشيد إلى البربر، فتبربر ولده، و بنى ابنه إدريس مدينة فاس، و كان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم، و وقف على أن دولة بنى أمية تنقرض بالأندلس على يد علوىّ أول اسمه عين، فلما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۴

دخل سليمان مع البربر قرطبة و محوا كثيرا من محاسنها و محاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم عليّ بن حمود، و بلغ هشاما المؤيد و هو محبوس خبره و اسمه و نسبه فدسّ إليه أن الدولة صائرة إليك، و قال له: إن خاطرى يحدثنى أن هذا الرجل يقتلنى، يعنى سليمان، فإن فعل فخذ بثأرى، و كان هذا الأمر هو الذى قوّى نفس ابن حمّود على طلب الإمامة، و حمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد، فكان المؤيد أحد من أخذ بثأره بعد موته.

و تولى بعد ذلك عليّ بن حمّود، و بويع بقرطبة فى قصرها فى اليوم الذى قتل فيه سليمان المستعين، و أخذ الناس بالإرهاب و السطوة، و أذلّ رؤوس البربر، و برقت للعدل فى أيامه بارقة خلّب لم تكد تقد حتى خبت و جلس للمظالم، و قدمت له جماعة من البربر فى إجرام فضرب رقابهم، و أهلهم و عشائرهم ينظرون، و خرج يوما على باب عامر فالتقى فارسا من البربر و أمامه حمل عنب، فاستوقفه و قال له: من أين لك هذا؟ فقال: أخذته كما يأخذ الناس، فأمر بضرب عنقه، و وضع رأسه وسط الحمل، و طيف به فى البلد، و استمرّ على هذا مع أهل قرطبة فى أحسن عشرة نحو ثمانية أشهر، حتى بلغه قيام الأندلسيين بالمرتضى المروانىّ فى شرق الأندلس، فتغير عما كان عليه، و عزم على إخلاء قرطبة و إبادة أهلها، فلا يعود لأئمتهم بها سلطان آخر الدهر، و أغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله، و انتزع الإسلام من أهل قرطبة، و هدم المنازل، و استهان بالأكابر، و وضع المغارم، و قبض على جماعة من أعيانهم و ألزمهم بمال، فلما غرموه سرّحهم فلما جىء إليهم بدوابهم ليركبوها أمر من أخذ الدواب، و تركهم ينزلون إلى منازلهم على أرجلهم، و كان منهم أبو الحزم الذى ملك قرطبة بعد و صارت دولته بوراثة ولده معدودة فى دول الطوائف، فانجمعت عن عليّ النفوس، و توالى عليه الدعاء، فقتله صبيان أغمار من صقالبة بنى مروان فى الحمام، و كان قتله غرة ذى القعدة سنة ثمان و أربعمائة، و كان الصقالبة ثلاثة فهربوا و اختفوا فى أماكن يعرفونها، و صحّ عند الناس موته، ففرحوا، و كانت مدته كما مرّ نحو عامين، و حققها بعض فقال: أحد و عشرون شهرا و ستة أيام.

و كان الناصر عليّ بن حمود- على عجمته، و بعده من الفضائل- يصغى إلى الأمداح، و يثيب عليها، و يظهر فى ذلك آثار النسب العربىّ و الكرم الهاشمىّ، و من شعرائه المختصّين به ابن الحناط القرطبى، و من شعره قوله: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵

راحت تذكّر بالنّسيم الرّاحا و طفاء تكسر للجنوح جناحا

أخفى مسالكها الظلام فأوقدت من برقها كى تهتدى مصباحا

و عبادة بن ماء السماء، و كان معروفا بالتشيّع، و فيه يقول من قصيدة: [الطويل]

أبوكم عليّ كان بالشّرق بدء ما ورثتم، و ذا بالغرب أيضا سميّه

فصلّوا عليه أجمعون و سلّموا له الأمر إذ ولّاه فيكم وليّه

و مدحه ابن درّاج القسطلّىّ بقوله: [المتقارب]

لعلّك يا شمس عند الأصيل شجيت لشجو الغريب الذّليل

فكونى شفيعى لابن الشّفيع و كونى رسولى لابن الرّسول

و كان أخوه القاسم بن حمود أكبر منه بعشر سنين، و أمّهما واحدة، و هى علوية، و لما قتل الناصر كان القاسم واليا على إشبيلية، و كان يحيى بن علىّ واليا على سبتة، فاختلف هؤلاء البربر، فمال أكثرهم إلى القاسم لكونه غبن أوّلا، و قدّم عليه أخوه الأصغر، و كونه قريبا من قرطبة، و بينهم و بين يحيى البحر، فلما وصلت رسلهم إلى القاسم لم يظهر فرحا بالإمامة، و خاف أن تكون حيلة من أخيه عليه، فتقهقر إلى أن اتّضح له الحقّ، فركب إلى قرطبة، و بويع فيها بعد ستة أيام من قتل أخيه، و أحسن السيرة، و أحسّ من البربر الميل إلى يحيى ابن أخيه علىّ صاحب سبتة، فتهالك فى اقتناء السودان، و ابتاع منهم كثيرا، و قوّدهم على أعماله، فأنفت البرابر من

ذلك، و انحرفوا عنه.

و فى سنة تسع و أربعمائة قام عليه بشرق الأندلس المرتضى عبد الرحمن بن أعقاب الناصر، لأن أهل الأندلس صعب عليهم ملك بنى حمّود العلويين بسبب البرابر، فأرادوا رجوع الإمامة إلى بنى مروان، و اجتمع له أكثر ملوك الطوائف، و كان معه حين أقبل لقرطبة منذر التجيبىّ صاحب سرقسطة و خيران العامرى الصّقلبى صاحب المرية، و انضاف إليهم جمع من الفرنج، و تأهب القاسم و البرابرة للقائهم، فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نية منذر و خيران على المرتضى، و قالا: أرانا فى الأوّل وجها ليس بالوجه الذى نراه حين اجتمع إليه الجمّ الغفير، و هذا ماكر غير صافى النية، فكتب خيران إلى ابن زيرى الصّنهاجى المتغلب على غرناطة- و هو داهية البربر- و ضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶

قرطبة خذّل عن نصرته الموالى العامريين أعداء المروانيين و أصحاب رياسة الثغور، فأصغى ابن زيرى إلى ذلك، و كتب المرتضى إلى ابن زيرى يدعوه لطاعته، فقلب الكتاب، و كتب فى ظهره قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (۱) [الكافرون: ۱]. فأرسل إليه كتابا ثانيا يقول فيه: قد جئتك بجميع أبطال الأندلس و بالفرنج، فماذا تصنع؟ و ختم الكتاب بهذا البيت: [البسيط]

إن كنت منّا أبشر بخير أو لا فأيقن بكلّ شرّ

فأمر الكتاب أن يحوّل الكتاب و يكتب فى ظهره أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (۱) [التكاثر: ۱] السورة. فازداد حنقه، و حمله الغيظ إلى أن ترك السير إلى حضرة الإمامة قرطبة، و عدل إلى محاربته، و هو يرى أن يصطلمه فى ساعة من نهار، و دامت الحرب أياما، و أرسل ابن زيرى إلى خيران يستنجزه وعده، فأجابه: إنما توقفت حتى ترى مقدار حربنا و صبرنا، و لو كنا ببواطننا معك، فأثبت جمعك لنا، و نحن ننهزم عنه و نخذله فى غد.

و لما كان من الغد رأى أعلام خيران و أعلام منذر و أصحاب الثغور قد ولّت عنه، فسقط فى يد المرتضى، و ثبت حتى كادوا يأخذونه. و استحرّ القتل، و صرع كثير من أصحابه، فلما خاف القبض عليه ولّى، فوضع عليه خيران عيونا فلحقوه بقرب وادى آش و قد جاوز بلاد البربر و أمن على نفسه، فهجموا عليه، فقتلوه و جاؤوا برأسه إلى المريّة، و قد حلّ بها خيران و منذر، فتحدث الناس أنهما اصطبحا عليه سرورا بهلاكه.

و بعد هذه الواقعة أذعن أهل الأندلس للبرابرة، و لم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به إليهم، و ضرب القاسم بن حمود سرادق المرتضى على نهر قرطبة، و غشية خلق من النظارة و قلوبهم تتقطع حسرات، و أنشد عباد بن ماء السماء قصيدته التى أولها: [الطويل]

لك الخير خيران مضى لسبيله و أصبح أمر اللّه فى ابن رسوله

و تمكنت أمور القاسم، و ولّى و عزل، و قال و فعل، إلى أن كشف وجهه فى خلع طاعته ابن أخيه يحيى بن علىّ، و كتب من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: إنّ عمى أخذ ميراثى من أبى، ثم إنه قدّم فى ولاياتكم التى أخذتموها بسيوفكم العبيد و السودان، و أنا أطلب ميراثى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷

و أوليكم مناصبكم، و أجعل العبيد و السودان كما هم عند الناس، فأجابوه إلى ذلك، فجمع ما عنده من المراكب و أعانه أخوه إدريس صاحب مالقة، فجاز البحر بجمع وافر، و حصل بمالقة مع أخيه، و كتب له خيران صاحب المريّة مذكرا بما أسلفه فى إعانة أبيه، و أكد المودة فقال له أخوه إدريس: إن خيران رجل خداع، فقال يحيى: و نحن منخدعون فيما لا يضرنا، ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة واثقا بأن البرابر معه، ففرّ القاسم إلى إشبيلية فى خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت ۲۸ من شهر ربيع الآخر سنة ۴۱۳، و حلّ يحيى بقرطبة، فبايعه البرابر و السودان و أهل البلد يوم السبت مستهلّ جمادى الآخرة، و كان يحيى من النجباء، و أمه فاطمية، و إنما كانت آفته العجب و اصطناع السّفلة، و اشتطّ أكابر البرابر عليه، و طلبوا ما وعدهم من إسقاط مراتب السودان، فبذل لهم ذلك، فلم

يقنعوا منه، و صاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة و يفرغ بيت المال، و فرّ السودان إلى عمه بإشبيلية، و من البرابر و من جند الأندلس من احتجب عنهم يحيى و تكبر عليهم، و لم يمل إليه ملوك الطوائف، و بقى منهم كثير على الخطبة لعمه القاسم، إلى أن اختلّت الحال بحضرة قرطبة، و أيقن يحيى أنه متى أقام بها قبض عليه، و كان قد ولّى على سبتة أخاه إدريس، و بلغه أن أهل مالقة خاطبوا خيران و كاتبوه، فطمع خيران فيها، و فرّ يحيى فى خواصه تحت الليل إلى مالقة، و لما بلغ القاسم فراره ركب من إشبيلية إلى قرطبة، فخطب له بها يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة ۴۱۳، و لم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة، و وقع الاختلاف، و كان هوى السودان معه، و هوى كثير من البرابر مع يحيى، و هوى أهل قرطبة مع قائم من بنى أمية يشيعون ذكره و لا يظهر، و كثر الإرجاف بذلك، و وقع الطلب على بنى أمية فتفرقوا فى البلاد، و دخلوا فى أغمار الناس، و أخفوا زيّهم، ثم إن الخلاف وقع بين البربر و أهل قرطبة، و تكاثر البلديّون، و أخرجوا القاسم و برابرته فضرب خيمة بغربيها، و قاتلهم مدّة خمسين يوما قتالا شديدا، و بنى القرطبيون أبواب مدينتهم، و قاتلوا القاسم من الأسوار إلى أن طال عليهم الحصار، فهدموا بابا من الأبواب و خرجوا خرجة رجل واحد، و صبروا، فمنحهم اللّه تعالى الظفر، و فر السودان مع القاسم إلى إشبيلية، و فر البرابرة إلى يحيى و هو بمالقة، و كان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتى عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ۴۱۴.

و كان ابنه محمد بن القاسم واليا على إشبيلية، و ثقته المدبر لأمره محمد بن زيرى من أكابر البرابرة، و قاضيها محمد بن عباد، فعمل القاضى لنفسه، و هو جدّ المعتمد بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸

عباد، و أطمع ابن زيرى فى التملك، فأغلق الأبواب فى وجه مصطنعه و حاربه، فقتل من البرابر و السودان خلق كثير، و ابن عباد يضحك على الجميع، فيئس القاسم، و قنع أن يخرجوا إليه ابنه و أصحابه و يسير عنهم، فأخرجوهم إليه، فسار بهم إلى شريش. و عند ما استقر بها وصل إليه يحيى ابن أخيه من مالقة و معه جمع عظيم و حاصره فى المدينة عشرين يوما كانت فيها حروب صعاب، و قتل من الفريقين خلق كثير، و أجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه و إسلام أهل شريش له، و فر سودانه، و حصل القاسم و ابنه فى يد يحيى، و كان قد أقسم أنه إن حصل فى يده ليقتلنه، و لا يتركه حتى يلى الإمامة بقرطبة مرة ثالثة، فرأى التربّص فى قتله حتى يرى رأيه فيه، فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله بقيد إلى مالقة، و حبسه عنده، و كان كلما سكر و أراد قتله رغّبه ندماؤه فى الإبقاء عليه لأنه لا قدرة له على الخلاص، و كان كلما نام رأى والده عليا فى النوم ينهاه عن قتله، و يقول له: أخى أكبر منى، و كان محسنا إلى فى صغرى و مسلما إلىّ عند إمارتى، اللّه اللّه فيه، و امتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقا بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه، لأنه قد كان حبسه فى حصن من حصون مالقه، فنمى إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن فى القيام و العصيان فقال: أو بقى فى رأسه حديث بعد هذا العمر؟ فقتله سنة ۴۲۷، و بقى أهل قرطبة بعد فرار القاسم عنها نيفا عن عشرين يرون رأيهم فيمن يبايعونه بالإمامة.

و لما كان يوم الثلاثاء نصف شهر رمضان سنة ۴۱۴ أحضر المستظهر و سليمان بن المرتضى و أموى آخر معه، فبايعا المستظهر، و قبّلا يده بعد ما كان قد كتب عقد البيعة باسم سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الأماثل، فبشر اسمه، و كتب اسم المستظهر و ركب إلى القصر، و حمل معه ابنى عمه المذكورين فحبسهما، و كان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب، كأبى عامر بن شهيد المنهمك فى بطالته، و أبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء فى مقالته، و ابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف فى حالته، فأحقد بذلك مشايخ الوزراء و الأكابر، و بادر المستظهر باصطناع البرابر، و أكرم مثواهم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹

و أحسن مأواهم، و اشتغل مع ابن شهيد و ابن حزم بالمباحثة فى الآداب، و نظم الشعر، و التمسك بتلك الأهداب، و الناس فى ذلك الوقت أجهل ما يكون، و كان جماعة من أهل الشرّ فى السجون يتعين أن لا يخرج منهم إنسان، فأخرج منهم شخصا يقال له أبو عمران، و قد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم إخراجه، فأخرجه و خالفه فى ذلك، و لم يقبل النصيحة، و فعل ما أداه إلى الفضيحة،

فسعى القوم الذين خرجوا من الحبوس على إفساد دولته و إبدال فرحه بالبؤس، لما اشتغل عنهم بالأدباء و الشعراء حسبما اقتضاه رأيه المعكوس، فسعوا فى خلعه مع البرابر، و قتل فى ذى القعدة من السنة التى بويع فيها، و صار كأمس الدابر، بعد سبعة و أربعين يوما من يوم بويع بالخلافة، و إذا أراد اللّه أمرا فلا يقدر أحد أن يأتى خلافه، و عمره ثلاث و عشرون سنة كأنها سنة.

و من شعر المستظهر المذكور، و هو من القريض الممدوح صاحبه بالبلاغة المشكور:

[مجزوء الرمل]

طال عمر اللّيل عندى مذ تولّعت بصدّى

يا غزالا نقض العه د و لم يوف بوعد

أنسيت العهد إذ بت نا على مفرش ورد

و اعتنقنا فى و شاح و انتظمنا نظم عقد

و نجوم اللّيل تسرى ذهبا فى لازورد

و كتب إليه شاعر فى طرس مكشوط: [الكامل]

الطّرس مبشور و فيه بشارة ببقا الإمام الفاضل المستظهر

ملك أعاد العيش غضّا ملكه و كذا يكون به طوال الأعصر

فأجزل صلته، و كتب فى ظهر الورقة: [الوافر]

قبلنا العذر فى بشر الكتاب لما أحكمت فى فصل الخطاب

و قد قدمنا فى الباب الثالث شيئا من هذه الأخبار، و ما حصل بعد ذلك بقرطبة إلى أن تولى الأمر ابن جهور فى صورة الوزارة، ثم ابنه، إلى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد، حسبما ذكر فى أخباره.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰

ثم آل الأمر بعد ذلك كله إلى استيلاء ملوك العدوة من الملثمين و الموحّدين، على قرطبة، إلى أن تسلمها النصارى، أعادها اللّه تعالى للإسلام! كما يذكر فى الباب الثامن.

و قال صاحب «مناهج الفكر» فى ذكر قرطبة، ما ملخصه: فأما ما اشتمل عليه غرب الجزيرة، من البلاد الخطيرة، فمنها قرطبة، و كانت مقر الملك، و دار الإمارة، و أمّ ما عداها من البلاد، منذ افتتحها المسلمون سنة ۹۲ زمن الوليد بن عبد الملك إلى أن خرجت عن أيديهم، و تنقلت فى أيدى ملوك المسلمين إلى أن وصلت إلى الناصر عبد الرحمن، فبنى فى تجاهها مدينة سماها الزهراء، يجرى بينهما نهر عظيم، انتهى.

[وصف المبانى العظيمة]

و اعلم أن المبانى دالة على عظيم قدر بانيها، كما ذكرناه فى كلام الناصر الذى طابت له من الزهراء مجانيها، و لم يزل البلغاء يصفون المبانى، بأحسن الألفاظ و المعانى، و رأينا أن نذكر هنا بعض ذلك، زيادة فى توسيع المسالك، فمن ذلك قول ابن حمديس الصقلى يصف دارا بناها المعتمد على اللّه: [الطويل]

و يا حبّذا دار قضى اللّه أنّها يجدّد فيها كلّ عزّ و لا يبلى

مقدّسة لو أن موسى كليمه مشى قدما فى أرضها خلع النّعلا

و ما هى إلّا خطّة الملك الّذى يحطّ إليه كلّ ذى أمل رحلا

إذا فتحت أبوابها خلت أنّها تقول بترحيب لداخلها أهلا

و قد نقلت صنّاعها من صفاته إليها أفانينا فأحسنت النّقلا

فمن صدره رحبا و من نوره سنى و من صيته فرعا و من حلمه أصلا

فأعلت به فى رتبة الملك ناديا و قلّ له فوق السّماكين أن يعلى

نسيت به إيوان كسرى لأنّنى أراه له مولى من الحسن لا مثلا

كأنّ سليمان بن داود لم تبح مخافته للجنّ فى صنعه مهلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۱

ترى الشّمس فيه ليقة تستمدها أكفّ أقامت من تصاويرها شكلا

لها حركات أودعت فى سكونها فما تبعت فى نقلهنّ يد رجلا

و لمّا عشينا من توقد نورها تخذنا سناه فى نواظرنا كحلا

و قال من أخرى يصف دارا بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية: [الكامل]

اعمر بقصر الملك ناديك الّذى أضحى بمجدك بيته معمورا

قصر لو أنّك قد كحلت بنوره أعمى لعاد إلى المقام بصيرا

و اشتقّ من معنى الجنان نسيمه فيكاد يحدث بالعظام نشورا

نسى الصبيح مع المليح بذكره و سما ففاق خورنقا و سديرا

لو أنّ بالإيوان قوبل حسنه ما كان شيئا عنده مذكورا

أعيت مصانعه على الفرس الألى رفعوا البناء و أحكموا التّدبيرا

و مضت على الرّوم الدّهور و ما بنوا لملوكهم شبها له و نظيرا

أذكرتنا الفردوس حين أريتنا غرفا رفعت بناءها و قصورا

فالمحسنون تزيّدوا أعمالهم و رجوا بذلك جنّة و حريرا

و المذنبون هدوا الصّراط و كفّرت حسناتهم لذنوبهم تكفيرا

فلك من الأفلاك إلّا أنّه حقر البدور فأطلع المنصورا

أبصرته فرأيت أبدع منظر ثمّ انثنيت بناظرى محسورا

فظننت أنى حالم فى جنّة لمّا رأيت الملك فيه كبيرا

و إذا الولائد فتّحت أبوابه جعلت ترحّب بالعفاة صريرا

عضّت على حلقاتهنّ ضراغم فغرت بها أفواهها تكسيرا

فكأنّها لبدت لتهصر عندها من لم يكن بدخولها مأمورا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲

تجرى الخواطر مطلقات أعنّة فيه فتكبو عن مداه قصورا

بمرخّم الساحات تحسب أنه فرش المها و توشّح الكافورا

و محصّب بالدّرّ تحسب تربه مسكا تضوّع نشره و عبيرا

تستخلف الأبصار منه إذا أتى صبحا على غسق الظّلام منيرا

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب و فضة ترمى فروعها المياه، و تفنن فذكر أسودا على حافاتها قاذفة بالمياه أيضا، فقال: [الكامل]

و ضراغم سكنت عرين رياسة تركت خرير الماء فيه زئيرا

فكأنّما غشّى النّضار جسومها و أذاب فى أفواهها البلّورا

أسد كأنّ سكونها متحرّك فى النّفس لو وجدت هناك مثيرا

و تذكّرت فتكاتها فكأنّما أقعت على أدبارها لتثورا

و تخالها و الشّمس تجلو لونها نارا و ألسنها اللواحس نورا

فكأنّما سلّت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا

و كأنّما نسج النّسيم لمائه درعا فقدّر سردها تقديرا

و بديعة الثّمرات تعبر نحوها عيناى بحر عجائب مسجورا

شجريّة ذهبيّة نزعت إلى سحر يؤثّر فى النّهى تأثيرا

قد صولجت أغصانها فكأنّما قنصت بهنّ من الفضاء طيورا

و كأنّما تأبى لوقّع طيرها أن تستقلّ بنهضها و تطيرا

من كلّ واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا

خرس تعدّ من الفصاح فإن شدت جعلت تغرّد بالمياه صفيرا

و كأنّما فى كلّ غصن فضّة لانت فأرسل خيطها مجرورا

و تريك فى الصّهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا

ضحكت محاسنه إليك كأنّما جعلت لها زهر النّجوم ثغورا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۳۲

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳

و مصفّح الأبواب تبرا نظّروا بالنّقش فوق شكوله تنظيرا

تبدو مسامير النّضار كما علت تلك النّهود من الحسان صدورا

خلعت عليه غلائلا و رسيّة شمس تردّ الطّرف عنه حسيرا

و إذا نظرت إلى غرائب سقفه أبصرت روضا فى السّماء نضيرا

و عجبت من خطّاف عسجده الّتى حامت لتبنى فى ذراه و كورا

و ضعت به صنّاعها أقلامها فأرتك كلّ طريدة تصويرا

و كأنّما للشّمس فيه ليقة مشقوا بها التّزويق و التّشجيرا

و كأنّما باللّازورد مخرّم بالخطّ فى ورق السّماء سطورا

و كأنّما وشوا عليه ملاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا

ثم مدح المنصور بعد ذلك، و ختم القصيدة بقوله:

يا مالك الأرض الّذى أضحى له ملك السّماء على العداة نصيرا

كم من قصور للملوك تقدّمت و استوجبت بقصورك التأخيرا

فعمرتها و ملكت كلّ رياسة منها و دمّرت العدا تدميرا

قلت: لم أر لهذه القصيدة من نظير، فى معناها اليانع النضير، و لفظها العذب النّمير، الذى شمّر فيه قائلها عن ساعد الإجادة أىّ تشمير، غير أن فيها عندى عيبا واحدا، و هو ختمها بلفظ التدمير، و على كل حال فالحسن و الإحسان، يقادان فى أرسان، لعبد الجبار بن

حمديس المذكور ذى المقاصد الحسان، و خصوصا فى وصف المبانى و البرك، فما أبقى لسواه فى ذلك حسنا و لا ترك.

و من ذلك قوله فى وصف بركة تجرى إليها المياه من شاذروان من أفواه طيور و زرافات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴

و أسود، و كل ذلك فى قصر أطنب فى وصفه فى قصيدة طويلة: [الكامل]

و الماء منه سبائك من فضّة ذابت على دوحات شاذروان

و كأنّما سيف هناك مشطّب ألقته يوم الحرب كفّ جبان

كم شاخص فيه يطيل تعجّبا من دوحة نبتت من العقيان

عجبا لها تسقى الرّياض ينابعا نبعت من الثّمرات و الأغصان

خصّت بطائرة على فنن لها حسنت فأفرد حسنها من ثانى

قسّ الطّيور الخاشعات بلاغة و فصاحة من منطق و بيان

فإذا أتيح لها الكلام تكلّمت بخرير ماء دائم الهملان

و كأنّ صانعها استبدّ بصنعة فخر الجماد بها على الحيوان

أوفت على حوض لها فكأنّها منها على العجب العجاب روانى

فكأنّها ظنّت حلاوة مائها شهدا فذاقته بكلّ لسان

و زرافة فى الجوف فى أنبوبها ماء يريك الجرى فى الطّيران

مركوزة كالرّمح حيث ترى له من طعنه الخلق انعطاف سنان

و كأنّما ترمى السّماء ببندق مستنبط من لؤلؤ و جمان

لو عاد ذاك الماء نفطا أحرقت فى الجوّ منه قميص كلّ عنان

فى بركة قامت على حافاتها أسد تذلّ لعزّة السّلطان

نزعت إلى ظلم النّفوس نفوسها فلذلك انتزعت من الأبدان

و كأنّ برد الماء منها مطفئ نارا مضرّمة من العدوان

و كأنّما الحيّات من أفواهها يطرحن أنفسهنّ فى الغدران

و كأنّما الحيتان إذ لم تخشها أخذت من المنصور عقد أمان

و هاتان القصيدتان لابن حمديس كما فى المناهج مع طولهما تدلان على الإيداع الذى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵

ابتكره، و الاختراع الذى ما ولج سمع أحد من الفضلاء إلا شكره [لما أسكره].

و قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى يصف قصرا بمصر يسمى «منزل العز» بناه حسن بن على بن تميم بن المعز العبيدى: [الكامل]

منزل العزّ كاسمه معناه لا عدا العزّ من به سمّاه

منزل ودت المنازل فى أعل ى ذراه لو صيّرت إيّاه

فأجل فيه لحظ عينيك تبصر أىّ حسن دون القصور حواه

سال فى سقفه النّضار و لكن جمدت فى قراره الأمواه

و بأرجائه مجال طراد ليس تنفكّ من وغى خيلاه

تبصر الفارس المدجّج فيه ليس تدمى من الطّعان قناه

و ترى النابل المواصل للنّزع بعيدا من قرنه مرماه

و صفوفا من الوحوش و طير ال جوّ كلّ مستحسن مرآه

سكنات تخالها حركات و اختلاف كأنّه إشباه

كمحيّا الحبيب حرفا بحرف ما تعدّى صفاته إذ حكاه

ورده و جنتاه، نرجسه الفتّ ان عيناه، آسه عارضاه

و كأنّ الكافور و المسك فى الطّى ب و فى اللّون صبحه و مساه

منظر يبعث السرور و مرأى يذكر المرء طيب عصر صباه

و قال أبو الصلت أميّة الأندلسى المذكور يذكر بناء بناه على بن تميم بن المعز العبيدى: [الكامل]

للّه مجلسك المنيف قبابه بموطّد فوق السّماك مؤسّس

موف على حبك المجرّة تلتقى فيه الجوارى بالجوارى الكنّس

تتقابل الأنوار من جنباته فاللّيل فيه كالنّهار المشمس

عطفت حناياه دوين سمائه عطف الأهلّة و الحواجب و القسى

و استشرفت عمد الرّخام و ظوهرت بأجلّ من زهر الرّبيع و أنفس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶

فهواؤه من كلّ قدّ أهيف و قراره من كل خدّ أملس

فلك تحيّر فيه كلّ منجّم و أقرّ بالتّقصير كلّ مهندس

فبدا للحظ العين أحسن منظر و غدا لطيب العيش طيب معرّس

فاطلع به قمرا إذا ما أطلعت شمس الخدور عليك شمس الأكؤس

فالنّاس أجمع دون قدرك رتبة و الأرض أجمع دون هذا المجلس

و يعجبنى قول أبى الصلت أميّة المذكور يصف حال زيادة النيل و نقصانه: [الطويل]

و للّه مجرى النّيل منها إذا الصّبا أرتنا به من مرّها عسكرا مجرا

إذا زاد يحكى الورد لونا و إن صفا حكى ماؤه لونا و لم يحكه مرّا

و قال رحمه اللّه تعالى يصف الرصد الذى بظاهر مصر: [البسيط]

يا نزهة الرّصد التى قد اشتملت من كلّ شىء حلا فى جانب الوادى

فذا غدير، و ذا روض، و ذا جبل و الضّبّ و النّون و الملّاح و الحادى

و هو مأخوذ من قول الأول يصف قصر أنس بالبصرة: [البسيط]

زر وادى القصر، نعم القصر و الوادى لا بدّ من زورة من غير ميعاد

زره فليس له ندّ يشاكله من منزل حاضر إن شئت أو بادى

تلقى به السّفن و الظّلمان حاضرة و الضّبّ و النّون و الملّاح و الحادى

و قال رحمه اللّه تعالى يذكر الهرمين: [الطويل]

بعيشك هل أبصرت أحسن منظرا على طول ما عاينت من هرمى مصر

أنافا بأكناف السّماء، و أشرفا على الجوّ إشراف السّماك على النّسر

و قد وافيا نشزا من الأرض عاليا كأنّهما نهدان قاما على صدر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷

و ستأتى ترجمته إن شاء اللّه تعالى فى الباب الخامس.

[من وصف الأنهار و البرک و وصف الديار الدائرة]

و على ذكر الأنهار و البرک فما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوّارات: [الكامل]

غضبت مجاريها فأظهر غيظها ما فى حشاها من خفىّ مضمر

و كأنّ نبع الماء من جنباتها و العين تنظر منه أحسن منظر

قضب من البلّور أثمر فرعها لمّا انتهت باللّؤلؤ المتحدّر

و قال ابن صارة الأندلسى يصف ماء بالرقة و الصفاء [يجرى على الصفا]: [الكامل]

و النّهر قد رقّت غلالة خصره و عليه من صبغ الأصيل طراز

تترقرق الأمواج فيه كأنّها عكن الخصور تهزّها الأعجاز

و ما أحسن قول بعض الأدباء و لم يحضرنى الآن اسمه: [الكامل]

و النّهر مسكوّ غلالة فضّة فإذا جرى سيلا فثوب نضار

و إذا استقام رأيت صفحة منصل و إذا استدار رأيت عطف سوار

و قال ابن حمديس المغربى يصف نهرا بالصفا: [الطويل]

و مطّرد الأمواج يصقل متنه صبا أعلنت للعين ما فى ضميره

جريح بأطراف الحصى كلّما جرى عليها شكا أو جاعه بخريره

و هذا النهج متسع، و لم نطل السير فى هذه المهامه، و إنما ذكرنا بعض كلام المغاربة ليتنبه به منتقصهم من سنة أوهامه، و لأن فى أمرها عبرة لمن عقل، إذا أصدأ مرآة حسنها و لطالما كان لمتنها صقل.

و قد وقفت على كلام لصاحب المناهج فى هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصا، و هو:

و نلحق بذكر المنازل التى راق منظرها، و فاق مخبرها، و ارتفع بناؤها، و اتسع فناؤها، طرفا من الكلام على ما عفاه الدهر من رسومها، و محاه من محاسن صور كانت أرواحا لجسومها.

وصف أعرابى محلة قوم ارتحلوا عنها فقال نثرا: ارتحلت عنها ربّات الخدور، و أقامت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸

بها أثافىّ القدور، و لقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياح آثارهم، و ذهبت بأبدالهم و أبقت أخبارهم، و العهد قريب، و اللقاء بعيد.

و قال عمر بن أبى ربيعة فأحسن: [السريع]

يا دار أمسى دارسا رسمها وحشا قفارا ما بها آهل

قد جرّت الرّيح بها ذيلها واستنّ فى أطلالها الوابل

و من كلام الفتح بن خاقان، فى قلائد العقيان، يذكر آل عبّاد من فصل أكثر فيه التفجّع، و أطال به التوجّع: و الغصون تختال فى أدواحها، و الأزاهر يحيى ميت الصبابة شذا أرواحها، و أطيار الرياض قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها، و انقراض أترابها، و الوهى بمشيدها لاعب، و على كل جدار منها غراب ناعب، و قد محت الحوادث ضياءها، و قلصت ظلالها و أفياءها، و لطالما

أشرقت بالخلائف و ابتهجت، و فاحت من شذاهم و تأرّجت، أيام نزلوا خلالها، و تفيّؤوا ظلالها، و عمروا حدائقها و جنّاتها، و نبّهوا الآمال من سناتها، و راعوا الليوث فى آجامها، و أخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأصبحت و لها [بالتداعى] تلفّع و اعتجار، و لم يبق من آثارها إلا نؤى و أحجار، قد هوت قبابها، و هرم شبابها، و قد يلين الحديد، و يبلى على طيه الجديد.

و قال أبو صخر القرطبى يذكر ذلك من أبيات ينعاهم بها: [الطويل]

ديار عليها من بشاشة أهلها بقايا تسرّ النّفس أنسا و منظرا

ربوع كساها المزن من خلع الحيا برودا و حلّاها من النّور جوهرا

تسرّك طورا ثمّ تشجيك تارة فترتاح تأنيسا و تشجى تذكّرا

و من كلام أبى الحسن القاشانى يصف نادى رئيس خلا من ازدحام الملا و عوّضه الزمان من تواصل أحبابه هجوا وقلا:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۹

قد كان منزله مألف الأضياف، و مأنس الأشراف، و منتجع الرّكب، و مقصد الوفد، فاستبدل بالأنس وحشة، و بالضياء ظلمة، و اعتاض من تزاحم المواكب، تلاطم النّوادب، و من ضجيج النداء و الصّهيل، عجيج البكاء و العويل.

و من رسالة لابن الأثير الجزرى يصف دمنة دار لعبت بها أيدى الزمن، و فرقت بين المسكن و السكن: كانت مقاصير جنّة، فأصبحت و هى ملاعب جنّة، و قد عميت أخبار قطّانها، و آثار أوطانها، حتى شابهت إحداهما فى الخفاء، الأخرى فى العفاء، و كنت أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام، و لا يرفع عنها جلباب ظلام، غير أن السحاب بكاهم فأجرى بها هوامع دموعه، و الليل شقّ عليهم جيوبه فظهر الصباح من خلال صدوعه.

و قد لمح فى بعض كلامه قول الشريف الرضى من أبيات يصف فيها ما كان فى الحيرة من منازل النعمان بن المنذر: [الكامل]

ما زلت أطّرق المنازل باللّوى حتّى نزلت منازل النّعمان

بالحيرة البيضاء حيث تقابلت شمّ العماد عريضة الأعطان

شهدت بفضل الرّافعين قبابها و يبين بالبنيان فضل البانى

ما ينفع الماضين أن بقيت لهم خطط معمّرة بعمر فانى

يقول فيها:

و لقد رأيت بدير هند منزلا ألما من الضّرّاء و الحدثان

يغضى كمستمع الهوان تغيّبت أنصاره و خلا من الأعوان

بالى المعالم أطرقت شرفاته إطراق منجذب القرينة عانى

أ مقاصر الغزلان غيّرك البلى حتى غدوت مرابض الغزلان

و ملاعب الإنس الجميع طوى الرّدى منهم فصرت ملاعب الجنّان

و منها:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰

مسكيّة النّفحات تحسب تربها برد الخليع معطّر الأردان

و كأنّما نسى التّجار لطيمة جرت الرّياح بها على القيعان

ماء كجيب الدّرع يصقله الصّبا و يفى بدوحته النّسيم الوانى

زفر الزّمان عليهم فتفرّقوا و جلوا عن الأقطار و الأوطان

و قال أبو إسحاق الصابى، و توارد مع الشريف الرضى فى المعنى و القافية، يصف قصر روح بالبصرة: [الكامل]

أحبب إليّ بقصر روح منزلا شهدت بنيّته بفضل البانى

سور علا و تمنّعت شرفاته فكأنّ إحداهنّ هضب أبان

و كأنّما يشكو إلى زوّاره بين الخليط و فرقة الجيران

و كأنّما يبدى لهم من نفسه إطراق محزون الحشا حرّان

و لأحمد بن فرج الإلبيرى من أبيات: [الوافر]

سألت بها فما ردّت جوابا عليك، و كيف تخبرك الطّلول؟

و من سفه سؤالك رسم دار مضى لعفائه زمن طويل

فإن تك أصبحت قفرا خلاء لعينك فى مغانيها هموم

فقدما قد نعمت قرير عين بها و بربعها الرّشأ الكحيل

و قال أبو عبد اللّه بن الخياط الأندلسى الأعمى: [البسيط]

لو كنت تعلم ما بالقلب من نار لم توقد النّار بالهندىّ و الغار

يا دار علوة قد هيّجت لى شجنا و زدتنى حرقا، حيّيت من دار

كم بتّ فيك على اللّذات معتكفا و اللّيل مدّرع ثوبا من القار

كأنّه راهب فى المسح ملتحف شدّ المجدّ له وسطا بزنّار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱

يدير فيه كؤوس الرّاح ذو حور يدير من لحظه ألحاظ سحّار

و لا مزيد فى التفجع على الديار، و التوجع للدمن و الآثار، على قول البحترى من قصيدة يرثى بها المتوكل: [الطويل]

محلّ على القاطول أخلق داثره و عادت صروف الدّهر جيشا تغاوره

كأنّ الصّبا توفى نذورا إذا انبرت تراوحه أذيالها و تباكره

و ربّ زمان ناعم ثمّ عهده ترقّ حواشيه و يونق ناضره

تغيّر حسن الجعفرىّ و أنسه و قوّض بادى الجعفرىّ و حاضره

تحمّل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره و مقابره

إذا نحن زرناه أجدّ لنا الأسى و قد كان قبل اليوم يبهج زائره

و لم أنس وحش القصر إذ ريع سربه و إذ ذعرت أطلاؤه و جآذره

و إذ صيح فيه بالرّحيل فهتّكت على عجل أستاره و ستائره

و أوحشه حتّى كأن لم يكن به أنيس و لم تحسن لعين مناظره

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها و الملك يشرق زاهره

و لم تجمع الدّنيا إليه بهاءها و بهجتها و العيش غضّ مكاسره

فأين الحجاب الصّعب حيث تمنّعت بهيبتها أبوابه و مقاصره

و أين عميد النّاس فى كلّ نوبة تنوب و ناهى الدّهر فيهم و آمره

و على قول أبى إسحاق بن خفاجة الأندلسى: [الوافر]

و مرتبع حططت الرّحل فيه بحيث الظّلّ و الماء القراح

تخرّم حسن منظره مليك تخرّم ملكه القدر المتاح

فجريئة ماء جدوله بكاء عليه، و شدو طائره نواح

و هذا النوع من البكاء على الدمن، و التأسف على ما فعلت بها أيدى الزمن، كثير جدا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲

لا يعرف الباحث عنه له حدا، و ذلك لشدة ولوع النفوس بذكر أحبابها و حنينها إلى أماكنها التى هى مواطن أطرابها، و لهذا اقتصرنا على هذه النبذة القليلة، و جعلناها نغبة يشفى المشوق بها غليله، و قد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم أنه لا يجدى، و لا يدفع عادية الدهر الخؤون و لا يعدى، و نهوا عنه لما فيه من تجديد المصاب، المجرع لصاحبه الصاب و الأوصاب.

قال أبو عمر بن عبد البر: [الكامل]

عفت المنازل غير أرسم دمنة حيّيتها من دمنة و رسوم

كم ذا الوقوف و لم تقف فى منسك كم ذا الطّواف و لم تطف بحريم

فكل الدّيار إلى الجنائب و الصّبا ودع القفار إلى الصّدى و البوم

انتهى كلامه رحمه اللّه تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار.

[من رسائل لسان الدين بن الخطيب]

رجع إلى قرطبة- فنقول: و قد ألم لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى بذكر قرطبة و بعض أوصافها فى كتاب له كتبه على لسان سلطانه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و قد ذكرناه بجملته فى الباب الخامس من القسم الثانى فليراجع ثمّة، و نص محل الحاجة منه هنا: ثم كان الغزو إلى أم البلاد، و مثوى الطارف و التّلاد، قرطبة، و ما قرطبة؟ المدينة التى على عمل أهلها فى القديم بهذا الإقليم كان العمل، و الكرسىّ الذى بعصاه رعى الهمل، و المصر [المعمور] الذى فى خطه الناقة و الجمل، و الأفق الذى هو لشمس الخلافة العبشمية الحمل، فخيم الإسلام فى عقرتها المستباحة، و أجاز نهرها المعيى على السباحة، و عم دوحها الأشب بوارا، و أدار المحلات بسورها سوارا، و أخذ بمخنّقها حصارا، و أعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ما شاء و اهتصارا، و جدّل من أبطالها من لم يرض انجحارا، فأعمال إلى المسلمين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳

إصحارا، حتى قرع بعض جهاتها غلابا جهارا، و رفعت الأعلام إعلاما بعز الإسلام و إظهارا، فلو لا استهلال الغوادى، و أن أتى الوادى، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادى، و لقضى تفثه العاكف و البادى. انتهى.

و مما كتب به لسان الدين- رحمه اللّه تعالى!- فى وصف هذه الغزوة لسلطان بنى مرين على لسان صاحب الأندلس، ما صورته: المقام الذى نطالعه بأخبار الجهاد، و نهدى إليه عوالى العوالى صحيحة الإسناد، و نبشره بأخبار الفتح البعيد الآماد، و نسأل اللّه تعالى له توالى الإسعاف و دوام الإسعاد و الإمداد، و نرتقب من صنع اللّه تعالى على يديه تكييفا يخرق حجاب المعتاد، و امتعاضا يطلع بآفاق البلاد نجوم غرر الجياد، و يفتح أبواب الفتوح بأقاليد السيوف الحداد، و ينبئ عن مكارم من سلف من الآباء الكرام و الأجداد، مقام محل أخينا الذى نستفتح له بالفتح و الظهور، و نهدى إلى مجده لما نعلم من فضل نيته و حسن قصده لطائف السرور، و نستظهر بملكه المؤيد المؤمل و مجده المشهور، و نتوعد منهما العدوّ بالحبيب المذخور و الولى المنصور، السلطان الكذا ابن الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه اللّه تعالى عالى القدر، قرير العين منشرح الصدر، و لا زال حديث فخره سائرا مسير الشمس و البدر، عظّم سلطانه الخليق بالتعظيم، الواثق منه بالذخر الكريم، المثنى على مجده الصّميم العميم، أمير المسلمين عبد اللّه الغنى بالله محمد بن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، سلام كريم، بر عميم، يخص مقامكم الأعلى، و أخوّتكم الفضلى، و رحمة اللّه و بركاته. أما بعد حمد اللّه ربّ العباد، و ملهم الرشاد، و مكيف الإسعاف و الإسعاد، الولى النصير الذى نلقى إلى التوكّل

عليه مقاليد الاعتماد، و نمد إلى إنجاده [و إمداده] أيدى الاعتداد، و نرفع إليه أكفّ الاستمداد، و نخلص لوجهه الكريم عمل الجهاد، فنتعرّف عوارف الفضل المزداد، و نجتنى ثمار النصر من أغصان القنا المنآد، و نجتلى وجوه الصنع الوسيم أبهر من وجه الصباح الباد، و نظفر بالنعيم العاجل فى الدنيا و النعيم الآجل يوم قيام الأشهاد، و نتفيأ ظلال الجنة من تحت أوراق السيوف الحداد، و الصلاة على سيدنا و مولانا محمد رسوله النبى الهاد، رسول الملحمة المؤيد بالملائكة الشداد، و نبى الرحمة الهامية العهاد، أكرم الخلق بين الرائح و الغاد، ذى اللواء المعقود و الحوض المورود و الشفاعة فى يوم التّناد، الذى بجاهه نجدع أنوف الآساد يوم الجلاد، و ببركته ننال أقصى الأمل و المراد، و فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴

مرضاته نصل أسباب الوداد، فنعود بالتّجر الرابح من مرضاة رب العباد، و نستولى من ميدان السعادة المعادة على الآماد، و الرضا عن آله و صحبه و أنصاره و حزبه الكرماء الأمجاد، دعائم الدين من بعده و هداة العباد، أنجاد الأنجاد و آساد الآساد، الذين ظاهروه فى حياته بالحلوم الراجحة الأطواد، و البسالة التى لا تنال بالعدد فى سبيل اللّه و الأعداد، حتى بوّءوا الإسلام فى القواعد الشهيرة و البلاد، و أرغموا أنوف أهل الجحد و الإلحاد، فأصبح الدين رفيع العماد، منصور العساكر و الأجناد، مستصحب العز فى الإصدار و الإيراد، و الدعاء لمقامكم الأعلى بالسّعد الذى يغنى عن اختيار الطوالع و تقويم الميلاد، و النصر الذى تشرق أنباؤه فى جنح ليل المداد، و الصنع الذى تشرع له أبواب التوفيق و السّداد، من حمراء غرناطة حرسها اللّه و اليسر قد وطأ المهاد، و الخير واضح الأشهاد، و الحمد للّه فى المبدأ و المعاد، و الشكر له على آلائه المتصلة التّرداد، و مقامكم الذخر الكافى العتاد، و المردد المتكفل بالإنجاد، و إلى هذا وصل اللّه سعدكم، و حرس مجدكم، و والى نصركم و عضّدكم [و عددكم عددكم] و بلغكم من فضله العميم أملكم و قصدكم، فإننا نؤثر تعريفكم بتافه المتزيدات، و نورد عليكم أشتات الأحوال المتجدّدات، إقامة لرسم الخلوص فى التعريف بما قل، و مودة خالصة فى اللّه عز و جل، فكيف إذا كان التعريف بما تهتز له منابر الإسلام ارتياحا لوروده، و تنشرح الصدور منه لمواقع فضل اللّه وجوده، و المكيفات البديعة الصفات فى وجوده، و هو أننا قدمنا إعلامكم بما نويناه من غزو مدينة قرطبة أمّ البلاد الكافرة، و مقر الحامية المشهودة و الخيرات الوافرة، و القطر الذى عهده بإلمام الإسلام متقادم، و الركن الذى لا يتوقع صدمة صادم، و قد اشتمل سورها من زعماء ملة الصليب على كل رئيس بئيس، و هزبر خيس، و ذى مكر و تلبيس، و من له سمة تذيع مكانه و تشيعه، و أتباع على المنشط و المكره تطيعه، فاستدعينا المسلمين من أقاصى البلاد، و أذعنا فى الجهات نفير الجهاد، و تقدّمنا إلى الناس بسعة الأزواد، و أعطينا الحركة التى تخلف المسلمون فيها وراءهم جمهور الكفر من الأقطار و الأعداد حقها من الاستعداد، و أفضنا العطاء و الاستلحاق و الاستركاب فى أهل الغناء و أبطال الجهاد و الجلاد، فحشر الخلق فى صعيد، و أخذوا الأهبة و الزينة فى عيد سعيد، و شمل الاستدعاء كل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵

قريب و بعيد عن وعد و وعيد، و رحلنا و فضل اللّه شامل، و التوكل عليه كاف كافل، و خيّمنا بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس آرابهم، و استكملوا أسرابهم، و دسنا منهم بلاد النصارى بجموع كثرها اللّه و له الحمد و أنماها، و أبعد فى التماس ما عنده من الأجر منتماها، و عندما حللنا قاشرة وجدنا السلطان دون بطره مؤمل نصرنا و إنجادنا، و مستعيد حظه من مواقع جهادنا، و مقتضى دين كدحه بإعانتنا إياه و إنجادنا، قد نزل بظاهرها فى محلات ممن استقر على دعوته، و تمسك بطاعته، و شمله حكم جماعته، فكان لقاؤنا إياه على حال أقرّت عيون المسلمين، و تكفلت بإعزاز الدين، و مجملها يغنى عن التعيين، و الشرح و التبيين، و رأى هو و من معه من وفور جيش اللّه ما هالهم، و أشكك فى حال اليقظة خيالهم، من جموع تسدّ الفضا، و أبطال تنازع أسد الغضى، و كتائب منصورة، و رايات منشورة، و أمم محشورة، تفضل عن مرأى العين، و تردى العدوّ فى مهاوى الحين، فاعترفوا بما لم يكن فى حسابهم، و اعتبر فى عزة اللّه سبحانه أولو ألبابهم، و إذا كثّر اللّه تعالى العدد نما وزكا، و إذا أزاح العلل ما اعتذر غاز و لا شكا، و سالت من الغد الأباطح

بالأعراف، و سمت الهوى إلى الاستشراف، و أخذ الترتيب حقه من المواسط الجهادية و الأطراف، و أحكمت التعبية التى لا ترى العين فيها خللا، و لا يجد الاعتبار عندها دخلا، و كان النزول على فرسخ من عدوة النهر الأعظم من خارج المدينة أنجز اللّه تعالى وعد دمارها، و أعادها إلى عهدها فى الإسلام و شعارها، و محا ظلام الكفر من آفاقها بملة الإسلام و أنوارها، و قد برزت من حاميتها شوكة سابغة الدروع، وافرة الجموع، و استجنّت من أسوار القنطرة العظمى بحمى لا يخفر، و أخذ أعقابها من الحماة و الكماة العدد الأوفر، فبادر إليهم سرعان خيل المسلمين فصدقوهم الدفاع و القراع، و المصال و المصاع، و خالطوهم هبرا بالسيوف، و مباكرة بالحتوف، فتركوهم حصيدا، و أذاقوهم و بالا شديدا، و جدّلوا منهم جملة وافرة، و أمة كافرة، و ملكوا بعض تلك الأسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة، و ظهرت عليها عزماتهم الصادقة، و اقتحم المسلمون الوادى سيما فى غمره، و استهانة فى سبيل اللّه بأمره، و خالطوا حامية العدو فى ضفته فاقتلعوها، و تعلّقوا بأوائل الأسوار ففرعوها، فلو كنا فى ذلك اليوم على عزم من القتال، و تيسير الآلات و ترتيب الرجال،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶

لدخل البلد، و ملك الأهل و الولد، لكن أجار الكفار من الليل كافر، و قد هلك منهم عدد وافر، و رجع المسلمون إلى محلاتهم و نصر اللّه سافر، و العزم ظافر، و من الغد خضنا البحر الذى جعلنا العزم فيه سفينا، و التوكل على اللّه للبلاغ ضمينا، و نزلنا من ضفّته القصوى منزلا عزيزا مكينا، بحيث يجاور سورها طنب القباب، و تصيب دورها من بين الخيمات بوارق النّشاب، و برزت حاميتها على متعددات الأبواب، مقيمة أسواق الطعان و الضّراب، فآبت بصفقة الخسر و التباب، و لما شرعنا فى قتلها، و رتبنا أشتات النّكايات لنكالها، و إن كنا لم نبق على مطاولة نزالها، أنزل اللّه المطر الذى قدم بعهاده العهد، و ساوى النجد من طوفانه الوهد، و عظم به الجهد، و وقع الإبقاء على السلاح، و الكفّ بالضرورة عن الكفاح، و بلغ المقام عليها، و الأخذ بمخنّقها و الثّواء لديها، خمسة أيام لم تخل فيها الأسوار من اقتراع، و لا الأبواب من دفاع عليها و قراع، و أنفذت مقاتل الستائر أنقابا، و ارتقب الفتح الموعود ارتقابا، و فشت فى أهلها الجراح و العيث الصّراح، و ساءهم المساء بعزة اللّه و الصّباح، و لو لا عائق المطر لكان الإجهاز و الاستفتاح، و اللّه بعدها الفتّاح، و صرفت الوجوه إلى تخريب العمران، و تسليط النيران، و عقر الأشجار، و تعفية الآثار، و أتى منها العفاء على المصر الشهير فى الأمصار، و تركت زروعها المائحة عبرة لأولى الأبصار، و رحلنا عنها و قد ألبسها الدخان حدادا، و نكس من طغاتها أجيادا فاعتادت الذلّ اعتيادا، و ألفت الهون قيادا، و كادت أن تستباح عنوة لو لا أن اللّه تعالى جعل لها ميعادا، و أتى القتل من أبطالها، و مشاهير رجالها، ممن يبارز و يناطح، و يماسى بالناس و يصابح، على عدد جمّ أخبرت سيماهم المشهورة بأسمائهم، و نبهت علاماتهم على نباهاتهم، و ظهر إقدام المسلمين فى المعتركات، و بروزهم بالحدود المشتركات، و تنفيلهم الأسلاب، و قودهم الخيل المسوّمة قود الغلاب، و كان القفول، و قد شمل الأمن و القبول، و حصل الجهاد المقبول، و راع الكفر العزّ الذى يهول، و الإقدام الذى شهدت به الرماح و الخيول، و خاض المسلمون من زرع الطرق التى ركبوها، و المنازل التى استباحوها و انتهبوها، بحورا بعد منها الساحل، و فلاحة مدركة تتعدد فيها المراحل، فصيروها صريما، و سلطوا عليها النار غريما، و حلوا بظاهر حصن أندوجر و قد أصبح مألف أذمار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷

غير أوشاب، و وكر طير نشاب، فلما بلونا مراسه صعبا، و أبراجه ملئت حرسا شديدا و شهبا، ضننّا بالنفوس أن تفيض دون افتتاحه، فسلّطنا العفاء على ساحه، و أغرينا الغارات باستيعاب ما بأحوازه و اكتساحه، و سلطنا النار على حزونه و بطاحه، و ألصقنا بالرغام ذوائب أدواحه، و انصرفنا بفضل اللّه و المناجل دامية، و الأجور نامية، و قد وطئنا المواطىء التى كانت على الملوك قبلنا بسلا، و لم نترك بها حرثا يرفد و لا نسلا، و لا ضرعا يرسل رسلا، و الحمد للّه الذى يتم النعيم بحمده، و نسأله حلة النصر فما النصر إلا من عنده، عرّفناكم بهذه الكيفيات، الكريمة الصفات، و الصنائع الروائع التى بعد العهد بمثلها فى هذه الأوقات، علما بأنها لديكم من أحسن الهديات الودّيات، و لما نعلمه لديكم من حسن النيات و كرم الطّويّات، فإنكم سلالة الجهاد المقبول، و الرّفد المبذول، و وعد النصر

المفعول، و نرجو اللّه عز و جل أن ينتقل خيالكم للمعاهد الجهادية، إلى المعاينة فى نصر الملة المحمدية، و أن يجمع اللّه بكم كلمة الإسلام، على عبدة الأصنام، و يتم النعمة على الأنام، و ودنا لكم ما علمتم يزيد على ممرّ الأيام، و اللّه يجعله فى ذاته لكم متصل الدوام، مبلّغا إلى دار السلام، و هو سبحانه يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و يضاعف الآلاء عندكم، و السلام الكريم يخصّكم و رحمة اللّه و بركاته، انتهى.

و من هذا المنحى ما كتب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى عن سلطانه و نصه: المقام الذى أحاديث سعادته لا تملّ على الإعادة و التكرار، و سبيل مجادته، الشهيرة أوضح من شمس الظهيرة عند الاستظهار، و أخبار صنائع اللّه لملكه، و نظم فرائد الآمال فى سلكه، تخلدها أقلام الأقدار، بمداد الليل فى قرطاس النهار، و ترسمها بتذهيب الإسفار فى صفحات الأقمار، و تجعلها هجّيرى حملاء الأسفار، و حداة القطار فى مسالك الأقطار، مقام محل أخينا الذى نلذ عادة هنائه مع الإعادة، و نتلقى أنباء علائه بالإذاعة و الإشادة، و نطرّز بأعلام ثنائه صحائف المجادة، و نشكر اللّه أن وهب لنا من أخوته المضافة إلى المحبة و الودادة، ما يرجح فى ميزان الاعتبار أخوة الولادة، و عرفنا بيمن ولايته عوارف السعادة، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه اللّه تعالى فى أعلام الملك السعيد، بيت القصيد، و وسطى القلادة، و مجلى الكمال الذى تبارى بميدان بأسه وجوده جنسا الإبادة و الإفادة، و لا زالت آماله القاصية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸

تنثال طوع الإرادة، و يمن نقيبته يجمع من أشتات الفتوح و العز الممنوح بين الحسنى و الزيادة، معظّم سلطانه العالى، المثنى على مجده المرفوع إسناده فى عوالى المعالى، المسرور بما يسنيه اللّه له من الصنع المتوالى، و الفتح المقدّم و التالى، أمير المسلمين عبد اللّه الغنى بالله محمد ابن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد بن فرج بن نصر، أيد اللّه أمره، و أسعد نصره، سلام كريم يتأرّج فى الآفاق شذا طيبه، و تسمع فى ذروة الودّ بلاغة خطيبه، و يتضمن نوره سواد المداد، عند مراسلة الوداد، فيكاد يذهب بعبوسه المجهول و تقطيبه، و رحمة اللّه و بركاته، أما بعد حمد اللّه فاتح الأبواب بمقاليد الأسباب، مهما استصعبت، و ميسّر الأمور بمحكم المقدور إذا أجهدت الحيل و أتعبت، مخمد نيران الفتن ما التهبت، و جامع كلمة الإسلام و قد تصدعت و تشعّبت، و مسكن رجفان الأرض بعد ما اضطربت، و محييها بعهاد الرحمة مهما اهتزت و ربت، اللطيف الخبير الذى قدرت حكمته الأمور و رتّبت، منهى كل نفس إلى ما خطت الأقلام عليها و كتبت، و نفت و أوجبت و شاءت و أبت، و مجازيها يوم العرض بما كسبت، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد رسوله هازم الأحزاب لما تألفت و تألّبت، و جالب الحنف إليها عند ما أجلبت، رسول الملحمة إذا الليوث و ثبت، و نبى الرحمة التى هيأت النجاة و سبّبت، و أبلغت النفوس المطمئنة من السعادة ما طلبت، و مداوى القلوب المريضة و قد انتكبت و انقلبت، بلطائفه التى راضت و هذّبت، و قادت إلى الجنة العليا و استجبلت، و أدّت عن اللّه و أدبت، الذى بجاهه نستكشف الغمّاء إذا أطنبت، و نستوكف النّعماء إذا أخلفت البروق و كذبت، و نتحابّ فى طاعته ابتغاء الوسيلة إلى شفاعته فنقول وجبت حسبما ثبت، و الرضا عن آله و أصحابه و أنصاره و أحزابه التى استحقت لمزية المرضية و استوجبت لما انتمت إلى كماله و انتسبت، و ببذل نفوسها فى اللّه و مرضاته تقربت، و إلى نصرته فى حياته انتدبت، و المناصل قد رويت من دماء الأعداء و اختضبت، و خلفته فى أمته بعد مماته بالهمم التى عن صدق اليقين أعربت، فتداعت لمجاهدة الكفار و انتدبت، و أبعدت المغار و أدربت، حتى بلغ ملك أمته أقاصى البلاد التى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۹

نبت، فكسرت الصّلب التى نصبت، و نفّلت التيجان التى عصبت، ما همت السحب و انسحبت، و طلعت الشمس و غربت، و الدعاء لمثابتكم العليا بالنصر العزيز كلما جهّزت الكتائب و تكتّبت، و الفتح المبين كلما ركنت عقائل القواعد إذا خطبت، و الصنائع التى مهما حدّقت فيها العيون تعجبت، أو جالت فى لطائفها الأفكار استطابت مذاق الشكر و استعذبت، حتى تنجز لكم مواعيد النصر فقد

اقتربت، فإنا كتبنا إليكم كتب اللّه لكم أغيا ما سألت الألسن السائلة و استوعبت، من حمراء غرناطة حرسها اللّه تعالى و جنود اللّه بفضل اللّه تعالى و نعمته قد غلبت، و فتحت و سلبت، و أسود جهاده قد أردت الأعداء بعد ما كلبت، و مراعى الآمال قد أخصبت، و الحمد للّه حمدا يجلو وجوه الرضا بعد ما احتجبت، و يفتح أبواب المزيد فكلما استقبلها الأمل رحّبت، و الشكر للّه شكرا يقيّد شوارد النعم مما أبقت و ما هربت، و إلى هذا وصل اللّه لمقامكم أسباب الظهور و الاعتلاء، و عرفكم عوارف الآلاء على الولاء، فإننا لما ورد علينا كتابكم البر الوفادة الجمّ الإفادة الجامع بين الحسنى و الزيادة، جالى غرة الفتح الأعظم من ثنايا السعادة، و واهب المنن المتاحة و واصف النعم المعادة، فوقفنا من رقّه المنشور على تحف سنية، و أمانىّ هنية، و قطاف للنصر جتيّة، ضمنت سكون البلاد و قرارها، و أن اللّه قد أذهب الفتن و أوارها و أخمد نارها، و نضح عن وجه الإسلام عارها، و جمع الأهواء على من هويته السعادة بعد أن أجهد اختيارها، فأصبح الشتيت مجتمعا، و جنح الجناح مرتفعا، و الجبل المخالف خاشعا متصدّعا، و أصحب فى القياد من كان متمنّعا، فاستوثقت الطاعة، و تبجّحت السنة و الجماعة، و ارتفعت الشناعة، و تمسكت البلاد المكرهة بأذيال وليها لما رأته، و عادت الأجياد العاطلة إلى حليها بعد ما أنكرته، أجلنا جياد الأقلام فى ملعب الهناء و ميدانه، لأول أوقات إمكانه على بعد مكانه، و أجهدنا عبارة الكلام فى إجلال هذا الصنع و تعظيم شانه، و أغرينا الثناء بشيم مجدكم فى شرحه لنا و بيانه، رأينا أن لا نكل ذلك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۰

إلى اليراع، و نفرده فيه بالاجتماع، و ما يتعاطاه من منّة الذراع، و أن نشدّ بردء من المشافهة أزره، و نعضد بمعين من اللسان أمره، فعيّنّا لذلك من يفسّر منه المجمل و يمهد المقصد المعمل، حتى يجمع بين أغراض البر، و العلن منه و السر، و يقيم شتّى الأدلة على الوداد المستقر، و وجّهنا فى غرض الرسالة به إليكم، و اخترنا لشرحة بين يديكم، خطيب الوفود، و بركة المشايخ فى هذا المقام المحمود، الشيخ الجليل الشهير الكبير الصالح الفاضل أبا البركات ابن الحجاج - وصل اللّه حفظه!- و أجزل من الحمد و اللطف حظّه!- و هو البطل الذى لا يعلّم الإجالة فى الميدان و لا يبصّر بوظائف ذلك الشان، و مرادنا منه أن يطيل و يطيب، و يجيل فى وصف محاسنكم اللسان الرّطيب، و يقرر ما عندنا لمقامكم من التشيع الذى قام على الحب المتوارث أساسه، و اطرد حكمه و أنتج قياسه، و ليجعل تلو مقصد الهناء، بمجلسكم الباهر السناء، الصارف إلى الجهاد فى سبيل اللّه و الفناء، وجه التهمّم و الاعتناء، على مر الآناء، ما تجدد لدينا من الأنباء فى جهاد الأعداء، و إن كان رسولكم- أعزه اللّه تعالى!- قد شارك فى السرى و السير و يمن الطّير، و أغنى فى الحكاية عن الغير، فلا سرف فى الخير، و هو أننا لما انصرفنا من منازلة قرطبة نظرا للحشود التى نفدت معدّات أزوادها، و شابت بهشيم الغلّة المستغلّة مفارق بلادها، و إشفاقا لفساد أقواتها، بفوات أوقاتها، رحلنا عنها و قد انطوينا من إعفاء أكثر تلك الزروع، المائلة الفروع، الهائلة الروع، على همّ ممض، و أسف للمضاجع مقضّ، إذ كان عاذل المطر يكف ألسنة النار عن المبالغة فى التهابها، و حلاق إهابها، و نفض أغوارها، و نهب شوارها، و إذاعة أسرارها، و هى البحور المتلاطمة، إذا حطمتها الرياح الحاطمة، و اللجج الزاخرة، إذا حركتها السوافى الماخرة، تود العيون أن تتحدى حدودها القاصية فلا تطيق، و الركائب الراكضة أن تشرف على غايتها فيفضل عن مراحلها الطريق، قد جللها الربيع أرزاقا تغص بها الخزائن و الأطباق، و حبوبا مفضلة لا يرزؤها الإنفاد و الإنفاق، و لو اعتصت على انتسافها الآفاق، فخففنا فى سبيل اللّه غزو تلك الأقطار المخالفة، بمحق الصائفة، و إعانة تلك الطائفة، بكلوم المجاع الجائفة، خفوفا لم نقنع فيه بالاستنابة، حرصا على استئصال الصّبابة، و أعفينا الرجل من اتصال الكد، و قابلنا قبولهم على استصحابنا فيها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۱

بالرد، و أطللنا على قرطبة بمحلاتنا ننسف الجبال نسفا، و نعم الأرض زلزالا و خسفا، و نستقرى مواقع البذر احتراقا، و نخترق أجوابها المختلفة بحب الحصيد اختراقا، و نسلط عليها من شرر النار أمثال الجمالات الصفر مدت من الشّواظ أعناقا، و نوسع القرى الواسعة قتلا و استرقاقا، و ندير على مستديرها كؤوس الحتوف دهاقا، و أخذت النيران و اديها الأعظم من كلا جانبيه حتى كأن العيون أحمت سبيكته فاستحالت، و أذابت صفيحته فسالت، و أتت الكفار سماؤهم بالدخان المبين، و صارت الشمس من بعد سفورها و عموم نورها

منقبة المحيّا معصبة الجبين، و خضنا أحشاء الغريرة نعمّ أشتات النّعم انتسافا، و أقوات أهلها إتلافا، و آمال سكانها إخلافا، و قد بهتوا لسرعة الرجوع، و دهشوا لوقوع الجوع و تسبيب تخريب الربوع، فمن المنكر البعيد، أن يتأتى بعد عمرانها المعهود، و قد اصطلم الزرع و اجتثّ العود، و صار إلى العدم منها الوجود، و رأوا من عزائم الإسلام خوارق تشذ عن نطاق العوائد، و عجائب تستريب فيها عين المشاهد، إذ اشتمل هذا العام، المتعرف فيه من اللّه تعالى الإنعام، على غزوات أربع دمرت فيها القواعد الشهيرة تدميرا، و علا فوق مراقيها الأذان عزيزا جهيرا، و ضويقت كراسيّ الملك تضييقا كبيرا، و أذيقت و بالا مبيرا، و رياح الإدالة إن شاء اللّه تعالى تستأنف هبوبا، و بأسا مشبوبا، و الثقة باللّه قد ملأت نفوسا مؤمنة و قلوبا، و اللّه سبحانه المسؤول أن يوزع شكر هذه النعم التى أثقلت الأكتاد، و أبهظت الطّوق المعتاد، و أبهجت المسيم و المرتاد، فبالشكر يستدر فريدها، و يتوالى تجديدها، و قطعنا فى بحبوحة تلك العمالة المستبحرة العمارة، و الفلج المغنى وصفها عن الشرح و العبارة، مراحل ختمنا بالتعريج على حرب جيّان حربها، ففللنا ثانية غربها و جدّدنا كربها و استوعبنا حرقها و خربها، و نظمنا البلاد فى سلك البلاء، و حثثنا فى إنجادها و أغوارها ركائب الاستيلاء، فلم نترك بها ملقط طير، فضلا عن معاف عير، و لا أسأرنا لفلها المحروب بلالة خير، و قفلنا و قد تركنا بلاد النصارى التى منها لكيادنا المدد، و العدّة و العدد، و فيها الخصام و اللّدد، قد لبست الحداد حريقا، و سلكت إلى الخلاء و الجلاء طريقا، و لم نترك لها مضيفة؟؟؟

تخالط ريقا، و لا نعمة تصون من الفراق فريقا، و ما كانت تلك النعم لو لا أن أعان اللّه تعالى من عنصرى النار و الهواء بجنود كونه الواسع، و مدركه البعيد الشاسع، لتتولى الأيدى البشرية تغريبها و لا ترزأ كثيرها، و لا لتمتاح بالاغتراف غديرها، بل للّه القدرة جميعا، فقدرته لا تتحامى ريعا و لا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۲

حمى مريعا منيعا، وعدنا و العود فى مثلها أحمد، و قد بعد من شفاء النفوس الأمد، و نسخ بالسرور الكمد، و رفعت من عز الإسلام العمد، و الحمد للّه حمد الشاكرين، و منه نلتمس عادة النصر على أعدائه فهو خير الناصرين، عرفناكم به ليسر دينكم المتين، و مجدكم الذى راق منه الجبين، و اللّه يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و يبلغكم أملكم من فضله، و قصدكم بمنه و طوله، و السلام الكريم يخصكم و رحمة اللّه تعالى و بركاته، انتهى.

[جامع قرطبة]

رجع إلى ما كنا بسبيله من أخبار قرطبة الجليلة الوصف، و ذكر جامعها البديع الإتقان و الرصف، فنقول:

قد شاع و ذاع على ألسنة الجم الغفير من الناس فى هذه البلاد المشرقية و غيرها أن فى جامع قرطبة ثلاثمائة و نحو ستين طاقا، على عدد أيام السنة، و أن الشمس تدخل كل يوم من طاق، إلى أن يتم الدور ثم تعود، و هذا شىء لم أقف عليه فى كلام المؤرخين من أهل المغرب و الأندلس، و لو كان كما شاع لذكروه و تعرضوا له، لأنه من أعجب ما يسطر، مع أنهم ذكروا ما هو دونه، فاللّه أعلم بحقيقة الحال فى ذلك، و ستأتى فى الباب السابع رسالة الشقندى الطويلة و فيها من محاسن قرطبة و سائر بلاد الأندلس الطّم و الرّم، و قد ذكرنا فى الباب الأول جملة من محاسن قرطبة، فأغنى ذلك عن إعادتها هنا، على أن رسالة الشّقندى تكرر فيها بعض ما ذكرناه، لأنا لم نرد أن نخل منها بحرف، فأتينا بها بلفظها، و إن تكرر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفناه، و العذر واضح للمنصف المغضى، و اللّه نسأل سلوك السبيل الذى يرضى، بمنه و كرمه.

و قال صاحب «نشق الأزهار»: إن فى جامع قرطبة تنّورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح، و فيه أشياء غريبة، من الصنائع العجيبة، يعجز عن وصفها الواصفون، قيل: أحكم عمله فى سبع سنين، و فيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر، مكتوب على الواحد اسم محمد، و على الآخر صورة عصا موسى و أهل الكهف، و على الثالث صورة غراب نوح عليه الصلاة و السلام، الثلاثة خلقها اللّه تعالى و لم يصنعها صانع، انتهى.

قلت: لم أر أحدا من محققى المؤرخين للأندلس و ثقاتهم ذكر هذا، على قلة اطلاعى، و هو عندى بعيد، لأنه لو كان لذكره الأئمة.

و قد حكى القاضى عياض فى الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبينا صلى اللّه عليه و سلم، و لم يذكر هذا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۳

و يستبعد أن يكون بجامع قرطبة و لا يذكره، و اللّه تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

و قال فى موضع آخر من هذا الكتاب: إن دور قرطبة أربعة عشر ميلا، و عرضها ميلان، و هى على النهر الكبير، و عليه جسران، و بها الجامع الكبير الإسلامى، و بها الكنيسة المعظمة بين النصارى، و بهذه المدينة معدن الفضة و معدن الشاذنج، و هو حجر من شأنه أن يقطع الدم، و كان يجلب منها البغال التى تباع كل واحدة منها بخمسمائة دينار من حسنها و علوّها الزائد، انتهى.

[رجع إلى أخبار البنيان]

رجع إلى أخبار البنيان- و لا خفاء أنه يدل على عظم قدر بانيه، و لذلك قال أمير المؤمنين الناصر المروانى بانى الزهراء رحمه اللّه تعالى حسبما نسبهما له بعض العلماء و بعض ينسبهما لغيره، و سيأتيان فى ترجمة نور الدين بن سعيد علىّ منسوبين: [الكامل]

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

إنّ البناء إذا تعاظم قدره أضحى يدلّ على عظيم الشّان

و تذكرت هنا قصيدة قالها بعض الشاميين، و هو الأديب الفاضل الشيخ أسد بن معين الدين، مما يكتب على أبراج دار الحسيب النسيب، الشهير البيت، الكبير الحى و الميت، القاضى عبد الرحمن بن الفرفور الدمشقى، و ضمنها بيتى الناصر المذكورين: [الكامل]

زر مجلسا أضحى أعزّ مكان و محلّ أهل العلم و العرفان

المجد خيّم فى ذرى أبراجه و السّعد عبد الباب طول زمان

كالخلد مرفوع البناء، و أرضه مفروشة بالدّرّ و العقيان

بيت به فخر البيوت لأنّه بيت القصيد و منزل الضّيفان

مغنى فسيح فيه معنى مفصح عن قدر بانيه بغير لسان

قد قال بعض ذوى الفضائل قبلنا قولا بديعا واضح التبيان

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

إنّ البناء إذا تعاظم قدره أضحى يدلّ على عظيم الشّان

قد شاده من ساد أهل زمانه بالأصل و الإفضال و الرّجحان

ورث السّيادة كابرا عن كابر و سما برفعته على كيوان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۴

قاضى القضاة و مفخر العصر الّذى قد جاء فيه سابق الأقران

فى العلم بحر لا ينال قراره فى الحكم مثل مهنّد و سنان

يروى عطاء عن يديه قد اقتفى آثار آباء ذوى إحسان

لا زال يبقى شائدا بيت العلا و عدوّه فى الوهن و النّقصان

يا أيّها المولى الّذى يجرى مع الإق بال و الإسعاد طلق عنان

دم شامخ المقدار مرتفع البنا و النّاس تحت رضاك كالغلمان

متمتّعا ببنيك سادات الورى فى عزّ ربّ دائم السّلطان

ما رجّع القمريّ فی تغريده فی الرّوض فوق منابر الأغصان

[ابن فرفور يشكو الدهر]

و كان القاضی عبد الرحمن بن فرفور المذكور عالی الهمة، تضيق يده عما يريد، فلذلك كان كثيرا ما يبث شكواه فی الطروس و الدفاتر، و يعتب علی الزمان الذی أخنی علی أهل الأدب و قطع آمالهم بحسامه الباتر، و يرحم اللّه القائل: [الكامل]

هذا زمان دريهمی لا غيره فدع الدّفاتر للزّمان الفاتر

فمن نظم المذكور و قد أبطأ بجزء استعاره من بعض إخوانه، فكتب إليه معتذرا، و أدمج شكوی الزمان الذی كان من شماتة الأعداء به حذرا: [السريع]

أبطأت فی ذا الجزء يا سيّدی كتابة من جور دهر بغيض

صابرته فالجسم منّی لقی تجلّدا و القلب منّی مريض

فإذ أبی إلّا تلافیّ و قد أحلّنی منه محلّ النّقيض

و اقتادنی قسرا إلی مصرع قد رقّ منه اللّحم و العظم هيض

سلّمت للأقدار مستسرعا لباب مولی ذی عطاء عريض

جموم صبر كنت أسطو به علی روايا الدّهر بالهمّ غيض

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۵

فلا تلم يا صاح من بعد ذا إذا تمثّلت بحال الجريض

و رأيت بخطه رحمه اللّه تعالی مما نسبه جده القطب الخيضری الحافظ لإبراهيم بن نصر الحموی ثم المصری المعروف بابن الفقيه: [مجزوء الرمل]

يا زمانا كلّما حا ولت أمرا يتمنّع

إن تعصّبت فإنّی باصطباری أتقنّع

و هذه توريۀ بديعۀ للغاية فی التعصب و التقنع، مع حلاوۀ النظم و جودۀ السبك و خفۀ الوزن، و اللّه سبحانه يروّح تلك الأرواح فی الجنان، و يعاملنا و إياهم بمحض الفضل و الامتنان، و يكفينا شجون دهر جری بنا طلق العنان!!.

[رجع إلی أخبار البنيان- مدينۀ الزهراء]

رجع إلی ما كنا فيه- و كنت وقفت فی كلام بعض العلماء علی أن البيتين السابقين المنسوبين إلی أمير المؤمنين الناصر المروانی- رحمه اللّه تعالی!- قالهما فی الزهراء التی بناها، و سيأتی ذكرها قريبا، و قال الشيخ سيدی محيی الدين بن العربی فی المسامرات: قرأت علی مدينۀ الزهراء بعد خرابها و صيرورتها مأوی الطير و الوحش، و بناؤها عجيب فی بلاد الأندلس، و هی قريبۀ من قرطبۀ، أبياتا تذكر العاقل، و تنبه الغافل، و هی: [الطويل]

ديار بأكناف الملاعب تلمع و ما إن بها من ساكن و هی بلقع

ينوح عليها الطّير من كلّ جانب فيصمت أحيانا و حينا يرجّع

فخاطبت منها طائرا متغرّدا له شجن فی القلب و هو مروّع

فقلت: علی ما ذا تنوح و تشتكی؟ فقال: علی دهر مضی ليس يرجع

ثم قال: و أخبرنی بعض مشايخ قرطبۀ عن سبب بناء مدينۀ الزهراء أن الناصر ماتت له سرّيّۀ، و تركت مالا كثيرا، فأمر أن يفك بذلك

المال أسرى المسلمين، و طلب فى بلاد الإفرنج أسيرا فلم يوجد، فشكر اللّه تعالى على ذلك، فقالت له جاريته الزهراء- و كان يحبها حبا شديدا-: اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى، و تكون خاصة لى، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل، و شمال قرطبة، و بينها و بين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك، و أتقن بناءها، و أحكم الصنعة فيها، و جعلها مستنزها و مسكنا للزهراء و حاشية أرباب دولته،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۶

و نقش صورتها على الباب، فلما قعدت الزهراء فى مجلسها نظرت إلى بياض المدينة و حسنها فى حجر ذلك الجبل الأسود، فقالت: يا سيدى، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى، فأمر بزوال ذلك الجبل، فقال بعض جلسائه: أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفرا و لا قطعا، و لا يزيله إلّا من خلقه، فأمر بقطع شجره و غرسه تينا و لوزا، و لم يكن منظر أحسن منها، و لا سيما فى زمان الأزهار و تفتح الأشجار و هى بين الجبل و السهل، انتهى ببعض اختصار.

و قال ابن خلكان فى ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته: الزهراء- بفتح الزاى و سكون الهاء و فتح الراء، و بعدها همزة ممدودة - و هى من عجائب أبنية الدنيا، و أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد اللّه الملقب بالناصر، أحد ملوك بنى أمية بالأندلس، بالقرب من قرطبة، فى أول سنة خمس و عشرين و ثلاثمائة، و مسافة ما بينهما أربعة أميال و ثلثا ميل، و طول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان و سبعمائة ذراع، و عرضها من القبلة إلى الجنوب ألف و خمسمائة ذراع، و عدد السوارى التى فيها أربعة آلاف سارية و ثلاثمائة سارية و عدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب، و كان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثا: فثلث للجند، و ثلث مدخر، و ثلث ينفقه على عمارة الزهراء، و كانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف دينار و أربعمائة ألف و ثمانين ألف دينار، و من الستوق و المستخلصة سبعمائة ألف دينار و خمسة و ستون ألف دينار، هى من أهول ما بناه الإنس، و أجلّه خطرا، و أعظمه شأنا، ذكر ذلك كله ابن بشكوال فى تاريخ الأندلس، انتهى كلامه.

و حكى فى المطمح أن الوزير الكبير الشهير أبا الحزم بن جهور قال و قد وقف على قصور الأمويين التى تقوّضت أبنيتها، و عوّضت من أنيسها بالوحش أفنيتها: [الخفيف]

قلت يوما لدار قوم تفانوا: أين سكّانك العزاز علينا؟

فأجابت: هنا أقاموا قليلا، ثمّ ساروا، و لست أعلم أينا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۷

و فيه أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة و قد فرشت بأضغاث آس، و عرشت بسرور و ائتناس، و قرع النواقيس يبهج سمعه، و برق الحميا يسرج لمعه، و القس قد برز فى عبدة المسيح، متوشحا بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح، و اطّرحوا النعم كل اطّراح، لا يعمدون إلى ماء بآنية إلّا اغترافا من الغدران بالرّاح، و أقام بينهم يعملها حميا، كأنما يرشف من كأسها شفة لميا و هى تنفح له بأطيب عرف، كلما رشفها أعذب رشف، ثم ارتجل، بعد ما ارتحل، فقال: [الكامل]

و لربّ حان قد شممت بديره خمر الصّبا مزجت بصرف عصيره

فى فتية جعلوا السّرور شعارهم متصاغرين تخشّعا لكبيره

و القسّ مما شاء طول مقامنا يدعو بعود حولنا بزبوره

يهدى لنا بالرّاح كلّ مصفر كالخشف خفّره التماح خفيره

يتناول الظّرفاء فيه و شربهم لسلافه، و الأكل من خنزيره

رجع إلى أنباء الزهراء- قال بعض من أرخ الأندلس: كان يتصرف فى عمارة الزهراء كل يوم من الخدام و الفعلة عشرة آلاف رجل، و من الدواب ألف و خمسمائة دابة، و كان من الرجال من له درهم و نصف و من له الدرهمان و الثلاثة، و كان يصرف فيها كل يوم

من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر و الصخر غير المعدل، انتهى، و سيأتى فى الزهراء مزيد كلام.

و قال ابن حيان: ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ۳۲۵، و جعل طولها من شرق إلى غرب ألفين و سبعمائة ذراع، و تكسيرها تسعمائة ألف ذراع و تسعون ألف ذراع، كذا نقله بعضهم، و للنظر فيه مجال، قال: و كان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم على قطعها و نقلها و مؤنة حملها، و جلب إليها الرخام الأبيض من المرية، و المجزّع من رية، و الوردى و الأخضر من إفريقية من إسفاقس و قرطاجنّة،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۸

و الحوض المنقوش المذهب من الشام، و قيل: من القسطنطينية، و فيه نقوش و تماثيل و صور على صور الإنسان، و ليس له قيمة، و لما جلبه أحمد الفيلسوف- و قيل غيره- أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس، و نصب عليه اثنى عشر تمثالا، و بنى فى قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة، و كان سمكه من الذهب و الرخام الغليظ فى جرمه لصافى لونه المتلونة أجناسه، و كانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك و جعلت فى وسطه اليتيمة التى أتحف الناصر بها أليون ملك القسطنطينية، و كانت قرامد هذا القصر من الذهب و الفضة، و هذا المجلس فى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، و كان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج و الآبنوس المرصع بالذهب و أصناف الجواهر. قامت على سوارى من الرخام الملون و البلور الصافى، و كانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس و حيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، و كان الناصر إذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور، و يأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم، ما دام الزئبق يتحرك، و قيل: إن هذا المجلس كان يدور و يستقبل الشمس، و قيل: كان ثابتا على صفة هذا الصهريج، و هذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه فى الجاهلية و لا فى الإسلام، و إنما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم، و كان بناء الزهراء فى غاية الإتقان و الحسن، و بها من المرمر و العمد كثير، و أجرى فيها المياه، و أحدق بها البساتين، و فيها يقول الشاعر السميسر: [السريع]

وقفت بالزّهراء مستعبرا معتبرا أندب أشتاتا

فقلت: يا زهرا ألا فارجعى قالت: و هل يرجع من ماتا؟

فلم أزل أبكى و أبكى بها هيهات يغنى الدّمع هيهاتا

كأنّما آثار من قد مضى نوادب يندبن أمواتا

انتهى كلام هذا المؤرخ ملخصا، و سيأتى ما يوافق جلّه، و يخالف قلّه، و اللّه سبحانه يعلم الأمر كله، فإنه ربما ينظر المتأمل هذا الكتاب فيجد فى بعض الأخبار تخالفا، فيحمل ذلك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۵۹

على الغلط، و ليس كذلك، و إنما السبب الحامل لذلك جلب كلام الناس بعباراتهم، و الناقد البصير لا يخفاه مثل هذا، و ربما يقع التكرار، و ذلك من أجل ما ذكر، و اللّه أعلم.

[أخبار البنيان- قصر المأمون بن ذى النون]

و تذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذى شاده ملك طليطلة المأمون ابن ذى النّون بها، و ذلك أنه أتقنه إلى الغاية، و أنفق عليه أموالا طائلة، و صنع فى وسطه بحيرة، و صنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب، و جلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها و يتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى، و المأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء و

لا يصله، و توقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب، و بينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة إذ سمع منشدا ينشد:

[الطويل]

أتبنى بناء الخالدين، و إنّما مقامك فيها لو علمت قليل

لقد كان فى ظلّ الأراك كفاية لمن كلّ يوم يقتضيه رحيل

فنغص عليه حاله، و قال: إن للّه و إنا إليه راجعون، أظن أن الأجل قد قرب، فلم يلبث بعدها غير شهر و توفى، و لم يجلس فى تلك القبة بعدها، و ذلك سنة ۴۶۷، تجاوز اللّه تعالى عنه! هكذا حكاه بعض مؤرخى المغرب.

و قد ذكر فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون شارح العبدونية فليراجع.

و تذكرت هنا قول أبى محمد المصرى فى صفة قصر طليطلة: [الكامل]

قصر يقصّر عن مداه الفرقد عذبت مصادره و طاب المورد

نشر الصّباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السّعادة تعقد

و كأنّما المأمون فى أرجائه بدر تمام قابلته أسعد

و كأنّما الأقداح فى راحاته درّ جماد ذاب فيه العسجد

و له فى صفة البركة و القبة عليها: [السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۰

شمسيّة الأنساب بدريّة يحار فى تشبيهها الخاطر

كأنّما المأمون بدر الدّجى و هى عليه الفلك الدائر

[وصف المجالس و القصور]

و كان ملوك الأندلس فى غاية الاحتفال بالمجالس و القصور، و للوزير الجزيرى - رحمه اللّه تعالى!- فى وصف مجلس للمنصور بن أبى عامر ما يشهد لذلك، و هو قوله:

[الكامل]

و توسّطتها لجّة فى قعرها بنت السّلاحف ما تزال تنقنق

تنساب من فكّى هزبر إن يكن ثبت الجنان فإنّ فاه أخرق

صاغوه من ندّ و خلّق صفحتى هاديه محض الدّرّ فهو مخلّق

للياسمين تطلّع فى عرشه مثل المليك عراه زهو مطرق

و نضائد من نرجس و بنفسج و جنىّ خيرىّ و ورد يعبق

ترنو بسحر عيونها و تكاد من طرب إليك بلا لسان تنطق

و على يمينك سوسنات طلعت زهر الرّبيع فهنّ حسنا تشرق

فكأنّما هى فى اختلاف رقومها رايات نصرك يوم بأسك تخفق

فى مجلس جمع السّرور لأهله ملك إذا جمعت قناه يفرّق

حازت بدولته المغارب رفعة فغدا ليحسدها عليه المشرق

و من هذه القصيدة.

أمّا الغمام فشاهد لك أنّه لا شكّ صنوك أو أخوك الأوثق

وافى الصنيع فحين تمّ تمامه فى الصّحو أنشأ ودقه يتدفّق

و أظنّه يحكيك جودا إذ رأى فى اليوم بحرك زاخرا يتفهّق

و كان السبب فى هذه الأبيات أن المنصور صنع فى ذلك الأوان صنيعا لتطهير ابنه عبد الرحمن، و كان عام قحط، فارتفع السعر بقرطبة، و بلغ ربع الدقيق إلى دينارين، فجلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۱

الناس من قرطبة، فلما كان يوم ذلك الصنيع نشأت فى السماء سحابة عمت الأفق، ثم أتى المطر الوابل، فاستبشر الناس، و سر المنصور بن أبى عامر فقال الجزيرى بديهة. أما الغمام إلخ.

و هو القائل على لسان نرجس العامرية: [الكامل]

حيّتك يا قمر العلا و المجلس أزكى تحيّتها عيون النّرجس

زهر تريك بحسنها و بلونها زهر النّجوم الجاريات الكنّس

ملّكن أفئدة النّدامى كلّما دارت بمجلسهم مدار الأكؤس

ملك الهمام العامرىّ محمد للمكرمات و للنّهى و الأنفس

قال ابن بسام: و من شعر الجزيرى ما اندرج له أثناء مدحه الذى ملح فيه مخاطبته للمنصور على ألسنة أسماء كرائمه بزهر رياضه، فمن ذلك عن بهار العامرية: [الكامل]

حدق الحسان تقرّ لى و تغار و تضلّ فى صفتى النّهى و تحار

طلعت على قضبى عيون تمائمى مثل العيون تحفّها الأشفار

و أخصّ شىء بى إذا شبّهتنى درر تنطّق سلكها دينار

أهدى له قضب الزّمرّد ساقه و حباه أنفس عطره العطّار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۶۱

أنا نرجس حقّا بهرت عقولهم ببديع تركيبى فقيل بهار

و من أخرى عن بنفسج العامرية: إذا تدافعت الخصوم- أيد اللّه مولانا المنصورا!- فى مذاهبها، و تنافرت فى مفاخرها، فإليه مفزعها، و هو المقنع فى فصل القضية بينها لاستيلائه على المفاخر بأسرها، و علمه بسرها و جهرها، و قد ذهب البهار و النرجس فى وصف محاسنهما، و الفخر بمشابههما، كل مذهب، و ما منها إلا ذو فضيلة غير أن فضلى عليهما أوضح من الشمس التى تعلونا، و أعذب من الغمام الذى يسقينا، و إن كانا قد تشبها فى شعرهما ببعض ما فى العالم من جواهر الأرض و مصابيح السماء و هى من الموات الصامت، فإنى أتشبه بأحسن ما زيّن اللّه به الإنسان و هو الحيوان الناطق، مع أنى أعطر منهما عطرا، و أحمد خبرا، و أكرم إمتاعا شاهدا و غائبا و يانعا و ذابلا، و كلاهما لا يمتع، إلا ريثما يينع، ثم إذا ذبل تستكره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۲

النفوس شمه، و تستدفع الأكف ضمه، و أنا أمتع يابسا و رطبا، و تدخرنى الملوك فى خزائنها و سائر الأطباء، و أصرف فى منافع الأعضاء، فإن فخرا باستقلالهما على ساق هى أقوى من ساقى، فلا غرو أن الوشى ضعيف، و الهوى لطيف، و المسك خفيف، و ليس المجد يدرك بالصّراع، و قد أودعت أيد اللّه مولانا قوافى الشعر من وصف مشابهى ما أودعاه، و حضرت بنفسى لئلا أغيب عن حضرتهما، فقديما فضل الحاضر و إن كان مفضولا، و لذا قالوا: ألذ الطعام ما حضر لوقته، و أشعر الناس من أنت فى شعره، فلمولانا أتم الحكم فى أن يفصل بحكمه العدل، و أقول: [الكامل]

شهدت لنوّار البنفسج ألسن من لونه الأحوى و من إيناعه

لمشابه الشّعر الأعمّ أعاره ال قمر المنير الطّلق نور شعاعه

و لربّما جمع النّجيع من الطّلى من صارم المنصور يوم قراعه

فحكاه غير مخالف فى لونه لا فى روائحه و طيب طباعه

ملك جهلنا قبله سبل العلا حتّى و ضحن بنهجه و شراعه

فى سيفه قصر لطول نجاده و تمام ساعده و فسحة باعه

ذو همّة كالبرق فى إسراعه و عزيمة كالحين فى إيقاعه

تلقى الزّمان له مطيعا سامعا و ترى الملوك الشّمّ من أتباعه

و ما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف حديقة: [الكامل]

و حديقة مخضرّة أثوابها فى قضبها للطّير كل مغرّد

نادمت فيها فتية صفحاتهم مثل البدور تنير بين الأسعد

و الجدول الفضّىّ يضحك ماؤه فكأنّه فى العين صفح مهنّد

و إذا تجعّد بالنّسيم حسبته لمّا تراه مشبها للمبرد

و تناثرت نقط على حافاته كالعقد بين مجمّع و مبدّد

و تدحرجت للنّاظرين كأنّها درّ نثير فى بساط زبرجد

و كان بحمام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الأندلس بقوله: [الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۳

و دمية مرمر تزهى بجيد تناهى فى التّورّد و البياض

لها ولد و لم تعرف حليلا و لا ألمت بأوجاع المخاض

و نعلم أنّها حجر، و لكن تتيّمنا بألحاظ مراض

و كان بسرقسطة فى القصر المسمى بدار السرور أحد قصور المقتدر بن هود مجلس الذهب، و فيه يقول ذو الوزارتين بن غند شلب يهجو وزيرا كان ينبز بتحقون:

[الرمل]

ضجّ من تحقون بيت الذّهب و دعا ممّا به و احربى

ربّ طهّرنى فقد دنّسنى عار تحقون ألوف الذّنب

و كتب بعض كبراء الأندلس إلى إخوانه: كتابى هذا من وادى الزيتون، و نحن فيه محتلّون، ببقعة اكتست من السندس الأخضر، و تحلت بأنواع الزهر و تخايلت بأنهار تتخللها، و أشجار تظللها، تحجب أدواحها الشمس لالتفافها، و تأذن للنسيم فيميل من أعطافها، و ما شئتم من محاسن تروق و تعجب، و أطيار تتجاوب بألحان تلهى و تطرب، فى مثلها يعود الزمان كله صبا، و تجرى الحياة على الأمل و المنى، و أنا فيها- أبقاكم اللّه سبحانه!- بحال من طاب غذاؤه، و حسن استمراؤه، و صحا من جنون العقار، و استراح من مضض الخمار، و زايلته و ساوسه، و خلصت من الخباط هواجسه، ثم ذكر كلاما من هذا النمط فى وصف الخمار و الدعاء إلى العقار.

فراجعه أبو الفضل بن حسداى برقعة قال فى صدرها: إلى سيدنا الذى ألزمنا بامتنانه الشكر، و كبيرنا الذى علمنا ببيانة السّحر، و عميدنا الذى عقدنا بحرمه و انحلّ، و رمانا بدائه و انسل، أبقاك اللّه تعالى لتوبة نصوح تمرها، و يمين غموس تبرّها، ورد أبقاك اللّه تعالى كتابك الذى أنفذته من معرّسك بوادى الزيتون، و وقفنا على ما لقنت فى أوصافه من حجة المفتون،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۴

و إعجابك بالتفاف شجره و دوحاته، و اهتزازك بلطيف بواكره و روحاته، و سرورك به و هو حوّ تلاعه، مورودة هضابه و أجراعه، و كل المشارب ما خلاه ذميم، و ماؤه الدهر خصر و المياه حميم، و تلك عادة تلونك، و سجية تحضرمك، و شاكلة ملالك و سأمك، و أشعر الناس عندك من أنت فى شعره، و أحب البلاد إليك ما أنت فى عقره، فأين منك بساتين جلّق و جنانه، و رياضة المونقة و خلجانه، و قبابه البيض فى حدائقه الخضر، و جون العطر فى جنانه النضر، و ما تضمّه حيطانه، و تمجّه أنجاده و غيطانه، من أمهات الراح التى هجرتها بزعمك، و موارد الشّمول التى طلقتها برغمك، و هيهات فو اللّه ما فارقتك تلك الأرجاع و المجانى، و لا شاقتك تلك المنازل و المغانى. إلا تذكرا لما لدينا من طيب المعاهد، و حنينا إلى ما عندنا من جميل المشاهد، و أين من المشتاق عنقاء مغرب. ثم ذكر كلاما فى جواب ما مر من الخمار لم يتعلق لى به غرض.

و ما أحلى ما كتب به أبو إسحاق بن خفاجة من رسالة فى ذكر منتزه:

و لما أكب الغمام إكبابا، لم أجد منه إغبابا، و اتصل المطر اتّصالا، لم ألف منه انفصالا، أذن اللّه تعالى للصّبح أن يطلع صفحته، و ينشر صحيفته، فقشعت الريح السحاب، كما طوى السجلّ الكتاب، و طفقت السماء تخلع جلبابها، و الشمس تميط نقابها، و طلعة الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلّت، و قد تحلت، ذهبت فى لمّة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضا، و نطوى للتفرج أرضا، فلا أندفع إلا إلى غدير، نمير، قد استدارت منه فى كل قرارة سماء، سحائبها غماء، و انساب فى تلعة حباب، جلده حباب، فترددنا بتلك الأباطح، نتهادى تهادى أغصانها، و نتضاحك تضاحك أقحوانها، و للنسيم، أثناء ذلك المنظر الوسيم، تراسل مشى، على بساط و شى، فإذا مر بغدير نسجه درعا، و أحكمه صنعا، و إن عثر بجدول شطب منه نصلا، و أخلصه صقلا، فلا ترى إلا بطاحا، مملوءة سلاحا، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول، و سيف مسلول.

و من فصل منها. فاحتللنا قبّة خضراء ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق، و ما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل، و نشتمل عليه برداء نسيم عليل، و نجيل الطرف فى نهر صقيل، صافى لجين الماء، كأنه مجرّة السماء، مؤتلق جوهر الحباب، كأنه من ثغور الأحباب،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۵

و قد حضرنا مسمع يجرى مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها و هواها، و يغنى لها مقترحها و مناها، فصيح لسان النقر، يشفى من الوقر، كأنه كاتب حاسب، تمشق يمناه، و تعقد يسراه:

[الوافر]

يحرّك حين يشدو ساكنات و تنبعث الطّبائع للسّكون

[من نثر ابن خفاجة]

و كانت بين أبى إسحاق و بعض إخوانه مقاطعة، فاتفق أن ولى ذلك الصديق حصنا، فخاطبه أبو إسحاق برقعة، منها: أطال اللّه بقاء سيدى النبيهة أوصافه النزيهة عن الاستثناء، المرفوعة إمارته الكريمة بالابتداء، ما انحذفت ياء يرمى للجزم، و اعتلت و او يغزو لموضع الضم، كتبت عن ودّ قديم هو الحال، لم يلحقها انتقال، و عهد كريم هو الفعل لم يدخله الاعتلال، و اللّه يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة، و يعصم هذا بعد من الحروف الجازمة، و أنا أستنهض طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل، و تعدية فعل الفصل، و عدولك عن باب ألف القطع، إلى باب الوصل و الجمع، حتى يسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت، و يدخل الانتقال حال الصمت، فلا تتخيل أعزك اللّه أن رسم إخائك عندى ذو حسا قد درس عفاء، و لا أن صدرى دار مية أمسى من وده خلاء، و إنما أنا فعل إذا ثنّى ظهر من ضمير وده ما بطن، و بدا منه ما كمن، و هنيئا أعزك اللّه أن فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعه تغيير، و أن فعل سيفك ماض ما به للعوامل تأثير، و أنت بمجدك جماع أبواب الظّرف، تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف، و درس حروف

العطف، و تـدخل لام التبرئـة على ما حـدث من عتبك، و توجب بعـد النفى ما سـلف من قربك، و تدع ألف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين، و ترفع بالإضافـة بيننا وجود التنوين، و تسوم ساكن الود أن يتحرك و معتل الإخاء أن يصـح، و كتابى هـذا حرف صـلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الأولى صـفة، و تصير هذه النكرة معرفة، فأنت أعزك اللّه مصدر فعل السرور و النيل، و منك اشتقاق اسم السودد و الفضل، و إنك و إن تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرا، و عدوك و إن تكبر كالكميت لم يقع إلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۶

مصـغرا، و للأيـام علل تبسط و تقبض، و عوامل ترفع و تخفض، فلا دخل عروضك قبض، و لا عاقب رفعك خفض، و لا زلت مرتبطا بالفضل شرطك و جزاؤك، جاريا على الرفع سروك الكريم و سناؤك، حتى يخفض الفعل، و تبنى على الكسر قبل، إن شاء اللّه.

و كتب رحمه اللّه تعـالى يسـتدعى عود غنـاء: انتظم إخوانك- أعزك اللّه تعالى!- عقـد شـرب يتساقون فى ودك، و يتعاطون ريحانة شكرك و حمدك، و ما منهم إلا شـره المسامع إلى رنّة حمامة ناد، لا حمامة بطن واد، و الطّول لك فى صلتها بجماد ناطق قد استعار من بنـان لسانـا، و صار لضـمير صاحبه ترجمانا، و هو على الإساءة و الإحسان لا ينفك من إيقاع به، من غير إيجاع له، فإن هفا عركت أذنه و أدّب، و إن تأبّى و استوى بعج بطنه و ضرب، لا زلت منتظم الجذل، ملتئم الأمل، انتهى.

[من نظم ابن خفاجة]

و من نظمه رحمه اللّه تعالى يتفجع و يتوجع: [الطويل]

شراب الأمانى لو علمت سراب و عتبى اللّيالى لو عرفت عتاب

و هل مهجة الإنسان إلّا طريدة يحوم عليها للحمام عقاب

يخبّ بها فى كلّ يوم و ليلة مطايا إلى دار البلى و ركاب

و كيف يغيض الدّمع أو يبرد الحشا و قد باد أقران وفات شباب

أقلّب طرفى لا أرى غير ليلة و قد حطّ عن وجه الصّباح نقاب

كأنّى، و قد طار الصّباح، حمامة يمدّ جناحيه علىّ غراب

دعا بهم داعى الرّدى فكأنّما تبارت بهم خيل هناك عراب

فها هم و سلم الدّهر حرب كأنّما جثا بينهم طعن لهم و ضراب

هجود و لا غير التّراب حشيّة لجنب و لا غير القبور قباب

و لست بناس صاحبا من ربيعة إذا نسيت رسم الوفاء صحاب

و ممّا شجانى أن قضى حتف أنفه و ما اندقّ رمح دونه و كعاب

و أنّا تجارينا ثلاثين حقبة فمات سباقا و الحمام قصاب

كأن لم نبت فى منزل القصف ليلة نجيب بها داعى الصّبا و نجاب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۷

إذا قام منّا قائم هزّ عطفه شباب أرقناه بها و شراب

و لما تراءت للمشيب بريقة و أقشع من ظلّ الشّباب سحاب

نهضنا بأعباء اللّيالى جزالة و أرست بنا فى النّائبات هضاب

فيا ظاعنا قد حطّ من ساحة البلى بمنزل بين ليس عنه مآب

كفى حزنا أن لم يزرنى على النّوى رسول و لم ينفذ إلىّ كتاب

و أنّى إذا يمّمت قبرك زائرا وقفت و دونى للتّراب حجاب

و لو أنّ حيّا كان جاور ميّتا لطال كلام بيننا و خطاب

و أعرب عمّا عنده من جليّة فأقشع عن شمس هناك ضباب

و قد أبعدنا عما كنا بصدده من ذكر قرطبة أعادها اللّه للإسلام، فنقول: قال بعض من أرخ الأندلس:

انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى أربعمائة و تسعين مسجدا، ثم زادت بعد ذلك كثيرا كما سيأتى ذكره.

[عود إلى وصف قرطبة و مشاهدها و مساجدها]

و قال بعضهم: كانت قرطبة قاعدة الأندلس، و أم المدائن، و قرارة الملك، و كان عدد شرفاتها أربعة آلاف و ثلاثمائة، و كانت عدة الدور فى القصر الكبير أربعمائة دار و نيفا و ثلاثين، و كانت عدة دور الرعايا و السّواد بها الواجب على أهلها المبيت فى السور مائة ألف دار و ثلاثة عشر ألف دار، حاشا دور الوزراء و أكابر الناس و البياض.

و رأيت فى بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لمتونة و الموحّدين، قال: و كانت ديار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار و ثلاثمائة دار. انتهى

و عدد أرباضها ثمانية و عشرون، و قيل: أحد و عشرون: و مبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف و ثمانمائة و سبعة و ثلاثون مسجدا، و عدد الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام، و قيل:

ثلاثمائة حمام.

و قال ابن حيان: إن عدة المساجد عند تناهيها فى مدة ابن أبى عامر ألف و ستمائة مسجد، و الحمامات تسعمائة حمام.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۸

و فى بعض التواريخ القديمة: كان بقرطبة فى الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد و ثمانمائة و سبعة و سبعون مسجدا: منها بشقندة ثمانية عشر مسجدا، و تسعمائة حمام و أحد عشر حماما، و مائة ألف دار و ثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصا، و ربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة و خاصتها، هكذا نقله فى المغرب، و هو أعلم بما يأتى و يذر، رحمه اللّه تعالى!.

و قال بعض المؤرخين- بعد ذكره نحو ما تقدم -: و وسط الأرباض قبة قرطبة التى تحيط بالسور دونها، و أما اليتيمة التى كانت فى المجلس البديع فإنها كانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية. انتهى

و نحوه لابن الفرضى و غير واحد، لكن خالفهم صاحب «المسالك و الممالك» فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد و أحد و سبعون مسجدا، و هو بعيد، و قال قبله: إن دور قرطبة فى كمالها ثلاثون ألف ذراع، و تفسيرها باللسان القوطى القلوب المختلفة، و هى بالقوطية بالظاء المشالة، و قيل: إن معنى قرطبة أجز فاسكنها قال: و بقرطبة أقاليم كثيرة و كور جليلة، و كانت جبايتها فى أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار و عشرة آلاف دينار و عشرين دينارا، و سبق ما يخالف هذا، و من القمح أربعة آلاف مدى و ستمائة مدى، و من الشعير سبعة آلاف مدى، و من الشعير سبعة آلاف و ستمائة مدى و سبعة و أربعين مديا.

و قال بعض العلماء: أحصيت دور قرطبة التى بها و أرباضها أيام ابن أبى عامر فكان مائتى ألف دار و ثلاثة عشر ألف دارا و سبعة و سبعين دارا، و هذه دور الرعية، و أما دور الأكابر و الوزراء و الكتاب و الأجناد و خاصة الملك فستون ألف دار و ثلاثمائة دار سوى مصارى الكراء و الحمامات و الخانات، و عدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت و أربعمائة و خمسة و خمسون حانوتا، و لما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران، و محيت آثار تلك القرى و البلدان، انتهى ملخصا و سيأتى فى رسالة الشّقندى ما هو أشمل من هذا.

و لما رقت حال أبى القاسم عامر بن هشام القرطبى بقرطبة و زيّن له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحّدين مرّاكش قال و

ذكر المنتزهات القرطبية: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۶۹

يا هبّة باكرت من نحو دارين وافت إليّ على بعد تحيّيني

سرت على صفحات النّهر ناشرة جناحها بين خيريّ و نسرين

ردّت إلى جسدى روح الحياة و ما خلت النّسيم إذا ما متّ يحييني

لو لا تنسّمها من نشر أرضكم ما أصبحت من أليم الوجد تبرينى

مرّت على عقدات الرّمل حاملة من سرّكم خبرا بالوحى يشفينى

عرفت من عرفه ما كنت أجهله لمّا تبسّم فى تلك الميادين

نزوت من طرب لمّا هفا سحرا و ظلّ ينشرنى طورا و يطوينى

خلت الشّمال شمولا إذ سكرت بها سكرا بما لست أرجوه يمنّينى

أهدت إليّ أريجا من شمائلكم فقلت: قرّبنى من كان يقصينى

و خلت من طمع أنّ اللّقاء على إثر النّسيم و أضحى الشّوق يحدونى

فظلت ألثم من تعظيم حقّكم مجرّ أذيالها و الوجد يغرينى

مسارح كم بها سرّحت من كمد قلبى و طرفى و لا سلوان يثنينى

بين المصلّى إلى وادى العقيق و ما يزال مثل اسمه مذ بان يبكينى

إلى الرّصافة فالمرج النّضير فوا دى الدّير فالعطف من بطحاء عبدون

لباب عبد سقته السّحب و ابلها فلم يزل بكؤوس الأنس يسقينى

لا باعد اللّه عينى عن منازهه و لا يقرّب لها أبواب جيرون

حاشا لها من محلات مفارقة من شيّق دونها فى القرب محزون

أين المسير و رزق اللّه أدركه من دون جهد و تأميل يعنّينى

يا من يزيّن لى التّرحال عن بلدى كم ذا تحاول نسلا عند عنّين

و أين يعدل عن أرجاء قرطبة من شاء يظفر بالدّنيا و بالدّين

قطر فسيح و نهر ما به كدر حفّت بشطّيه ألفاف البساتين

يا ليت لى عمر نوح فى إقامتها و أنّ مالى فيه كنز قارون

كلاهما كنت أفنيه على نشوا ت الرّاح نهبا و وصل الحور و العين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۰

و إنّما أسفى أنّى أهيم بها و أنّ حظّى منها حظّ مغبون

أرى بعينى ما لا تستطيل يدى له و قد حازه من قدره دونى

و أنكد النّاس عيشا من تكون له نفس الملوك و حالات المساكين

يغضّ طرف التّصابى حين تبهته قضبان نعمان فى كثبان يبرين

قالوا الكفاف مقيم قلت ذاك لمن لا يستخفّ إلى بيت الزّراجين

و لا يبلبله هبّ الصّبا سحرا و لا يلطّفه عرف الرّياحين

و لا يهيم بتفّاح الخدود و رمّا ن الصّدور و ترجيع التّلاحين

لا تجتنى راحة إلّا على تعب و لا تنال العلا إلّا من الهون

و صاحب العقل فى الدنيا أخو كدر و إنّما الصّفو فيها للمجانين

يا آمرى أن أحثّ العيس عن وطنى لمّا رأى الرّزق فيه ليس يرضينى

نصحت لكنّ لى قلبا ينازعنى فلو ترحّلت عنه حلّه دونى

لألزمن وطنى طورا تطاوعنى قود الأمانى و طورا فيه تعصينى

مذلّلا بين عرفانى و أضرب عن سير لأرض بها من ليس يدرينى

هذا يقول غريب ساقه طمع و ذاك حين أريه البرّ يجفونى

إليك عنّى آمالى فبعدك يه دينى و قربك يطغينى و يغوينى

يا لحظ كلّ غزال لست أملكه يدنو و ما لى حال منه تدنينى

و يا مدامة دير لا ألمّ به لو لا كما كان ما أعطيت يكفينى

لأصبرنّ على ما كان من كدر لمن عطاياه بين الكاف و النّون

و تسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس «كنز الأدب» و قد أشرنا فى الباب الأول إلى كثير مما يتعلق بقرطبة أعادها اللّه تعالى إلى الإسلام! فأغنى عن إعادته، و إن كان ذكره هنا أنسب، لأن ما تقدم إنما هو فى ذكرها مع غيرها من بلاد الأندلس، و هذا الباب لها بالاستقلال.

و أنشد أبو العاص غالب بن أمية المورورى لما جلس على نهر قرطبة بإزاء الرّبض ملتفتا إلى القصر بديهة: [المنسرح]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۱

يا قصر كم حويت من نعم عادت لقى بعوارض السّكك

يا قصر كم حويت من ملك دارت عليه دوائر الفلك

ما شئت فابق فكلّ متّخذ يوما يعود بحال متّرك

و قال القاضى أبو الفضل عياض عند ارتحاله عن قرطبة: [الطويل]

أقول و قد جدّ ارتحالى و غرّدت حداتى و زمّت للفراق ركائبى

و قد غمضت من كثرة الدّمع مقلتى و صارت هواء من فؤادى ترائبى

و لم يبق إلّا وقفة يستحثّها و داعى للأحباب لا للحبائب

رعى اللّه جيرانا بقرطبة العلا و جاد رباها بالعهاد السّواكب

و حيّا زمانا بينهم قد ألفته طليق المحيّا مستلان الجوانب

أ إخواننا بالله فيها تذكّروا مودّة جار أو مودّة صاحب

غدوت بهم من برّهم و احتفائهم كأنّى فى أهلى و بين أقاربى

و أما مسجد قرطبة فشهرته تغنى عن كثرة الكلام فيه، و لكن نذكر من أوصافه و ننشر من أحواله ما لا بد منه، فنقول:

قال بعض المؤرخين: ليس فى بلاد الإسلام أعظم منه، و لا أعجب بناء و أتقن صنعة، و كلما اجتمعت منه أربع سوارى كان رأسها واحدا، ثم صف رخام منقوش بالذهب و اللازورد فى أعلاه و أسفله، انتهى.

و كان الذى ابتدأ بناء هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل، و لم يكمل فى زمانه، و كمله ابنه هشام، ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه، حتى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۲

صار المثل مضروبا به، و الذى ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء.

و قال بعض المؤرخين: إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره و عظم بنى القصر بقرطبة، و بنى المسجد الجامع، و أنفق عليه ثمانين ألف دينار، و بنى بقرطبة الرّصافة تشبيها برصافة جده هشام بدمشق.

و قال بعض: إنه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار، و اشترى موضعه إذ كان كنيسة بمائة ألف دينار، فاللّه تعالى أعلم.

و قال بعض المؤرخين فى ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته: إنه لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة، فجدد مغانيها، و شيد مبانيها، و حصنها بالسور، و ابتنى قصر الإمارة و المسجد الجامع، و وسع فناءه، و أصلح مساجد الكور، ثم ابتنى مدينة الرّصافة منتزها له، و اتخذ بها قصرا حسنا، و جنانا واسعة، نقل إليها غرائب الغراس و كرائم الشجر من بلاد الشام و غيرها من الأقطار، انتهى.

و كانت أخته أم الأصبغ ترسل إليه من الشام بالغرائب، مثل الرمان العجيب الذى أرسلته إليه من دمشق الشام كما مر، و سيأتى كلام ابن سعيد بما هو أتم من هذا.

و لما ذكر ابن بشكوال زيادة المنصور بن أبى عامر فى جامع قرطبة قال: و من أحسن ما عاينه الناس فى بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مصفّدين فى الحديد من أرض قشتالة و غيرها، و هم كانوا يتصرفون فى البنيان عوضا من رجّالة المسلمين، إذ لالا للشرك و عزة للإسلام، و لما عزم على زيادته هذه جلس لأرباب الدور التى نقل أصحابها عنها بنفسه، فكان يؤتى بصاحب المنزل فيقول له: إن هذه الدار التى لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم و من فيئهم لأزيدها فى جامعهم و موضع صلاتهم، فشطّط و اطلب ما شئت، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له، و أن تشترى له بعد ذلك دار عوضا منها، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة، فقالت: لا أقبل عوضا إلا دارا بنخلة، فقال:

تبتاع لها دار بنخلة، و لو ذهب فيها بيت المال، فاشتريت لها دار بنخلة، و بولغ فى الثمن، و حكى ذلك ابن حيان أيضا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۳

و قيل: إن إنفاق الحكم فى زيادة الجامع كان مائة ألف و واحدا و ستين ألف دينار و نيفا، و كله من الأخماس.

و قال صاحب كتاب «مجموع المفترق»: و كان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة مائتين و خمسا و عشرين ذراعا، و العرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة دراع و خمسة أذرع، ثم زاد الحكم فى طوله مائة ذراع و خمسة أذرع، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع و ثلاثين ذراعا، و زاد محمد بن أبى عامر بأمر هشام بن الحكم فى عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعا، فتم العرض مائتى ذراع و ثلاثين ذراعا، و كان عدد بلاطه أحد عشر بلاطا، عرض أوسطها ستة عشر ذراعا، و عرض كل واحد من اللذين يليانه غربا و اللذين يليانه شرقا أربعة عشر ذراعا، و عرض كل واحد من الستة الباقية إحدى عشرة ذراعا، و زاد ابن أبى عامر فيه ثمانية عرض كل واحد عشرة أذرع، و كان العمل فى زيادة المنصور سنتين و نصفا، و خدم فيه بنفسه، و طول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة ذراع و ثمان و عشرون ذراعا، و عرضه من القبلة إلى الجوف مائة ذراع و خمسة أذرع، و عرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع، فتكسيره ثلاثة و ثلاثون ألف ذراع و مائة و خمسون ذراعا، و عدد أبوابه تسعة: ثلاثة فى صحنه غربا و شرقا و جوفا، و أربعة فى بلاطاته: اثنان شرقيان و اثنان غربيان، و فى مقاصير النساء من السقائف بابان، و جميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود و مائتا عمود و ثلاثة و تسعون عمودا، رخاما كلها، و باب مقصورة الجامع ذهب، و كذلك جدار المحراب و ما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء، و ثريّات المقصورة فضة محضة، و ارتفاع الصومعة اليوم- و هى من بناء عبد الرحمن بن محمد- ثلاثة و سبعون ذراعا إلى أعلى القبة المفتحة التى يستدير بها المؤذن، و فى رأس هذه القبة تفافيح ذهب و فضة، و دور كل تفاحة ثلاثة أشبار و نصف، فاثنان من التفافيح ذهب إبريز، و واحدة فضة، و تحت كل واحدة منها و فوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة، و رمانة ذهب صغيرة على رأس الزج، و هى إحدى غرائب الأرض.

و كان بالجامع المذكور فى بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه تعالى عنه الذى خطّه بيده، و عليه حلية ذهب مكللة بالدر و الياقوت، و عليه أغشية الديباج، و هو على كرسى من العود الرّطب بمسامير الذهب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۴

رجع إلى المنارة- و ارتفاع المنارة إلى مكان الأذان أربع و خمسون ذراعا، و طول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمان عشرة ذراعا، انتهى بحروفه.

و فيه بعض مخالفة لما ذكره ابن الفرضى و بعضهم، إذ قال فى ترجمة المنصور بن أبى عامر ما صورته: و كان من أخبار المنصور الداخلة فى أبواب الخير و البر و القرب بنيان المسجد الجامع و الزيادة فيه سنة سبع و سبعين و ثلاثمائة، و ذلك أنه لما زاد الناس بقرطبة و انجلب إليها قبائل البربر من العدوة و إفريقية، و تناهى حالها فى الجلالة ضاقت الأرباض و غيرها، و ضاق المسجد الجامع عن حمل الناس، فشرع المنصور فى الزيادة بشرقيه حيث تتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربى بقصر الخلافة، فبدأ ابن أبى عامر فى هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولا من أول المسجد إلى آخره، و قصد ابن أبى عامر فى هذه الزيادة المبالغة فى الإتقان و الوثاقة، دون الزخرفة، و لم يقصر- مع هذا- عن سائر الزيادات جودة، ما عدا زيادة الحكم. و أوّل ما عمله ابن أبى عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن، و صنع فى صحنه الجبّ العظيم قدره الواسع فناؤه، و هو- أعنى ابن أبى عامر- هو الذى رتب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت، فتطابق بذلك النوران، و كان عدد سوارى الجامع الحاملة لسمائه و اللاصقة بمبانيه و قبابه و مناره بين كبيرة و صغيرة ألف سارية و أربعمائة سارية و سبع عشرة سارية، و قيل: أكثر، و عدد ثريّات الجامع ما بين كبيرة و صغيرة مائتان و ثمانون ثريا، و عدد الكؤوس سبعة آلاف كأس و أربعمائة كأس و خمسة و عشرون كأسا، و قيل: عشرة آلاف و ثمانمائة و خمس كؤوس، وزنة مشاكى الرصاص للكؤوس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها، وزنة ما يحتاج إليه من الكتان للفتائل فى كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار، و جميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمائة ربع أو نحوها، يصرف منه فى رمضان خاصة نحو نصف العدد، و مما كان يختص برمضان المعظم ثلاثة قناطير من الشمع و ثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور، و الكبيرة من الشمع التى تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلا، يحترق بعضها بطول الشهر، و يعم الحرق لجميعها ليلة الختمة، و كان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة فى دولة ابن أبى عامر و يتصرف فيه من أئمة و مقرئين و أمناء و مؤذنين و سدنة و موقدين و غيرهم من المتصرفين مائة و تسعة و خمسين شخصا، و يوقد من البخور ليلة الختمة أربع أواق من العنبر الأشهب و ثمان أواق من العود الرطب، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۵

و قال بعض المؤرخين: كان للجامع كل ليلة جمعة رطل عود، و ربع رطل عنبر، يتبخر به، انتهى.

و قال ابن سعيد، نقلا عن ابن بشكوال: طول جامع قرطبة الأعظم الذى هو بداخل مدينتها من القبلة إلى الجوف ثلاثمائة و ثلاثون ذراعا، الصحن المكشوف منه ثمانون ذراعا، و غير ذلك مقرمد، و عرضه من الغرب إلى الشرق مائتان و خمسون ذراعا، و عدد أبهائه عند اكتمالها بالشمالية التى زادها المنصور بن أبى عامر بعد هذا تسعة عشر بهوا، و تسمى البلاطات، و عدد أبوابه الكبار و الصغار أحد و عشرون بابا فى الجانب الغربى تسعة أبواب، منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن، و فى الجهة الشرقية تسعة أبواب، منها لدخول الرجال ثمانية أبواب، و فى الجهة الشمالية ثلاثة أبواب، منها لدخول الرجال بابان كبيران، و باب لدخول النساء إلى مقاصيرهنّ، و ليس لهذا الجامع فى القبلىّ سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة فى قبلته متصل بالساباط المفضى إلى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة، و جميع هذه الأبواب ملبّسة بالنحاس الأصفر بأغرب صنعة، و عدد سوارى هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه و اللاصقة بمبانيه و قبابه و مناره و غير ذلك من أعماله بين كبار و صغار ألف و أربعمائة سارية و تسع سوار، منها بداخل المقصورة مائة و تسع عشرة سارية، و ذكر المقصورة البديعة التى صنعها الحكم المستنصر

فى هذا الجامع فقال: إنه خطر بها على خمس بلاطات من الزيادة الحكمية، و أطلق حفافيها على الستة الباقية ثلاثة من كل جهة، فصار طولها من الشرق إلى الغرب خمسا و سبعين ذراعا، و عرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة اثنين و عشرين ذراعا، و ارتفاعها فى السماء إلى حدّ شرفاتها ثمان أذرع، و ارتفاع كل شرفة ثلاثة أشبار، و لهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة إلى الجامع شرقىّ و غربى و شماليّ، ثم قال: و ذرع المحراب فى الطول من القبلة إلى الجوف ثمان أذرع و نصف، و عرضه من الشرق إلى الغرب سبع أذرع و نصف، و ارتفاع قبوه فى السماء ثلاث عشرة ذراعا و نصف، و المنبر إلى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس و صندل و نبع و بقم و شوحط و ما أشبه ذلك، و مبلغ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۶

النفقة فيه خمسة و ثلاثون ألف دينار و سبعمائة دينار و خمسة دنانير و ثلاثة دراهم و ثلث درهم و قيل غير ذلك، و عدد درجه تسع درجات صنعه الحكم المستنصر رحمه اللّه، و ذكر أن عدد ثريّات الجامع التى تسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصة- سوى ما منها على الأبواب- مائتان و أربع و عشرون ثريّا، جميعها من لاطون مختلفة الصنعة، منها أربع ثريّات كبار معلقة فى البلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلقة فى القبة الكبرى التى فيها المصاحف حيال المقصورة، و فيها من السّرج- فيما زعموا- ألف و أربعمائة و أربعة و خمسون، تستوقد هذه الثريات الضخام فى العشر الأخير من شهر رمضان، تسقى كل ثريا منها سبعة أرباع فى الليلة، و كان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح فى هذا المسجد فى السنة أيام تمام وقوده فى مدة ابن أبى عامر مكملة بالزيادة المنسوبة ألف ربع، منها فى شهر رمضان سبعمائة و خمسون ربعا، قال: و فى بعض التواريخ القديمة كان عدد القومة بالمسجد الجامع بقرطبة فى زمن الخلفاء و فى زمن ابن أبى عامر ثلاثمائة، انتهى. و فيه مخالفة لبعض ما تقدم.

و ذكر بعضهم الزيت- و لكن قوله أولى بالاتباع، لنقله عن ابن بشكوال، و لمعرفة ابن سعيد بمثل هذا و تحقيقه فيه أكبر من غيره، و اللّه سبحانه أعلم- فقال: ألف ربع و ثلاثون ربعا، منها فى رمضان خمسمائة ربع، و فى الثريات التى من الفضة- و هى ثلاثة- اثنان و سبعون رطلا، لكل واحدة ثمانية عشر فى ليلة وقدها. و قال فى المنبر: إنه مركب من ستة و ثلاثين ألف وصل، قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضة، و سمرت بمسامير الذهب و الفضة، و فى بعضها نفيس الأحجار، و اتصل العمل فيه تسعة، ثم قال: و دور الثريا العظيمة خمسون شبرا، و تحتوى على ألف كأس و أربعة و ثمانين، كلها موشّاة بالذهب، إلى غير ذلك من الغرائب.

و كتب الفقيه الكاتب أبو محمد إبراهيم ابن صاحب الصلاة الولبنى يصف جامع قرطبة بما نصه: عمر اللّه سبحانه بشمول السعادة رسمك، و وفر من جزيل الكرامة قسمك، و لا برحت سحائب الإنعام تهمى عليك ثرّة، و أنامل الأيام تهدى إليك كل مسرّة، لئن كان أعزك اللّه طريق الوداد بيننا عامرا، و سبيل المحبة غامرا، لوجب أن نفض ختمه، و نرفض كتمه، لا- سيما فيما يدرّ أخلاف الفضائل، و يهز أعطاف الشمائل، و إنى شخصت إلى حضرة قرطبة- حرسها اللّه تعالى!- منشرح الصدر، لحضور ليلة القدر، و الجامع- قدس اللّه تعالى بقعته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۷

و مكانه، و ثبت أساسه و أركانه!- قد كسى ببردة الازدهاء، و جلى فى معرض البهاء، كأن شرفاته فلول فى سنان، أو أشر فى أسنان، و كأنما ضربت فى سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه حلل، و كأن الشمس خلفت فيه ضياءها، و نسجت على أقطارها أفياءها، فترى نهارا قد أحدق به ليل، كما أحدق بربوة سيل، ليل دامس، و نهار شامس، و للذّبال تألق كنضنضة الحيات، أو إشارة السبابات فى التحيات، قد أترعت من السليط كؤوسها، و وصلت بمحاجن الحديد رؤوسها، و نيطت بسلاسل كالجذوع القائمة، أو كالثعابين العائمة، عصبت بها تفاح من الصّفر، كاللّقاح الصفر: بولغ فى صقلها و جلائها، حتى بهرت بحسنها و لألائها، كأنها جليت باللهب، و أشربت ماء الذهب، إن سمّتها طولا رأيت منها سبائك عسجد، أو قلائد زبرجد، و إن أتيتها عرضا رأيت منها أفلاكا و لكنها غير دائرة، و نجوما و لكنها ليست بسائرة، تتعلق تعلق القرط من الذّفرى، و تبسط شعاعها بسط الأديم حين يفرى، و الشمع قد رفعت على

المنار رفع البنود، و عرضت عليها عرض الجنود، ليجتلى طلاقة روائها القريب و البعيد، و يستوى فى هداية ضيائها الشقى و السعيد، و قد قوبل منها مبيضّ بمحمر، و عورض مخضر بمصفر، تضحك ببكائها و تبكى بضحكها، و تهلك بحياتها و تحيى بهلكها، و الطيب تفغم أفواحه، و تتنسم أرواحه، و قتار الألنجوج و النـد، يسترجع من روح الحياة ما ندّ، و كلما تصاعد و هو محاصر، أطال من العمر ما كان تقاصر، فى صفوف مجامر، ككعوب مقامر، و ظهور القباب مؤللة، و بطونها مهللة، كأنها تيجان، رصّع فيها ياقوت و مرجان، قد قوس محرابها أحكم تقويس، و وشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرة مقرطق، و بقوس قزح ممنطق، و كأن اللازورد حول و شومه، و بين رسومه، نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام، و الناس أخياف فى دواعيهم، و أوزاع فى أغراضهم و مراميهم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۸

بين ركع و سجد، و أيقاظ و هجد، و مزدحم على الرقاب يتخطاها، و مقتحم على الظهور يتمطاها، كأنهم برد خلال قطر، أو حروف فى عرض سطر، حتى إذا قرعت أسماعهم روعة التسليم، تبادروا بالتكليم، و تجاذبوا بالأثواب، و تساقوا بالأكواب، كأنهم حضور طال عليهم غياب، أو سفر أتيح لهم إياب، و صفيّك مع إخوان صدق، تنكسب العلوم بينهم انسكاب الودق، فى مكان كوكر العصفور، أستغفر اللّه أو ككناس اليعفور، كأن أقليدس قد قسم بيننا مساحته بالموازين، و ارتبطنا فيه ارتباط البيادق بالفرازين، حتى صار عقدنا لا يحل، و حدّنا لا يفل، بحيث نسمع سور التنزيل كيف تتلى، و نتطلع صور التفصيل كيف تجلى، و القومة حوالينا يجهدون فى دفع الضرر، و يعمدون إلى قرع العمد بالدّرر، فإذا سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين، و سرت نحوهم سرى القين، توهموا أنها إلى أعطافهم واصلة، و فى أقحافهم حاصلة، ففروا بين الأساطين، كما تفرّ من النجوم الشياطين، كأنما ضربهم أبو جهم بعصاه، أو حصبهم عمير بن ضابىء بحصاه، فأكرم بها مساع تشوق إلى جنة الخلد، و يهون فى السعى إليها إنفاق الطوارف و التّلد، تعظيما لشعائر اللّه، و تنبيها لكل ساه ولاه، حكمة تشهد للّه تعالى بالربوبية، و طاعة تذل لها كل نفس أبيّة، فلم أرد أدام اللّه سبحانه عزك منظرا منها أبهى، و لا- مخبرا أشهى، و إذ لم تتأمله عيانا، فتخيله بيانا، و إن كان حظ منطقى من الكلام، حظ السفيح من الأزلام، لكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها، و ذمّة تقلدنا حمائلها، يوجب قبول إتحافى سمينا و غثّا، و لبس إلطافى جديدا ورثا، لا زلت لزناد النبل موريا، و إلى آماد الفضل مجريا، و التحية العبقة الريّا، المشرقة المحيّا، عليك ما طلع قمر، و أينع ثمر، و رحمة اللّه تعالى و بركاته، انتهى.

و ذكر ابن بشكوال أن الحكم المستنصر هدم الميضأة القديمة التى كانت بفناء الجامع الذى يستقى لها الماء من بئر السانية، و بنى موضعها أربع ميضآت فى كل جانب من جانبى المسجد الشرقى و الغربى منها ثنتان كبرى للرجال و صغرى للنساء، أجرى فى جميعها الماء فى قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة إلى أن صبت ماءها فى أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۷۹

و النهار، و أجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية و الغربية و الشمالية، أجراها هنالك إلى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير، و ألقاه الرخّامون هنالك، و احتفروا أجوافها بمناقيرهم فى المدة الطويلة حتى استوت فى صورها البديعة لأعين الناس، فخفف ذلك من ثقلها، و أمكن من إهباطها إلى أماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع، و أمد اللّه تعالى على ذلك بمعونته، فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فلك موثقة بالحديد المثقف محفوفة بوثاق الحبال قرن لجرّها سبعون دابة من أشد الدواب، و سهلت قدامها الطرق و المسالك، و سهل اللّه تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة فى مدة اثنى عشر يوما، فنصبت فى الأقباء المعقودة لها، قال: و ابتنى المستنصر فى غربى الجامع دار الصدقة، و اتخذها معهدا لتفريق صدقاته المتوالية، و ابتنى للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربى، انتهى.

و اعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب، حتى إنهم يقولون فى الأحكام:

هـذا مما جرى به عمل قرطبـة، و فى هـذه المسألـة نزاع كثير، و لا بأس أن نـذكر ما لا بد منه من ذلك، قال الإمام ابن عرفة رحمه اللّه تعـالى: فى اشتراط الإمـام على القاضـى الحكم بمـذهب معين- و إن خـالف معتقـد المشترط اجتهادا و تقليـدا- ثلاثـة أقوال: الصـحة للباجى، و لعمل أهل قرطبة، و لظاهر شـرط سـحنون على مذهب من ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة، قال المازرى: مع احتمال كون الرجل مجتهدا. الثانى: البطلان، للطرطوشى، إذ قال: فى شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم. الثالث: تصح التولية و يبطل الشرط، تخريجا على أحد الأقوال فى الشرط الفاسد فى البيع للمازرى عن بعض الناس، انتهى مختصرا.

قال ابن غازى: إن ابن عرفة نسب للطرطوشى البطلان مطلقا، و ابن شاس إنما نسب له التفصيل، انتهى.

و لما ذكر مولاى الجد الإمام قاضـى القضاة بفاس سـيدى أبو عبد اللّه المقرى التلمسانى فى كتابه القواعد شـرط أهل قرطبة المذكور، قـال بعـده مـا نصه: و على هـذا الشـرط ترتب إيجاب عمل القضاة بالأنـدلس، ثم انتقل إلى المغرب، فبينما نحن ننازع الناس فى عمل المدينة و نصيح

بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلى و ابن مسعود و من كان معهما: [البسيط]

ليس التّكحّل فى العينين كالكحل سنح لنا بغض الجمود، و معدن التقليد: [الكامل]

اللّه أخّر مدّتى فتأخّرت حتّى رأيت من الزّمان عجائبا

يا للّه و للمسلمين، ذهبت قرطبة و أهلها، و لم يبرح من الناس جهلها، ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه، و الباطل لا زال يلقنه و يلقيه، ألا ترى خصال الجاهليـة كالنياحة و التفاخر و التكاثر و الطعن و التفضـيل و الكهانة و النجوم و الخط و التشاؤم و ما أشـبه ذلك، و أسماؤها كالعتمة و يثرب، و كذا التنابز بالألقاب و غيره مما نهى عنه و حذر منه، كيف لم تزل من أهلها، و انتقلت إلى غيرهم مع تيسّر أمرها، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأسا، بل يجعلون العادات القديمة أسا، و كذلك محبة الشعر و التلحين و النسب و ما انخرط فى هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب، و الشرع فينا منذ سبعمائة سنة و سبع و ستين سنة لا نحفظه إلا قولا، و لا نحمله إلا كلّا، انتهى.

و قال الحافظ ابن غازى- بعـد ذكر كلام مولاى الجـد- ما نصه: و حـدثنى ثقـة ممن لقيت أنه لما قـدم مدينـة فاس العلامـة أبو يحيى الشـريف التلمسانى و تصدى لإقراء التفسير بالبلد الجديد و أمر السـلطان أبو سـعيد المرينى الحفيد أعيان الفقهاء بحضور مجلسه كان ممـا ألقـاه إليهم منزع المقرى هـذا، فبالغوا فى إنكاره، و رأوا أنه لا معـدل عما عول عليه زعماء الفقهاء كابن رشـد و أصـحاب الوثاق كالمتيطى من اعتماد أهل قرطبة و من فى معناهم انتهى.

و قال بعض المؤرخين- حين ذكر قرطبـة- ما ملخصه: هى قاعدة بلاد الأندلس، و دار الخلافة الإسـلامية، و هى مدينة عظيمة، و أهلها أعيان البلاد و سراة الناس، فى حسن المآكل و المشارب و الملابس و المراكب، و علو الهمم، و بها أعلام العلماء، و سادات الفضلاء، و أجلاد الغزاة، و أنجاد الحروب، و هى فى تقسيمها خمس مدن يتلو بعضـها بعضا، و بين المدينة و المدينة سور عظيم حصين حاجز، و كـل مدينـة مستقلة بنفسـها، و فيهـا مـا يكفى أهلها من الحمامات و الأسواق و الصـناعات و طول قرطبـة ثلاثـة أميال فى عرض ميل واحد، و هى فى سفح جبل مطل عليها، و فى مدينتها الثالثة و هى الوسطى القنطرة و الجامع الذى ليس فى معمور

الأرض مثله و طوله مائـة ذراع فى عرض ثمـانين، و فيه من السوارى الكبـار ألف ساريـة، و فيه مائـة و ثلاثـة عشـر ثريا للوقود أكبرها تحمل ألف مصباح، و فيه من النقوش و الرقوم ما لا يقـدر أحد على وصـفه، و بقبلته صـناعات تدهش العقول، و على فرجة المحراب سبع قسـيّ قائمـة على عمـد طول كل قوس فوق القامـة قـد تحير الروم و المسـلمون فى حسن وضـعها، و فى عضادتى المحراب أربعة أعمـدة اثنـان أخضـران و اثنـان لازورديـان، ليس لها قيمـة لنفاسـتها، و به منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه و لا مثله فى حسـن

صنعته، و خشبه ساج و آبنوس و بقمّ و عود قاقلى، و يذكر فى تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله و نقشه فى سبع سنين، و كان يعمل فيه ثمانية صناع لكل صانع فى كل يوم نصف مثقال محمدى، فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال و خمسون مثقالا- و فى الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب و الفضة لأجل وقوده، و بهذا الجامع مصحف يقال: إنه عثمانى، و للجامع عشرون بابا مصفحات بالنحاس الأندلسى مخرمة تخريما عجيبا بديعا يعجز البشر و يبهرهم، و فى كل باب حلقة فى نهاية الصنعة و الحكمة، و به الصومعة العجيبة التى ارتفاعها مائة ذراع بالمكى المعروف بالرشاشى، و فيه من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه و نعته، و بهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر، مكتوب على الواحد اسم محمد، و على الآخر صورة عصا موسى و أهل الكهف، و على الثالث صورة غراب نوح، و الجميع خلقة ربانية، و أما القنطرة التى بقرطبة فهى بديعة الصنعة، عجيبة المرأى، فاقت قناطر الدنيا حسنا، و عدد قسيّها سبعة عشر قوسا، سعة كل قوس منها خمسون شبرا و بين كل قوسين خمسون شبرا، و بالجملة فمحاسن قرطبة أعظم من أن نحيط بها وصفا، انتهى ملخصا.

و هو و إن تكرر بعضه مع ما قدمته فلا يخلو من فائدة زائدة، و اللّه الموفق.

و ما ذكره فى طول المسجد و عرضه مخالف لما مر، و يمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك، كما أشار إليه هو فى أمر الصومعة، و كذا ما ذكره فى عدد السوارى، إلا أن يقال:

ما تقدم باعتبار الصغار و الكبار، و هذا العدد الذى ذكره هنا إنما هو للكبار فقط، كما صرح به، و اللّه تعالى أعلم.

و أما الثريات فقد خالف فى عددها ما تقدم، مع أن المتقدم هو قول ثقات مؤرخى الأندلس، و نحن جلبنا النقل من مواضعه، و إن اختلفت طرقه و مضموناته.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸۲

و قال فى المغرب- عند تعرضه لذكر جامع قرطبة- ما نصه: اعتمدت فيما نقلته فى هذا الفصل على كتاب ابن بشكوال، فقد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء و أغنى عن الاستطلاع إلى كلام غيره.

عن الرازى أنه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح و خالد بن الوليد عن رأى عمر رضى اللّه تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق و غيرها مما أخذوه صلحا، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخل مدينتها تحت السور، و كانوا يسمونها بسنت بنجنت، و ابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعا، و بقى الشطر الثانى بأيدى النصارى، و هدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة، و اقتنع المسلمون بما فى أيديهم، إلى أن كثروا، و تزيدت عمارة قرطبة، و نزلها أمراء العرب، فضاق عنهم ذلك المسجد و جعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنّون بها، حتى كان الناس ينالون فى الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف، و قصر أبوابها، و تطامن سقفها، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض و لم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المروانى إلى الأندلس، و استولى على إمارتها، و سكن دار سلطانها قرطبة، و تمدّنت به، فنظر فى أمر الجامع، و ذهب إلى توسعته و إتقان بنيانه، فأحضر أعاظم النصارى، و سامهم بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه و أوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه، فأبوا من بيع ما بأيديهم، و سألوا بعد الجد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم التى هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به، فتم الأمر على ذلك، و كان ذلك سنة ثمان و ستين و مائة، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة إلى تفسير الزيادة فيه، و إنما الحاجة فى وصفه بكماله، و فى بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوى من قصيدة: [الطويل]

و أنفق فى دين الإله و وجهه ثمانين ألفا من لجين و عسجد

توزّعها فى مسجد أسّه التّقى و منهجه دين النّبىّ محمّد

ترى الذّهب النّارى فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸۳

قال: و كمل سنة سبعين و مائة، ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضا و ما جدّده فيه، و أنه بناه من خمس فيء أربونة، ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الأوسط لما تزايد الناس، قال: و هلك قبل أن يتم الزخرفة، فأتمها ولده محمد بن عبد الرحمن، ثم رمّ المنذر بن محمد ما و هى منه، و ذكر ما جدده خليفتهم الناصر و نقضه للصومعة الأولى و بنيانه للصومعة العظيمة، قال: و لما ولى الحكم المستنصر بن الناصر- و قد اتسع نطاق قرطبة، و كثر أهلها، و تبين الضيق فى جامعها- لم يقدّم شيئا على النظر فى الزيادة، فبلغ الجهد، و زاد الزيادة العظمى، قال: و بها كملت محاسن هذا الجامع، و صار فى حدّ يقصر الوصف عنه، و ذكر حضوره لمشاورة العلماء فى تحريف القبلة إلى نحو المشرق، حسبما فعله والده الناصر فى قبلة جامع الزهراء، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة إلى نحو الغرب، فقال له الفقيه أبو إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة و صلحاء المسلمين و علمائهم، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت، متأسّين بأوّل من نصبها من التابعين كموسى بن نصير و حنش الصنعانى و أمثالهم، رحمهم اللّه تعالى! و إنّما فضل من فضل بالاتباع، و هلك من هلك بالابتداع، فأخذ الخليفة برأيه، و قال: نعم ما قلت، و إنما مذهبنا الاتباع.

قال ابن بشكوال: و نقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة فى هذه الزيادة و ما اتصل بها انتهت إلى مائتى ألف دينار و أحد و ستين ألف دينار و خمسمائة دينار و سبعة و ثلاثين دينارا و درهمين و نصف.

ثم ذكر الصومعة نقلا عن ابن بشكوال فقال: أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الأولى سنة ۳۴۰ و أقام هذه الصومعة البديعة، فحفر فى أساسها حتى بلغ الماء مدّة من ثلاثة و أربعين يوما، و لما كملت ركب الناصر إليها من مدينة الزهراء و صعد فى الصّومعة من أحد درجيها، و نزل من الثانى، ثم خرج الناصر و صلى ركعتين فى المقصورة، و انصرف، قال:

و كانت الأولى ذات مطلع واحد، فصير لهذه مطلعين، فصل بينهما البناء، فلا يلتقى الراقون فيها إلا بأعلاها، تزيد مراقى كل مطلع منها على مائة سبعا.

قال: و خبر هذه الصومعة مشهور فى الأرض، و ليس فى مساجد المسلمين صومعة تعدلها.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸۴

قال ابن سعيد: قال ابن بشكوال هذا لأنه لم ير صومعة مراكش و لا صومعة إشبيلية اللتين بناهما المنصور من بنى عبد المؤمن، فهما أعظم و أطول، لأنه ذكر أن طول صومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذن أربعة و خمسون ذراعا و إلى أعلى الرمانة الأخيرة بأعلى الزج ثلاثة و سبعون ذراعا، و عرضها فى كل تربيع ثمانية عشر ذراعا، و ذلك اثنان و سبعون ذراعا، قال ابن سعيد: و طول صومعة مراكش مائة و عشرة أذرع، و ذكر أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة الفظيعة منجّدة غاية التنجيد، و فى أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها رمانات ملصقة فى السفود البارز فى أعلاها من النحاس: الثنتان منها ذهب إبريز، و الثالثة منها وسطى بينهما من فضة إكسير، و فوقها سوسنة من ذهب مسدّسة فوقها رمانة ذهب صغيرة فى طرف الزج البارز بأعلى الجوّ، و كان تمام هذه الصومعة فى ثلاثة عشر شهرا.

و ذكر ابن بشكوال فى رواية أن موضع الجامع الأعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم و غيرها، فلما قدم سليمان بن داود صلى اللّه عليهما و دخل قرطبة قال للجن: اردموا هذا الموضع و عدّلوا مكانه، فسيكون فيه بيت يعبد اللّه فيه، ففعلوا ما أمرهم به، و بنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور، قال: و من فضائله أن الدارات الماثلة فى تزاويق سمائه مكتوبة كلها بالذكر و الدعاء إلى غيره بأحكم صنعة، انتهى.

و ذكر مصحف عثمان بن عثمان رضى اللّه تعالى عنه الذى كان فى جامع قرطبة و صار إلى بنى عبد المؤمن فقال: هو مصحف أمير

المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، مما خطّه بيمينه، و له عند أهل الأندلس شأن عظيم، انتهى.

و سنذكر فيه زيادة على هذا.

[الزهراء و مسجدها]

و أما الزهراء فهى مدينة الملك التى اخترعها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين اللّه، و قد تقدّم ذكره، و هى من المدن الجليلة العظيمة القدر، قال ابن الفرضى و غيره: كان يعمل فى جامعها حين شرع فيه من حذّاق الفعلة كلّ يوم ألف نسمة منها ثلاثمائة بنّاء و مائتا نجّار و خمسمائة من الأجراء و سائر الصنائع، فاستتم بنيانه و إتقانه فى مدة من ثمانية و أربعين يوما، و جاء فى غاية الإتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصّنعة، و طوله من القبلة إلى الجوف- حاشا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸۵

المقصورة- ثلاثون ذراعا، و عرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاث عشرة ذراعا، و عرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعا، و طول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاث و أربعون ذراعا، و عرضه من الشرق إلى الغرب إحدى و أربعون ذراعا، و جميعه مفروش بالرخام الخمرى، و فى وسطه فوّارة يجرى فيها الماء، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف- سوى المحراب- سبع و تسعون ذراعا، و عرضه من الشرق إلى الغرب تسع و خمسون ذراعا، و طول صومعته فى الهواء أربعون ذراعا، و عرضها عشرة أذرع فى مثلها.

و أمر الناصر لدين اللّه باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد، فصنع فى نهاية من الحسن، و وضع فى مكانه منه، و حظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة، و كان وضع هذا المنبر فى مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع و عشرين و ثلاثمائة.

قال: و فى صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى أجراها و جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة، فى المناهر المهندسة، و على الحنايا المعقودة، يجرى ماؤها بتدبير عجيب و صنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صوّر الملوك فى غابر الدهر، مطلى بذهب إبريز، و عيناه جوهرتان لهما و بيص شديد، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجّه فى تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه و روعة منظره و ثجاجة صبه، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها، و يستفيض على ساحاته و جنباته، و يمدّ النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت هذه القناة و بركتها و التمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر، لبعد مسافتها، و اختلاف مسالكها، و فخامة بنيانها، و سموّ أبراجها التى يترقى الماء منها و يتصوّب من أعاليها، و كانت مدّة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل إلى أن وصلت- أعنى القناة- إلى هذه البركة أربعة عشر شهرا، و كان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل و استمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة، و كانت للناصر فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸۶

هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامة أهل مملكته، و وصل المهندسين و القوّام بالعمل بصلات حسنة جليلة جزيلة.

و أما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة و عشرين و ثلاثمائة إلى آخر دولة الناصر و ابنه الحكم، و ذلك نحو من أربعين سنة.

و لما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أوّل جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان، و كان الإمام القاضى أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أبى عيسى، و من الغد صلى الناصر فيه الجمعة، و أوّل من خطب به القاضى

المذكور، و لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة و الفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله فى الإسلام البتة، و ما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد النائية و النّحل المختلفة من ملك وارد و رسول وافد و تاجر و جهبذ، و فى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة و الفطنة، إلا و كلهم قطع أنه لم ير له شبها، بل يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه، و التحدث عنه، و الأخبار عن هذا تتسع جدا، و الأدلة عليه تكثر، و لو لم يكن فيه إلا السطح الممرّد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب و القبة و عجيب ما تضمنه من إتقان الصنعة و فخامة الهمة و حسن المستشرف و براعة الملبس و الحلة ما بين مرمر مسنون و ذهب مصون و عمد كأنما أفرغت فى القوالب، و نقوش كالرياض، و برك عظيمة محكمة الصنعة، و حياض و تماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها، فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها و اختراعها من أجزاء الأرض المنحلة كيما يرى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعدّه لأهل السعادة فى دار المقامة التى لا يتسلّط عليها الفناء، و لا تحتاج إلى الرّمّ، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم.

و ذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان صاحب الشرطة أن مبانى الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة و صغيرة حاملة و محمولة، و نيّف على ثلاثمائة سارية هو ستّ عشرة، قال: منها ما جلب من مدينة رومة، و منها ما أهداه صاحب القسطنطينية، و أن مصاريع أبوابها صغارها و كبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب، و كلها ملبسة بالحديد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸۷

و النحاس المموه، و اللّه سبحانه أعلم فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس، و أجلّه خطرا، و أعظمه شأنا، انتهى.

قلت: فسر بعضهم ذلك النيف فى كلامه بثلاث عشرة، و اللّه أعلم.

و قال بعض من أرخ الأندلس: كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى و سبعمائة و خمسين فتى، و دخالتهم من اللحم كل يوم - حاشا أنواع الطير و الحوت- ثلاثة عشر ألف رطل، و عدة النساء بقصر الزهراء الصغار و الكبار، و خدم الخدمة ستة آلاف و ثلاثمائة امرأة و أربع عشرة، انتهى.

و قيل: إن عدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف و سبعمائة و خمسون، و جعل بعض مكان الخمسين سبعة و ثمانين.

و قال آخر: ستة آلاف صقلبى و سبعة و ثمانون، و المرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم، و ينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم، انتهى.

ثم قال الأول: و كان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج و الحجل و صنوف الطير و ضروب الحيتان، انتهى.

و قال ابن حيان: ألفيت بخط ابن دحّون الفقيه، قال مسلمة بن عبد اللّه العريف المهندس: بدأ عبد الرحمن الناصر لدين اللّه بعمارة الزهراء أول سنة خمس و عشرين و ثلاثمائة، و كان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، سوى الصخر المصرف فى التبليط، فإنه لم يدخل فى هذا العدد، و كان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف و أربعمائة بغل، و قيل أكثر منها: أربعمائة زوامل الناصر لدين اللّه، و من دواب الأكرية الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر، يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال و كان يرد الزهراء من الجير و الجص فى كل ثالث من الأيام ألف و مائة حمل، و كان فيها حمامان: واحد للقصر، و ثان للعامة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸۸

و ذكر بعض أهل الخدمة فى الزهراء أنه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلاثمائة ألف دينار مدة خمسة و عشرين عاما التى بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها، لأنه توفى سنة خمسين، فحصل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال.

قال: و جلب إليها الرخام من قرطاجنة و إفريقية و تونس، و كان الذين يجلبونه عبد اللّه بن يونس عريف البنائين و حسن بن محمد و

على بن جعفر الإسكندرانى، و كان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة و كبيرة بعشرة دنانير، انتهى.

و قال بعض ثقات المؤرخين: إنه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير، و على كل سارية بثمانية دنانير، قيل: و كان عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية و ثلاث عشرة سارية، و من بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية، و أهدى إليه ملك الروم مائة و أربعين سارية، و سائرها من مقاطع الأندلس طرّكونة و غيرها، فالرخام المجزع من ريّة، و الأبيض من غيرها، و الوردى و الأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقس، و أما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليه أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء، و أما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام، و قيل: من القسطنطينية مع ربيع الأسقف أيضا، و قالوا: إنه لا قيمة له لفرط غرابته و جماله، و حمل من مكان إلى مكان حتى وصل فى البحر، و نصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس، و جعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد بجانبه غزال إلى جانبه تمساح، و فيما يقابله ثعبان و عقاب و فيل، و فى المجنبتين حمامة و شاهين و طاووس و دجاجة و ديك و حدأة و نسر، و كل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، و يخرج الماء من أفواهها، و كان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره، و كان يخبز فى أيامه فى كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة، و قيل: أكثر، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۸۹

و كان الناصر كما قدمنا قسم الجباية أثلاثا: ثلث للجند، و ثلث للبناء، و ثلث مدخر، و كانت جباية الأندلس يومئذ من الكور و القرى خمسة آلاف ألف و أربعمائة ألف و ثمانين ألف دينار، و من السوق و المستخلص سبعمائة ألف و خمسة و ستين ألف دينار، و أما أخماس الغنيمة فلا يحصيها ديوان.

و قد سبق هذا كله، و إنما كررته لقول بعضهم إثر حكايته له، ما صورته: و قيل: إن مبلغ تحصيل النفقة فى بناء الزهراء مائة مدى من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة، و قيل: إن مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مديا و سبعة أقفزة من الدراهم المذكورة، و اتصل بنيان الزهراء أيام الناصر خمسا و عشرين سنة شطر خلافته، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها، و كانت خمسة عشر عاما و أشهرا، فسبحان الباقى بعد فناء الخلق، لا إله إلا هو، انتهى.

[بين المنذر بن سعيد و الناصر]

و قال ابن أصبغ الهمدانى و الفتح فى المطمح: كان الناصر كلفا بعمارة الأرض، و إقامة معالمها، و انبساط مجاهلها، و استجلابها من أبعد بقاعها، و تخليد الآثار الدالة على قوة الملك و عزة السلطان و علوّ الهمة، فأفضى به الإغراق فى ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره، الذائع خبره، المنتشر صيته فى الأرض، و استفرغ جهده فى تنميقها، و إتقان قصورها، و زخرفة مصانعها، و انهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذه ثلاث جمع متواليات، فأراد القاضى منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب و الحكمة و التذكير بالإنابة و الرجوع، فابتدأ فى أول خطبته بقوله تعالى: أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ- إلى قوله تعالى: مِنَ الْواعِظِينَ [الشعراء الآية: ۱۲۸- ۱۳۶] ثم وصله بقوله: فمتاع الدنيا قليل، و الآخرة خير لمن اتقى، و هى دار القرار، و مكان الجزاء، و مضى فى ذم تشييد البنيان، و الاستغراق فى زخرفته، و الإسراف فى الإنفاق عليه، بكل كلام جزل، و قول فصل، قال الحاكى: فجرى فيه طلقا، و انتزع فيه قوله تعالى: أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ [التوبة: ۱۰۹] إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۰

آخر الآية و أتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت، و التحذير من فجأته، و الدعاء إلى الزهد فى هذه الدار الفانية، و الحض على اعتزالها، و الرفض لها، و الندب إلى الإعراض عنها، و الإقصار عن طلب اللذات، و نهى النفس عن اتباع هواها، فأسهب فى ذلك

كله، و أضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه، و جلب من الحديث و الأثر ما يشاكله، حتى أذكر من حضره من الناس و خشعوا و رقّوا و اعترفوا و بكوا و ضجوا و دعوا و أعلنوا التضرع إلى اللّه تعالى فى التوبة و الابتهال فى المغفرة، و أخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ، و قد علم أنه المقصود به، فبكى و ندم على ما سلف له من فرطه، و استعاذ بالله من سخطه، إلا أنه وجد على منذر لغلظ ما قرّعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر، و قال: و اللّه لقد تعمدنى منذر بخطبته، و ما عنى بها غيرى، فأسرف على، و أفرط فى تقريعى و تفزيعى، و لم يحسن السياسة فى وعظى، فزعزع قلبى، و كاد بعصاه يقرعنى، و استشاط غيظا عليه فأقسم أن لا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرّف صاحب الصلاة بقرطبة، و يجانب الصلاة بالزهراء، و قال له الحكم: فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك و الاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟! فزجره و انتهره، و قال له: أمثل منذر بن سعيد فى فضله و خيره و علمه لا أم لك يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، و إنى لأستحى من اللّه أن لا أجعل بينى و بينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر فى ورعه و صدقه، و لكنه أحرجنى، فأقسمت، و لوددت أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى، بل يصلى بالناس حياته و حياتنا إن شاء اللّه تعالى، فما أظننا نعتاض منه أبدا و قيل: إن الحكم اعتذر عما قال منذر، و قال: يا أمير المؤمنين، إنه رجل صالح، و ما أراد إلا خيرا، و لو رأى ما أنفقت و حسن تلك البنية لعذرك، فأمر حينئذ الناصر بالقصور ففرشت، و فرش ذلك المجلس بأصناف فرش الديباج، و أمر بالأطعمة، و قد أحضر العلماء و غصّ بهم المجلس، فدخل منذر فى آخرهم، فأومأ إليه الناصر أن يقعد بقربه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس، و لا يتخطى الرقاب، فجلس فى آخر الناس و عليه ثياب رثّة، ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاما من كلام المنذر يأتى قريبا.

و قحط الناس آخر مدة الناصر، فأمر القاضى منذر المذكور بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فتأهب لذلك، و صام بين يديه أياما ثلاثا تنفلا و إنابة و رهبة، و اجتمع له الناس فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۱

مصلى الرّبض بقرطبة بارزين إلى اللّه تعالى فى جمع عظيم، و صعد الخليفة الناصر فى أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس، و يشاركهم فى الخروج إلى اللّه و الضّراعة له، فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس و غصت بهم ساحة المصلى، ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا مختبتا متخشعا، و قام ليخطب، فلما رأى بدار الناس إلى ارتقائه، و استكانتهم من خيفة اللّه، و إخباتهم له، و ابتهالهم إليه- رقت نفسه، و غلبته عيناه، فاستعبر و بكى حينا، ثم افتتح خطبته بأن قال: يا أيها الناس، سلام عليكم، ثم سكت و وقف شبه الحصر، و لم يك من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون ما عراه و لا ما أراد بقوله، ثم اندفع تاليا قوله تعالى كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ- إلى قوله تعالى- رَحِيمٌ [الأنعام: ۵۴] ثم قال: استغفروا ربكم إنه كان غفارا، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، و تزلّفوا بالأعمال الصالحة لديه، قال الحاكى: فضج الناس بالبكاء، و جأروا بالدعاء، و مضى على تمام خطبته، ففزّع النفوس بوعظه، و انبعث الإخلاص بتذكيره، فلم ينقض النهار حتى أرسل اللّه السماء بماء منهمر، روّى الثرى، و طرد المحل، و سكن الأزل، و اللّه لطيف بعباده و كان لمنذر فى خطب الاستسقاء استفتاح عجيب، و منه أن قال يوما- و قد سرح طرفه فى ملأ الناس عند ما شخصوا إليه بأبصارهم، فهتف بهم كالمنادى-: يا أيها الناس، و كررها عليهم مشيرا بيده فى نواحيهم أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ [فاطر: ۱۵] إلى بعزيز، فاشتد وجد الناس، و انطلقت أعينهم بالبكاء، و مضى فى خطبته.

و قيل: إن الخليفة الناصر طلبه مرة للاستسقاء، و اشتدّ عزمه عليه، فتسابق الناس للمصلى، فقال للرسول- و كان من خواص الناس-: ليت شعرى! ما الذى يصنعه الخليفة سيدنا؟ فقال له: ما رأينا قط أخشع منه فى يومنا هذا، إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخس الثياب، مفترش التراب، و قد رمّد به على رأسه و على لحيته، و بكى و اعترف بذنوبه و هو يقول: هذه ناصيتى بيدك، أتراك تعذب بى الرعية و أنت أحكم الحاكمين؟ لن يفوتك شىء منى، قال الحاكى: فتهلل وجه القاضى منذر عند ما سمع قوله، و قال: يا غلام، احمل المطر معك فقد أذن اللّه تعالى بالسّقيا، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء، و كان كما قال، فلم ينصرف الناس إلا

عن السقيا.

و كان منذر شديد الصلابة فى أحكامه، و المهابة فى أقضيته، و قوة الحكومة و القيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده، لا يهاب فى ذلك الأمير الأعظم فمن دونه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۲

و قال ابن الحسن النّباهى، و أصله فى المطمح و غيره: و من أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر فى إنكاره عليه الإسراف فى البناء، أن الناصر كان اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية التى كانت مائلة على الصّرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب و فضة أنفق عليها مالا جسيما، و قرمد سقفها به، و جعل سقفها صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، تستلب الأبصار بأشعة نورها، و جلس فيها إثر تمامها يوما لأهل مملكته، فقال لقرابته و من حضر من الوزراء و أهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة: هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا و اللّه يا أمير المؤمنين، و إنك لأوحد فى شأنك كله، و ما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، و لا انتهى إلينا خبره، فأبهجه قولهم و سره، و بينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد و هو ناكس الرأس، فلما أخذ مجلسه قال له كالذى قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب و اقتداره على إبداعه، فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته و قال له: و اللّه يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه اللّه يبلغ منك هذا المبلغ، و لا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك اللّه من فضله و نعمته، و فضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، قال: فانفعل عبد الرحمن لقوله، و قال له: انظر ما تقول، و كيف أنزلنى منزلتهم؟

قال: نعم، أليس اللّه تعالى يقول وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً [الزخرف: ۳۳] الآية.

فوجم الخليفة، و أطرق مليّا و دموعه تتساقط خشوعا للّه تعالى قال الحاكى: ثم أقبل على منذر و قال له: جازاك اللّه يا قاضى عنا و عن نفسك خيرا و عن الدين و المسلمين أجل جزائه، و كثر فى الناس أمثالك! فالذى قلت هو الحق، و قام عن مجلسه ذلك و هو يستغفر اللّه تعالى، و أمر بنقض سقف القبيبة، و أعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها، انتهى ما حكاه ابن الحسن النّباهى.

و لنذكر هذه الحكاية و غيرها، و إن خالف السياق ما سبق، و هذا منقول من كلام الحجارى فى «المسهب، فى أخبار المغرب» فإنه أتم فائدة، إذ قال رحمه اللّه: دخل منذر بن سعيد يوما على الناصر بانى الزهراء، و هو مكب على الاشتغال بالبنيان، فوعظه، فأنشده عبد الرحمن الناصر: [الكامل]

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا و كم ملك محاه حوادث الأزمان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۳

إنّ البناء إذا تعاظم شأنه أضحى يدلّ على عظيم الشّان

قال: فما أدرى أهذا شعره أم تمثل به؟ فإن كان شعره فقد بلغ به إلى غاية الإحسان و إن كان تمثل به فقد استحقه بالتمثل به فى هذا المكان، و كان منذر يكثر تعنيفه على البنيان، و دخل عليه مرة و هو فى قبة قد جعل قرمدها من ذهب و فضة، و احتفل فيها احتفالا ظن أن أحدا من الملوك لم يصل إليه، فقام خطيبا و المجلس قد غصّ بأرباب الدولة، فتلا قوله تعالى وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (۳۳) [الزخرف: ۳۳] الآية و أتبعها بما يليق بذلك، فوجم الملك، و أظهر الكآبة، و لم يسعه إلا الاحتمال لمنذر بن سعيد لعظم قدره فى علمه و دينه.

و حضر معه يوما فى الزهراء، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصر قصيدة منها. [الطويل]

سيشهد ما أبقيت أنّك لم تكن مضيعا و قد مكّنت للدّين و الدّنيا

فبالجامع المعمور للعلم و التّقى و بالزّهرة الزّهراء للملك و العليا

فاهتز الناصر، و ابتهج، و أطرق منذر بن سعيد ساعة، ثم قام منشدا: [السريع]

يا بانى الزّهراء مستغرقا أوقاته فيها أما تمهل

للّه ما أحسنها رونقا لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر: إذا هب عليها نسيم التذكار و الحنين، و سقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء اللّه تعالى، فقال منذر: اللهم اشهد أنى قد بثثت ما عندى و لم آل نصحا، انتهى.

و لقد صدق القاضى منذر رحمه اللّه تعالى فيما قال، فإنها ذبلت بعد ذلك فى الفتنة، و قلب ما كان فيها من منحة محنة، و ذلك عندما ولى الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر الملقب بشنجول، و تصرف فى الدولة مثل ما تصرف أخوه المظفر و أبوهما المنصور، فأساء التدبير، و لم يميز بين الفتيل و النقير، فدس إلى المؤيد هشام بن الحكم من خوّفه منه حتى ولاه عهده كما بينا نص العهد فيما سبق، فأطبق الخاصة و العامة على بغضه، و إضمار السوء له، و ذلك سنة ثمان و تسعين و ثلاثمائة، فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۴

عبد الجبار بن الناصر سنة تسع و تسعين و تلقب بالمهدى و خلع المؤيد و حبسه، و أسلمت الجيوش شنجول فأخذ و أسر و قتل.

[دثور الزهراء]

قال ابن الرقيق: و من أعجب ما رئى أنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فتحت قرطبة، و هدمت الزهراء، و خلع خليفة و هو المؤيد، و ولى خليفة و هو المهدى، و زالت دولة بنى عامر العظيمة، و قتل وزيرهم محمد بن عسقلاجة، و أقيمت جيوش من العامة، و نكب خلق من الوزراء و ولى الوزارة آخرون، و كان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين و جزارين و زبالين، و هم جند المهدى هذا، انتهى.

و قد تقدم بعض الكلام على المهدى هذا، و هو الذى قيل فيه لما قام على الدولة:

[البسيط]

قد قام مهديّنا و لكن بملّة الفسق و المجون

و شارك النّاس فى حريم لولاه ما زال بالمصون

من كان من قبل ذا أجمّا فاليوم قد صار ذا قرون

و من شعر المهدى هذا و قد حيّاه فى مجلس شرابه غلام بقضيب آس: [الكامل]

أهديت شبه قوامك الميّاس غصنا رطيبا ناعما من آس

و كأنّما يحكيك فى حركاته و كأنّما تحكيه فى الأنفاس

و قد ذكرنا فيما سبق فى الفصل الثالث خبر المهدى هذا و قتله.

و لقد كان قيامه مشؤوما على الدين و الدنيا، فإنه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس و ما حى معالمها، حتى تفرقت الدولة، و انتثر السلك، و كثر الرؤساء، و تطاول العدو إليها، و أخذها شيئا فشيئا حتى محا اسم الإسلام منها، أعادها اللّه تعالى!.

و قد ألم الولى ابن خلدون فى تاريخه بذكر الزهراء فى جملة مبانى الناصر، فقال ما نصه: و لما استفحل ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد القصور و المبانى، و كان جده الأمير محمد و أبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتفلوا فى ذلك و بنوا قصورهم على أكمل الإتقان و الضخامة، و كان فيها المجلس الزاهر و البهو الكامل و المنيف، فبنى هو إلى جانب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۵

الزاهرة قصره العظيم، و سماه «دار الروضة» و جلب الماء إلى قصورهم من الجبل و استدعى عرفاء المهندسين و البنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد و القسطنطينية، ثم أخذ فى بناء المستنزهات، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور، و ساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة، ثم اختط مدينة الزهراء، و اتخذها لنزله، و كرسيا لملكه، و أنشأ فيها من المبانى و القصور و البساتين ما عفّى على مبانيهم الأولى، و اتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، و مسارح للطيور مظللة بالشباك، و اتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب و الحلى للزينة و غير ذلك من المهن، و أمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة و قاية للناس من حر الشمس، انتهى.

و أما الزهراء فهى من مبانى المنصور محمد بن أبى عامر.

قال ابن خلدون فى أثناء كلامه على المنصور ما صورته: و ابتنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة، و نقل إليها جزءا من الأموال و الأسلحة، انتهى.

[الزاهرة]

و قال غيره، و أظنه صاحب المطمح: و فى سنة ثمان و ستين و ثلاثمائة أمر المنصور بن أبى عامر ببناء الزاهرة، و ذلك عندما تكامل و استفحل أمره، و اتقد جمره، و ظهر استبداده، و كثر حسّادة و أضداده و أنداده، و خاف على نفسه فى الدخول إلى قصر السلطان، و خشى أن يقع فى أشطان، فتوثق لنفسه، و كشف له ما ستر عنه فى أمسه، من الاعتزاز عليه، و رفع الاستناد إليه، و سما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، و يحله بأهله و ذويه، و يضم إليه رياسته، و يتم به تدبيره و سياسته، و يجمع فيه فتيانه و غلمانه، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، و أقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، و نسّق فيها كل اقتدار معجز و نظم، و شرع فى بنائها فى هذه السنة المؤرخة، و حشد الصناع و الفعلة، و جلب إليها الآلات الجليلة، و سربلها بهاء يرد الأعين كليلة، و توسع فى اختطاطها، و تولّع بانتشارها فى البسيطة و انبساطها، و بالغ فى رفع أسوارها، و ثابر على تسوية أنجادها و أغوارها، فاتسعت هذه المدينة فى المدة القريبة، و صار بناؤها من الأنباء الغريبة، و بنى معظمها فى عامين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۶

و فى سنة سبعين و ثلاثمائة انتقل المنصور إليها و نزلها بخاصته و عامته، فتبؤأها و شحنها بجميع أسلحته و أمواله و أمتعته، و اتخذ فيها الدواوين و الأعمال و عمل فى داخلها الأهراء، و أطلق بساحتها الأرحاء، ثم أقطع ما حولها لوزرائه و كتابه، و قوّاده و حجابه، فابتنوا بها كبار الدور، و جليلات القصور، و اتخذوا خلالها المستغلّات المفيدة، و المنارة المشيدة، و قامت بها الأسواق، و كثرت فيها الأرفاق، و تنافس الناس بالنزول بأكنافها، و الحلول بأطرافها، للدنوّ من صاحب الدولة، و تناهى الغلوّ فى البناء حوله، و حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة و كثرت بحوزتها العمارة، و استقرت فى بحبوحتها الإمارة، و أفرد الخليفة من كل شىء إلا من الاسم الخلافى، و صير ذلك هو الرسم العافى، و رتب فيها جلوس وزرائه، و رؤوس أمرائه، و ندب إليها كل ذى خطته، و نصب ببابها كرسىّ شرطته، و أجلس عليها واليا على رسم كرسى الخليفة، و فى صفة تلك المرتبة المنيفة؛ و كتب إلى الأقطار بالأندلس و العدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، و يقصدها أصحاب الولايات، و ينتابها طلاب الحوائج، و حذّر أن يعوج عنها إلى دار الخليفة عائج، فاقتضيت إليها اللّبانات و الأوطار، و انحشد الناس إليها من جميع الأقطار، و تم لمحمد بن أبى عامر ما أراد، و انتظم بلبّة أمانيه المراد، و عطل قصر الخليفة من جميعه، و صيّره بمعزل من سامعه و مطيعه، و سدّ باب قصره عليه، و جدّ فى خبر ألا يصل إليه، و جعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، و يبسط فيه النهى و الأمر، و يشرف منه على كل داخل، و يمنع ما يحذره من الدواخل، و رتب عليه الحرّاس و البوّابين، و السمّار و المنتابين، يلازمون حراسة من فيه ليلا و نهارا، و يراقبون حركاتهم سرا و جهارا، و قد حجر على الخليفة كل تدبير، و منعه من تملك قبيل أو دبير، و أقام الخليفة هشام مهجور الفناء، معجوز الغناء، خفى الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب،

محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص و لا عام، و لا يخاف منه بأس و لا يرجى منه إنعام، و لا يعهد منه إلا الاسم السلطانى فى السّكة و الدعوة، و قد نسخه و لبّس أبهته، و طمس بهجته، و أغنى الناس عنه، و أزال أطماعهم منه، و صيرهم لا يعرفونه، و أمرهم أنهم لا يذكرونه، و اشتد ملك محمد بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۷

أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة و توسّع مع الأيام فى تشييد أبنيتها حتى كملت أحسن كمال، و جاءته فى نهاية الجمال، تفاوت بناء، و سعة فناء، و اعتدال هواء، رقّ أديمه، و صقالة جوّ اعتلّ نسيمه، و نضرة بستان، و بهجة للنفوس فيها افتنان، و فيها يقول صاعد اللغوى: [البسيط]

يا أيّها الملك المنصور من يمن و المبتنى نسبا غير الّذى انتسبا

بغزوة فى قلوب الشّرك رائعة بين المنايا تناغى السّمر و القضبا

أما ترى العين تجرى فوق مرمرها زهوا فتجرى على أحفافها الطّربا

أجريتها فطما الزّاهى بجريتها كما طموت فسدت العجم و العربا

تخال فيه جنود الماء رافلة مستلئمات تريك الدّرع و اليلبا

تحفّها من فنون الأيك زاهرة قد أورقت فضّة إذ أورقت ذهبا

بديعة الملك ما ينفكّ ناظرها يتلو على السّمع منها آية عجبا

لا يحسن الدّهر أن ينشى لها مثلا و لو تعنّت فيها نفسه طلبا

[المنية العامرية]

و دخل عليه ابن أبى الحباب فى بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية، و الروض قد تفتحت أنواره، و توشحت أنجاده و أغواره، و تصرّف فيها الدهر متواضعا، و وقف بها السعد خاضعا، فقال: [البسيط]

لا يوم كاليوم فى أيّامك الأول بالعامريّة ذات الماء و الظّلل

هواؤها فى جميع الدّهر معتدل طيبا و إن حلّ فصل غير معتدل

ما إن يبالى الّذى يحتلّ ساحتها بالسّعد أن لا تحلّ الشّمس بالحمل

و ما زالت هذه المنية رائقة، و السّعود بلبّتها متناسقة، تراوحها الفتوح و تغاديها، و تجلب إليها منكسرة أعاديها، لا تزحف عنها راية إلا إلى فتح، و لا يصدر عنها تدبير إلا إلى نجح، إلى أن حان يومها العصيب، و قيض لها من المكروه أوفر نصيب، فتولت فقيدة، و خلت من بهجتها كل عقيدة، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۸

و قد حكى الحميدى فى «جذوة المقتبس» هذه الحكاية الواقعة لابن أبى الحباب بزيادة، فقال- بعد أن ذكر هذه المنية العامرية التى إلى جانب الزهراء-: إن أبا المطرف بن أبى الحباب الشاعر دخل إلى المنصور فى هذه المنية، فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد فتحتا و واحدة لم تفتح، فقال يصف ذلك: [البسيط]

لا يوم كاليوم فى أيّامنا الأول بالعامريّة ذات الماء و الظّلل

هواؤها فى جميع الدّهر معتدل طيبا، و إن حلّ فصل غير معتدل

ما إن يبالى الّذى يحتلّ ساحتها بالسّعد ألّا تحلّ الشّمس فى الحمل

كأنّما غرست فى ساعة و بدا السّ وسان من حينه فيها على عجل

أبدت ثلاثا من السّوسان مائلة أعناقهنّ من الإعياء و الكسل

فبعض نوّارها للبعض منفتح و البعض منغلق عنهنّ فى شغل

كأنّها راحة ضمّت أناملها من بعد ما ملئت من جودك الخضل

و أختها بسطت منها أناملها ترجو نداك كما عوّدتها فصل

و قد ذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبى عامر و عنده صاعد اللغوى البغدادى، فأنشده و هو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات: [المجتث]

فالعامريّة تزهى على جميع المبانى

و أنت فيها كسيف قد حلّ فى غمدان

فقام صاعد، و كان مناقضا له، فقال: أسعد اللّه تعالى الحاجب الأجل! و مكن سلطانه! هذا الشعر الذى قاله قد أعدّه و تروّى فيه أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالا، فقال له المنصور: قل ليظهر صدق دعواك، فجعل يقول من غير فكرة كثيرة: [المجتث]

يا أيّها الحاجب المع تلى على كيوان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۹۹

و من به قد تناهى فخار كلّ يمان

العامريّة أضحت كجنّة الرّضوان

فريدة لفريد ما بين أهل الزّمان

ثم مر فى الشعر إلى أن قال فى وصفها: [المجتث]

انظر إلى النّهر فيها ينساب كالثّعبان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۹۹

و الطّير يخطب شكرا على ذرا الأغصان

و القضب تلتفّ سكرا بميّس القضبان

و الرّوض يفترّ زهوا عن مبسم الأقحوان

و النّرجس الغضّ يرنو بوجنة النّعمان

و راحة الرّيح تمتا ر نفحة الرّيحان

فدم مدى الدّهر فيها فى غبطة و أمان

فاستحسن المنصور ارتجاله، و قال لابن العريف: مالك فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله، فكيف تكون رويته؟ فقال ابن العريف: إنما أنطقه و قرّب عليه المأخذ إحسانك، فقال له صاعد: فيخرج من هذا أن قلة إحسانه لك أسكتتك و بعدت عليك المأخذ، فضحك المنصور و قال: غير هذه المنازعة أليق بأدبكما.

[كثرة المنى فى الأندلس]

قلت: و قد ذكر مؤرخو الأندلس منى كثيرة بها: منها منية الناعورة السابقة، و منية العامرية هذه، و منية السرور، و منية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة.

قال أبو الحسن بن سعيد: أخبرنى أبى عن أبيه قال: خرج معى إلى هذه المنية فى زمان فتح نوّار اللوز أبو بكر بن بقىّ الشاعر المشهور، فجلسنا تحت سطر لوز قد نوّر، فقال ابن بقىّ: [البسيط]

سطر من اللّوز فى البستان قابلنى ما زاد شيء على شيء و لا نقصا

كأنّما كلّ غصن كمّ جارية إذا النّسيم ثنى أعطافه رقصا

ثم قال: [الطويل]

عجبت لمن أبقى على خمر دنّه غداة رأى لوز الحديقة نوّرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۰

و ذكر بعض مؤرخى الأندلس أن المنصور بن أبى عامر كان يزرع كل سنة ألف مدى من الشعير قصيلا لدوابه الخاصة به، و أنه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لا يحلّ عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها و ما عاش، و صاحب الأبنية لما و هى من أسواره و مبانيه و قصوره و دوره، قال: و كان له دخالة كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم، حاشا الصيد و الطير و الحيتان، و كان يصنع فى كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة و الزهراء، قال: و ابتنى على طريق المباهاة و الفخامة مدينة الزاهرة ذات القصور و المنتزهات المخترعة كمنية السرور و غيرها من مناشئه البديعة، انتهى.

[بين المنصور و ابن شهيد]

و من المطمح: أن المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة و أبعد فيها الإيغال و غال فيها من عظماء الروم من غال، و حل من أرضهم ما لم يطرق، و راع منهم ما لم يرع قط و لم يفرق، و صدر صدرا سما به على كل حسناء عقيلة، و جلا به كل صفحة للحسن صقيلة، و دخل قرطبة دخولا لم يعهد، و شهد له فيها يوم مثله لم يشهد، و كان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عداه عائده، و حداه منتجعه و رائده، و ابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر، و له على ابن أبى عامر أياد محكمة الأواصر، و هو الذى نهض به أول انبعاثه، و شفى أمره زمن التياثة، و خاصم المصحفى عنه بلسان من الحماية ألدّ، و توخاه بإحسان قلده من الرعاية ما قلد، و أسمى رتبته، و حلّى بإعظام جاهه لبّته، و كان كثيرا ما يتحفه، و يصله و يلطفه، فلما صدر المنصور من غزوته هذه و قفل، نسى متاحفته و غفل، فكتب إليه ابن شهيد: [الخفيف]

أنا شيخ و الشّيخ يهوى الصّبايا يا بنفسى أقيك كلّ الرّزايا

و رسول الإله أسهم فى الفى ء لمن لم يخبّ فيه المطايا

فاجعلنّى فديت أشكر معرو فك و ابعث بها عذاب الثّنايا

فبعث إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار، كأنهن نجوم سوار، و كتب إليه:

[الخفيف]

قد بعثنا بها كشمس النّهار فى ثلاث من المها أبكار

فاتّئد و اجتهد فإنّك شيخ سلخ اللّيل عن بياض النّهار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۱

صانك اللّه عن كلالك فيها فمن العار كلّة المسمار

فكتب إليه ابن شهيد: [الخفيف]

قد فضضنا ختام ذاك السّوار و اصطبغنا من النّجيع الجارى

و نعمنا فى ظلّ أنعم ليل و لهونا بالبدر ثمّ الدّرارى

و قضى الشّيخ ما قضى بحسام ذى مضاء عضب الظّبا بتّار

فاصطنعه فليس يجزيك كفرا و اتّخذه سيفا على الكفّار

و قد قدمنا هذه الحكاية فى أخبار المنصور من الباب الثالث، و لكنا أعدناها هنا بلفظ المطمح لما فيه من العذوبة و الفائدة الزائدة.

و ممن كان فى أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولانى، قال فى المطمح: علم من الأعلام فريد الزمان، و عين من أعيان البيان، باهر الفصاحة، طاهر الجناب و الساحة، تولى التحبير أيام المنصور و الإنشاء، و أشعر بدولته الأفراح و الانتشاء، و لبس العزة مدتها ضافية البرود، و ورد بها النعمة صافية الورود، و امتطى من جياد التوجيه، و أعنق من لاحق و الوجيه، و تمادى طلقة، و لا أحد يلحقه، إلى أيام المظفر فمشى على سننه، و تمادى السعد يترنم على فننه، إلى أن قتل المظفر صهره عيسى بن القطاع، صاحب دولته و أميرها المطاع، و كان أبو مروان قديم الاصطناع له و الانقطاع، فاتهم معه، و كاد أن يذوق حمامه و مصرعه، إلا أن إحسانه شفع، و بيانه نفع و دفع، فحطّ عن تلك الرتب، و حمل إلى طرطوشة على القتب، فبقى هنالك معتقلا فى برج من أبراجها نائى المنتهى، كأنما يناجى السها، قد بعد ساكنه عن الأنيس، و قعد من النجم بمنزلة الجليس، تمر الطيور دونه و لا- تجوزه، و يرى منه الثرى و لا- يكاد يحوزه، فبقى فيه دهرا لا- يرتقى إليه راق، و لا- يرجى لبثّه راق، إلى أن أخرج منه إلى ثراه، و استراح مما عراه، فمن بديع نظمه قوله يصف المعتقل، الذى فيه اعتقل: [الكامل]

يأوى إليه كلّ أعور ناعق و تهبّ فيه كلّ ريح صرصر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۲

و يكاد من يرقى إليه مرّة من عمره يشكو انقطاع الأبهر

و دخل ليلة على المنصور و المنصور قد اتكأ و ارتفق، و تحلى بمجلسه ذلك الأفق، و الدّنيا بمجلسه ذلك مسوقة، و أحاديث الأمانى به منسوقة، فأمره بالنزول عنده فنزل فى جملة الأصحاب، و القمر يظهر و يحتجب فى السحاب، و الأفق يبدو به أغر ثم يعود مبهما، و الليل يتراءى منه أشقر ثم يعود أدهما، و أبو مروان قد انتشى، و جال فى ميدان الأنس و مشى، و برد خاطره قد دبجه السرور و وشى، فأقلقه ذلك المغيب و الالتياح، و أنطقه ذلك السرور و الارتياح، فقال: [الوافر]

أرى بدر السّماء يلوح حينا فيبدو ثمّ يلتحف السّحابا

و ذلك أنّه لمّا تبدّى و أبصر وجهك استحيا فغابا

مقال لو نمى‌عندى إليه لراجعنى بذا حقّا جوابا

و له فى مدة اعتقاله، و تردّده فى قيله و قاله: [الكامل]

شحط المزار فلا مزار، و نافرت عينى الهجوع فلا خيال يعترى

أزرى بصبرى و هو مشدود القوى و ألان عودى و هو صلب المكسر

و طوى سرورى كلّه و تلذّذى بالعيش طىّ صحيفة لم تنشر

ها إنّما ألقى الحبيب توهّما بضمير تذكارى و عين تذكّرى

عجبا لقلبى يوم راعتنى النّوى و دنا وداع كيف لم يتفطّر

رجع إلى المنصور: و كان المنصور إذا أراد أمرا مهما شاور أرباب الدولة و الأكابر من خدام الدولة الأموية، فيشيرون عليه بالوجه الذى عرفوه و جرت الدولة الأموية عليه، فيخالفهم إلى المنهج الذى ابتدعه، فيقضون فى أنفسهم بالهلاك فى الطريق الذى سلكه، و المهيع الذى اخترعه، فتسفر العاقبة عن السلامة التامة التى اقتضاها سعده، فيكثرون التعجب من موارد أموره و مصادرها.

و قيل له مرة: إن فلانا مشؤوم فلا تستخدمه، فقال: أف لسعد لا يغطى على شؤمه، فاستخدمه، و لم ينله من شؤمه الذى جرت به العادة شىء.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۳

[من أخبار المنصور بن أبى عامر]

و حكى عنه أنه كان فى قصره بالزاهرة، فتأمل محاسنه، و نظر إلى مياهه المطردة، و أنصت لأطياره المغردة، و ملأ عينه من الذى حواه من حسن و جمال، و التفت فى الزاهرة من اليمين إلى الشمال، فانحدرت دموعه، و تجهم و قال: ويها لك يا زاهرة، فليت شعرى من الخائن الذى يكون خرابك على يديه عن قريب؟ فقال له بعض خاصته: ما هذا الكلام الذى ما سمعناه من مولانا قط؟ و ما هذا الفكر الردىء الذى لا يليق بمثله شغل البال به؟ فقال: و اللّه لترون ما قلت، و كأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت، و برسومها قد غيرت، و بمبانيها قد هدمت و نحّيت، و بخزائنها قد نهبت، و بساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة و ألهبت، قال الحاكى: فلم يكن إلا أن توفى المنصور و تولى المظفر و لم تطل مدته، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول، فقام عليه المهدى و العامة، و كانت منهم عليه و على قومه الطامة، و انقرضت دولة آل عامر، و لم يبق منهم آمر: [الطويل]

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا أنيس و لم يسمر بمكّة سامر

بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا صروف اللّيالى و الجدود العواثر

[دثور الزاهرة]

و خربت الزاهرة، و مضت كأمس الدابر، و خلت منها الدسوت الملوكية زاهرة و الدساكر، و استولى النهب على ما فيها من العدة و الذخائر، و السلاح، و تلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح، و صارت قاعا صفصفا، و أبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح و الصفا.

و يروى أن بعض أولياء ذلك الزمان مر بها، و نظر إلى مصانعها السامية الفائقة، و مبانيها العالية الرائقة، فقال: يا دار فيك من كل دار، فجعل اللّه منك فى كل دار.

قال الحاكى: فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح إلا أيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها، و عمّ بالخراب سائرها، فلم تبق دار فى الأندلس إلا و دخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة، و حقق اللّه تعالى دعاء ذلك الرجل الذى همته مع ربه جليلة.

و لقد حكى أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد و غيرها من البلاد المشرقية، فسبحان من لا يزول سلطانه و لا ينقضى ملكه! لا إله إلا هو.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۴

و تذكرت هنا ما رآه فى المنام بعض أهل المغرب بالليلة التى انقرض فيها ملك الموحّدين أن شخصا ينشده: [البسيط]

ملك بنى مؤمن تولّى و كان فوق السّماك سمكه

فاعتبروا و انظروا و قولوا: سبحان من لا يبيد ملكه

لا إله إلا هو.

و كان المهدى القائم على العامرين ماجنا فاتكا، و قال- و قد حيّاه فى مجلس شرابه غلام بقضيب آس-: [الكامل]

أهديت شبه قوامك الميّاس غصنا رطيبا ناعما من آس

و كأنّما يحكيك فى حركاته و كأنّما تحكيه فى الأنفاس

و كان المنصور بن أبى عامر حين تغلب على ملك الأمويين غير مكترث بمثل المهدى المذكور، فسلطه اللّه تعالى على كل ما أسسه المنصور حتى هدمه، و أخر كل ما قدمه، و لم ينفع فى ذلك احتياط و لا حزم، و لا راد للقضاء المبرم الجزم.

[مجزوء الكامل]

و اللّه يحكم ما يشا ء فلا تكن متعرّضا

و قد قدمنا شيئا من أخبار المنصور، و لا بأس أن نلمّ هنا ببعضها و إن حصل منه نوع تكرار فى نبذة منها لارتباط الكلام بعضه ببعض.

[طرف من أخبار المنصور]

قال بعض المحققين من المؤرخين: حجر المنصور بن أبى عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة، و ربما أركبه بعد سنين و جعل عليه برنسا، و على جواريه مثل ذلك، فلا يعرف منهن، و يأمر من ينحّى الناس من طريقه، حتى ينتهى المؤيد إلى موضع تنزهه، ثم يعود، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة فى بعض الأيام لغرض له، كما ألمعنا به فيما سبق، و كان المنصور إذا سافر وكّل بالمؤيد من يفعل معه ذلك، فكان هذا من فعله سببا لانقطاع ملك بنى أمية من الأندلس، و أخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفا أن يثوروا به، و يظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية، ثم فرق باقيهم فى البلاد، و أدخلهم زوايا الخمول عارين من الطّراف و التّلاد، و ربما سكن بعضهم البادية، و ترك مجلس الأبهة و ناديه، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۵

أبنى أميّة أين أقمار الدّجى منكم؟ و أين نجومها و الكوكب؟

غابت أسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثّعلب

مع أن للمنصور مفاخر، بذّ بها الأوائل و الأواخر، من المثابرة على جهاد العدو، و تكرار الذهاب بنفسه فى الرواح و الغدوّ، و له مع المصحفى و غيره أخبار مرت و يأتى بعضها، و لا بأس أن نلخص ترجمة المصحفى فنقول:

[ترجمة المصحفى فى المطمح]

قال الفتح فى المطمح: الحاجب جعفر المصحفى- تجرّد للعليا، و تمرد فى طلب الدنيا، حتى بلغ المنى، و تسوّغ ذلك الجنى، فسما دون سابقة، و ارتمى إلى رتبة لم تكن لبنيته بمطابقة، و التاح فى أفياء الخلافة، و ارتاح إليها بعطفه كنشوان السّلافة، و استوزره المستنصر، و عنه كان يسمع و به كان يبصر، فأدرك بذلك ما أدرك، و نصب لأمانيه الحبائل و الشّرك، و اقتنى و ادخر، و أزرى بمن سواه و سخر، و استعطفه المنصور محمد بن أبى عامر و نجمه بعد غائر لم يلح، و سره مكتوم لم يبح، فما عطف، و لا جنى من روضة دنياه و لا قطف، فأقام فى تدبير الأندلس ما أقام و الأندلس متغيرة، و الأذهان فى تكيف سعده متحيرة، فناهيك من ذكر خلد، و من فخر تقلد، و من صعب راض، و جناح فتنة هاض، و لم يزل بنجاد تلك الخلافة معتقلا، و فى مطالعها منتقلا، إلى أن توفى الحكم، فانتقض عقده المحكم، و انبرت إليه النوائب، و تسدّدت إليه من الخطوب سهام صوائب، و اتّصل إلى المنصور ذلك الأمر، و اختص به كما مال بيزيد أخوه الغمر، و أناف فى تلك الخلافة كما شبّ قبل اليوم عن طوقه عمرو، و انتدب للمصحفى بصدر قد كان أوغره، و ساءه و صغّره، فاقتصّ من تلك الإساءة، و أغصّ حلقه بأى مساءة، فأخمله و نكبه، و أرجله عما كان الدهر أركبه، و ألهب جوارحه حزنا، و نهب له مدّخرا و مختزنا، و دمّر عليه ما كان حاط، و أحاط به من مكروهه ما أحاط، و غبر سنين فى مهوى تلك النكبة، و جوى تلك الكربة، ينقله المنصور معه فى غزواته و يعتقله بين ضيق المطبق و لهواته، إلى أن تكوّرت شمسه، و فاظت بين أثناء المحن نفسه، و من بديع ما حفظ له فى نكبته، قوله يستريح من كربته: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۶

صبرت على الأيّام لمّا تولّت و ألزمت نفسى صبرها فاستمرّت

فوا عجبا للقلب كيف اعترافه و للنّفس بعد العزّ كيف استذلّت

و ما النّفس إلّا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقت و إلّا تسلّت

و كانت على الأيّام نفسى عزيزة فلمّا رأت صبرى على الذّلّ ذلّت

فقلت لها يا نفس موتى كريمة فقد كانت الدّنيا لنا ثمّ ولّت

و كان له أدب بارع، و خاطر إلى نظم القريض يسارع، فمن محاسن نظامه و إنشاده، التى بعثها إيناس دهره بإسعاده، قوله: [الطويل]

لعينيك فى قلبى علىّ عيون و بين ضلوعى للشّجون فنون

لئن كان جسمى مخلقا فى يد الهوى فحبّك عندى فى الفؤاد مصون

و له و قد أصبح عاكفا على حميّاه، هاتفا بإجابة دنياه، مرتشفا ثغر الأنس متنسما ريّاه، و الملك يغازله بطرف كليل، و السعد قد عقد عليه منه إكليل، يصف لون مدامه، و ما تعرّف له منها دون ندامه: [الكامل]

صفراء تطرق فى الزّجاج فإن سرت فى الجسم دبّت مثل صلّ لادغ

خفيت على شرّابها فكأنّما يجدون ريّا من إناء فارغ

و من شعره الذى قاله فى السّفرجل مشبها، و غدا به لنائم البديع منبها، قوله يصف سفرجلة، و يقال إنه ارتجله: [الطويل]

و مصفرّة تختال فى ثوب نرجس و تعبق عن مسك ذكىّ التّنفّس

لها ريح محبوب و قسوة قلبه و لون محبّ حلّة السّقم مكتسى

فصفرتها من صفرتى مستعارة و أنفاسها فى الطّيب أنفاس مؤنسى

و كان لها ثوب من الزّغب أغبر على جسم مصفرّ من التّبر أملس

فلمّا استتمّت فى القضيب شبابها و حاكت لها الأوراق أثواب سندس

مددت يدى باللّطف أبغى اجتناءها لأجعلها ريحانتى وسط مجلسى

فبزّت يدى غصبا لها ثوب جسمها و أعريتها باللّطف من كلّ ملبس

و لمّا تعرّت فى يدى من برودها و لم تبق إلّا فى غلالة نرجس

ذكرت لها من لا أبوح بذكره فأذبلها فى الكفّ حرّ التّنفّس

و له و قد أعاده المنصور إلى المطبق، و الشجون تسرع إليه و تسبق، معزيا لنفسه، و مجتزيا بإسعاد أمسه: [المتقارب]

أجازى الزّمان على حاله مجازاة نفسى لأنفاسها

إذا نفس صاعد شفّها توارت به دون جلّاسها

و إن عكفت نكبة للزّمان عكفت بنفسى على راسها

و مما حفظ له فى استعطافه، و استنزاله للمنصور و استلطافه، قوله: [المتقارب]

عفا اللّه عنك، ألا رحمة تجود بعفوك أن أبعدا

لئن جلّ ذنب و لم أعتمده فأنت أجلّ و أعلى يدا

أ لم تر عبدا عدا طوره و مولى عفا و رشيدا هدى

و مفسد أمر تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا

أقلنى أقالك من لم يزل يقيك و يصرف عنك الرّدى

[من أخبار المنصور]

عود و انعطاف إلى أخبار المنصور بن أبى عامر رحمه اللّه تعالى! و جازاه عن جهاده أفضل الجزاء بمنه و كرمه و فضله و طوله! فنقول:

و كان له فى كل غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخر من المفاخر الإسلامية، فمنها أن بعض الأجناد نسى رايته مركوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم، فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر، و هذا بلا خفاء مما يفتخر به أهل

التوحيد على أهل التثليث، لأنهم لما أشرب قلوبهم خوف شرذمة المنصور و حزبه، و علم كلّ من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه لجؤوا إلى الفرار و التحصن بالمعاقل و القلاع، و لم يحصل منهم غير الإشراف من بعد و الاطلاع.

و من مفاخر المنصور فى بعض غزواته أنه مر بين جبلين عظيمين فى طريق عرض بريد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۸

بوسط بلاد الإفرنج، فلما جاوز ذلك المحل- و هو آخذ فى التحريق و التخريب و الغارات و السبى يمينا و شمالا- لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه، حتى أقفرت البلاد مسافة أيام، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا من وراءهم، و ضبطوا ذلك المدخل الضيق الذى بين جبلين، و كان الوقت شتاء، فلما رأى ما فعلوه رجع و اختار منزلا من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر، و تقدم ببناء الدور و المنازل، و بجمع آلات الحرث و نحوها، و بث سراياه فسبت و غنمت، فاسترق الصّغار، و ضرب أعناق الكبار، و ألقى جثثهم حتى سدّ بها المدخل الذى من جهته، و صارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلدا خرابا، فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه فى طلب الصلح، و أن يخرج بغير أسرى و لا غنائم، فامتنع من ذلك، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه و أسراه، فأجابهم: إن أصحابى أبوا أن يخرجوا، و قالوا: إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا و قد جاء وقت الغزوة الأخرى، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة، فإذا غزونا عدنا، فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم و السبى، و أن يمدّوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده، و أن ينحّوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم، ففعلوا ذلك كله، و انصرف.

و لعمرى إن هذا لعز ما وراءه مطمح، و نصر لا يكاد الزمان يجود بمثله و يسمح، خصوصا إزالتهم جيف قتلاهم من الطريق، و غصصهم فى شرب ذلك بالريق.

و من مآثره التى هى فى جبين عصره غرة، و لعين دهره قرّة، أنه لما ختن أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبى، و من أولاد الضعفاء عدد لا يحصر، فبلغت النفقة عليهم فى هذا الإعذار، خمسمائة ألف دينار، و هذه مكرمة مخلّدة، و منه مقلدة، فاللّه سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء! و يجعل للمسلمين فى فقد مثله أحسن العزاء!.

و من مناقبه التى لم تتفق لغيره من الملوك فى غالب الظنّ، أن أكثر جنده من سبيه على ما حققه بعض المؤرخين، و ذلك غاية المنح من اللّه و المنّ.

و من أخباره الدالة على إقبال أمره و خيبة عدوّه و إدباره، أنه ما عاد قط من غزوة إلا استعدّ لأخرى، و لم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية و صائفة و كفاه ذلك فخرا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۰۹

و منها أنه لقيته- و قد عاد من بعض غزواته- امرأة نغصّت عليه بلوغ مناه و شهواته، و قالت له: يا منصور، استمع ندائى، فأنت من طيب عيشك و أنا فى بكائى، فسألها عن مصيبتها التى عمّتها و غمّتها، فذكرت له أن لها ابنا أسيرا فى بلاد سمّتها، و أنها لا يهنأ عيشها لفقده، و لا يخبو ضرام قلقلها من وقده، و أنشد لسان حالها: [مجزوء الكامل]

يا ذلك الملك العلىّ و يح الشّجىّ من الخلىّ

فرحّب المنصور بها، و أظهر الرقة بسببها، و خرج من القابلة إلى تلك المدينة التى فيها ابنها و جاس أقطارها و تخللها، حتى دوّخها إذ أناخ عليها بكلكله و ذللها، و أعراها من حماتها و ببنود الإسلام المنصورة ظلّلها، و خلّص جميع من فيها من الأسرى، و جلبت عوامله إلى قلوب الكفرة كسرا، و انقلبت عيون الأعداء حسرى، و تلا لسان حال المرأة: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (۵) [الشرح: ۵، ۶].

فهكذا تكون الهمة السلطانية، و النخوة الإيمانية، فاللّه سبحانه يروّح تلك الأرواح فى الجنان، و يرقى درجاتها و يعاملها بمحض الفضل و الامتنان.

[رسالة ابن عبد البر إلى المنصور الصغير]

و قد تذكرت هنا و الحديث شجون، و بذكر المناسبات يبلغ الطلاب ما يرجون، كتابا كتبه الأديب الكاتب أبو محمد ابن الإمام الحافظ محدث الأندلس أبى عمر بن عبد البر النّميرى، إلى المنصور بن أبى عامر، و هو من ذرية المنصور الكبير الذى كنا نتحدث فى أخباره، يمت إليه بسلفه و معاملتهم لمن تقدم من آبائه بتعظيم قدره و إكباره، و هو: عمّر اللّه ببقاء سيدى ذى السابقتين بهجة أوطانه، و ملّكه عنان زمانه، و مدّ عليه ظلال أمانه، أنى أبقى اللّه الملك الكريم، و السيد الزعيم، لما أضاءت لى أهلّة مفاخركم فى سماء الفخار، و أشرقت شموس مكارمكم على مفارق الأحرار، و أبصرت شمائلك الزهر تهدى إليك من الهمم محامدها، و محاسنك الغر توقظ لك من الآمال رواقدها، أيقنت أنه بحقّ انقادت لك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۰

القلوب بأعنّتها، و تهادت إليك النفوس بأزمّتها، فآليت أن لا ألم إلا بحماك، و لا أحطّ رحلا إلا بفناك، علما بأنك نثرة الفخر، و غرة الدهر، فتيمّمت ساريا فى ساطع نورك، متيمنا بيمن طائرك، محققا للربح، موقنا بالفلج و النّجح، حتى حللت فى دوحة المجد، و أنخت بدولة السعد، و استشعرت لبسة الشكر و الحمد، و جعلت أنظم من جواهر الكلام، ما يربى علىّ جواهر النّظام، و أنشر من عطر الثناء، ما يزرى بالروضة الغنّاء، و حاشا للفهم أن يعطل ليلى من أقمارك، أو يخلى أفقى من أنوارك، فأرانى منخرطا فى غير سلكه، و منحطا إلى غير ملكه، لا جرم أنه من استضاء بالهلال، غنى عن الذّبال، و من استنار بالصباح، ألقى سنا المصباح، و تاللّه ما هزت آمالى ذوائبها إلى سواك، و لا حدت أوطارى ركائبها إلى من مداك، ليكون فىّ أثر الوسمىّ فى الماحل، و علىّ جمال الحلى على العاطل، لسيادتك السنية، و رياستك الأولية، التى يقصر عنها لسان إفصاحى، و يعيا فى بعضها بيانى و إيضاحى، فالقراطيس عند بثّ مناقبك تفنى، و الأقلام فى رسم مآثرك تحفى، و ما أمل المجدب، فى حياة المخصب، و لا جذل المذنب، برضا المعتب، كأملى فى التعزز بحوزتك، و التجمّل بجملتك، و الترفع بخدمتك، فالسعيد من نشأ فى دولتك، و ظهر فى أمتك، و استضاء بعزتك، لقد فاز بالسبق من لحظته عين رعايتك، و كنفته حوزة حمايتك، فأنت الذى أمنت الذى بعدله نوائب الأيام، و قويت بسلطانه دعائم الإسلام، تختال بك المعانى اختيال العروس، و تخضع لجلالك أعزة النفوس، سابقة أشهر من الفجر، و فطنة أنور من البدر، و همة أنفذ من الدهر:

[الطويل]

لقد فاز من أضحى بكم متمسّكا يشدّ على تأميل عزّكم يدا

سلكت سبيل الفخر خلقا مركّبا و غيرك لا يأتيه إلّا تجلّدا

فأنتم لواء الدّين لا زال قيّما بآرائكم فى ظلمة الخطب يهتدى

ليهنكم مجد تليد بنيتم أغار سناه فى البلاد و أنجدا

و مثله أبقاه اللّه سبحانه يستثمر إيراقه، فيثمر جناه، و يستمطر إبراقه، فيمطر حياه، لا سيما و إنى نشأة حفّها إحسان أوائلك الطاهرين، و ألفها إنعام أكابرك الأخيار الطيبين، و جدير بقبولك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۱

و إقبالك، و برك و إجمالك، من أصله ثابت فى أهل محبتكم، و فرعه نابت فى خاصتكم:

[الطويل]

و ما رغبتى فى عسجد أستفيده و لكنّها فى مفخر أستجدّه

فكلّ نوال كان أو هو كائن فلحظة طرف منك عندى ندّه

فكن فى اصطناعى محسنا كمجرّب يبن لك تقريب الجواد و شدّه

إذا كنت فى شكّ من السّيف فابله فإمّا تنافيه و إمّا تعدّه

و ما الصّارم الهندىّ إلّا كغيره إذا لم يفارقه النّجاد و غمده

و لا بأس أن يتطوّل مولاى بغرس الصنيعة فى أزكى الترب، و وضع الهناء موضع النّقب، و اللّه سبحانه يبقى مولاى آخذا بزمام الفخر، ناهضا بأعباء البر، مالكا لأعنّة الدهر، و صنع اللّه سبحانه لسيدى أتم الصنع و أجمله، و أفضله و أكمله، بمنه لا رب سواه، انتهى.

[من أخبار المنصور الكبير محمد بن أبى عامر و المصحفى]

رجع إلى أخبار المنصور الكبير محمد بن أبى عامر، رحمه اللّه!.

و كنا قد ذكرنا أنه قبض على الوزير الحاجب المصحفى مع أنه كان أحد أتباعه.

قال صاحب كتاب «روضة الأزهار، و بهجة النفوس، و نزهة الأبصار»: و لما أمر المنصور بن أبى عامر بسجن المصحفى فى المطبق بالزهراء ودّع أهله و ودّعوه و داع الفرقة، و قال لهم: لستم ترونني بعدها حيا، فقد أتى وقت إجابة الدعوة، و ما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة، و ذلك أنى أشركت فى سجن رجل فى عهد الناصر، و ما أطلقته إلا برؤيا رأيتها بأن قيل لى: أطلق فلانا فقد أجيبت فيك دعوته، فأطلقته و أحضرته و سألته عن دعوته علىّ، فقال:

دعوت على من شارك فى أمرى أن يميته اللّه فى أضيق السجون، فقلت: إنها قد أجيبت، فإنى كنت ممن شارك فى أمره، و ندمت حين لا ينفع الندم، فيروى أنه كتب للمنصور بن أبى عامر بهذه الأبيات: [البسيط]

هبنى أسأت فأين العفو و الكرم إذ قادنى نحوك الإذعان و النّدم

يا خير من مدّت الأيدى إليه أما ترثى لشيخ نعاه عندك القلم

بالغت فى السّخط فاصفح صفح مقتدر إنّ الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيرى: [البسيط]

يا جاهلا بعد ما زلّت بك القدم تبغى التكرّم لمّا فاتك الكرم

ندمت إذ لم تعد منّى بطائلة و قلّما ينفع الإذعان و النّدم

نفسى إذا جمحت ليست براجعة و لو تشفّع فيك العرب و العجم

فبقى فى المطبق حتى مات، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم، انتهى.

و قد ذكر بعضهم فيه هذه الأبيات زيادة حسبما ذكرناه فى غير هذا المحل، فإن هذه الأبيات للمنصور، و هذا المؤرخ مصرح بأنها لعبد الملك الجزيرى، و قد يقال: لا منافاة بينهما، فإن المنصور أجاب بالأبيات، و هل هو قائلها أم لا؟ الأمر أعم، فبين هنا، و اللّه أعلم.

و قال بعض مؤرخى المغرب: إن الحاجب المصحفى حصل له فى هذه النكبة من الهلع و الجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله، حتى إنه كتب إلى المنصور بن أبى عامر يطلب منه أن يقعد فى دهليزه معلما لأولاده، فقال المنصور بدهائه و حذفه: إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس، لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادما و مسلما، فكيف يرونه الآن فى دهليزى معلما؟! و كان المنصور يذهب به بعد نكبته معه فى غزواته، حتى إنه حكى بعضهم أنه رأى الحاجب المصحفى فى ليلة نهى المنصور فيها الناس عن إيقاد النيران تعمية على العدو الكافر، و هو ينفخ فحما فى كانون صغير و يخفيه تحت ثيابه، أو كما قال، فسبحان مديل الدول، لا إله إلا هو، فإن هذا المصحفى بلغ من الجلالة و العظم و التحكم فى الدولة المدة المديدة أمرا لا مزيد عليه، و اللّه وارث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين.

و لقد ذكر بعض علماء المغاربة أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصة المنصور بن أبى عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان

المصحفى، و لم يزل أعداء المنصور بن أبى عامر يتربّصون به الدوائر، فغلب سعده الذى هو المثل السائر، و ربما همس بعض الشعراء بهجوه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۳

و هجو الدولة جميعا إذ قال: [السريع]

اقترب الوعد و حان الهلاك و كلّ ما تحذره قد أتاك

خليفة يلعب فى مكتب و أمّه حبلى و قاض يناك

يعنى بالخليفة هشاما المؤيد لكونه كان صغيرا، و أمّه صبح البشكنشية كان الأعداء يتهمون بها المنصور، و ذلك بهتان و زور، و أفظع منه رميهم القاضى بالفجور، و اللّه عالم بسرائر الأمور، و نعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لا يراعون إلّا و لا ذمة، و يطلقون ألسنتهم فى العلماء و الأئمة. [الطويل]

و أظلم أهل الأرض من كان حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلّب

جدير بأن لا يدرك ما يؤمّل و يتطلب، لأنه يعترض على اللّه سبحانه فى أحكامه، نعوذ بالله من شر أنفسنا و من شر كل ذى شر، بجاه نبينا عليه أزكى صلوات اللّه و أفضل سلامه.

و قد قدمنا أن المنصور بن أبى عامر كان أولا يخدم جعفر بن عثمان المصحفى مدبر مملكة هشام المؤيد، و يريه النصيحة، و أنه ما زال يستجلب القلوب بجوده و حسن خلقه، و المصحفى ينفرها ببخله و سوء خلقه، إلى أن كان من أمره ما كان، فاستولى على الحجابة، و سجن المصحفى، و فى ذلك يقول المصحفى: [الطويل]

غرست قضيبا خلته عود كرمة و كنت عليه فى الحوادث قيّما

و أكرمه دهرى فيزداد خبثه و لو كان من أصل كريم تكرّما

و لما يئس المصحفى من عفو المنصور قال: [الكامل]

لى مدّة لا بدّ أبلغها فإذا انقضت أيّامها متّ

لو قابلتنى الأسد ضارية و الموت لم يقرب لما خفت

فانظر إلىّ و كن على حذر فى مثل حالك أمس قد كنت

و من أحسن ما نعى به نفسه قوله حسبما تقدم: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۴

صبرت على الأيّام حتّى تولّت و ألزمت نفسى صبرها فاستمرّت

فوا عجبا للقلب كيف اعترافه و للنّفس بعد العزّ كيف استذلّت

و ما النّفس إلّا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت ماتت و إلّا تسلّت

و كانت على الأيّام نفسى عزيزة فلمّا رأت صبرى على الذّلّ ذلّت

فقلت لها يا نفس موتى كريمة فقد كانت الدّنيا لنا ثمّ ولّت

و أنشد له الفتح فى المطمح، و نسبهما غيره لأحمد بن الفرج صاحب الحدائق: [الخفيف]

كلّمتنى فقلت درّ سقيط فتأمّلت عقدها هل تناثر

فازدهاها تبسّم فأرتنى نظم درّ من التّبسّم آخر

و له كما مر: [الكامل]

صفراء تطرق فى الزّجاج، فإن سرت فى الجسم دبّت مثل صلّ لادغ

خفيت على شرّابها فكأنّما يجدون ريّا من إناء فارغ

و له: [السريع]

يا ذا الّذى أودعنى سرّه لا ترج أن تسمعه منّى

لم أجره بعدك فى خاطرى كأنّه ما مرّ فى أذنى

و أنشد له صاحب بدائع التشبيهات: [الطويل]

سألت نجوم اللّيل هل ينقضى الدّجى فخطّت جوابا بالثّريّا كخطّ لا

و كنت أرى أنّى بآخر ليلتى فأطرق حتّى خلته عاد أوّلا

و ما عن هوى سامرتها، غير أنّنى أنافسها المجرى إلى طرق العلا

[مآل مصحف عثمان الذى كان بالأندلس و بناء مسجد مراكش]

رجع- و كان كما تقدم بقرطبة المصحف العثمانى، و هو متداول بين أهل الأندلس، قالوا: ثم آل أمره إلى الموحّدين، ثم إلى بنى مرين، قال الخطيب بن مرزوق فى كتابه «المسند الصحيح الحسن» ما ملخصه: و كان السلطان أبو الحسن لا يسافر موضعا إلا و معه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۵

المصحف الكريم العثمانى، و له عند أهل الأندلس شأن عظيم، و مقام كبير، و كيف لا؟ قال ابن بشكوال: أخرج هذا المصحف منها- أى قرطبة - و غرّب منها و كان بجامعها الأعظم، ليلة السبت حادى عشر شوّال سنة اثنتين و خمسين و خمسمائة فى أيام أبى محمد عبد المؤمن بن على و بأمره، و هذا أحد المصاحف الأربعة التى بعث بها عثمان رضى اللّه تعالى عنه إلى الأمصار: مكة، و البصرة، و الكوفة، و الشام، و ما قيل إن فيه دم عثمان هو بعيد، و إن يكن أحدها فلعله الشامى، قاله ابن عبد الملك.

قال أبو القاسم التجيبى السبتى: أما الشامى فهو باق بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق المحروسة، و عاينته هناك سنة ۶۵۷، كما عاينت المكى بقبة اليهودية، و هى قبة التراب، قلت:

عاينتها مع الذى بالمدينة سنة ۷۳۵ و قرأت فيهما، قال النخعى: لعله الكوفى أو البصرى، و أقول: اختبرت الذى بالمدينة و الذى نقل من الأندلس فألفيت خطّهما سواء، و ما توهموه أنه خطه بيمينه فليس بصحيح، فلم يخط عثمان واحدا منها، و إنما جمع عليها بعضا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدنى، و نص ما على ظهره: هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، منهم زيد بن ثابت و عبد اللّه بن الزبير و سعيد بن العاصى، و ذكر العدد الذى جمعه عثمان رضى اللّه تعالى عنه من الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم على كتب المصحف، انتهى.

و اعتنى به عبد المؤمن بن على، و لم يزل الموحّدون يحملونه فى أسفارهم متبركين به، إلى أن حمله المعتضد، و هو السعيد على بن المأمون أبى العلاء إدريس بن المنصور، حين توجه لتلمسان آخر سنة ۶۴۵، فقتل قريبا من تلمسان، و قدّم ابنه إبراهيم، ثم قتل، و وقع النهب فى الخزائن، و استولت العرب و غيرهم على معظم العسكر، و نهب المصحف و لم يعلم مستقره، و قيل: إنه فى خزانة ملوك تلمسان، قلت: لم يزل هذا المصحف فى الخزانة إلى أن افتتحها إمامنا أبو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ۷۳۷، فظفر به و حصل عنده إلى أن أصيب فى وقعة طريف و حصل فى بلاد برتقال، و أعمل الحيلة فى استخلاصه، و وصل إلى فاس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۶

سنة ۷۴۵ على يد أحد تجار أزمّور، و استمر بقاؤه فى الخزانة، انتهى باختصار.

و اعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء، كما ذكره ابن رشيد فى رحلته، و لا بأس أن أذكر كلامه بجملته، و الرسالة فى شأن المصحف لما فيها من الفائدة، و نص محل الحاجة منه:

أنشدنى الخطيب أبو محمد بن برطلة من لفظه و كتبته من خطه، قال: أنشدنى الشيخ الفقيه القاضى أبو القاضى أبو القاسم عبد الرحمن بن كاتب الخلافة أبى عبد اللّه بن عياش لأبيه رحمهم اللّه تعالى مما نظمه، و قد أمر أمير المؤمنين المنصور بتحلية المصحف: [الطويل]

و نفّلته من كلّ ملك ذخيرة كأنّهم كانوا برسم مكاسبه

فإن ورث الأملاك شرقا و مغربا فكم قد أخلّوا جاهلين بواجبه

و كيف يفوت النّصر جيشا جعلته أمام قناه فى الوغى و قواضبه

و ألبسته الياقوت و الدرّ حلية و غيرك قد روّاه من دم صاحبه

و على ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الأمر فى وصوله إلى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن، و ما أبدى فى ذلك من الأمور الغريبة التى لم يسمع بمثلها فى سالف الدهر، حسبما أطرفنا به الوزير الأجل أبو زكرياء يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى حفظه اللّه تعالى و شكره، مما استفاده و أفاده لنا مما لم نسمع به قبل، عن كتاب جده الوزير أبى بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور، مما تضمنه من وصف قصة المصحف، فقال: وصل إليهم أدام اللّه سبحانه تأييدهم قمرا الأندلس النيران، و أميراها المتخيّران، السيدان الأجلان أبو سعيد و أبو يعقوب أيدهما اللّه، و فى صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضى اللّه تعالى عنه، و هو الإمام الذى لم يختلف فيه مختلف، و ما زال ينقله خلف عن سلف، و قد حفظ شخصه على كثرة المتناولين، و ذخره اللّه لخليفته المخصوص بمن سخر لخدمته من المتداولين، و له من غرائب الأنباء و متقدم الإشعار بما آل إليه أمره من الإيماء ما ملئت به الطروس، و تحفظه من أهل الأندلس الرائس و المرؤوس، فتلقى عند وصوله بالإجلال و الإعظام، و بودر إليه بما يجب من التبجيل و الإكرام، و عكف عليه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۷

أطول العكوف و التزم أشدّ الالتزام، و كان فى وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية و باهر الكرامة ما هو معتبر لأولى الألباب، و بلاغ فى الإغراب و الإعجاب، و ذلك أن سيدنا و مولانا الخليفة أمير المؤمنين، أدام اللّه له عوائد النصر و التمكين، كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره فى خاطره الكريم، و حركته إليه دواعى خلقه العظيم، و تراءى مع نفسه المطمئنة المرضية، و سجاياه الحسنة الرضية، فى معنى اجتلابه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم، و وطنه الموصل بحرمته للتقديم، فتوقّع أن يتأذّى أهل ذلك القطر بفراقه، و يستوحشوا لفقدان إضاءته فى أفقهم و إشراقه، فتوقف عن ذلك لما جبل عليه من رحمته و إشفاقه، فأوصله اللّه إليه تحفة سنية، و هدية هنية، و تحية من عنده مباركه زكية، دون أن يكدرها من البشر اكتساب، أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب، بل أوقع اللّه سبحانه و تعالى فى نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله إلى مستحقه، و التبرع به إلى القائم إلى اللّه تعالى بحقه، ما اطلع بالمشاهدة و التواتر على صحته و صدقه، و عضدت مخايل برقه سواكب و دقه، و كان ذلك من كرامات سيدنا و مولانا الخليفة معدودا، و إلى أمره الذى هو أمر اللّه مردودا، و جمع عند ذلك بحضرة مراكش- حرسها اللّه تعالى!- سائر الأبناء الكرام، و السادة الأعلام، بدور الآفاق، و كواكب الإشراق، و أهل الاستئهال للمقامات الرفيعة و ذوو الاستحقاق، فانتظم عند ذلك هذا القصيد مشيرا إلى اجتماع هذه الدرارى الزاهرة، و التئام خطوطها على مركز الدائرة، و وصول المتقدم ذكره، المشهور فى جميع المعمور أمره، و هو هذا: [الطويل]

درارىّ من نور الهدى تتوقّد مطالعها فوق المجرّة أسعد

و أنهار جود كلّما أمسك الحيا يمدّ بها طامى الغوارب مزبد

و آساد حرب غابها شجر القنا و لا لبد إلا العجاج الملبّد

مساعير فى الهيجا مسارع للنّدى بأيديهم يحمى الهجير و يبرد

تشبّ بهم ناران للحرب و القرى و يجرى بهم سيلان جيش و عسجد

و يستمطرون البرق و البرق عندهم سيوف على أفق العداة تجرّد

إذا منّ سجف السّاريات مضاؤها فماذا الّذى يغنى الحديد المسرّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۸

و يسترشدون النّجم و النّجم عندهم نصول إلى حبّ القلوب تسدّد

تزاحم فى جوّ السّماء كأنّما عواملها فى الأفق صرح ممرّد

تخازر ألحاظ الكواكب دونها و يفرق منها المرزمان و فرقد

أ لم ترها فى الأفق خافقة الحشا كما تطرف العينان و القلب يزأد

و ليس احمرار الفجر من أثر السّنى و لكنّه ذاك النّجيع المورّد

و ما انبسطت كفّ الثّريّا فدافعت و لكنّها فى الحرب شلو مقدّد

و حطّ سهيلا ذعره عن سميّه فأضحى على أفق البسيطة يرعد

و لمّا رأى نسر وقوع أليفه تطاير من خوف فما زال يجهد

مواقع أمر اللّه فى كلّ حالة يكاد لها رأس الثّرى يتميّد

أهاب بأقصى الخافقين فنظّمت و هيّب جمع المخفقين فبدّدوا

و أضفى على الدّنيا ملابس رحمة نضارتها فى كلّ حين تجدّد

و أخضل أرجاء الرّبا فكأنّما عليها من النّبت النّضير زبرجد

فمن طرب ما أصبح البرق باسما و من فرح ما أضحت المزن ترعد

و غنّى على أفنان كلّ أراكة غذاها حيا النّعمى حمام مغرّد

و كبّر ذو نطق و سبّح صامت و كاد به المعدوم يحيا و يوجد

و أبرز للأذهان ما كان غائبا فسيّان فيها مطلق و مقيّد

سلام على المهدىّ، أمّا قضاؤه فحتم، و أمّا أمره فمؤكّد

إمام الورى عمّ البسيطة عدله على حين وجه الأرض بالجور أربد

بصير رأى الدّنيا بعين جليّة فلم يغنه إلّا المقام الممجّد

و لمّا مضى و الأمر للّه وحده و بلّغ مأمول و أنجز موعد

تردّى أمير المؤمنين رداءه و قام بأمر اللّه و النّاس هجّد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۱۹

بعزمة شيحان الفؤاد مصمّم يقوم به أقصى الوجود و يقعد

مشيئته ما شاءه اللّه، إنّه إذا همّ فالحكم الإلهىّ يسعد

كتائبه مشفوعة بملائك ترادفها فى كلّ حال و ترفد

و ما ذاك إلّا نيّة خلصت له فليس له فيما سوى اللّه مقصد

إذا خطبت راياته وسط محفل ترى قمم الأعداء فى التّرب تسجد

و إن نطقت بالفصل فيهم سيوفه أقرّ بأمر اللّه من كان يجحد

معيد علوم الدّين بعد ارتفاعها و مبدى علوم لم تكن قبل تعهد

و باسط أنوار الهداية فى الورى و قد ضمّ قرص الشّمس فى الغرب ملحد

و قد كان ضوء الشّمس عند طلوعها يغان بأكنان الضّلال و يغمد

فما زال يجلو عن مطالعها الصّدا و يبرزها بيضاء و الجوّ أسود

جزى اللّه عن هذا الأنام خليفة به شربوا ماء الحياة فخلّدوا

و حيّاه ما دامت محاسن ذكره على مدرج الأيّام تتلى و تنشد

لمصحف عثمان الشّهيد و جمعه تبيّن أنّ الحقّ بالحقّ يعضد

تحامته أيدى الرّوم بعد انتسافه و قد كاد لو لا سعده يتبدّد

فما هو إلّا أن تمرّس صارخ بدعوته العليا فصين المبدّد

و جاء وليّ الثّأر يرغب نصره فلبّاه منه عزمه المتجرّد

رأى أثر المسفوح فى صفحاته فقام لأخذ الثّأر منه مؤيّد

و شبّهه بالبدر وقت خسوفه فللّه تشبيه له الشّرع يشهد

زمان ارتفاع العلم كان خسوفه و قد عاد بالمهدىّ و العود أحمد

أتتك أمير المؤمنين ألوكة من الحرم الأقصى لأمرك تمهد

سيوف بنى عيلان قامت شهيرة لدعوتك العلياء تهدى و ترشد

و طافت ببيت اللّه فاشتدّ شوقه إليك و لبّى منه حجر و مسجد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۰

و حجّ إليك الرّكن و المرو و الصّفا فأنت لذاك الحجّ حجّ و مقصد

مشاعرها الأجسام و الرّوح أمركم و منكم لها يرضى المقام المخلّد

فللّه حجّ و اعتمار و زورة أتتنا و لم يبرحك بالغرب مشهد

و للّه سبع نيّرات تقارنت بها فئة الإسلام تحمى و تسعد

إذا لم يكن إلّا فناءك عصمة فماذا الّذى يرجو القصىّ المبعّد

فدم للورى غيثا و عزّا و رحمة فقربك فى الدارين منج و مسعد

و زادت بك الأعياد حسنا و بهجة كأنّك للأعياد زىّ مجدّد

و لا زلت للأيّام تبلى جديدها و عمرك فى ريعانه ليس ينفد

ثم إنهم أدام اللّه سبحانه تأييدهم، و وصل سعودهم، لما أرادوا من المبالغة فى تعظيم المصحف المذكور، و استخدام البواطن و الظواهر فيما يجب له من التوقير و التعزير، شرعوا فى انتخاب كسوته، و أخذوا فى اختيار حليته، و تأنقوا فى استعمال أحفظته، و بالغوا فى استجادة أصونته، فحشروا له الصّنّاع المتقنين و المهرة المتفنّنين ممن كان بحضرتهم العلية، أو سائر بلادهم القريبة و القصيّة، فاجتمع لذلك حذّاق كل صناعة، و مهرة كل طائفة من المهندسين و الصواغين و النظامين و الحلائين و النقاشين و المرصّعين و النجارين و الزواقين و الرسامين و المجلدين و عرفاء البنائين، و لم يبق من يوصف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق فى صناعة، إلا أحضر للعمل فيه، و الاشتغال بمعنى من معانيه، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة، و أشكال مبتدعة، و ضمنوها من غرائب الحركات، و خفى إمداد الأسباب للمسببات، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم، و استفرغوا فيه جهد قوتهم، و الهمة العلية أدام اللّه سموها تترقى فوق معارجهم و تتخلص كالشهاب الثاقب وراء موالجهم، و تنيف على ما ظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم، فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كل شعب، و رأبوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۱

من منتشرها كل شعب، و أشرفوا عند تحقيقها و إبراز دقيقها على كل صعب، فكانت منهم وقفة كادت لها النفس تيأس عن مطلبها، و الخواطر تكر راجعة عن خفى مذهبها، حتى أطلع اللّه خليفته فى خلقه، و أمينه المرتضى لإقامة حقه، على وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها، و تخلّصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خرصها، ألقوا ذلك- أيدهم اللّه بنصره، و أمدهم بمعونته و يسره!- إلى المهندسين و الصناع فقبلوه أحسن القبول، و تصوروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول، فوقفهم حسن تنبيهه مما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم، و علموا أن الفضل للّه يؤتيه من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

و سيأتى بعد هذا إشارة إلى تفصيل تلك الحركات المستغربة، و الأشكال المونقة المعجبة، إن شاء اللّه تعالى.

مما صنع للمصحف العظيم من الأصونة الغريبة، و الأحفظة العجيبة، أنه كسى كله بصوان واحد من الذهب و الفضة ذى صنائع غريبة من ظاهره و باطنه، لا يشبه بعضها بعضا، قد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومى ما لم يعهد له فى العصر الأول مثال، و لا عمر قبله بشبهه خاطر و لا بال، و له مفاصل تجتمع إليها أجزاؤه و تلتئم، و تتناسق عندها عجائبه و تنتظم، قد أسلست للتحرك أعطافها، و أحكم إنشاؤها على البغية و انعطافها، و نظم على صفحته و جوانبه من فاخر الياقوت و نفيس الدر و عظيم الزمرد ما لم تزل الملوك السالفة و القرون الخالية تتنافس فى أفراده و تتوارثه على مرور الزمن و ترداده، و تظنّ العز الأقعس، و الملك الأنفس، فى ادخاره و إعداده، و تسمى الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه فى صنعه و اتحاده، فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب فى تلألئه و اتقاده، و أشبهه الروض المزخرف غبّ سماء أقلعت عن إمداده، و أتى هذا الصّوان الموصوف رائق المنظر، آخذا بمجامع القلب و البصر، مستوليا بصورته الغريبة على جميع الصّور، يدهش العقول بهاء، و يحير الألباب رواء، و يكاد يعشى الناظر تألّقا و ضياء، فحين تمت خصاله، و استركبت أوصاله، و حان ارتباطه بالمصحف العظيم و اتصاله، رأوا- أدام اللّه تأييدهم، و أعلى كلمتهم!.

مما رزقهم اللّه تعالى من ملاحظة الجهات، و الإشراف على جميع الثنيات، أن يتلطف فى وجه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۲

يكون به هذا الصّوان المذكور طورا متصلا، و طورا منفصلا، و يتأتّى به للمصحف الشريف العظيم أن يبرز تارة للخصوص متبذلا و تارة للعموم متجملا- إذ معارج الناس فى الاستبصار تختلف، و كل له مقام إليه ينتهى و عنده يقف، فعمل فيه على شاكلة هذا المقصد، و تلطف فى تتميم هذا الغرض المعتمد، و كسى المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الأخضر، ذى حلية عظيمة خفيفة تلازمه فى المغيب و المحضر، و رتب ترتيبا يتأتى معه أن يكسى بالصّوان الأكبر، فيلتئم به التئاما يغطى على العين من هذا الأثر، و كمل ذلك كله على أجمل الصفات و أحسنها، و أبدع المذاهب و أتقنها، و صنع له محمل غريب الصنعة، بديع الشكل و الصبغة، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الإدراك، و يشتد بها الارتباط بين المفصلين و يصح الاشتراك، مغشّى كله بضروب من الترصيع، و فنون من النقش البديع، فى قطع من الآبنوس و الخشب الرفيع، لم تعمل قط فى زمان من الأزمان، و لا انتهت قط إلى أيسره نوافذ الأذهان، مدار بصنعة قد أجريت فى صفائح الذهب، و امتدت امتداد ذوائب الشّهب، و صنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال، و يشاركه فى أكثر الأحوال، مرصّع مثل ترصيعه الغريب، و مشاكل له فى جودة التقسيم و حسن الترتيب، و صنع لذلك كله تابوت يحتوى عليه احتواء المشكاة على أنوارها، و الصدور على محفوظ أفكارها، مكعب الشكل سام فى الطول حسن الجملة و التفصيل، بالغ ما شاء من التتميم فى أوصاله و التكميل، جار مجرى المحمل فى التزيين و التجميل، و له فى أحد غواربه باب ركبت عليه دفتان قد أحكم ارتتاجهما، و يسر بعد الإبهام انفراجهما، و لانفتاح هذا الباب و خروج هذا الكرسى من تلقائه، و تركب المحمل عليه، ما دبرت الحركات الهندسية، و تلقيت تلك التنبيهات القدسية، و انتظمت العجائب المعنوية و الحسية، و التأمت الذخائر النفيسة و النفسية، و ذلك أن بأسفل هاتين الدفّتين فيصلا فيه موضع قد أعدّ له مفتاح لطيف يدخل فيه، فإذا أدخل ذلك المفتاح فيه و أديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقائهما، و خرج الكرسى من ذاته بما عليه إلى أقصى غايته، و فى خلال خروج الكرسى يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته يأتى بها من مؤخر الكرسى زحفا إلى مقدمه، فإذا كمل الكرسى

بالخروج و كمل المحمل بالتقدم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۳

عليه انغلق الباب برجوع الدّفتين إلى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسهما أحد، و ترتبت هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر، فإذا أدير المفتاح إلى خلف الجهة التى أدير إليها أولا انفتح الباب و أخذ الكرسى فى الدخول و المحمل فى التأخر عن مقدم الكرسى إلى مؤخره، فإذا عاد كل إلى مكانه انسدّ الباب بالدفتين أيضا من تلقائه، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح، كالذى كان فى حال خروجه، و صحّت هذه الحركات اللطيفة على أسباب و مسبّبات غائبة عن الحس فى باطن الكرسى، و هى مما يدقّ وصفها، و يصعب ذكرها، أظهرتها بركات هذا الأمر السعيد، و تنبيهات سيدنا و مولانا الخليفة، أدام اللّه تعالى أمرهم! و أعز نصرهم!.

و فى خلال الاشتغال بهذه الأعمال التى هى غرر الدهر، و فرائد العمر، أمروا. أدام اللّه تعالى تأييدهم!- ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش- حرسها اللّه تعالى!- فبدىء ببنائه و تأسيس قبلته فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و خمسين و خمسمائة، و كمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور، على أكمل الوجوه، و أغرب الصنائع، و أفسح المساحة، و أبعد البناء و النجارة، و فيه من شمسيات الزجاج و درجات المنبر و المقصورة ما لو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه، فكيف فى هذا الأمد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصّنّاع أن يتم فيه فضلا عن بنائه؟ وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور، و نهضوا- أدام اللّه سبحانه تأييدهم!- عقب ذلك لزيادة البقعة المكرمة، و الروضة المعظمة، بمدينة تينملّل أدام اللّه رفعتها، فأقاموا بها بقية شعبان المكرم، و أكثر شهر رمضان المعظم، و حملوا فى صحبتهم المصحف العزيز و معه مصحف الإمام المهدىّ المعلوم رضى اللّه تعالى عنه فى التابوت الموصوف، إذ كان قد صنع له غرفة فى أعلاه، و أحكمت فيه إحكاما كمل به معناه، و اجتمع فى مشكاته فعاد النور إلى مبتداه، و ختم القرآن العزيز فى مسجد الإمام المعلوم ختمات كادت لا تحصى لكثرتها، و هنا انتهى ما وجدناه من هذا المكتوب.

ثم قال ابن رشيد- بعد إيراد ما تقدّم- ما صورته: نجزت الرسالة فى المصحف العظيم، و الحمد للّه رب العالمين، انتهى محل الحاجة منه.

و ما أحسن قول الشيخ الإمام أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية يستودع أهل قرطبة: [المنسرح]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۴

أستودع اللّه أهل قرطبة حيث وجدت الحياء و الكرما

و الجامع الأعظم العتيق و لا زال مدى الدّهر مأمنا حرما

و قال أبو الربيع بن سالم: حدثنى بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى قال: أنشدنى أبو محمد بن عطية لنفسه، فذكرهما بعد أن قال: إنه لما أزمع القاضى أبو محمد بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع و أنشدنى البيتين، انتهى.

و قال ابن عطية أيضا رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

بأربع فاقت الأمصار قرطبة و هنّ قنطرة الوادى و جامعها

هاتان ثنتان، و الزّهراء ثالثة، و العلم أكبر شيء و هو رابعها

و قد تقدم إنشادنا لهذين البيتين من غير نسبتهما لأحد.

[من أخبار الوزير أبى المغيرة بن حزم]

و مما يدخل فى أخبار الزاهرة من غير ما قدمناه ما حكاه عن نفسه الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حزم قال: نادمت يوما المنصور بن أبى عامر فى منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير، و هى جامعة بين روضة و غدير، فلما تضمخ النهار بزعفران العشى، و رفرف

غراب الليل الدّجوجيّ، و أسبل الليل جنحه، و تقلد السّماك رمحه، و همّ النسر بالطيران، و عام فى الأفق زورق الزّبرقان، أوقدنا مصابيح الراح، و اشتملنا ملاء الارتياح، و للدّجن فوقنا رواق مضروب، فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب و قالت. [الخفيف]

قدم اللّيل عند سير النّهار و بدا البدر مثل نصف السّوار

فكأنّ النّهار صفحة خدّ و كأنّ الظّلام خطّ عذار

و كأنّ الكؤوس جامد ماء و كأنّ المدام ذائب نار

نظرى قد جنى علىّ ذنوبا كيف ممّا جنته عينى اعتذارى؟

يا لقومى تعجّبوا من غزال جائر فى محبّتى و هو جارى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۵

ليت لو كان لى إليه سبيل فأقضّى من الهوى أوطارى

قال: فلما أكملت الغنا، أحسست بالمعنى، فقلت: [الخفيف]

كيف كيف الوصول للأقمار بين سمر القنا و بيض الشّفار

لو علمنا بأنّ حبّك حقّ لطلبنا الحياة منك بثار

و إذا ما الكرام همّوا بشىء خاطروا بالنّفوس فى الأخطار

قال: فعند ذلك بادر المنصور لحسامه، و غلظ فى كلامه، و قال لها: قولى و اصدقى إلى من تشيرين، بهذا الشوق و الحنين؟ فقالت الجارية: إن كان الكذب أنجى، فالصدق أحرى و أولى، و اللّه ما كانت إلا نظرة، ولّدت فى القلب فكرة، فتكلّم الحب على لسانى، و برّح الشوق بكتمانى، و العفو مضمون لديك عند المقدرة، و الصفح معلوم منك عند المعذرة، ثم بكت فكأن دمعها در تناثر من عقد، أو طلّ تساقط من ورد، و أنشدت:

أذنبت ذنبا عظيما فكيف منه اعتذارى؟

و اللّه قدّر هذا و لم يكن باختيارى

و العفو أحسن شىء يكون عند اقتدار

قال: فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب إليّ، و سلّ سيف السخط علىّ، فقلت:

أيدك اللّه تعالى! إنما كانت هفوة جرها الفكر، و صبوة أيدها النظر، و ليس للمرء إلا ما قدر له، لا ما اختاره و أمله، فأطرق المنصور قليلا ثم عفا و صفح، و تجاوز عنا و سمح، و خلى سبيلى، فسكن و جيب قلبى و غليلى، و وهب الجارية لى فبتنا بأنعم ليلة، و سحبنا فيها للصّبا ذيله، فلما شمر الليل غدائره، و سلّ الصباح بواتره، و تجاوبت الأطيار بضروب الألحان، فى أعالى الأغصان، انصرفت بالجارية إلى منزلى، و تكامل سرورى.

[بين الرشيد و المأمون و جارية]

قال بعضهم: ذكرتنى حكاية أبى المغيرة هذه حكاية قرأتها فى النوادر لأبى على القالى البغدادى حذت فى الظرف حذوها، و زهت فى الإغراب زهوها، و هى ما أسنده عن منصور البرمكى أنه كانت للرشيد جارية غلامية و كان المأمون يميل إليها، و هو إذ ذاك أمرد، فوقفت تصبّ على يد الرشيد من إبريق معها، و المأمون خلف الرشيد، فأشار إليها يقبلها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۶

فأنكرت ذلك بعينها، و أبطأت فى الصب على قدر نظرها للمأمون و إشارتها إليه، فقال الرشيد:

ما هذا؟ ضعى الإبريق من يدك، ففعلت، فقال لها: و اللّه لئن لم تصدقينى لأقتلنك، فقالت:

يا سيدى، أشار إلى كأنه يقبلنى، فأنكرت ذلك عليه، فالتفت إلى المأمون فنظر إليه كأنه ميت لما داخله من الجزع و الخجل، فرحمه و ضمه إليه، و قال: يا عبد اللّه، أ تحبها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: هى لك فاخل بها فى تلك القبة، ففعل، ثم قال له: هل قلت فى هذا الأمر شيئا؟ فقال: نعم يا سيدى، و أنشد: [المجتث]

ظبى كنيت بطرفى من الضّمير إليه

قبّلته من بعيد فاعتلّ من شفتيه

و ردّ أخبث ردّ بالكسر من حاجبيه

فما برحت مكانى حتّى قدرت عليه

و فى هذا المعنى يقول بعض البلغاء: اللحظ، يعرب عن اللفظ، و قال آخر: رب كناية تغنى عن إيضاح، و رب لفظ يدل على ضمير، و نظمه الشاعر فقال: [الطويل]

جعلنا علامات المودّة بيننا دقائق لحظ هنّ أمضى من السّحر

فأعرف منها الوصل فى لين لحظها و أعرف منها الهجر بالنّظر الشّزر

و فى هذا قال بعض الحكماء: العين باب القلب، فما فى القلب ظهر فى العين و قال الشاعر: [البسيط]

العين تبدى الّذى فى نفس صاحبها من المحبّة أو بغض إذا كانا

فالعين تنطق و الأفواه صامتة حتّى ترى من ضمير القلب تبيانا

[ترجمة الوزير أبى المغيرة بن حزم]

و أبو المغيرة بن حزم قال فى حقه فى المطمح ما نصه: الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم، و بنو حزم فتية علم و أدب، و ثنيّة مجد و حسب، و أبو المغيرة هذا فى الكتابة أوحد، لا ينعت و لا يحد، و هو فارس المضمار، حامى ذلك الذّمار، و بطل الرّعيل، و أسد ذلك الغيل، نسق المعجزات، و سبق فى المعضلات الموجزات، إذا كتب وشّى المهارق و دبج، و ركب من بحر البلاغة الثّبج، و كان هو و أبو عامر بن شهيد خليلى صفاء، و حليفى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۷

وفاء، لا ينفصلان فى رواح و لا مقيل، و لا يفترقان كمالك و عقيل، و كانا بقرطبة رافعى ألوية الصّبوة، و عامرى أندية السلوة، إلى أن اتّخذ أبو عامر فى حبالة الردى و علق، و غدا رهنه فيها و غلق، فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان، و استردّ من سبقه ما فاته منذ زمان، فلم تذكر له مع أبى عامر حسنة، و لا سرت له فقرة مستحسنة، لتعذر ذلك و امتناعه، بشفوف أبى عامر و امتداد باعه، و أمّا شعر أبى المغيرة فمرتبط بنثره، و مختلط زهره بدرّه، و قد أثبتّ له منها فنونا، تجنّ بها الأفهام جنونا، فمن ذلك قوله: [الكامل]

ظعنت و فى أحداجها من شكلها عين فضحن بحسنهنّ العينا

ما أنصفت فى جنب توضح إذ قرت ضيف الوداد بلابلا و شجونا

أضحى الغرام قطين ربع فؤاده إذ لم يجد بالرّقمتين قطينا

و له: [المنسرح]

لمّا رأيت الهلال منطويا فى غرّة الفجر قارن الزّهره

شبّهته و العيان يشهد لى بصولجان انثنى لضرب كره

[ترجمة أبى عامر بن شهيد]

و أبو عامر بن شهيد المذكور قال فى حقّه ما صورته:

الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعى، عالم بأقسام البلاغة و معانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، و لا- ينسق ما نسق من درّ البيان و جمانه، توغل فى شعاب البلاغة و طرقها، و أخذ على متعاطيها ما بين مغربها و مشرقها، لا يقاومه عمرو بن بحر، و لا- تراه يغترف إلا- من بحر، مع انطباع، مشى فى طريقه بأمدّ باع، و له الحسب المشهور، و المكان الذى لم يعده ظهور، و هو من ولد الوضاح، المتقلد تلك المفاخر و الأوضاح، و الضحاك صاحب يوم المرج، و راكب ذلك الهرج، و أبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب، و نبع لا يراش إلا من ذلك الغرب، و قد أثبتّ له ما هو بالسحر لا حق، و لنور المحاسن ما حق، فمن ذلك قوله: [البسيط]

إنّ الكريم إذا نابته مخمصة أبدى إلى النّاس ريّا و هو ظمآن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۸

يحنى الضّلوع على مثل اللّظى حرقا و الوجه غمر بماء البشر ريّان

و هو مأخوذ من قول الرضى: [الكامل]

ما إن رأيت كمعشر صبروا عزّا على الأزلات و الأزم

بسطوا الوجوه و بين أضلعهم حرّ الجوى و مآلم الكلم

و له أيضا: [البسيط]

كلفت بالحبّ حتّى لو دنا أجلى لما وجدت لطعم الموت من ألم

كلا النّدى و الهوى قدما و لعت به ويلى من الحبّ أو ويلى من الكرم

و أخبرنى الوزير أبو الحسين بن سراج- و هو بمنزل ابن شهيد- و كان من البلاغة فى مدى غاية البيان، و من الفصاحة فى أعلى مراتب التبيان، و كنا نحضر مجلس شرابه، و لا- نغيب عن بابه، و كان له بباب الصّومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره، و لا يخليه من نثر درره و أزهاره، فقعد فى ليلة ۲۷ من رمضان فى لمة من إخوانه، و أئمة سلوانه، و قد حفّوا به ليقطفوا نخب أدبه، و هو يخلط لهم الجدّ بهزل، و لا- يفرط فى انبساط مشتهر و لا- انقباض جزل، و إذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها، من يسترها و يواريها، و هى ترتاد موضعا لمناجاة ربها، و تبتغى منزلا لاستغفار ذنبها، و هى متنقبة، خائفة ممن يرقبها مترقبة، و أمامها طفل لها كأنه غصن آس، أو ظبى يمرح فى كناس، فلما وقعت عينها على أبى عامر ولّت سريعة، و تولت مروعة، خيفة أن يشبب بها، أو يشهرها باسمها، فلما نظرها قال قولا فضحها به و شهرها: [المتقارب]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۱۲۸

و ناظرة تحت طىّ القناع دعاها إلى اللّه بالخير داعى

سعت خفية تبتغى منزلا لوصل التبتّل و الانقطاع

فجاءت تهادى كمثل الرّؤوم تراعى غزالا بروض اليفاع

و جالت بموضعنا جولة فحلّ الرّبيع بتلك البقاع

أتتنا تبختر فى مشيها فحلّت بواد كثير السّباع

و ريعت حذارا على طفلها فناديت يا هذه لا تراعى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۲۹

غزالك تفرق منه اللّيوث و تفزع منه كماة المصاع

فولّت و للمسك فى ذيلها على الأرض خطّ كظهر الشّجاع

انتهى المقصود منه.

[استيلاء المعتمد بن عباد على قرطبة]

رجع- و مما ينخرط فى سلك أخبار الزهراء ما حكاه الفتح فى ترجمة المعتمد بن عباد إذ قال: و أخبرنى الوزير الفقيه أبو الحسين بن سراج أنه حضر مع الوزراء و الكتاب بالزهراء فى يوم قد غفل عنه الدهر فلم يرمقه بطرف، و لم يطرقه بصرف، أرّخت به المسرات عهدها، و أبرزت له الأمانى خدّها و نهدها و أرشفت فيه لماها، و أباحت للزائرين حماها، و ما زالوا ينتقلون من قصر إلى قصر، و يبتذلون الغصون بجنى و هصر، و يتوقّلون فى تلك الغرفات، و يتعاطون الكؤوس بين تلك الشّرفات، حتى استقروا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطارا، و وفروا بالاعتبار قطارا، فحلوا منها فى درانك ربيع مفوّفة بالأزهار، مطرّزة بالجداول و الأنهار، و الغصون تختال فى أدواحها، و تتثنى فى أكف أرواحها، و آثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها، و انقراض أترابها و أطرابها، و الوهى بمشيدها لاعب، و على كل جدار غراب ناعب، و قد محت الحوادث ضياءها، و قلصت ظلالها و أفياءها، و طالما أشرقت بالخلائف و ابتهجت، و فاحت من شذاهم و تأرّجت، أيام نزلوا خلالها، و تفيؤوا ظلالها، و عمروا حدائقها و جنّاتها، و نبهوا الآمال من سناتها، و راعوا الليوث فى آجامها، و أخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأضحت و لها بالتداعى تلفّع و اعتجار، و لم يبق من آثارها إلا نؤى و أحجار، قد وهت قبابها، و هرم شبابها، و قد يلين الحديد، و يبلى، على طيه الجديد، فبينما هم يتعاطونها صغارا و كبارا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۰

و يديرونها أنسا و اعتبارا، إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة فيها: [الخفيف]

حسد القصر فيكم الزّهراء و لعمرى و عمركم ما أساء

قد طلعتم بها شموسا صباحا فاطلعوا عندنا بدورا مساء

فساروا إلى قصر البستان بباب العطارين فألفوا مجلسا قد حار فيه الوصف، و احتشد فيه اللهو و القصف، و توقدت نجوم مدامه، و تأوّدت قدود خدّامه، و أربى على الخورنق و السدير، و أبدى صفحة البدر من أزرار المدير، فأقاموا ليلتهم ما عراهم نوم، و لا عداهم عن طيب اللذات سوم، و كانت قرطبة منتهى أمله، و كان روم أمرها أشهى عمله، و ما زال يخطبها بمداخلة أهليها، و مواصلة و اليها، إذ لم يكن فى منازلتها قائد، و لم يكن لها إلا حيل و مكايد، لاستمساكهم بدعوة خلفائها، و أنفتهم من طموس رسوم الخلافة و عفائها، و حين اتفق له تملكها، و أطلعه فلكها، و حصل فى قطب دائرتها، و وصل إلى تدبير رياستها و إدارتها، قال:

[البسيط]

من للملوك بشأو الأصيد البطل؟ هيهات جاءتكم مهديّة الدّول

خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت من جاء يخطبها بالبيض و الأسل

و كم غدت عاطلا حتّى عرضت لها فأصبحت فى سرىّ الحلى و الحلل

عرس الملوك لنا فى قصرها عرس كلّ الملوك بها فى مأتم الوجل

فراقبوا عن قريب لا أبا لكم هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

و لما انتظمت فى سلكه، و اتّسمت بملكه، أعطى ابنه الظافر زمامها، و ولاه نقضها و إبرامها، فأفاض فيها نداه، و زاد على أمده و مداه، و جملها بكثرة حبائه، و استقل بأعبائها على فتائه، و لم يزل فيها آمرا و ناهيا، غافلا عن المكر ساهيا، حسن ظن بأهلها اعتقده، و اغترارا بهم ما رواه و لا انتقده، و هيهات كم من ملك كفّنوه فى دمائه، و دفنوه بذمائه، و كم من عرش ثلّوه، و كم من عزيز ملك أذلوه، إلى أن ثار فيها ابن عكّاشة ليلا، و جر إليها حربا و ويلا، فبرز الظافر منفردا عن كماته، عاريا من حماته، و سيفه فى يمينه، و هاديه فى

الظلماء نور جبينه، فإنه كان غلاما قد بلله الشباب بأندائه، و ألحفه الحسن بردائه، فدافعهم أكثر ليله، و قد منع منه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۱

تلاحق رجله و خيله، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعا، و لا استقال منها و لا سعى، فترك ملتحفا فى الظلماء، تحت نجوم السماء، معفرا فى وسط أكماء، تحرسه الكواكب، بعد المواكب، و يستره الحندس، بعد السندس، فمر بمصرعه سحرا أحد أئمة الجامع المغلّسين، فرآه و قد ذهب ما كان عليه و مضى، و هو أعرى من الحسام المنتضى، فخلع رداءه عن منكبيه و نضاه، و ستره به سترا أقنع المجد به و أرضاه، و أصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة، و لا يعرف فتشكر له يده الرفيعة، فكان المعتمد إذا تذكر صرعته، و سعّر الحزن لوعته، رفع بالعويل نداءه، و أنشد «و لم أدر من ألقى عليه رداءه»، و لما كان من الغد حزّ رأسه و رفع على سن رمح و هو يشرق كنار على علم، و يرشق نفس كل ناظر بألم، فلما رمقته الأبصار، و تحققته الحماة و الأنصار، رموا أسلحتهم، و سوّوا للفرار أجنحتهم، فمنهم من اختار فراره و جلاه، و منهم من أتت به إلى حينه رجلاه، و شغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره، و نصب الحبائل لوقوع ابن عكاشة و عثاره، و عدل عن تأبينه، إلى البحث عن مفرقه و جبينه، فلم تحفظ له فيه قافية، و لا كلمة للوعته شافية، إلا إشارته إليه، فى تأبين أخويه، المأمون و الراضى المقتولين فى أول النائرة، و الفتنة الثائرة، انتهى.

و قد رأيت أن أزيد على ما تقدم- مما قصدت جلبه فى هذا الموضع- نبذة من كلام الفتح فى ذكر منتزهات قرطبة و غيرها من بلاد الأندلس و وصف مجالس الأنس التى كانت بها مما تنشرح له الأنفس، و وقع ذكر غير قرطبة و الزهراء لهما تبعا، و لا يخلو ذلك من عبرة بحال من جعل فى اللهو مصيفا و مرتبعا، ثم طواه الدهر طىّ السجل، و محا آثاره التى كانت تسمو و تجلّ، و ما قصدنا علم اللّه غير الاعتبار، بهذه الأخبار، لا الحث على الحرام، و تسهيل القصد إليه و المرام، و الأعمال بالنيات، و اللّه سبحانه كفيل بفضله و كرمه ببلوغ الأمنيات، و تعويضنا عن هذه النعم الفانيات، بالنعم الباقيات الستيّات.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۲

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن زيدون (فى القلائد)]

قال الفتح رحمه اللّه تعالى فى ترجمة الوزير أبى الوليد بن زيدون، ما صورته:

و أخبرنى الوزير الفقيه أبو الحسين بن سراج رحمه اللّه تعالى أنه فى وقت فراره أضحى، غداة الأضحى، و قد ثار به الوجد بمن كان يألفه و الغرام، و تراءت لعينيه تلك الظّباء الأوانس و الآرام، و قد كان الفطر وافاه، و الشقاء قد استولى على رسم عافيته حتى أعفاه، فلما عاده منهما ما عاد، و أعياه ذلك النكد المعاد، استراح إلى ذكر عهده الحسن، و أراح جفونه المسهّدة بتوهم ذلك الوسن، و ذكر معاهد كان يخرج إليها فى العيد، و يتفرج بها مع أولئك الغيد، فقال: [الطويل]

خليلىّ لا فطر يسرّ و لا أضحى فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل أخصّ بممحوض الهوى ذلك السّفحا

و ما انفكّ جوفىّ الرّصافة مشعرى دواعى بثّ يعقب الأسف البرحا

و يهتاج قصر الفارسىّ صبابة لقلبى لا يألو زناد الأسى قدحا

و ليس ذميما عهد محبس ناصح فأقبل فى فرط الولوع به نصحا

كأنّى لم أشهد لدى عين شهدة نزال عتاب كان آخره الفتحا

و قائع جانيها التّجنّى فإن مشى سفير خضوع بيننا أكّد الصّلحا

و أيّام وصل بالعقيق اقتضيته فإن لم يكن ميعاده العيد فالفصحا

و آصال لهو فى مسنّاة مالك معاطاة ندمان إذا شئت أو سبحا

لدى راكد تصبيك من صفحاته قوارير خضر خلتها مرّدت صرحا

معاهد لذّات و أوطان صبوة أجلت المعلّى فى الأمانى بها قدحا

ألا هل إلى الزّهراء أوبة نازح تقضّى تنائيها مدامعه نزحا

مقاصير ملك أشرقت جنباتها فخلنا العشايا الجون أثناءها صبحا

يمثّل قرطيها لى الوهم جهرة فقبّتها فالكوكب الرّحب فالسّطحا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۳

محلّ ارتياح يذكر الخلد طيبه إذا عزّ أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

هناك الجمام الزّرق تندى حفافها ظلال عهدت الدّهر فيها فتى سمحا

تعوّضت من شدو القيان خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا

و من حملى الكأس المفدّى مديرها تقحّم أهوال حملت لها الرّمحا

أجل إنّ ليلى فوق شاطىء بيطة لأقصر من ليلى بآنة فالبطحا

و هذه معاهد بنى أمية قطعوا بها ليالى و أياما، و ظلت فيها الحوادث عنهم نياما، فهاموا بشرق العقاب، و شاموا به برقا يبدو من نقاب، و نعموا بجوفىّ الرّصافة، و طمعوا عيشا تولى الدهر جلاءه و زفافه، و أبعدوا نصح الناصح، و حمدوا أنس محبس ناصح، و عموا بالزهراء، و صمّوا عن نبأ صاحب الزوراء، حتى رحلهم الموت عنها و قوّضهم، و عوّضهم منها ما عوّضهم، فصاروا أحاديث و أنباء، و لم يتزودوا منها إلا حنوطا و كباء، و غدت تلك المعاهد تصافحها أيدى الغير، و تناوحها نعبات الطير، و راحت بعد الزينة سدى، و أمست مسرحا للبوم و ملعبا للصّدى، يسمع للجنّ بها عزيف، و يصرع فيها البطل الباسل و النزيف، و كذا الدنيا أعمالها خراب، و مآلها آل و سراب، أهلكت أصحاب الأخدود، و أذهبت ما كان بمأرب من حيازات و حدود، انتهى.

و قال الفتح بعد كلام ما صورته: و لما عضّته أنياب الاعتقال، و رضّته تلك النوب الثقال، و عوّض بخشانة العيش من اللين، و كابد قسوة خطب لا تلين، تذكر عهد عيشه الرقيق، و مرحه بين الرّصافة و العقيق، و حنّ إلى سعد زرّت عليه جيوبه، و استهدى نسيم عيش طاب له هبوبه، و تأسّى بمن باتت له النوائب بمرصاد، و رمته بسهام ذات إقصاد و ضيم من عهد الأحصّ إلى ذات الإصاد فقال: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۴

الهوى فى طلوع تلك النّجوم و المنى فى هبوب ذاك النّسيم

سرّنا عيشنا الرّقيق الحواشى لو يدوم السّرور للمستديم

و طر ما انقضى إلى أن تقضّى زمن ما ذمامه بالذّميم

أيّها المؤذنى بظلم اللّيالى ليس يومى بواجد من ظلوم

ما ترى البدر إن تأمّلت و الشّمس هما يكسفان دون النّجوم

و هو الدّهر ليس ينفكّ ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم

و قال الفتح أيضا فى شأن ابن زيدون، ما صورته:

و لما تعذر انفكاكه، و عفّر فرقده و سماكه، و عاودته الأوهام و الفكر، و خانه من أبى الحزم الصارم الذكر، قال يصف ما بين مسرّاته و كروبه، و يذكر بعد طلوع سعده من غروبه، و يبكى لما هو فيه من التعذير، و يعذر أبا الحزم و ليس له غيره من عذير، و يتعزى بإخناء الدهر على الأحرار، و إلحاحه على التمام بالسّرار، و يخاطب ولّادة بوفاء عهده، و يقيم لها البراهين على أرقه و سهده: [البسيط]

ما جال بعدك لحظى فى سنا القمر إلّا ذكرتك ذكر العين بالأثر

و لا استطلت ذماء اللّيل من أسف إلّا على ليلة سرّت مع القصر

فى نشوة من سنات الدّهر موهمة أن لا مسافة بين الوهن و السّحر

يا ليت ذاك السّواد الجون متّصل قد استعار سواد القلب و البصر

يا للرّزايا لقد شافهت منهلها غمرا فما أشرب المكروه بالغمر

لا يهنأ الشّامت المرتاح خاطره أنّى معنّى الأمانى ضائع الخطر

هل الرّياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشّمس و القمر

إن طال فى السّجن إيداعى فلا عجب قد يودع الجفن حدّ الصّارم الذّكر

و إن يثبّط أبا الحزم الرّضا قدر عن كشف ضرّى فلا عتب على القدر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۵

من لم أزل من تدانيه على ثقة و لم أبت من تجنّيه على حذر

و له يتغزل، و يعاتب من يستعطفه و يتنزل: [خلع البسيط]

يا مستخفّا بعاشقيه و مستغشّا لناصحيه

و من أطاع الوشاة فينا حتّى أطعنا السّلوّ فيه

الحمد للّه إذ أرانى تكذيب ما كنت تدّعيه

من قبل أن يهزم التّسلّى و يغلب الشّوق ما يليه

و ما أحسن قول ابن زيدون المذكور فى قصيدته النونية الشهيرة: [البسيط]

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغضّ فقال الدّهر آمينا

[وصف المتنزهات من موشحة ابن الوكيل]

و من أغرب ما وقفت عليه موشّحة لابن الوكيل دخل فيها على أعجاز نونية ابن زيدون، و هى:

غدا منادينا محكّما فينا يقضى علينا الأسى لو لا تأسّينا

بحر الهوى يغرق من فيه جهده عام

و ناره تحرق من همّ أو قد هام

و ربّما يقلق فتى عليه نام

قد غيّر الأجسام، و صيّر الأيّام سودا و كانت بكم بيضا ليالينا

يا صاحب النّجوى قف و استمع منّى

إيّاك أن تهوى إنّ الهوى يضنى

لا تقرب البلوى اسمع و قل عنّى

بحاره مرّه، خضنا على غرّه حينا فقام بها للنّعى ناعينا

من هام بالغيد لاقى بهم همّا

بذلت مجهودى لأحور ألمى

يهمّ بالجود و ردّ ما همّا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۶

و عند ما قد جاد، بالوصل أو قد كاد أضحى التّنائى بديلا من تدانينا

بحقّ ما بينى و بينكم إلّا

أقررتم عينى فتجمعوا الشملا

فالعين بالبين بفقدكم أبلى

جديد ما قد كان، بالأهل و الإخوان و مورد اللّهو صاف من تصافينا

يا جيرة بانت عن مغرم صبّ

لعهده خانت من غير ما ذنب

ما هكذا كانت عوائد العرب

لا تحسبوا البعدا، يغيّر العهدا إذ طالما غيّر النّأى المحبّينا

يا نازلا بالبان بالشّفع و الوتر

و النّمل و الفرقان و اللّيل إذا يسر

و سورة الرّحمن و النّحل و الحجر

هل حلّ فى الأديان، أن يقتل الظّمآن من كان صرف الهوى و الودّ يسقينا

يا سائل القطر عرّج على الوادى

من ساكنى بدر وقف بهم نادى

عسى صبا تسرى لمغرم صادى

إن شئت تحيينا بلّغ تحيّتنا من لو على البعد حيّا كان يحيينا

و افت لنا أيّام كأنّها أعوام

و كان لى أعوام كأنّها أيام

تمرّ كالأحلام بالوصل لى لو دام

و الكأس مترعة، حثّت مشعشعة فينا الشّمول و غنّانا مغنّينا

[وصف المتنزهات من رجع إلى ما يتعلق بقرطبة]

رجع إلى ما يتعلق بقرطبة- قال الوزير أبو بكر بن القبطرنة، يخاطب الوزير أبا الحسين بن سراج، و يذكر لمّة إخوانه بقرطبة: [الكامل]

يا سيّدى و أبى هدى و جلالة و رسول ودّى إن طلبت رسولا

عرّج بقرطبة ولذ إن جئتها بأبى الحسين و ناده تعويلا

فإذا سعدت بنظرة من وجهه فاهد السّلام لكفّه تقبيلا

و اذكر له شكرى و شوقى مجملا و لو استطعت سردته تفصيلا

بتحيّة تهدى إليه كأنّما جرّت على زهر الرّياض ذيولا

و أشمّ منها المصحفىّ على النّوى نفسا ينسّى السّوسن المبلولا

و إلى أبى مروان منه نفحة تهدى له نور الرّبا مطلولا

و إذا لقيت الأخطبىّ فسقّه من صفو ودّى قرقفا و شمولا

و أبو عليّ سقّ منها ربعه مسكا بماء غمامة محلولا

و اذكر لهم زمنا يهب نسيمه أصلا كنفث الرّاقيات عليلا

مولى و مولى نعمة و كرامة و أخا إخاء مخلصا و خليلا

بالحير ما عبست هناك غمامة إلا تضاحك إذخرا و جليلا

يوما و ليلا كان ذلك كلّه سحرا و هذا بكرة و أصيلا

لا أدركت تلك الأهلّة دهرها نقصا و لا تلك النّجوم أفولا

[وصف حير الزجالى بقرطبة]

قال أبو نصر: الحير الذى ذكره هنا هو حير الزّجّالى خارج باب اليهود بقرطبة الذى يقول فيه أبو عامر بن شهيد:

لقد أطلعوا عند باب اليهو د شمسا أبى الحسن أن تكسفا

تراه اليهود على بابها أميرا فتحسبه يوسفا

و هذا الحير من أبدع المواضع و أجملها، و أتمها حسنا و أكملها، صحنه مرمر صافى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۸

البياض، يخترقه جدول كالحية النّضناض، به جابية، كل لجة بها كابية، قد قربصت بالذهب و اللازورد سماؤه، و تأزّرت بهما جوانبه و أرجاؤه، و الروض قد اعتدلت أسطاره، و ابتسمت من كمائمها أزهاره، و منع الشمس أن ترمق ثراه، و تعطّر النسيم بهبوبه عليه و مسراه، شهدت به ليالى و أيّاما كأنما تصورت من لمحات الأحباب، أو قدّت من صفحات أيام الشباب، و كانت لأبى عامر بن شهيد به فرج و راحات، أعطاه فيها الدهر ما شاء، و والى عليه الصحو و الانتشاء، و كان هو و صاحب الروض المدفون بإزائه أليفى صبوة، و حليفى نشوة، عكفا فيه على جريالها، و تصرفا بين زهوهما و اختيالهما، حتى ردّاهما الردى، و عداهما الحمام عن ذلك المدى، فتجاورا فى الممات، تجاورهما فى الحياة، و تقلصت عنهما وارفات تلك الفيات، و إلى ذلك العهد أشار ابن شهيد و به عرّض، و بشوقه صحح و ما مرض، حيث يقول عند موته يخاطب أبا مروان صاحبه و أمر أن يدفن بإزائه و يكتب على قبره: [البسيط]

يا صاحبى قم فقد أطلنا أ نحن طول المدى هجود؟

فقال لى: لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصّعيد

تذكر كم ليلة نعمنا فى ظلّها و الزّمان عيد

و كم سرورا همى علينا سحابه ثرّة تجود؟

فخيره مسرعا تقضّى و شؤمه حاضر عتيد

حصّله كاتب حفيظ و ضمّه صادق شهيد

يا ويلنا إن تنكّبتنا رحمة من بطشه شديد

يا ربّ عفوا فأنت مولى قصّر فى أمرك العبيد

انتهى.

ثم قال بعد كلام: و ركب أبو الحسن بن القبطرنة إلى سوق الدواب بقرطبة و معه أبو الحسين بن سراج، فنظر إلى أبى الحكم بن حزم غلاما كما عقّ تمائمه، و هو يروق كأنه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۳۹

زهر فارق كمائمه، فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول فيه، فأرتج عليه، فثنى عنان القول إليه، فقال: [الطويل]

رأى صاحبى عمرا فكلّف وصفه و حمّلنى من ذاك ما ليس فى الطّوق

فقلت له: عمرو كعمرو، فقال لى: صدقت و لكن ذاك شبّ على الطّوق

[وصف المتنزهات من ترجمة بنى القبطرنة]

و كان بنو القبطرنة بالأندلس أشهر من نار على علم، و قد تصرفوا فى البراعة و القلم، و لهم الوزارة المذكورة، و الفضائل المشكورة، و لذا قال أبو نصر فى حقهم ما صورته:

هم للمجد كالأثافى، و ما منهم إلا موفور القوادم و الخوافى، إن ظهروا، زهروا، و إن تجمّعوا، تضوّعوا، و إن نطقوا، صدقوا، ماؤهم صفو، و كل واحد منهم لصاحبه كفو، أنارت بهم نجوم المعالى و شموسها، و دانت لهم أرواحها و نفوسها، و لهم النظام الصافى الزجاجة، المضمحل العجاجة، انتهى.

ثم قال: و بات منهم أبو محمد مع أخويه فى أيام صباه، و استطابته جنوب الشّباب و صباه، بالمنية المسماة بالبديع، و هو روض كان المتوكل يكلف بموافاته، و يبتهج بحسن صفاته، و يقطف رياحينه و زهره، و يقف عليه إغفاءه و سهره، و يستفزه الطرب متى ذكره، و ينتهز فرص الأنس فيه روحاته و بكره، و يدير حميّاه على ضفة نهره، و يخلع سره فيه لطاعة جهره، و معه أخواه فطاردوا اللذات حتى أنضوها، و لبسوا برود السرور و ما نضوها، حتى صرعتهم العقار، و طلّحتهم تلك الأوقار، فلما همّ رداء الفجر أن يندى، و جبين الصبح أن يتبدّى، قام الوزير أبو محمد فقال: [الخفيف]

يا شقيقى وافى الصّباح بوجه ستر اللّيل نوره و بهاؤه

فاصطبح و اغتنم مسرّة يوم لست تدرى بما يجىء مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال: [الخفيف]

يا أخى قم تر النّسيم عليلا باكر الرّوض و المدام شمولا

لا تنم و اغتنم مسرّة يوم إنّ تحت التّراب نوما طويلا

فى رياض تعانق الزّهر فيها مثل ما عانق الخليل الخليلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن، و قد هبّ من غفلة الوسن، فقال: [البسيط]

يا صاحبىّ ذرا لومى و معتبتى قم نصطبح خمرة من خير ما ذخروا

و بادرا غفلة الأيّام و اغتنما فاليوم خمر و يبدو فى غد خبر

و ساق صاحب البدائع هذه القصة فقال: و ذكر الفتح ما هذا معناه أنه خرج الوزراء بنو القبطرنة إلى المنية المسماة بالبديع، و هو روض قد اخضرّت مسارح نباته، و اخضلّت مسارى هبّاته، و دمعت بالطلّ عيون أزهاره، و ذاب على زبرجده بلّور أنهاره، و تجمعت فيها المحاسن المتفرّقة، و أضحت مقل الحوادث عنه مطرقة، فخيول النسيم تركض فى ميادينه فلا تكبو، و نصول السواقى تحسم أدواء الشجر فلا تنبو، و الزروع قد نقّبت وجه الثرى، و حجبت الأرض عن العيون فما تبصر و لا ترى، و كان المتوكل بن الأفطس يعده غاية الأرب، و يعدّه مشهدا للطرب، و مدفعا للكرب، فباتوا فيه ليلتهم يديرون لمع لهب يتمنون فيه الخلود، و يتحسّون ذوب ذهب لا يصهر به ما فى بطونهم و الجلود، حتى تركتهم ابنة الخابية، كأنهم أعجاز نخل خاوية، فلما هزم رومىّ الصباح زنجىّ الظلام، و نادى الديك حىّ على المدام، انتبه كبيرهم أبو محمد مستعجلا، و أنشد مرتجلا: يا شقيقى- إلخ فانتبه أخوه أبو بكر لصوته، و تخوّف لذهاب ذلك الوقت و فوته، و أنبه أخاهما أبا الحسن و هو يرتجل: يا أخى قم تر النسيم- إلى آخره.

فانتبه أخوه لكلامه، دافعا لذة منامه للذة قيامه، و ارتجل يا صاحبىّ ذرا- إلخ، انتهى.

[بين أبى بكر بن القبطرنة و الوزير ابن اليسع]

قال الفتح: و لما أمر المعتمد بن عباد أبا بكر بن القبطرنة السابق الذكر مع الوزير أبى الحسين بن سراج بلقاء ذى الوزارتين أبى الحسن بن اليسع القائد و المشى إليه، و النزول عليه، تنويها بمقدمه، و تنبيها على حظوته لديه و تقدمه، فصارا إلى بابه، فوجداه مقفرا من حجّابه، فاستغربا خلوّه من خول، و ظنّ كلّ واحد منهما و تأوّل، ثم أجمعا على قرع الباب، و رفع ذلك الارتياب، فخرج و هو دهش، و أشار إليهما بالتحية و يده ترتعش، و أنزلهما خجلا، و مشى بين أيديهما عجلا، و أشار إلى شخص فتوارى بالحجاب، و بارى الريح سرعة فى الاحتجاب، فقعدا و مقلة الخشف، ترمق من خلال السّجف، فانصرفا عنه، و عزما أن يكتبا إليه بما فهما منه، فكتبا إليه: [الهزج]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۴۱

سمعنا خشفة الخشف و شمنا طرفة الطّرف

و صدّقنا و لم نقطع و كذبنا و لم ننف

و أغضينا لإجلال ك عن أكرومة الظّرف

و لم تنصف و قد جئنا ك ما ننهض من ضعف

و كان الحكم أن تحم ل أو تردف فى الرّدف

فراجعهما فى الحين بقطعة منها: [الهزج]

أيا أسفى على حال سلبت بها من الظّرف

و يا لهفى على جهلى بضيف كان من صنف

و لأهل الأندلس فى مغانى الأنس الحسان، ما لا يفى به لسان.

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن حسداى]

و قال الفتح فى ترجمة الوزير أبى الفضل بن حسداى، بعد كلام، ما صورته: فمنها هذه القطعة التى أطلعها نيرة، و ترك الألباب بها متحيرة، فى يوم كان عند المقتدر بالله مع علية، قد اتخذوا المجد حلية، و الأمل قد سفر لهم عن محيّاه، و عبق لهم عن ريّاه، فصافحه الكل منهم و حيّاه، و شمس الراح، دائرة على فلك الراح، و الملك ينشر فضله، و ينصر وابله و طلّه، يسدى العلاء، و يهب الغنى و الغناء، فصدحت الغوانى، و أفصحت المثالث و المثانى، بما استنزل من مرقب الوقار، و سرى فى النفوس مسرى العقار: [البسيط]

توريد خدّك للأحداق لذّات عليه من عنبر الأصداغ لامات

نيران هجرك للعشّاق نار لظى لكنّ وصلك إن واصلت جنّات

كأنّما الرّاح و الرّاحات تحملها بدور تمّ و أيدى الشّرب هالات

حشاشة ما تركنا الماء يقتلها إلّا لتحيا بها منّا حشاشات

قد كان فى كأسها من قبلها ثقل فخفّ إذ ملئت منها الزّجاجات

عهد للبنى تقاضته الأمانات بانت و ما قضيت منها لبانات

يدنى التوهّم للمشتاق منتزحا من الأمور، و فى الأوهام راحات

تقضى عدات إذا هبّ الكرى، و إذا هبّ النّسيم فقد تهدى تحيّات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۴۲

زور يعلّل قلب المستهام به دهرا، و قد بقيت فى النّفس حاجات
لعلّ عتب اللّيالى أن يعود إلى عتبى فتبلغ أوطار و لذّات
حتّى نفوز بما جاد الخيال به فربما صدقت تلك المنامات

[وصف المتنزهات من ترجمة المستعين ابن هود]

و لما أعرس المستعين بالله ببنت الوزير الأجل أبى بكر بن عبد العزيز احتفل أبوه المؤتمن فى ذلك احتفالا شهره، و أبدع فيه إبداعا راق من حضره و بهره، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة، و الأدوات المخترعة، ما بهر الألباب، و قطع بذكائه دون معرفتها الأسباب، و استدعى إليه جميع أعيان الأندلس، من دان و قاص، و مطيع و عاص، فأتوه مسرعين، و لبوه متبرعين، و كان مدير تلك الآراء و مدبّرها، و منشئ مخاطباتها و محبّرها، الوزير الكاتب أبو الفضل، و صدرت عنه فى ذلك الوقت كتب ظهر إعجازها، و بهر اقتضابها و إيجازها، فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر: محلك أعزك اللّه فى طى الجوانح ثابت و إن نزحت الدار، و عيانك فى أحناء الضلوع باد و إن شحط المزار، فالنفس فائزة منك بتمثّل الخاطر بأوفر الحظ، و العين نازعة إلى إن تمتع من لقائك بظفر اللحظ، فلا عائدة أسبغ بردا، و لا موهبة أسوغ وردا، من تفضلك بالخفوف إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه، و يتصل بمحاضرتك انتظامه و لك فضل الإجمال، بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال، و أنا أعزك اللّه على شرف سؤددك حاكم، و على مشرع سنائك حائم، و حسبى ما تتحقّقه من نزاعى و تشوّقى، و تتيقنه من تطلعى و تتوقى، و قد تمكن الارتياح باستحكام الثقة، و اعترض الانشراح بارتقاب الصلة، و أنت وصل اللّه سعدك بسماحة شيمك، و بارع كرمك، تنشىء للمؤانسة عهدا، و تورى بالمكارمة زندا، و تقتضى بالمشاركة شكرا حافلا و حمدا، لا زلت مهنّئا بالسعود المقتبلة، مسوّغا اجتلاء غرر الأمانى المتهللة، بمنه، انتهى.

ثم قال بعد هذا بيسير، ما نصه: و ركب المستعين بالله يوما نهر سرقسطة يريد طراد لذته، و ارتياد نزهته، و افتقاد أحد حصونه المنتظمة بلبّته، و اجتمع له من أصحابه، من اختصه لاستصحابه، و فيهم أبو الفضل مشاهدا لانفراجهم، سالكا لمنهاجهم، و المستعين قد أحضر من

آلات إيناسه، و أظهر من أنواع ذلك و أجناسه، ما راق من حضر، وفاق حسنه الروض الأنضر، و الزوارق قد حفت به، و التفّت بجوانبه، و نغمات الأوتار تحبس السائر عن عدوه، و تخرس الطائر المفصح بشدوه، و السمك تثيرها المكايد، و تغوص إليها المصايد، فتبرز منها للعين، قضبان در أو سبائك لجين، و الراح لا يطمس لها لمع، و لا يبخس منها بصر و لا سمع، و الدهر قد غضت صروفه، و اقتص من نكره معروفه، فقال: [البسيط]

للّه يوم أنيق واضح الغرر مفضّض مذهب الآصال و البكر
كأنّما الدّهر لمّا ساء أعتبنا فيه بعتبى و أبدى صفح معتذر
نسير فى زورق حفّ السّفين به من جانبيه بمنظوم و منتثر
مدّ الشّراع به نشرا على ملك بذّ الأوائل فى أيّامه الأخر
هو الإمام الهمام المستعين حوى علياء مؤتمن عن هدى مقتدر
تحوى السّفينة منه آية عجبا بحر تجمّع حتّى صار فى نهر
تصاد من قعره النّينان مصعدة صيدا كما ظفر الغوّاص بالدّرر
و للنّدامى به عب و مرتشف كالرّيق يعذب فى ورد و فى صدر

و الشّرب فی مدح مولی خلقه زهر یذکو و غرّته أبهی من القمر

[وصف المتنزهات من ترجمة عبد اللّه ابن السيد البطليوسی]

و قال فی ترجمة العلامة الكبير، الأستاذ أبی محمد عبد اللّه بن السّيد البطليوسی شارح أدب الكتاب و سقط الزّند و غيرهما، ما صورته: أخبرنی أنه حضر مع المأمون بن ذی النون فی مجلس الناعورة بالمنية التی تطمح إليها المنی، و مرآها هو المقترح و المتمنی، و المأمون قد احتبی، و أفاض الحبا، و المجلس يروق كأن الشّمس فی أفقه، و البدر فی مفرقه، و النّور عبق، و علی ماء النهر مصطبح و مغتبق، و الدولاب يئن كناقة إثر الحوار، أو كثكلی من حر الأوار، و الجوّ قد عنبرته أنواؤه، و الروض قد رشّته أنداؤه، و الأسد قد فغرت أفواهها، و مجت أمواهها، فقال: [المنسرح]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۴۴

يا منظرا إن نظرت بهجته أذكرنی حسن جنّة الخلد

تربة مسك، و جوّ عنبرة، و غيم ندّ، و طشّ ما ورد

و الماء كاللّازورد قد نظمت فيه اللآلی فواغر الأسد

كأنّما جاثل الحباب به يلعب فی جانبيه بالنّرد

تراه يزهو إذا يحلّ به ال مأمون زهو الفتاة بالعقد

تخاله إن بدا به قمرا تمّا بدا فی مطالع السّعد

كأنّما ألبست حدائقه ما حاز من شيمة و من مجد

كأنّما جادها فروّضها بوابل من يمينه رغد

لا زال فی رفعة مضاعفة متمّم الرّفد وارى الزّند

و قال فی وصف هذا المجلس بعينه، فی الكتاب الذی أفرده لترجمة ابن السيد ما صورته: فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذی النون بمجلس الناعورة بطليطلة فی المنية المتناهية البهاء و الإشراق، المباهية لزوراء العراق، التی ينفح شذاها العطر، و يكاد من الغضارة يمطر، و القادر بالله رحمه اللّه قد التحف الوقار و ارتداه، و حكم العقار فی جوده و نداه، و المجلس يشرق كالشمس فی الحمل، و من حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل، و الزهر عبق، و علی ماء النهر مصطبح و مغتبق، و الدولاب يئن كناقة إثر حوار، إلی آخر ما سبق.

و قال الفضل فی وصف هذا المجلس حاذيا حذو الفتح، ما صورته: حضر الأستاذ أبو محمد بن السيد أبو محمد بن السيد عند المأمون ابن ذی النون فی بعض منتزهاته فی وقت طاب نعيمه، و سرت بالسعود نجومه، و الروض قد أجاد وشيه راقمه، و الماء قد جرت بين الأعشاب أراقمه، و ثم بركة مملوة، كأنها مرآة مجلوة، قد اتخذت سباع الصّفر بشاطئها غابا، و مجّت بها من سائغ الماء لعابا، فكأنها آساد عين، أدلعت ألسنة من لجين، و هی لا تزال تقذف الماء و لا تفتر، و تنظم لآلی الحباب بعد ما تنثر، فأمره بوصف ذلك الموضع، الذی تخد إليه ركائب القلوب و توضع، فقال بديها يا منظرا إلخ، انتهی.

ثم قال الفتح فی هذا التصنيف بعد كلام فی المذكور، ما نصه: و ما أبدع قوله فی وصف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۴۵

الراح، و الحضّ علی النبذ للهموم و الاطّراح، بمعاطاة كأسها، و موالاة إيناسها، و معاقرة دنانها، و اهتصار ثمار الفتوّة من أفنانها، و الإعراض عن الأيام و أنكادها، و الجری فی ميدان الصّبوة إلی أبعد آمادها: [الكامل]

سلّ الهموم إذا نبا زمن بمدامة صفراء كالذّهب

مزجت فمن درّ على ذهب طاف و من حبب على لهب

و كأنّ ساقيها يثير شذى مسك لدى الأقوام منتهب

و للّه هو فقد ندب إلى المندوب، و ذهب إلى مداواة القلوب من الندوب، و إبرائها من الآلام، و إهدائها كلّ تحية و سلام، و إبهاجها بآصال و بكر، و علاجها من هموم و فكر، فى زمن حلى عاطله، و جلّى فى أحسن الصور باطله، و نفقت محالاته، و طبقت أرضه و سماءه استحالاته، فليثه كأسد، و ذئبه مستأسد و أضغاثه تنسر، و بغاثه قد استنسر، فلا استراحة إلا فى معاطاة حميّا، و مواخاة و سم المحيّا، و قد كان ابن عمار ذهب مذهب، و فضّضه بالإبداع و ذهّبه، حين دخل سرقسطة و رأى غباوة أهلها، و تكاثف جهلها، و شاهد منهم من لا- يعلم معنى و لا- فصلا، و واصل من لا- يعرف قطعا و لا وصلا، فأقبل على راحه يتعاطاها، و عكف عليها ما تعدّاها و لا تخطّاها، حتى بلغه أنهم نقموا معاقرته العقار، و جالت ألسنتهم فى توبيخه مجال ذى الفقار، فقال: [الطويل]

نقمتم علىّ الرّاح أدمن شربها و قلتم فتى راح و ليس فتى مجد

و من ذا الّذى قاد الجياد إلى الوغى سواى و من أعطى كثيرا و لم يكد؟

فديتكمو لم تفهموا السّرّ، إنّما قليتكم جهدى فأبعدتكم جهدى

و دعى ابن السيد ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس و الطرب، و قرع فيه السرور نبعه بالغرب، و لاحت نجوم أكواسه، و فاح نسيم رنده و آسه، و أبدت صدور أباريقه أسرارها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۴۶

و ضمت عليه المجالس أزرارها، و الراح يديرها أهيف أوطف، و الأمانى تجنى و تقطف، فقال: [الكامل]

يا ربّ ليل قد هتكت حجابه بمدامة وقّادة كالكوكب

يسعى بها أحوى الجفون كأنّها من خدّه و رضاب فيه الأشنب

بدران بدر قد أمنت غروبه يسعى ببدر جانح للمغرب

فإذا نعمت برشف بدر غارب فانعم برشفة طالع لم يغرب

حتّى ترى زهر النّجوم كأنّها حول المجرّة ربرب فى مشرب

و اللّيل منفجر يطير غرابه و الصّبح يطرده بباز أشهب

ثم قال الفتح، بعد كلام كثير، ما صورته: و دخل- يعنى ابن السيد- سرقسطة أيام المستعين و هى جنة الدنيا، و فتنه المحيا، و منتهى الوصف، و موقف السرور القصف، ملك نمير البشاشة، كثير الهشاشة، و ملك أبهج الفناء، أرج الأرجاء، يروق المجتلى، و يفوق النجم المعتلى، و حضرة منسابة الماء، منجابة السماء، يبسم زهرها، و ينساب نهرها، و تتفتح خمائلها، و تتضوع صباها و شمائلها، و الحوادث لا- تعترضها، و الكوارث لا- تقترضها، و نازلها من عرس إلى موسم، و آملها متصل بالأمانى و متّسم، فنزل منها فى مثل الخورنق و السدير، و تصرف فيها بين روضة و غدير، فلم يخف على المستعين احتلاله، و لم تخفّ لديه خلاله، فذكره معلما به و معرفا، و أحضره منوّها به و مشرفا، و قد كان فر من ابن رزين، فرار السرور من نفس الحزين، و خلص من اعتقاله، خلوص السيف من ثقاله، فقال يمدحه:

[الطويل]

هم سلبونى حسن صبرى إذ بانوا بأقمار أطواق مطالعها بان

لئن غادرونى باللّوى إنّ مهجتى مسايرة أظعانهم حيثما كانوا

سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم ينازعها نهر من الدّمع هتّان

أ أحبابنا هل ذلك العهد راجع و هل لى عنكم آخر الدّهر سلوان

ولى مقلة عبرى و بين جوانحى فؤاد إلى لقياكم الدّهر حنّان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۴۷

تنكّرت الدّنيا لنا بعد بعدكم و حفّت بنا من معضل الخطب ألوان

أناخت بنا فى أرض شنتمريّة هواجس ظنّ خان و الظّنّ خوّان

و شمنا بروقا للمواعيد أتعبت نواظرنا دهرا و لم يهم تهتان

فسرنا و ما نلوى على متعذّر إذا وطن أقصاك آوتك أوطان

و لا زاد إلّا ما انتشته من الصّبا أنوف و حازته من الماء أجفان

رحلنا سوام الحمد منها لغيرها فلا ماؤها صدّا و لا النّبت سعدان

إلى ملك حاباه بالمجد يوسف و شاد له البيت الرّفيع سليمان

إلى مستعين بالإله مؤيّد، له النّصر حزب و المقادير أعوان

جفتنا بلا جرم كأنّ مودّة ثنى نحونا منها الأعنّة شنآن

و لو لم تفد منّا سوى الشّعر وحده لحقّ لنا برّ عليه و إحسان

فكيف و لم نجعل بها الشّعر مكسبا فيوجب للمكدى جفاء و حرمان

و لا نحن ممّن يرتضى الشّعر خطّة و إن قصرت عن شأونا فيه أعيان

و من أوهمته غير ذاك ظنونه فثمّ مجال للمقال و ميدان

خليليّ من يعدى على زمن له إذا ما قضى حيف علىّ و عدوان

و هل رىء من قبلى غريق مدامع يفيض بعينيه الحيا و هو حرّان

و هل طرفت عين لمجد و لم يكن لها مقلة من آل هود و إنسان

بوجه ابن هود كلّما أعرض الورى صحيفة إقبال لها البشر عنوان

فتى المجد فى برديه بدر و ضيغم و بحر و قدس ذو الهضاب و ثهلان

من النّفر الشّمّ الّذين أكفّهم غيوث و لكنّ الخواطر نيران

ليوث شرى ما زال منهم لدى الوغى هزبر بيمناه من السّمّ ثعبان

و هل فوق ما قد شاد مقتدر لهم و مؤتمن بالله لقياه إيمان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۴۸

ألا ليس فخر فى الورى غير فخرهم و إلّا فإنّ الفخر زور و بهتان

فيا مستعينا مستغاثا لمن نبا به وطن يوما و عضّته أزمان

كسوتك من نظمى قلادة مفخر يباهى بها جيد المعالى و يزدان

و إن قصرت عمّا لبست فربّما تجاور درّ فى النّظام و مرجان

معان حكت غنج الحسان كأنّنى بهن حبيب أو بطليوس بغدان

إذا غرست كفّاك غرس مكارم بأرضى أحنتك الثّنا منه أغصان

و قال فى وصف مجلس لأبى عيسى بن لبّون أحضر إليه ابن السيد منوها بقدره، ما صورته:

و أحضره إلى مجلس نام عنه الدهر و غفل، و قام لفرط أنسه و احتفل، قد بانت صروفه، و دنت من الزائر قطوفه، و قال: هل بنا إلى الاجتماع بمذهبك، و الاستمتاع بما شئته من براعة أدبك، فأقاموا يعملون كأسهم، و يصلون إيناسهم، و باتوا ليلتهم ما طرقهم نوم، و

لا عداهم عن طيب اللذات سوم.

ثم قال بعد كلام كثير: و حضر ابن السيد عند عبد الرحمن الظافر بن ذى النون مجلسا رفعت فيه المنى لواءها، و خلعت عليه أضواءها، و زفّت إليه المسرات أبكارها، و فارقت إليه الطير أوكارها، فقال يصف: [الرجز]

لم تر عينى مثله و لا ترى أنفس فى نفسى و أبهى منظرا

إذا تردّى و شيه المصوّرا من حوك صنعاء و حوك عبقرا

و نسج قرقوب و نسج تسترا خلت الرّبيع الطّلق فيه نوّرا

كأنّما الإبريق حين قرقرا قد أمّ لثم الكأس حين فغرا

و حشيّة ظلّت تناغى جؤذرا ترضعه الدّرّ و يرنو حذرا

كأنّما مجّ عقيقا أحمرا أوفتّ من ريّاه مسكا أذفرا

أو عابد الرّحمن يوما ذكرا فنمّ مسكا ذكره و عنبرا

الظّافر الملك الّذى من ظفرا بقربه نال العلاء الأكبرا

لو أنّ كسرى راءه أو قيصرا هلّل إكبارا له و كبّرا

تبدى سماء الملك منه قمرا إذا حجاب المجد عنه سفرا

يا أيّها المنضى المطايا بالسّرى تبغى غمام المكرمات الممطرا

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن العطار]

و قال الفتح فى ترجمة الأديب أبى القاسم بن العطار، ما صورته:

هو أحد أدباء إشبيلية و نحاتها، العامرين لأرجاء المعارف و ساحاتها، لو لا مواصلة راحاته، و تعطيل بكره و روحاته، و موالاته للفرج، و مغالاته فى عرف الأنس و الأرج، لا يعرّج إلا على ضفة نهر، و لا يبتهج إلا بقطعة زهر، و لا يحفل بملام، و لا يتنقل إلا فى طاعة غلام، ناهيك من رجل مخلوع العنان فى ميدان الصبابة، مغرم بالحسان غرام يزيد بحبابة، لا تراه إلا فى ذمة انهماك، و لا تلقاه إلا فى لمّة انهتاك، رافعا لرايات الهوى، فارعا لثنيّات الجوى، لا يقفر فؤاده من كلف، و لا يبيت إلا رهن تلف، أكثر خلق اللّه تعالى علاقة، و أحضرهم لمشهد خلاقة، مع جزالة تحرك السكون، و تضحك الطير فى الوكون، و قد أثبتّ له مما ارتجله فى أوقات أنسه و ساعاته، و نفث به أثناء زفراته و لوعاته، فمن ذلك ما قاله فى يوم ركب فيه النهر على عادات انكشافه، و ارتضاعه لثغور اللذات و ارتشافه: [الطويل]

عبرنا سماء النّهر و الجوّ مشرق و ليس لنا إلّا الحباب نجوم

و قد ألبسته الأيك برد ظلالها و للشّمس فى تلك البرود رقوم

و له فيه: [الطويل]

مررنا بشاطى النّهر بين حدائق بها حدق الأزهار تستوقف الحدق

و قد نسجت كفّ النّسيم مفاضة عليه و ما غير الحباب لها حلق

و له: [الخفيف]

هبّت الرّيح بالعشىّ فحاكت زردا للغدير ناهيك جنّه

و انجلى البدر بعد هدء فصاغت كفّه للقتال منه أسنّه

و قوله: [الكامل]

للّه بهجة منزه ضربت به فوق الغدير رواقها الأنسام

فمع الأصيل النّهر درع سابغ و مع الضّحى يلتاح منه حسام

و له: [الكامل]

ما كالعشيّة فى رواء جمالها و بلوغ نفسى منتهى آمالها

ما شئت شمس الأرض مشرقة السّنى و الشّمس قد شدّت مطىّ رحالها

فى حيث تنساب المياه أراقما و تعيرك الأفياء برد ظلالها

و له: [الكامل]

للّه حسن حديقة بسطت لنا منها النّفوس سوالف و معاطف

تختال فى حلل الرّبيع و حليه و من الرّبيع قلائد و مطارف

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن عمار]

و قال الفتح فى ترجمة ابن عمار: أخبرنى ذو الوزارتين الأجل أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر معه عند المؤتمن فى يوم جادت فيه السماء بهطلها، و أتبعت و بلها بطلّها، و أعقب رعدها برقها، و انسكب دراكا و دقها، و الأزهار قد تجلت من كمامها، و تحلّت بدرّ غمامها، و الأشجار قد جلى صداها، و توشّحت بنداها، و أكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد، تديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد، إذا بفتى من فتيان المؤتمن أخرس لا يفصح، و مستعجم لا يبين و لا يوضح، متنمر تنمّر الليث، متشمر كالبطل الفارس عند العيث، و قد أفاض على نفسه درعا، تضيق بها الأسنة ذرعا، و هو يريد استشارة المؤتمن فى التوجه إلى موضع بعثه إليه و وجّهه،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۵۱

و كل من صده عنه نهره و نجهه، حتى وصل إلى مكان انفراده، و وقف بإزاء و ساده، فلما وقعت عين ابن عمّار عليه، أشار بيده إليه، و قرّبه و استدناه، و ضمه إليه كأنه تبنّاه، و أراد أن يخلع عنه ذلك الغدير، و أن يكون هو الساقى و المدير، فأمره المؤتمن بخلعه، و طاعة أمره و سمعه، فنضاه عن جسمه، و قام يسقى على حكمه و رسمه، فلما دبت فيه الحميّا، و شبت غرامه بهجة ذلك المحيّا و استنزلته سورة العقار، من مرقب الوقار، قال: [الكامل]

و هويته يسقى المدام كأنّه قمر يدور بكوكب فى مجلس

متأرّج الحركات تندى ريحه كالغصن هزّته الصّبا بتنفّس

يسعى بكأس فى أنامل سوسن و يدير أخرى من محاجر نرجس

يا حامل السّيف الطّويل نجاده و مصرّف الفرس القصير المحبس

إيّاك بادرة الوغى من فارس خشن القناع على عذار أملس

جهم و إن حسر اللّثام فإنّما كشف الظلام عن النّهار المشمس

يطغى و يلعب فى دلال عذاره كالمهر يمرح فى اللّجام المجرس

سلّم فقد قصف القنا غصن النّقا وسطا بليث الغاب ظبى المكنس

عنّا بكاسك، قد كفتنا مقلة حوراء قائمة بسكر المجلس

و أورد هذه القصة صاحب البدائع بقوله: حضر أبو المطرّف بن عبد العزيز عند المؤتمن بن هود فى يوم أجرى الجوّ فيه أشقر برقه، و

رمى بنبل و دقه، و تحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها، و تمايلت قامات الأغصان فى الحلل الخضر من أوراقها، و الرياح قد أشرقت نجومها فى بروج الراح، و حاكت شمسها شمس الأفق فتلفعت بغيوم الأقداح، و مديرها قد ذاب ظرفا فكاد يسيل من إهابه، و أخجل خدّها حسنا فتظلل بعرق حبابه، إذا بفتى رومىّ من فتيان المؤتمن قد أقبل متدرّعا كالبدر اجتاب سحابا، و الخمر قد اكتست حبابا، و قد جاء يريد استشارة المؤتمن فى الخروج إلى موضع قد كان عوّل فيه عليه، و أمره أن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۵۲

يتوجّه إليه، فحين لمحه ابن عمار و السكر قد استحوذ على لبه، و بثّ سراياه فى ضواحى قلبه، جدّ فى أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدّلاص، و أن يجلّى عنه سهكه كما يجلّى الخبث عن الخلاص، و أن يكون هو الساقى، فأمره المؤتمن بقبول أمره و امتثاله، و احتذاء مثاله، فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها، و رميت شياطين النفوس من كميت المدام بشهبها، ارتجل ابن عمار: و هويته- الخ:

إلا أنه قال إثر قوله: إياك بادرة الوغى من فارس ما صورته: يضع السنان على العذار الأملس و لابن عمار الرائية المشهورة فى مدح المعتضد عباد والد المعتمد، و هى: [الكامل]

أدر المدامة فالنّسيم قد انبرى و النّجم قد صرف العنان عن السّرى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۱۵۲

و الصّبح قد أهدى لنا كافوره لمّا استردّ اللّيل منّا العنبرا

و الرّوض كالحسنا كساه زهره و شيا و قلّده نداه جوهرا

أو كالغلام زها بورد خدوده خجلا و تاه بآسهنّ معذّرا

روض كأنّ النّهر فيه معصم صاف أطلّ على رداء أخضرا

و تهزّه ريح الصّبا فتخاله سيف ابن عبّاد يبدّد عسكرا

عبّاد المخضرّ نائل كفّه و الجوّ قد لبس الرّداء الأغبرا

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد و نحاه لا يردون حتّى يصدرا

أندى على الأكباد من قطر النّدى و ألذّ فى الأجفان من سنة الكرى

يختار إذ يهب الخريدة كاعبا و الطّرف أجرد و الحسام مجوهرا

قدّاح زند المجد لا ينفكّ من نار الوغى إلا إلى نار القرى

لا خلق أفرى من شفار حسامه إن كنت شبّهت المواكب أسطرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۵۳

أيقنت أنّى من ذراه بجنّة لمّا سقانى من نداه الكوثرا

و علمت حقّا أنّ ربعى مخصب لمّا سألت به الغمام الممطرا

من لا توازنه الجبال إذا احتبى من لا تسابقه الرّياح إذا جرى

ماض و صدر الرّمح يكهم و الظّبا تنبو و أيدى الخيل تعثر فى الثّرى

قاد الكتائب كالكواكب فوقهم من لأمهم مثل السّحاب كنهورا

من كلّ أبيض قد تقلّد أبيضا عضبا و أسمر قد تقلّد أسمرا

ملك يروقك خلقه أو خلقه كالرّوض يحسن منظرا أو مخبرا

أقسمت باسم الفضل حتّى شمته فرأيته فى بردتيه مصوّرا

و جهلت معنى الجود حتّى زرته فقرأته فى راحتيه مفسّرا

فاح الثّرى متعطّرا بثنائه حتّى حسبنا كلّ ترب عنبرا

و تتوّجت بالزّهر صلع هضابه حتّى ظننّا كلّ هضب قيصرا

هصرت يدى غصن الغنى من كفّه و جنت به روض السّرور منوّرا

حسبى على الصّنع الّذى أولاه أن أسعى بجدّ أو أموت فأعذرا

يا أيّها الملك الّذى حاز العلا و حباه منه بمثل حمدى أنورا

السّيف أفصح من زياد خطبة فى الحرب إن كانت يمينك منبرا

ما زلت تغنى من عنا لك راجيا نيلا و تفنى من عتا و تجبّرا

حتّى حللت من الرّياسة محجرا رحبا و ضمّت منك طرفا أحورا

شقيت بسيفك أمّة لم تعتقد إلّا اليهود و إن تسمّت بربرا

أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم لمّا رأيت الغصن يعشق مثمرا

و صبغت درعك من دماء كماتهم لمّا علمت الحسن يلبس أحمرا

و إليكها كالرّوض زارته الصّبا و حنا عليه الظّلّ حتّى نوّرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۵۴

نمّقتها وشيا بذكرك مذهبا و فتقتها مسكا بحمدك أذفرا

من ذا ينافحنى و ذكرك مندل أوردته من نار فكرى مجمرا

فلئن وجدت نسيم مدحى عاطرا فلقد وجدت نسيم برّك أعطرا

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن وهبون]

و قال فى ترجمة عبد الجليل بن و هبون المرسى: ركب بإشبيلية زورقا فى نهرها الذى لا تدانيه الصّراة، و لا يضاهيه الفرات، فى ليلة تنقبت فى ظلمتها، و لم يبد وضح فى دهمتها، و بين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعهما فى اللجة، و زاد فى تلك البهجة، فقال: [المنسرح]

كأنّما الشّمعتان إذ سمتا خدّا غلام محسّن الغيد

و فى حشا النّهر من شعاعهما طريق نار الهوى إلى كبدى

و كان معه غلام البكرى معاطيا للراح، و جاريا فى ميدان ذلك المراح، فلما جاء عبد الجليل بما جاء، و حلّى للإبداع الجوانب و الأرجاء، حسده على ذلك الارتجال، و قال بين البطء و الاستعجال: [الكامل]

أعجب بمنظر ليلة ليلاء تجنى بها اللّذّات فوق الماء

فى زورق يزهو بغرّة أغيد يختال مثل البانة الغيناء

قرنت يداه الشّمعتين بوجهه كالبدر بين النّسر و الجوزاء

و التاح تحت الماء ضوء جبينه كالبرق يخفق فى غمام سماء

[وصف الفتح لمجلس أنس بمنية المنصور]

و قال الفتح رحمه اللّه: دعيت يوما إلى منية المنصور بن أبى عامر ببلنسية، و هى منتهى الجمال، و مزدهى الصبا و الشمال، على و هى

بنائها، و سكنى الحوادث برهة بفنائها، فوافيتها و الصبح قد ألبسها قميصه، و الحسن قد شرح بها عويصه، و بوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه، و توشّحت بالأزر الذهبية أثوابه، يخترقه جدول كالحسام المسلول،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۵۵

و ينساب فيه انسياب الأيم فى الطلول، و ضفّاته بالأدواح محفوفة، و المجلس يروق كالخريدة المزفوفة، و فيه يقول على بن أحمد أحد شعرائها، و قد حله مع طائفة من وزرائها: [المنسرح]

قم فاسقنى و الرّياض لابسة و شيا من النّور حاكه القطر

فى مجلس كالسّماء لاح به من وجه من قد هويته بدر

و الشّمس قد عصفرت غلائلها و الأرض تندى ثيابها الخضر

و النّهر مثل المجرّ حفّ به من النّدامى كواكب زهر

فحللت ذلك المجلس و فيه أخدان، كأنهم الولدان، و هم فى عيش لدن، كأنهم فى جنة عدن، فأنخت لديهم ركائبى و عقلتها، و تقلدت بهم رغائبى و اعتقلتها، و أقمنا نتنعم بحسنه طول ذلك اليوم، و وافى الليل فذدنا عن الجفون طروق النوم، و ظللنا بليلة كأن الصبح منها مقدود، و الأغصان تميس كأنها قدود، و المجرة تتراءى نهرا، و الكواكب تخالها فى الجو زهرا، و الثريا كأنها راحة تشير، و عطارد لنا بالطرب بشير، فلما كان من الغد وافيت الرئيس أبا عبد الرحمن زائرا، فأفضنا فى الحديث إلى أن أفضى بنا إلى ذكر منتزهنا بالأمس، و ما لقينا فيه من الأنس، فقال لى: ما بهجة موضع قد بان قطينه و ذهب، و سلب الزمان بهجته و انتهب، و باد فلم يبق إلا رسمه، و محاه الحدثان فما كاد يلوح رسمه، عهدى به عند ما فرغ من تشييده، و تنوهى فى تنسيقه و تنضيده، و قد استدعانى إليه المنصور فى وقت حلت فيه الشمس برج شرفها، و اكتسب فيه الأرض بزخرفها، فحللت به و الدوح تميس معاطفه، و النّور يخجله قاطفه، و المدام تطلع به و تغرب، و قد حل فيه قحطان و يعرب، و بين يدى المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع، و لا يحل غير الفؤاد من مربع، و هم يديرون رحيقا، خلتها فى كأسها درّا أو عقيقا، فأقمنا و الشهب تغازلنا، و كأن الأفلاك منازلنا، و وهب المنصور فى ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفا من صلات متصلات، و أقطع ضياعا ثم توجع لذلك العهد، و أفصح بما بين ضلوعه من الوجد، و قال: [الكامل]

سقيا لمنزلة اللّوى و كثيبها إذ لا أرى زمنا كأزمانى بها

[كتاب من الفتح إلى بعض الملوك يصف متنزها]

و ما أحسن ما كتب به الفتح إلى بعض الملوك يصف نزهة ببعض منتزهات الأندلس المونقة، و يذكر استضاءته فيها بشموس المسرة المشرقة، و هو:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۵۶

أطال اللّه سبحانه بقاء ناصر الدولة، و محيى الملة، الذى حسن بلقياه العيش، و تزين بمحياه الجيش، و راق باسمه الملك، و جرت بسعده الفلك، و أنار به الليل الدامس، و لاح له الأثر الطامس، و جرى الدهر لسطوته خائفا، و غدا السعد بعقوته طائفا، و الزمان ببرود علياه ملتحف، و لثغور نداه مرتشف، و لا زال للمجد يتملكه، و السعد يحمله فلكه، أما و قد وافقتنى أيامه أيده اللّه سبحانه وفاقا، و رأيت للبيان عنده نفاقا، فلا بد أن أرسل كتائبه أفواجا، و أفيض من بحره أمواجا، و أصف ما شاهدته من اقتداره، و عاينته من حسن إيراده و إصداره، بمقال أفصح من شكوى المحزون، و أملح من رياض الحزون، و قد كنت أيدكم اللّه تعالى كلفا بالدول و بهائها، لهجا بالبلوغ إلى انتهائها، لأجد دولة أرتضيها، و حظوة علياء أقتضيها، فكل ملك فاوضته سرا و جهرا، و كل ملك قلبته بطنا و ظهرا، و النفس تصدّ عنه صدود الجبان عن الحرب، و الملائكة الكرام عن الشرب، إلى أن حصلت لديه، و وصلت بين يديه، فقلت: الآن

أمكن من راح البغيـة الانتشـاء، و تمثلت الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَیْثُ نَشاءُ [فاطر الآیـة: ۳۴، الزمر ۷۴] و مـا زلت أسـایره حیث سـار، و آخـذ الیمین تـارة و تارة الیسار، و کل ناحیـة تسـفر لی عن خـدّ روض أزهر، و عـذار نبت أخضـر، و تبسم عن ثغر حبـاب، فی نهر کالحبـاب، و ترفـل من الربیع فی ملابس سندسـیات، و تهـدی إلینا نوافـح مسـکیات، و تزهی بهجتها بأحسن منظر، و تتیه بجلباب أینع من برد الشباب الأنضر، فجلنا فیها یمینا و شمالا، و استخبرنا عن أسرارها صبا و شمالا، ثم مال بنا أیـده اللّه تعالی عن هذه المسارح السـنیة، و المنازل البهیّة، إلی إحدی ضـیاعه الحالیة، و بقاعه العالیة، فحللناها و الأیم قد عری من جلبابه، و الیوم قـد اکتهل بعـد شـبابه، فنزلنا فی قصور یقصـر عنها جعفریّ جعفر، و قصور بنی الأصـفر، تهـدی من لبّاتها بردا محبرا، و تبدی من شذاها مسکا و عنبرا، و قد لاحت من جوانبها نجوم أکواس لو رآها أبو نواس لجعلها شعاره، و وقف علی نعتها أشعاره، و لم یتخذ سواها نجعة، و لا نبه خمّاره بعد هجعة، فتعاطیناها و السـعد لنا خادم، و ما غیر السـرور علینا قادم، و خدود سقاتها قد اکتست من سناها، و قدودهم تتهیل علینا بجناها، و نحن بین سکر و صحو، و إثبات لها و محو، و إصاخة إلی بمّ وزیر، و التفاتة إلی ملک

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۲، ص: ۱۵۷

و وزیر، إلی أن ولی النهار فحیانا، و أقبل اللیل المیت فأحیانا، فوصلنا بلهو و قصف، و عیش یتجاوز کلّ وصف، فکأن یومنا مقیم، أو کـأن لیلنـا من الظلام عقیم، و لمـا سـل الفجر حسامه، و أبـدی لعبوس اللیل ابتسامه، و جاء یختال اختیالا، و یمحو من بقایا اللیل نیالا، قمنا نتنادب للمسیر، و کلنا فی یـد النشوة أسیر، فسـرنا و الملک الأجل یقـدمنا، و الأیام تخدمنا، فلا زالت الأیام به زاهیة، و عن سواه لاهیة، ما عمر و کرا عقاب، و کان للشهور غرر و أعقاب، انتهی.

[وصف المتنزهات من ترجمة الراضی باللّه بن عباد]

و قال الفتـح فی ترجمـة الراضـی باللّه أبی خالـد یزیـد بن المعتمـد بن عباد بعـد کلام ما صورته: و أخبرنی المعتدّ باللّه أن أباه المعتمد وجّهه- یعنی أخاه الراضـی- إلی شلب والیا، و کانت ملعب شبابه، و مألف أحبابه، التی عمر نجودها غلاما، و تذکر عهودها أحلاما، و فیها یقول یخاطب ابن عمار و قد توجه إلیها: [الطویل]

ألا حیّ أوطانی بشلب أبا بکر و سلهنّ هل عهد الوصال کما أدری

و سلّم علی قصر الشّراجیب من فتی له أبدا شوق إلی ذلک القصر

و قصـر الشـراجیب هـذا متناه فی البهاء و الإشـراق، مباه لزوراء العراق، رکضت فیه جیاد راحاته، و أومضت بروق أمانیه فی ساحاته، و جری الدهر مطیعا بین بکره و روحاته، أیام لم تحل عنه تمائمه، و لا خلت من أزاهیر الشـباب کمائمه، و کان یعتدها مشـتهی آماله، و منتهی أعماله، إلی بهجـة جنباتها، و طیب نفحاتها و هبّاتها، و التفاف خمائلها، و تقلـدها بنهرها مکان حمائلها، و فیها یقول ابن اللّبانـة: [الطویل]

أما علم المعتدّ باللّه أنّنی بحضرته فی جنّة شقّها نهر

و ما هو نهر أعشب النّبت حوله و لکنّه سیف حمائله خضر

فلما صدر عنها و قد حسـنت آثاره فی تدبیرها، و انسدلت رعایته علی صغیرها و کبیرها، نزل المعتمد علیه مشرفا لأوبته، و معرفا بسموّ قدره لدیه و رتبته، و أقام یومه عنده مستریحا، و جری فی میدان الأنس بطلا مشـیحا، و کان واجدا علی الراضـی فجلت الحمیّا أفقه، و محت غیظه علیه و حنقه، و صورته له عین حنوّه، و ذکرته بعـده فجنـح إلی دنوّه، و بین مـا اسـتدعی و أوفی، مالت بالمعتمـد نشوته و أغفی، و ألقاه صـریعا فی منتـداه، طریحا فی منتهی مـداه، فأقام تجاهه، یرتقب انتباهه، و فی أثناء ذلک صـنع شـعرا أتقنه و جوّده، فلما استیقظ أنشده: [المتقارب]

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۲، ص: ۱۵۸

الآن تعود حياة الأمل و يدنو شفاء فؤاد معل

و يورق للعزّ غصن ذوى و يطلع للسّعد نجم أفل

فقد وعدتنى سحاب الرّضا بوابلها حين جادت بطل

أيا ملكا أمره نافذ فمن شا أعزّ و من شا أذل

دعوت فطار بقلبى السرور إليك، و إن كان منك الوجل

كما يستطيرك حبّ الوغى إليها و فيها الظّبا و الأسل

فلا غرو إن كان منك اغتفار و إن كان منّا جميعا زلل

فمثلك- و هو الّذى لم نجد ه عاد بحلم على من جهل

[وصف المتنزهات من ترجمة المتوكل على اللّه بن الأفطس]

و قال فى ترجمة المتوكل على اللّه ابن الأفطس، ما صورته: و أخبرنى الوزير أبو محمد بن عبدون، أن الأرض توالى عليها الجدب بحضرته حتى جفّت مذانبها، و اغبرت جوانبها، و غرد المكّاء فى غير روضه، و خاض الياس بالناس أعظم خوضه، و أبدت الخمائل عبوسها، و شكت الأرض للسماء بوسها، فأقلع المتوكل عن الشرب و اللهو، و نزع ملابس الخيلاء و الزّهو، و أظهر الخشوع، و أكثر السجود و الركوع، إلى أن غيّم الجوّ، و انسجم النوّ، و صاب الغمام، و تزنّمت الحمام، و سفرت الأنوار، و زهت النجود و الأغوار، و اتفق أن وصل أبو يوسف المغنّى و الأرض قد لبست زخارفها، و رقم الغمام مطارفها، و تتوجت الغيطان و الربا، و أرجت نفحات الصّبا، و المتوكل ما فض لتوبته ختاما، و لا قوّض عن قلبه منها خياما، فكتب إليه: [المتقارب]

ألمّ أبو يوسف و المطر فياليت شعرى ما ينتظر

و لست بآب و أنت الشّهيد حضور نديّك فيمن حضر

و لا مطلعى وسط تلك السّما ء بين النّجوم و بين القمر

و ركضى فيها جياد المدا م محثوثة بسياط الوتر

فبعث إليه مركوبا، و كتب معه: [المتقارب]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۵۹

بعثت إليك جناحا فطر على خفية من عيون البشر

على ذلل من نتاج البروق و فى ظلل من نسيج الشّجر

فحسبى ممّن نأى من دنا و من غاب كان فدى من حضر

فوصل القصبة المطلة على البطحاء، المزرية بمنازل الرّوحاء، فأقام منها حيث قال عدىّ بن زيد يصف صنعاء: [الكامل]

فى قباب حول دسكرة حولها الزّيتون قد ينعا

و مرّ لهم من السرور يوم ما مر لذى رعين، و لا تصوّر قبل عيونهم لعين، و أخبرنى أنه سايره إلى شنترين قاصية أرض الإسلام، السامية الذرا و الأعلام، التى لا يروعها صرف، و لا يفرعها طرف، لأنها متوعّرة المراقى، معقّرة للراقى، متمكنة الرّواسى و القواعد، من ضفة نهر استدار بها استدارة القلب بالساعد، قد أطلّت على خمائلها، إطلال العروس من منصّتها، و اقتطعت من الجوّ أكثر من حصّتها، فمروا بألبش قطر سالت به جداوله، و اختالت فيه خمائله، فما يجول الطّرف منه إلا فى حديقة، أو بقعة أنيقة، فتلقاهم ابن مقانا قاضى حضرته و أنزلهم عنده، و أورى لهم بالمبرة زنده، و قدم لهم طعاما و اعتقد قبوله منّا و إنعاما، و عندما طعموا قعد القاضى بباب المجلس رقيبا لا يبرح، و عين المتوكل حياء منه لا تجول و لا تمرح، فخرج أبو محمد و قد أبرمه القاضى بتثقيله، و حرمه راحة رواحه و مقيله، فلقى

ابن خيرون منتظرا له و قد أعد لحلوله منزله، فسار إلى مجلس قد ابتسمت ثغور نوّاره، و خجلت خدود و رده من زوّاره، و أبدت صدور أباريقه أسرارها، و ضمت عليه المحاسن أزرارها، و لما حضر له وقت الأنس و حينه، و أرجت له رياحينه، وجّه من يرقب المتوكل حتى يقوم جليسه، و يزول موحشه لا- أنيسه، فأقام رسوله و هو بمكانه لا يريمه، قد لازمه كأنه غريمه، فما انفصل، حتى ظن أن عارض الليل قد نصل، فلما علم أبو محمد بانفصاله بعث إلى المتوكل قطيع راح و طبق ورد، و كتب معهما: [الرجز]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۶۰

إليكها فاجتلها منيرة و قد خبا حتّى الشّهاب الثّاقب

واقفة بالباب لم يؤذن لها إلّا و قد كاد ينام الحاجب

فبعضها من المخاف جامد و بعضها من الحياء ذائب

فقبلها منه رحمه اللّه تعالى و عفا عنه و كتب إليه: [الرجز]

قد وصلت تلك الّتى زففتها بكرا و قد شابت لها ذوائب

فهبّ حتّى نستردّ ذاهبا من أنسنا إن استردّ ذاهب

فركب إليه، و نقل معه ما كان بالمجلس بين يديه، و باتا ليلتهما لا يريمان السهر، و لا يشيمان برقا إلا الكاس و الزهر.

ثم قال بعد كلام: و أخبرنى الوزير الفقيه أبو أيوب بن أبى أميۀ أنه مرّ فى بعض أيامه بروض مفتر المباسم، معطّر الرياح النواسم، قد صقل الربيع حوذانه، و أنطق بلبله و ورشانه، و ألحف غصونه برودا مخضرۀ، و جعل إشراقه للشمس ضرۀ، و أزاهره تتيه على الكواكب، و تختال فى خلع الغمائم السواكب، فارتاح إلى الكون به بقيۀ نهاره، و التنعم ببنفسجه و بهاره، فلما حصل من أنسه فى وسط المدى، عمد إلى ورقۀ كرنب قد بللها النّدى، و كتب فيها بطرف غصن ناعم، يستدعى الوزير أبا طالب بن غانم، أحد ندمائه، و نجوم سمائه: [البسيط]

أقبل أبا طالب إلينا وقع وقوع النّدى علينا

فنحن عقد بغير وسطى ما لم تكن حاضرا لدينا

[وصف المتنزهات من ترجمۀ المعتصم ابن صمادح]

و قال فى ترجمۀ المعتصم بن صمادح، ما صورته: و أخبرنى الوزير أبو خالد بن بشتغير أنه حضر مجلسه بالصمادحيۀ فى يوم غيم و فيه أعيان الوزراء، و نبهاء الشعراء، فقعد على موضع يتداخل الماء فيه، و يلتوى فى نواحيه، و المعتصم منشرح النفس، مجتمع الأنس، فقال: [البسيط]

أنظر إلى حسن هذا الماء فى صببه كأنّه أرقم قد جدّ فى هربه

فاستبدعوه، و تيموه به و أولعوه، فأسكب عليهم شآبيب نداه، و أغرب بما أظهره من بشره و أبداه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۶۱

ثم قال بعد كلام: و خرج إلى برجۀ و دلايۀ و هما منظران لم يجل فى مثلهما ناظر، و لم تدع حسنهما الخدود النواضر، غصون تثنّيها الرياح، و مياه لها انسياح، و حدائق تهدى الأرج و العرف، و منازه تبهج النفس و تمتع الطرف، فأقام فيها أياما يتدرج فى مسارحها، و يتصرف فى منازهها، و كانت نزهۀ أربت على نزهۀ هشام بدير الرّصافۀ، و أنافت عليها أى إنافۀ.

[وصف المتنزهات من ترجمۀ ابن رزين]

و قال فى ترجمۀ ابن رزين، ما ملخصه: أخبرنى الوزير أبو عامر بن سنون أنه اصطبح يوما و الجوّ سماكى العوارف، لا- زوردىّ

المطارف، و الروض أنيقة لبّاته، رقيقة هبّاته، و النور مبتلّ، و النسيم معتلّ، و معه قومه، و قد راقهم يومه، و صلاته تصافح معتفيهم، و مبرّاته تشافه موافيهم، و الراح تشعشع، و ماء الأمانى ينشع، فكتب إلى ابن عمار و هو ضيفه: [الطويل]

ضمان على الأيّام أن أبلغ المنى إذا كنت فى ودّى مسرا و معلنا

فلو تسأل الأيّام: من هو مفرد بودّ ابن عمّار؟ لقلت لها: أنا

فإن حالت الأيّام بينى و بينه فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى

فلما وصلت الرقعة إليه تأخر عن الوصول، و اعتذر بعذر مختلّ المعانى و الفصول، فقال أحد الحاضرين: إنى لأعجب من قعود ابن عمار، عن هذا المضمار، مع ميله إلى السّماع، و كلفه بمثل هذا الاجتماع، فقال ذو الرياستين: إن الجواب تعذر، فلذا اعتذر، لأنه يعانى قوله و يعلّله، و يروّيه و لا يرتجله، و يقوله فى المدة، و الساعات الممتدة، فرأى أن الوصول بلا جواب إخجال لأدبه، و إخلال لمنازله فى الشعر و رتبه، فلما كان من الغد ورد ابن عمار و معه الجواب، و هو: [الطويل]

هصرت لى الآمال طيّبة الجنى و سوّغتنى الأحوال مقبلة الدّنى

و ألبستنى النّعمى أغضّ من النّدى و أجمل من وشى الرّبيع و أحسنا

و كم ليلة أحظيتنى بحضورها فبتّ سميرا للسّناء و للسّنا

أعلّل نفسى بالمكارم و العلا و أذنى و كفّى بالغناء و بالغنى

سأقرن بالتّمويل ذكرك كلّما تعاورت الأسماء غيرك و الكنى

لأوسعتنى قولا و طولا كلاهما يطوّق أعناقا و يخرس ألسنا

و شرّفتنى من قطعة الرّوض بالّتى تناثر فيها الطّبع وردا و سوسنا

تروق بجيد الملك عقدا مرصّعا و تزهو على عطفيه بردا مزيّنا

فدم هكذا يا فارس الدّست و الوغى لتطعن طورا بالكلام و بالقنا

و أخبرنى الوزير أبو جعفر بن سعدون أنه اصطبح يوما بحضرته و للرذاذ رشّ، و للربيع على وجه الأرض فرش، و قد صقل الغمام الأزهار حتى أذهب نمشها، و سقاها فأروى عطشها، فكتب إليه: [الطويل]

فديناك لا يسطيعك النّظم و النّثر فأتت مليك الأرض، و انفصل الأمر

مرينا نداك الغمر فانهلّ صيّبا كما سكبت و طفاء أو سكب البحر

و جاء الرّبيع الطّلق يبدى غضارة فحيّتك منه الشّمس و الرّوض و النّهر

إلى أن قال: ثم وجه فيه إلى روضة قد أرجت نفحاتها، و تدبجت ساحاتها، و تفتحت كمائمها، و أفصحت حمائمها، و تجرّدت جداولها كالبواتر، و رمقت أزهارها بعيون فواتر، و أقاموا يعملون أكواسهم، و يشتملون إيناسهم، فقال ذو الرياستين: [الطويل]

و روض كساه الطلّ و شيا مجدّدا فأضحى مقيما للنّفوس و مقعدا

إذا صافحته الرّيح خلت غصونه رواقص فى خضر من القضب ميّدا

إذا ما انسكاب الماء عاينت خلته و قد كسرته راحة الرّيح مبردا

و إن سكنت عنه حسبت صفاءه حساما صقيلا صافى المتن جرّدا

و غنّت به ورق الحمائم بيننا غناء ينسّيك الغريض و معبدا

فلا تجفونّ الدّهر ما دام مسعدا و مدّ إلى ما قد حباك به يدا

و خذها مداما من غزال كأنّه إذا ما سقى بدر تحمّل فرقدا

إلى أن قال: و أخبرنى الوزير أبو عامر بن سنون، أنه كان معه فى منية العيون، فى يوم مطرّز الأديم، و مجلس معزز النديم، و الأنس يغازلهم من كل ثنية، و يواصلهم بكل أمنية،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۶۳

فسكر أحد الحاضرين سكرا مثل له ميدان الحرب، و سهل عليه مستوعر الطعن و الضرب، فقلب مجلس الأنس حربا و قتالا، و طلب الطعن وحده و النزالا، فقال ذو الرياستين:

نفس الذّليل تعزّ بالجريال فيقاتل الأقران دون قتال

كم من جبان ذى افتخار باطل بالرّاح تحسبه من الأبطال

كبش النّدىّ تخمّطا و عرامة و إذا تشبّ الحرب شاة نزال

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن طاهر]

و قال فى ترجمة ابن طاهر، ما صورته: و جئته يوما و قد وقفت بباب الحنش، فقال لى:

من أين؟ فأعلمته، و وصفت له ما عاينته من حسنه و تأملته، فقال لى: كنت أخرج إليه فى أكثر الليالى مع الوزير الأجل أبى بكر- يعنى ابن عبد العزيز- إلى روضته التى ودت الشمس أن يكون منها طلوعها، و تمنى المسك أن تنضم عليه ضلوعها، و الزمان غلام، و العيش أحلام، و الدنيا تحية و سلام، و الناس قد انتشروا فى جوانبه، و قعدوا على مذانبه، و فى ساقيته الكبرى دولاب يثن كناقة إثر حوار، أو كثكلى من حر الأوار، و كل مغرم يجعل فيه ارتياحه، بكرته و رواحه، و يغازل عليه حبيبه، و يصرف إليه تشبيبه، فخرجت عليه ليلة و المتنبى الجزيرى واقف و أمامه ظبى آنس، تهيم به المكانس، و فى أذنيه قرطان، كأنهما كوكبان، و هو يتأود تأود غصن البان، و المتنبى يقول: [الرمل]

معشر النّاس بباب الحنش بدر تمّ طالع فى غبش

علّق القرط على مسمعه من عليه آفة العين خشى

فلما رآنى أمسك، و سبح كأنه قد تنسك.

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن عمار]

و قال فى ترجمة ابن عمار، ما صورته: و تنزه بالدمشق بقرطبة، و هو قصر شيده بنو أمية بالصّفّاح و العمد، و جروا من إتقانه إلى غاية و أمد، و أبدع بناؤه، و نمقت ساحته و فناؤه، و اتخذوه ميدان مراحهم، و مضمارا لانشراحهم، و حكوا به قصرهم بالمشرق، و أطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق، فحله أبو بكر بن عمار على أثر بوسه، و ابتسم له دهره بعد عبوسه، و الدنيا قد أعطته عفوها، و سقته صفوها، و بات فيه مع لمّة من أتباعه، و متفيئى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۶۴

رباعه، و كلهم يحييه بكاس، و يفديه بنفسه من كل باس، فطابت له ليلته فى مشيده، و أطربه الأنس ببسيطه و نشيده، فقال: [الخفيف]

كلّ قصر بعد الدّمشق يذمّ فيه طاب الجنى وفاح المشمّ

منظر رائق، و ماء نمير و ثرى عاطر، و قصر أشمّ

بتّ فيه و اللّيل و الفجر عندى عنبر أشهب و مسك أحمّ

و عبر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله: تنزه ابن عمار بالدمشق بقرطبة، و هو قصر شيده خلفاء بنى أمية و زخرفوه، و دفعوا صرف الدهر عنه و صرفوه، و أجروه على إرادتهم و صرّفوه، و ذهّبوا سقفه و فضّضوها، و رخّموا أرضه و روّضوها، فبات به و السعد يلحظه

بطرفه، و الروض يحييه بعرفه، فلما استنفد كافور الصباح مسك الغسق، و رصع آبنوس الظلام نضار الشفق، قال مرتجلا: «كل قصر بعد الدمشق يذم» إلخ، انتهى.

[وصف المتنزهات من ترجمة أبى عيسى بن لبون]

و قال فى ترجمة ذى الوزارتين أبى عيسى بن لبّون: أخبرنى الوزير أبو عامر بن الطويل أنه كان بقصر مربيطر بالمجلس الشرقى منها، و البطحاء قد لبست زخرفها، و دبج الغمام مطرفها، و فيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها، و تبث طيب تنفسها، و الجلنار قد لبس أردية الدماء، و راع أفئدة الندماء، فقال: [الكامل]

قم يا نديم أدر علىّ القرقفا أو ما ترى زهر الرّياض مفوّفا

فتخال محبوبا مدلا وردها و تظنّ نرجسها محبّا مدنفا

و الجلّنار دماء قتلى معرك و الياسمين حباب ماء قد طفا

إلى أن قال: و شرب مع الوزراء الكتاب ببطحاء لورقة عند أخيه، و ابن اليسع غائب عنها فى عشية تجود بدمائها، و يصوب عليها دمع سمائها، و البطحاء قد خلع عليها سندسها، و درّها نرجسها، و الشمس تنقض على الربا زعفرانها، و الأنوار تغمض أجفانها، فكتب إلى ابن اليسع: [البسيط]

لو كنت تشهد يا هذا عشيّتنا و المزن يسكب أحيانا و ينحدر

و الأرض مصفرّة بالشّمس كاسية أبصرت تبرا عليه الدّرّ ينتثر

[و ترجمة أبى بكر بن رحيم]

و قال فى ترجمة ذى الوزارتين أبى بكر بن رحيم، ما صورته: و وصل هو و ابن وضاح صهر المرتضى، و ابن جمال الخلافة صاحب صقلية، إلى إحدى جنات مرسية، فحلوا منها فى قبة فوق جدول مطّرد، و تحت أدواح طيرها غرد، فأقاموا يتعاطون رحيقهم، و يعمرون فى المؤانسة طريقهم، إذا بالجنّان قد وقف عليهم و قال: كان بموضعكم بالأمس صاحب الموضع و معه شعور منشورة، و خدود غير مستورة، قد رفعت عنها البراقع، و ما منها نظرة إلا و معها سهم واقع، فاستدعى فحما و كتب فى إحدى زوايا القبة: [الخفيف]

قادنا ودّنا إليك فجئنا بنفوس تفديك من كلّ بوس

فنزلنا منازلا لبدور و حللنا مطالعا لشموس

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن عبدون]

و قال فى ترجمة الوزير الكاتب أبى محمد بن عبدون، ما صورته: حللت بيابرة فأنزلنى و اليها بقصرها، و مكننى من جنى الأمانى و هصرها، فأقمت ليلى، أجرّ على المجرة ذيلى، و تتطارد فى ميدان السرور خيلى، فلما كان من الغد باكرنى الوزير أبو محمد مسلما، و من تنكبى عنه متألما، ثم عطف على القائد عاتبا عليه، فى كونى لديه، ثم انصرف و قد أخذنى من يديه، فحللت عنده فى رحب، و همت على من البر أمطار سحب، فى مجلس كأن الدرارى فيه مصفوفة، أو كأن الشمس إليه مزفوفة، فلما حان انصرافى، و كثر تطلعى إلى مآبى و استشرافى، ركب معى إلى حديقة نضرة، مجاورة للحضرة، فأنخنا عليها أيدى عيسنا، و نلنا منها ما شئنا من تأنيسنا، فلما امتطيت عزمى، و سددت إلى غرض الرحلة سهمى، أنشدنى: [الطويل]

سلام يناجى منه زهر الرّبا عرف فلا سمع إلّا ودّ لو أنّه أنف

حنينى إلى تلك السّجايا فإنّها لآثار أعيان المساعى الّتى أقفو

ثم سرد القصيدة إلى أن قال: و له رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

سقاها الحيا من مغان فساح فكم لى بها من معان فصاح

و حلّى أكاليل تلك الرّبا و وشّى معاطف تلك البطاح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۶۶

فما أنس لا أنس عهدى بها و جرّى فيها ذيول المراح

و نومى على حبرات الرّياض يجاذب برديّ مرّ الرّياح

و لم أعط أمر النّهى طاعة و لم أصغ سمعى إلى قول لاح

و ليل كرجعة طرف المريب لم ادر له شفقا من صباح

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن مالک]

و قال فى ترجمة الوزير أبى محمد بن مالك بعد كلام له فيه و إنشاده بيتيه البديعين اللذين هما: [الخفيف]

لا تلمنى بأن طربت لشجو يبعث الأنس فالكريم طروب

ليس شقّ الجيوب حقّا علينا إنّما الشّأن أن تشقّ القلوب

ما صورته: و خرجت من إشبيلية مشيّعا لأحد زعماء المرابطين، فألفيته معه مسايرا له فى جملة من شيعه، فلما انصرفنا مال بنا إلى معرّس أمير المسلمين أدام اللّه تعالى تأييده الذى ينزله عند حلوله بإشبيلية، و هو موضع مستبدع، كأن الحسن فيه مودع، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم، و روض كما و شت البرد يد راقم، و زهر يحسد المسك ريّاه، و يتمنى الصبح أن يسم به محيّاه، فقطف غلام و سيم من غلمانه نورة و مد يده إليّ و هى فى كفه، فعزم على أن أقول بيتا فى وصفه، فقلت: [الطويل]

و بدر بدا و الطّرف مطلع حسنه و فى كفّه من رائق النّور كوكب

فقال أبو محمد: [الطويل]

يروح لتعذيب النّفوس و يغتدى و يطلع فى أفق الجمال و يغرب

و يحسد منه الغصن أىّ مهفهف يجىء على مثل الكثيب و يذهب

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن السقاط]

و قال فى ترجمة الوزير أبى القاسم بن السّقاط بعد كلام كثير، ما صورته: و حملنا الوزير القاضى أبو الحسن بن أضحى إلى إحدى ضياعه بخارج غرناطة، و معنا الوزير أبو محمد بن مالك، و جماعة من أعيان تلك الممالك، فحللنا بضيعة لم ينحت المحل أثلها، و لم ترمق العيون مثلها، و جلنا بها فى أكناف، جنات ألفاف، فما شئت من دوحة لفّاء، و غصن يميس كمعطفى هيفاء، و ماء يناسب فى جداوله، و زهر يضمّخ بالمسك راحة متناوله، و لما قضينا من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۶۷

تلك الحدائق أربا، و افتنا منها أترابا عربا، ملنا إلى موضع المقيل، و نزلنا بمنازه تزرى بمنازه جذيمة مع مالك و عقيل، و عند وصولنا بدا لى من أحد الأصحاب تقصير فى المبرة، عرض لى منه تكدير لتلك العين الثرة، فأظهرت التثاقل أكثر ذلك اليوم، ثم عدلت عنهم إلى الاضطجاع و النوم، فما استيقظت إلا و السماء قد نسخ صحوها، و غيم جوها، و الغمام منهمل، و الثرى من سقياه ثمل، فبسطنى بتحفيه، و أبهجنى بر له لم يزل يتمه و يوفيه، و أنشدنى:

[البسيط]

يوم تجهّم فيه الأفق و انتثرت مدامع الغيث فى خدّ الثّرى هملا

رأى وجومك فاربدّت طلاقته مضاهيا لك فى الأخلاق ممتثلا

[و من ترجمة ابن أضحى]

و قال فى ترجمة الوزير القاضى أبى الحسن بن أضحى، ما نصه: و كان لصاحب البلد الذى كان يتولى القضاء به ابن من أحسن الناس صورة، و كانت محاسن الأفعال و الأقوال عليه مقصورة، مع ما شئت من لسن، و صوت حسن، و عفاف، و اختلاط بالنّبهاء و التفاف، فحملنا إلى إحدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نهر، أحسن من شاذمهر، تشقّها جداول كالصّلال، و لا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال، و معنا جملة من أعيانها فأحضرنا من أنواع الطعام، و أرانا من فرط الإكرام و الإنعام، ما لا يطاق و لا يحلو، و يقصر عن بعضه العد، و فى أثناء مقامنا بدا لى من ذلك الفتى المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام اعتقده، و ملام أحقده، فلما كان من الغد لقيت منه اجتنابه، و لم أر منه ما عهدته من الإنابة، فكتبت إليه مداعبا، فراجعنى بهذه القطعة: [الطويل]

أتتنى أبا نصر نتيجة خاطر سريع كرجع الطّرف فى الخطرات

فأعربت عن وجد كمين طويته بأهيف طاو فاتر اللّحظات

غزال أحمّ المقلتين عرفته بخيف منى للحين أو عرفات

رماك فأصمى و القلوب رميّة لكلّ كحيل الطّرف ذى فتكات

و ظنّ بأنّ القلب منك محصّب فلبّاك من عينيه بالجمرات

تقرّب بالنّساك فى كلّ منسك و ضحّى غداة النّحر بالمهجات

و كانت له جيّان مثوى فأصبحت ضلوعك مثواه بكلّ فلاة

يعزّ علينا أن تهيم فتنطوى كئيبا على الأشجان و الزّفرات

فلو قبلت للنّاس فى الحبّ فدية فديناك بالأموال و البشرات

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن خفاجة]

و قال فى ترجمة أديب الأندلس و شاعرها أبى إسحاق بن خفاجة بعد كلام، ما صورته:

و قال يندب معاهد الشباب، و يتفجّع لوفاة الإخوان و الأحباب، بعقب سيل أعاد الديار آثارا، و قضى عليها و هيا و انتثارا. [الطويل]

ألا عرّس الإخوان فى ساحة البلى و ما رفعوا غير القبور قبابا

فدمع كما سحّ الغمام و لوعة كما أضرمت ريح الشّمال شهابا

إذا استوقفتنى فى الدّيار عشيّة تلذّذت فيها جيأة و ذهابا

أكرّ بطرفى فى معاهد فتية ثكلتهم بيض الوجوه شبابا

فطال وقوفى بين وجد و فرقة أنادى رسوما لا تحير جوابا

و أمحوا جميل الصّبر طورا بعبرة أخطّ بها فى صفحتىّ كتابا

و قد درست أجسامهم و ديارهم فلم أر إلّا أعظما و يبابا

و حسبى شجوا أن أرى الدّار بلقعا خلاء و أشلاء الصّديق ترابا

و لقد أحلّنى بهذه الديار المندوبة و هى كعهدها فى جودة مبناها، و عودة سناها، فى ليلة اكتحلنا ظلامها إثمدا، و محونا بها من نفوسنا كمدا، و لم يزل ذلك الأنس يبسطه، و السرور ينشطه، حتى نشر لى ما طواه، و بثّ مكتوم لوعته و جواه، و أعلمنى بلياليه فيها مع أترابه، و ما قضى بها من أطرابه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۶۹

انتهى ما وقع عليه اختيارى من كلام أبى نصر الفتح بن عبيد اللّه رحمه اللّه تعالى فى وصف بعض منتزهات الأندلس البديعة، و رياضها المونقة المريعة.

[وصف المتنزهات من رسالة للفتح]

و ما أحسن رسالة له مختصرة كتبها مهنئا بعض ملوك الأندلس بما منحه اللّه تعالى من التمكين الذى أيده اللّه به و نصره، و قد جوّد أوصافه، و استطرد منها إلى ذكر الناصر و ولده الحكم اللذين عمرا الزهراء و الرّصافة، و نصها:

أدام اللّه تعالى أيام الأمير للأرض يتملّكها، و يستدير بسعده فلكها، و قد استبشره الملك أيدك اللّه و حقّ له الاستبشار، فقد أومأ إليه السعد و أشار، بما اتفق له من توليتك، و خفق عليه من ألويتك، فلقد حبى منك بملك أمضى من السهم المسدّد، طويل نجاد السيف رحب المقلّد، يتقدّم حيث يتأخر الذابل، و يتكرم إذا بخل الوابل، و يحمى الحمى كربيعة بن مكدّم، و يسقى الظبا نجيعا كلون العندم، فهنيئا للأندلس فقد استردت عهد خلفائها، و استجدّت رسوم تلك الإمامة بعد عفائها، فكأن لم تمت أعاصرها، و لم يمت حكمها و لا ناصرها، اللذان عمرا الرصافة و الزهرا، و نكحا عقائل الروم و ما بذلا غير المشرفية مهرا، و اللّه سبحانه أسأله إظهار أيامك، و به أرجو انتشار أعلامك، حتى يكون عصرك أجمل من عصرهم، و نصرك أغرب من نصرهم، بمنه و كرمه و يمنه.

[وصف المتنزهات من ترجمة ابن عطية]

و قال رحمه اللّه تعالى فى ترجمة الفقيه القاضى الحافظ أبى محمد عبد الحق بن عطية صاحب التفسير الشهير بعد كلام كثير، ما صورته: و مررنا فى إحدى نزهنا بمكان مقفر، و عن المحاسن مسفر، و فيه بكير نرجس كأنه عيون مراض، يسيل وسطه ماء رضراض، بحيث لا حس إلا للهام، و لا أنس إلا ما يتعرض للأوهام، فقال: [الرمل]

نرجس باكرت منه روضة لذّ قطع الدّهر فيها و عذب

حثّت الرّيح بها خمر حيا رقص النّبت لها ثمّ شرب

فغدا يسفر عن و جنته نوره الغضّ و يهتزّ طرب

خلت لمع الشّمس فى مشرقه لهبا يخمد منه فى لهب

و بياض الطّلّ فى صفرته نقط الفضّة فى خطّ الذّهب

و سيأتى إن شاء اللّه تعالى كثير من وصف بلاد الأندلس و منتزهاتها، و ما اشتملت عليه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷۰

من المحاسن، فى كلام غير واحد ممن يجرى ذكره فى هذا الكتاب، و خصوصا أديب زمانه غير مدافع، من اعترف له أهل الشرق، بالسبق، و أهل المغرب، بالإبداع المغرب، النور أبو الحسن على بن سعيد العنسى، فإنه لما اتصل بمصر و دخلها اشتاق إلى تلك المواطن الأندلسية الرائقة، و وصفها بالقصائد و المقطوعات الفائقة، و قد أسلفنا أيضا فيما مر من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بمحاسن الأندلس، فليراجع فى محله من هذا الكتاب.

قلت: و ما ذا عسى أن نذكر من محاسن قرطبة الزهراء و الزهرا، أو نصف من محاسن الأندلس التى تبصر بكل موضع منها ظلا ضافيا و

نهرا صافيا و زهرا، و يرحم اللّه تعالى أديبها المشهور، الذى اعترف له بالسبق الخاصة و الجمهور، أبا إسحاق بن خفاجة، إذ قال: [البسيط]

يا أهل أندلس للّه درّكم ماء و ظلّ و أنهار و أشجار

ما جنّة الخلد إلّا فى دياركم و لو تخيّرت هذا كنت أختار

لا تحسبوا فى غد أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنّة النّار

و يروى مكان قوله: و هذه كنت لو خيرت أختار.

و كذا رأيت بخط الحافظ التّنسى، و الأول رأيته بخط العلامة الوانشريشى، رحمهما اللّه تعالى!.

[وصف المتنزهات من شعر ابن خفاجة]

و حكى أن الخليلىّ لما قدم من الأندلس رسولا إلى سلطان المغرب أبى عنان فارس ابن السلطان أبى الحسن المرينى أنشد بحضرة السلطان المذكور أبيات ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الأندلس، فقال السلطان أبو عنان: كذب هذا الشاعر، يشير إلى كونه جعلها جنة الخلد، و أنه لو خير لاختارها على ما فى الآخرة، و هذا خروج من ربقة الدين، و لا أقلّ من الكذب و الإغراق، و إن جرت عادة الشعراء بذلك الإطلاق، فقال الخليلىّ: يا مولانا، بل صدق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷۱

الشاعر، لأنها موطن جهاد، و مقارعة للعدو و جلاد، و النبى صلى اللّه عليه و سلم الرؤوف الودود الرحيم العطوف، يقول: «الجنة تحت ظلال السيوف»، فاستحسن منه هذا الكلام، و رفع عن قائل الأبيات الملام، و أجزل صلته، و رفع منزلته، و لعمرى إن هذا الجواب، لجدير بالصواب، و هكذا ينبغى أن تكون رسل الملوك فى الافتنان، روّح اللّه تعالى أرواح الجميع فى الجنان!.

و أبو إسحاق بن خفاجة كان أوحد الناس فى وصف الأنهار و الأزهار و الرياض و الحياض و الرياحين و البساتين، و قد سبق بعض كلامه، و يأتى أيضا منه بعض فى أثناء الكتاب، و من ذلك قوله: [الكامل]

و كمامة حدر الصّباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهار

فى أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كلّ غمامة مدرار

نثرت بحجر الأرض فيه يد الصّبا درر النّدى و دراهم النّوّار

و قد ارتدى غصن النّقا، و تقلّدت حلى الحباب سوالف الأنهار

فحللت حيث الماء صفحة ضاحك جذل و حيث الشّطّ بدء عذار

و الرّيح تنفض بكرة لمم الرّبا و الظّلّ ينضح أوجه الأشجار

متقسّم الألحاظ بين محاسن من ردف رابية و خصر قرار

و أراكة سجع الهديل بفرعها و الصّبح يسفر عن جبين نهار

هزّت له أعطافها و لربّما خلعت عليه ملاءة الأنوار

و قوله: [الكامل]

سقيا ليوم قد أنخت بسرحة ريّا تلاعبها الرّياح فتلعب

سكرى يغنّيها الحمام فتنثنى طربا و يسقيها الغمام فتشرب

يلهو فترفع للشّبيبة راية فيه، و يطلع للبهارة كوكب

و الرّوض وجه أزهر، و الظّلّ فرع أسود، و الماء ثغر أشنب

فى حيث أطربنا الحمام عشيّة فشدا يغنّينا الحمام المطرب

و اهتزّ عطف الغصن من طرب بنا و افترّ عن ثغر الهلال المغرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷۲

فكأنّه و الحسن مقترن به طوق على برد الغمامة مذهب

فى فتية تسرى فينصدع الدّجى عنها، و تنزل بالجديب فيخصب

كرموا فلا غيث السّماحة مخلف يوما، و لا برق اللّطافة خلّب

من كلّ أزهر للنّعيم بوجهه ماء يرقرقه الشّباب فيسكب

و قال يمدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم: [الكامل]

سمح الخيال على النّوى بمزار و الصّبح يمسح عن جبين نهار

فرفعت من نارى لضيف طارق يعشو إليها من خيال طارى

ركب الدّجى أحسن به من مركب و طوى السّرى أحسن به من سارى

و أناخ حيث دموع عينى منهل يروى، و حيث حشاى موقد نار

و سقى فأروى غلّة من ناهل أورى بجانحتيه زند أوار

يلوى الضّلوع من الولوع لخطرة من شيم برق أو شميم عرار

و اللّيل قد نضح النّدى سرباله فانهلّ دمع الطّلّ فوق صدار

مترقّب رسل الرّياح عشيّة بمساقط الأنواء و الأنوار

و مجرّ ذيل غمامة لبست به وشى الحباب معاطف الأنهار

خفقت ظلال الأيك فيه ذوائبا و ارتجّ ردفا مائج التّيّار

و لوى القضيب هناك جيدا أتلعا قد قبّلته مباسم النّوّار

باكرته و الغيم قطعة عنبر مشبوبة و البرق لفحة نار

و الرّيح تلطم فيه أرداف الرّبا لعبا و تلثم أوجه الأزهار

و منابر الأشجار قد قامت بها خطباء مفصحة من الأطيار

فى فتية جنبوا العجاجة ليلة و لربّما سفروا عن الأقمار

ثار القتام بهم دخانا و ارتمى زند الحفيظة منهم بشرار

شاهدت من هيئاتهم و هباتهم إشراف أطواد و فيض بحار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷۳

من كلّ منتقب بوردة خجلة كرما و مشتمل بثوب وقار

فى عمّة خلعت عليه للمّة و ذؤابة قرنت بها لعذار

ضافى رداء المجد طمّاح العلا طامى عباب الجود رحب الدّار

جرّار أذيال المعالى و القنا حامى الحقيقة و الحمى و الجار

طرد القنيص بكلّ قيد طريدة زجل الجناح مورّد الأظفار

ملتفّة أعطافه بحبيرة مكحولة أجفانه بنضار

يرمى به الأمل القصىّ فينثنى مخضوب مرأى الظّفر و المنقار

و بكلّ نائى الشّوط أشدق أخزر طاوى الحشى حالى المقلّد ضارى

يفترّ عن مثل النّصال، و إنّما يمشى على مثل القنا الخطّار

مستقريا أثر القنيص على الصّفا و اللّيل مشتمل بشملة قار

من كلّ مسودّ تلهّب طرفه ترميك فحمته بشعلة نار

و مورّس السّربال يخلع قيده عن نجم رجم فى سماء غبار

يستنّ فى سطر الطّريق و قد عفا قدما فتقرأ أحرف الآثار

عطف الضّمور سراته فكأنّه و النّقع يحجبه هلال سرار

و لربّ روّاغ هنا لك أنبط ذلق المسامع أطلس الأطمار

يجرى على حذر فيجمع بسطه يهوى فينعطف انعطاف سوار

ممتدّ حبل الشّاو يعسل رائغا فيكاد يفلت أيدى الأقدار

متردّد يرمى به خوف الرّدى كرة تهادتها أكفّ قفار

و لربّ طيّار خفيف قد جرى فشلا بجار خلفه طيّار

من كل قاصرة الخطا مختالة مشى الفتاة تجرّ فضل إزار

مخضوبة المنقار تحسب أنّها كرعت على ظمإ بكأس عقار

و لو استجارت منهما بحمى أبى يحيى لأمّنها أعزّ جوار

خدم القضاء مراده فكأنّما ملكت يداه أعنّة الأقدار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷۴

و عنا الزّمان لأمره فكأنّما أصغى الزّمان به إلى أمّار

و جلا الإمارة فى رفيف نضارة جلت الدّجى فى حلّة الأنوار

فى حيث و شّح لبّة بقلادة منها و حلّى معصما بسوار

جذلان يملأ منحة و بشاشة أيدى العفاة و أعين الزّوّار

أرج النّدىّ بذكره فكأنّه متنفّس عن روضة معطار

بطل جرى الفلك المحيط بسرجه و استلّ صارمه يد المقدار

بيمينه يوم الوغى و شماله ما شاء من نار و من إعصار

و السّمر حمر، و الجياد عوابس و الجوّ كاس، و السّيوف عوارى

و الخيل تعثر فى شبا شوك القنا قصدا و تسبح فى الدّم الموّار

و البيض تحنى فى الطّلى فكأنّما تلوى عرا منها على أزرار

و النّقع يكسر من سنى شمس الضّحى فكأنّه صدأ على دينار

صحب الحسام النّصر صحبة غبطة فى كفّ صوّال به سوّار

لو أنّه أومى إليه بنظرة يوما لثار و لم ينم عن ثار

و مضى و قد ملكته هرّة عزّة تحت العجاج و ضحكة استبشار

و قال رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

و أراكة ضربت سماء فوقنا تندى و أفلاك الكؤوس تدار

حفّت بدوحتها مجرّة جدول نثرت عليه نجومها الأزهار

و كأنّها و كأنّ جدول مائها حسناء شدّ بخصرها زنّار

زفّ الزّجاج بها عروس مدامة تجلى و نوّار الغصون نثار

فى روضة جنح الدّجى ظلّ بها و تجسّمت نورا بها الأنوار

غنّاء ينشر وشيه البزّاز لى فيها و يفتق مسكه العطّار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷۵

قام الغناء بها و قد نضح النّدى وجه الثّرى و استيقظ النّوّار

و الماء فى حلى الحباب مقلّد زرّت عليه جيوبها الأشجار

و قال ملتزما ما لا يلزم: [الكامل]

خذها إليك و إنّها لنضيرة طرأت إليك قليلة النّظراء

حملت و حسبك بهجة من نفحة عبق العروس و خجلة العذراء

من كلّ وارسة القميص كأنّما نشأت تعلّ بريقة الصّفراء

نجمت تروق بها نجوما حسبها بالأيكة الخضراء من خضراء

و أتتك تسفر عن وجوه طلقة و تنوب من لطف عن الشّفراء

يندى بها وجه النّدى و لربّما بسطت هنالك أوجه السّرّاء

فاستضحكت وجه الدّجى مقطوعة حملت جمال الغرّة الغرّاء

و قال أيضا: [المجتث]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۱۷۵

و صدر ناد نظمنا له القوافى عقدا

فى منزل قد سحبنا بظلّه العزّ بردا

تذكو به الشّهب جمرا و يعبق اللّيل ندّا

و قد تأرّج نور غضّ يخالط وردا

كما تنفّس ثغر عذب يقبّل خدّا

و قال من قصيدة يصف منتزها: [الكامل]

يا ربّ وضّاح الجبين كأنّما رسم العذار بصفحتيه كتاب

تغرى بطلعته العيون مهابة و تبيت تعشق عقله الألباب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷۶

خلعت عليه من الصّباح غلالة تندى و من شفق المساء نقاب

فكرعت من ماء الصّبا فى منهل قد شفّ عنه من القميص سراب

فى حيث للرّيح الرّخاء تنفّس أرج، و للماء الفرات عباب

و لربّ غضّ الجسم مدّ بحوضه سبحا كما شقّ السّماء شهاب

و لقد أنخت بشاطئيه يهزّنى طربا شباب راقنى و شراب

و بكيت دجلته يضاحكنى بها مرحا حبيب شاقنى و حباب

تجلى من الدّنيا عروس بيننا حسناء ترشف و المدام رضاب

ثمّ ارتحلت و للنّهار ذؤابة شيباء تخضب و النّهار خضاب

تلوى معاطفى الصّبابة و الصّبا و اللّيل دون الكاشحين حجاب

و قال: [البسيط]

مرّ بنا و هو بدر تمّ يسحب من ذيله سحابا

يقامة تنثنى قضيبا و غرّة تلتظى شهابا

يقرأ و اللّيل مدلهمّ لنور إجلائه كتابا

و ربّ ليل شهرت فيه أزجر من جنحه غرابا

حتّى إذا اللّيل مال سكرا و شقّ سرباله و جابا

و حام من سدفه غراب طالت به سنّه فشابا

ازددت من لوعتى خبالا فحثّ من غلّتى شرابا

و ما خطا قادما فوافى حتى انثنى ناكصا فآبا

و بين جفنىّ بحر شوق يعبّ فى وجنتى عبابا

قد شبّ فى وجهه شعاع و شبّ فى قلبى التهابا

و روضة طلقة حياء غنّاء مخضرّة جنابا

ينجاب عن نورها كمام يحطّ عن وجهه نقابا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۷۷

بات بها مبسم الأقاحى يرشف من طلّها رضابا

و من خفوق البروق فيها ألوية حمّرت خضابا

كأنّها أنمل وراد تحصر قطر الحيا حسابا

و له أيضا: [البسيط]

رحلت عنكم ولى فؤاد تنقض أضلاعه حنينا

أجود فيكم بعلق دمع كنت به قبلكم ضنينا

يثور فى وجنتىّ جيشا و كان فى جفنه كمينا

كأنّنى بعدكم شمال قد فارقت منكم يمينا

و قال: [الطويل]

فيا لشجا قلب من الصّبر فارغ و يا لقذى طرف من الدّمع ملآن

و نفس إلى جوّ الكنيسة صبّة و قلب إلى أفق الجزيرة حنّان

تعوّضت من واها بآه و من هوى بهون و من إخوان صدق بخوّان

و ما كلّ بيضاء تروق بشحمة و ما كلّ مرعى ترتعيه بسعدان

فيا ليت شعرى هل لدهرى عطفة فتجمع أوطارى علىّ و أوطانى

ميادين أوطارى و لذّة لذّتى و منشأ تهيامى و ملعب غزلانى

كأن لم يصلنى فيه ظبى يقوم لى لماه و صدغاه براحى و ريحانى

فسقيا لواديهم و إن كنت إنّما أبيت لذكراه بغلّة ظمآن

فكم يوم لهو قد أدرنا بأفقه نجوم كؤوس بين أقمار ندمان

و للقضب و الأطيار ملهى بجزعه فما شئت من رقص على رجع ألحان

و بالحضرة الغرّاء غرّ علقته فأحببت حبّا فيه قضبان نعمان

رقيق الحواشى فى محاسن وجهه و منطقه مسلى قلوب و آذان

أغار لخدّيه على الورد كلّما بدا و لعطفيه على أغصن البان

و هبنى أجنى ورد خدّ بناظرى فمن أين لى منه بتفّاح لبنان

يعلّلنى منه بموعد رشفة خيال له يغرى بمطل و ليّان

حبيب عليه لجّة من صوارم علاها حباب من أسنّة مرّان

تراءى لنا فى مثل صورة يوسف تراءى لنا فى مثل ملك سليمان

طوى برده منها صحيفة فتنة قرأنا له من وجهه سطر عنوان

محبّته دينى و مثواه كعبتى و رؤيته حجّى و ذكراه قرآنى

و قال: [الطويل]

و ليل تعاطينا المدام و بيننا حديث كما هبّ النّسيم على الورد

نعاوده و الكاس يعبق نفحه و أطيب منها ما نعيد و ما نبدى

و نقلى أقاح الثّغر أو سوسن الطّلى و نرجسة الأجفان أو وردة الخدّ

إلى أن سرت فى جسمه الكاس و الكرى و ما لا بعطفيه فمال على عضدى

فأقبلت أستهدى لما بين أضلعى من الحرّ ما بين الضّلوع من البرد

و عاينته قد سلّ من وشى برده فعانقت منه السّيف سلّ من الغمد

ليان مجسّن و استقامة قامة و هزّة أعطاف و رونق إفرند

أغازل منه الغصن فى مغرس النّقا و ألثم وجه الشّمس فى مطلع السعد

فإن لم يكنها أو تكنه فإنّه أخوها كما قدّ الشّراك من الجلد

تسافر كلتا راحتىّ بجسمه فطورا إلى خصر و طورا إلى نهد

فتهبط من كشحيه كفى تهامة و تصعد من نهديه أخرى إلى نجد

و قال أيضا: [الكامل]

و رداء ليل بات فيه معانقى طيف ألمّ بظبية الوعساء

فجمعت بين رضابه و شرابه و شربت من ريق و من صهباء

و لثمت فى ظلماء ليلة و فرة شفقا هناك لوجنة حمراء

و اللّيل مشمطّ الذّوائب كبرة خرف يدبّ على عصا الجوزاء

ثمّ انثنى و الصّبح يسحب فرعه و يجرّ من طرب فضول رداء

تندى بفيه أقحوانة أجرع قد غازلتها الشّمس غبّ سماء

و تميس فى أثوابه ريحانة كرعت على ظمإ بجدول ماء

تفّاحة الأنفاس إلّا أنّها حذر النّدى خفّافة الأفياء

فلويت معطفها اعتناقا حسبنا فيه بقطر الدّمع من أنواء

[وصف المتنزهات من شعر ابن سعيد]

و كان المعتمد بن عباد رحمه اللّه تعالى كثيرا ما ينتاب وادى الطلح مع رميكيته، و أولى أنسه و مسرته، و هو واد بشرف إشبيلية ملتفّ الأشجار، كثير ترنم الأطيار، و فيه يقول نور الدين بن سعيد: [السريع]

سائل بوادى الطّلح ريح الصّبا هل سخّرت لى فى زمان الصّبا

كانت رسولا فيه ما بيننا لن نأمن الرّسل و لن نكتبا

يا قاتل اللّه أناسا إذا ما استؤمنوا خانوا فما أعجبا

هلّا رعوا أنّا وثقنا بهم و ما اتّخذنا عنهم مذهبا

يا قاتل اللّه الّذى لم يتب من غدرهم من بعد ما جرّبا

و اليمّ لا يعرف ما طعمه إلّا الّذى وافى لأن يشربا

دعنى من ذكر الوشاة الألى لمّا يزل فكرى بهم ملهبا

و اذكر بوادى الطّلح عهدا لنا للّه ما أحلى و ما أطيبا

بجانب العطف و قد مالت الأغ صان و الزّهر يبثّ الصّبا

و الطّير مازت بين ألحانها و ليس إلّا معجبا مطربا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۰

و خاننى من لا أسمّيه من شحّ أخاف الدّهر أن يسلبا

قد أترع الكأس و حيّا بها و قلت أهلا بالمنى مرحبا

أهلا و سهلا بالّذى شئته يا بدر تمّ مهديا كوكبا

لكنّنى آليت أسقى بها أو تودعنها ثغرك الأشنبا

فمجّ لى فى الكأس من ثغره ما حبّب الشّرب و ما طيّبا

و قال‌ها لثمى نقلا و لا تشم إلّا عرفى الأطيبا

و اقطف بخدّى الورد و الآس و النّ سرين لا تحفل بزهر الرّبا

أسعفته غصنا غدا مثمرا و من جناه ميسه قرّبا

قد كنت ذا نهى و ذا إمرة حتى تبدّى فحللت الحبا

و لم أصن عرضى فى حبّه و لم أطع فيه الّذى أنّبا

حتّى إذا ما قال لى حاسد ترجوه و الكوكب أن يقربا

أرسلت من شعرى سحرا له ييسّر المرغب و المطلبا

و قال عرّفه بأنّى سأح تال فما أجتنب المكتبا

فزاد فى شوقى له وعده و لم أزل مقتعدا مرقبا

أمدّ طرفى ثمّ أثنيه من خوف أخى التّنغيص أن يرقبا

أصدّق الوعد و طورا أرى تكذيبه و الحرّ لن يكذّبا

أتى و من سخّره بعد ما أيأس بطء كاد أن يغضبا

قبّلت فى التّرب و لم أستطع من حصر اللّقيا سوى مرحبا

هنّأت ربعى إذ غدا هالهٔ و قلت يا من لم يضع أشعبا

بالله مل معتنقا لاثما فمال كالغصن ثنته الصّبا

فقال ما ترغب قلت اتّئد أدركت إذ كلّمتنى المرغبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۱

فقال لا مرغب عن ذكر ما ترغبه قلت إذن مركبا

و كان ما كان فو اللّه ما ذكرته دهرى أو أغلبا

و ستأتى هذه القصيدهٔ بكمالها فى جملهٔ من نظم ابن سعيد المذكور.

و قال يتشوق إلى إشبيليهٔ، و هى حمص الأندلس: [الكامل]

أنّ الخليج و غنّت الورقاء هل برّحا إذ هاجت البرحاء

أنا منكما أولى بحليهٔ عاشق أفنى و ما نمّت بى الصّعداء

أخشى الوشاهٔ فما أفوه بلفظهٔ و الكتم عند العاشقين عناء

لو لا تشوّق أرض حمص ما جرى دمعى و لا شمتت بى الأعداء

لم أستطع كتما له فكأنّنى ما كان لى كتم و لا إخفاء

و البدر مهما رام كتما من سرى فيه ينمّ على سراه ضياء

بلد متى يخطر له ذكر هفا قلبى و خان تصبّر و عزاء

من بعده ما الصّبح يشرق نوره عندى، و لا يتبدّل الظّلماء

كم لى به من ذى وفاء لم يخن عهدى، و ينمو بالوداد وفاء

فتراه إذ ما مرّ ذكرى سائلا عن حالتى إن قلّت الأنباء

يمسى و يصبح فى تذكّر مدّهٔ يرضى بها الإصباح و الإمساء

مع كلّ مبذول الوصال ممنّع من غيرنا تسمو به الخيلاء

كالظّبى كالشّمس المنيرهٔ كالنّقا كالغصن يثنى معطفيه رخاء

يسعى براح كالشّهاب، براحهٔ كالبدر، و الوجه المنير ذكاء

ما لان نحو الوصل حتّى طال من ه الهجر و اتّصلت به البلواء

خير المحبّهٔ ما تأتّت عن قلى تدرى ببؤس الفاقهٔ النّعماء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۲

ما زلت أرقى بالقريض جنونه حتى استكان، و كان منه إباء

فظفرت منه بمدّهٔ لو أنّها دامت لدامت لى بها السّرّاء

صفو تكدّر بالتحرّك، ليته ما زال، لكن لا يردّ قضاء

إنّ الفراق هو المتيّهٔ، إنّما أهل النّوى ماتوا و هم أحياء

لو لا تذكّر لذّهٔ طابت لنا بذرى الجزيرهٔ حيث طاب هواء

و جرى النّسيم على الخليج معطّرا و تبدّدت فى الدّوحة الأنداء

ما كابدت نفسى أليم تفكّر ألوى به عن جفنى الإغضاء

يا نهر حمص لا عدتك مسرّة ماء يسيل لديك أم صهباء

كلّ النّفوس تهشّ فيك كأنّما جمعت عليك شتاتها الأهواء

ودّى إليك مع الزّمان مجدّد ما إن يحول تذكّر و عناء

و لو أنّنى لم أحى ذكرا للّذى أوليته ما كان فىّ حياء

ما كنت أطمع فى الحياة لو أنّنى أيقنت أن لا يستردّ لقاء

غيرى إذا ما بان حان، و إنّما أبقى حياتى حين بنت رجاء

و سيأتى إن شاء اللّه تعالى لهذا النمط و غيره مزيد أثناء الكتاب، بحسب ما اقتضته المناسبة، و اللّه تعالى المرجو فى حسن المتاب، و هو سبحانه لا إله إلا هو الموفق للصواب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۳

الباب الخامس [فيمن رحل من الأندلسيين إلى المشرق]

اشارة

فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الزاكية العرار و البشام، و مدح جماعة من أولئك الأعلام، ذوى العقول الراجحة و الأحلام، لشامة و جنة الأرض دمشق الشام، و ما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها، و أرباب بيانها، ذوى السؤدد و الاحتشام، و مخاطبتهم للفقير المؤلف حين حلّها سنة ألف و سبع و ثلاثين للهجرة، و شاهد برق فضلها المبين و شام.

اعلم- جعلنى اللّه تعالى و إياك ممن له للمذهب الحق انتحال!- أنّ حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه و لا بحال، و لا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال، و لو أطلنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الأعلام، لطال الكتاب و كثر الكلام، و لكنا نذكر منهم لمعا على وجه التوسط من غير إطناب داع إلى الملال و اختصار مؤدّ للملام، فنقول مستمدين من واهب العقول:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۴

۱- منهم عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السّلمى:

و قد عرّف به القاضى عياض فى المدارك و غير واحد، و رأيت فى بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفا، و من أشهرها كتاب «الواضحة» فى مذهب مالك، كتاب كبير مفيد، و لابن حبيب مذهب فى كتب المالكية مسطور، و هو مشهور عند علماء المشرق، و قد نقل عنه الحافظ ابن حجر و صاحب المواهب و غيرهما.

و من نظمه يخاطب سلطان الأندلس: [البسيط]

لا تنس لا ينسك الرّحمن عاشورا و اذكره لا زلت فى التّاريخ مذكورا

قال النّبىّ صلاة اللّه تشمله قولا وجدنا عليه الحقّ و النّورا

فيمن يوسّع فى إنفاق موسمه أن لا يزال بذاك العام ميسورا

و هذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى و الوزن إذ طال عهدى به، و اللّه تعالى أعلم.

و قال الفتح فى المطمح: الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمى، أى شرف لأهل الأندلس و أى مفخر، و أى بحر بالعلوم يزخر، خلدت منه الأندلس فقيها عالما، أعاد مجاهل أهلها معالما، و أقام فيها للعلوم أسواقا نافقة، و نشر منها ألوية خافقة، و جلا عن الألباب صدأ الكسل، و شحذها شحذ الصّوارم و الأسل، و تصرف فى فنون العلوم، و عرف كل معلوم، و سمع بالأندلس و تفقه، حتى صار أعلم من بها و أفقه، و لقى أنجاب مالك، و سلك فى مناظرتهم أوعر المسالك، حتى أجمع عليه الاتفاق، و وقع على تفضيله الإصفاق، و يقال: إنه لقى مالكا آخر عمره، و روى عنه عن سعيد بن المسيّب أن سليمان بن داود صلى اللّه عليهما و سلم كان يركب إلى بيت المقدس فيتغدّى به، ثم يعود فيتعشّى بإصطخر، و له فى الفقه كتاب «الواضحة» و من أحاديثه غرائب، قد تحلت بها للزمان نحور و ترائب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۵

و قال محمد بن لبابة: فقيه الأندلس عيسى بن دينار، و عالمها عبد الملك بن حبيب، و راويها يحيى بن يحيى.

و كان عبد الملك قد جمع إلى علم الفقه و الحديث علم اللغة و الإعراب، و تصرف فى فنون الآداب، و كان له شعر يتكلم به متبحرا، و يرى ينبوعه بذلك متفجرا، و توفى بالأندلس فى رمضان سنة ۲۳۸ و هو ابن ثلاث و خمسين بعد ما جال فى الأرض، و قطع طولها و العرض، و جال فى أكنافها، و انتهى إلى أطرافها.

و من شعره قوله: [السريع]

قد طاح أمرى و الذى أبتغى هين على الرّحمن فى قدرته

ألف من الحمر و أقلل بها لعالم أربى على بغيته

زرياب قد أعطيها جملة و حرفتى أشرف من حرفته

و كتب إلى الزجالىّ رسالة و صلها بهذه الأبيات: [السريع]

كيف يطيق الشّعر من أصبحت حالته اليوم كحال الغرق

و الشّعر لا يسلس إلّا على فراغ قلب و اتّساع الخلق

فاقنع بهذا القول من شاعر يرضى من الحظّ بأدنى العنق

فضلك قد بان عليه كما بان لأهل الأرض ضوء الشّفق

أمّا ذمام الودّ منّى لكم فهو من المحتوم فيما سبق

و لم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من معتله، و يفرق مستقيمه من مختله، و كان غرضه الإجازة، و أكثر رواياته غير مستجازة، قال ابن وضاح: قال إبراهيم بن المنذر:

أتى صاحبكم الأندلس- يعنى عبد الملك هذا- بغرارة مملوءة، فقال لى: هذا علمك، قلت له: نعم، ما قرأ على منه حرفا و لا قرأته عليه.

و حكى أنه قال فى دخوله المشرق و حضر مجلس بعض الأكابر فازدراه من رآه: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۶

لا تنظرنّ إلى جسمى و قلّته و انظر لصدرى و ما يحوى من السّنن

فربّ ذى منظر من غير معرفة و ربّ من تزدريه العين ذو فطن

و ربّ لؤلؤة فى عين مزبلة لم يلق بال لها إلّا إلى زمن

انتهى ما فى المطمح الصغير.

قلت: أمّا ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مسلم، و قد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدّثين، نعم لأهل الأندلس غرائب

لم يعرفها كثير من المحدثين، حتى إن فى شفاء عياض أحاديث لم يعرف أهل المشرق النقّاد مخرجها، مع اعترافهم بجلالة حفاظ الأندلس الذين نقلوها كبقىّ بن مخلد و ابن حبيب و غيرهما على ما هو معلوم.

و أما ما ذكره عنه بالإجازة بما فى الغرارة فذلك على مذهب من يرى الإجازة، و هو مذهب مستفيض، و اعتراض من اعترض عليه إنما هو بناء على القول بمنع الإجازة، فاعلم ذلك، و اللّه سبحانه الموفق.

۲- و من الراحلين من الأندلس الفقيه المحدّث يحيى بن يحيى الليثى

راوى الموطّأ عن مالك رضى اللّه تعالى عنه، و يقال: إن أصله من برابر مصمودة، و حكى أنه لما ارتحل إلى مالك لازمه، فبينما هو عنده فى مجلسه مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم، و لم يخرج يحيى، فقال له مالك: مالك لم تخرج و ليس الفيل فى بلادك؟ فقال: إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك، و أتعلم من هديك و علمك، و لم أكن لأنظر إلى الفيل، فأعجب به مالك، و قال: هذا عاقل الأندلس، و لذلك قيل: إن يحيى هذا عاقل الأندلس، و عيسى بن دينار فقيهها، و عبد الملك بن حبيب عالمها، و يقال: إن يحيى راويها و محدثها، و توفى يحيى بن يحيى سنة ۲۳۴ فى رجب، و قبره يستسقى به بقرطبة، و قيل: إن وفاته فى السنة التى قبلها، و اللّه تعالى أعلم.

و روايته الموطأ مشهورة، حتى إن أهل المشرق الآن يسندون الموطأ من روايته كثيرا، مع تعدّد رواة الموطأ، و اللّه أعلم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۷

و كان يحيى بن يحيى روى الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمىّ المعروف بشبطون، و سمع من يحيى بن مضر القيسى الأندلسى، ثم ارتحل إلى المشرق و هو ابن ثمان و عشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب فى كتاب الاعتكاف، شكّ فى سماعها، فأثبت روايته فيها عن زياد، و ذلك ما يدلّ على ورعه.

و سمع بمصر من اللّيث بن سعد، و بمكة من سفيان بن عيينة، و تفقه بالمدنيين و المصريين كعبد اللّه بن وهب و عبد الرحمن بن القاسم العتقى، و سمع منهما، و هما من أكابر أصحاب مالك، بعد انتفاعه بمالك و ملازمته له.

و انتهت إليه الرياسة بالأندلس، و به اشتهر مذهب مالك فى تلك الديار، و تفقه به جماعة لا يحصون عددا، و روى عنه خلق كثير، و أشهر رواة الموطأ و أحسنهم رواية يحيى المذكور، و كان- مع أمانته و دينه- معظّما عند الأمراء، يكنى عندهم، عفيفا عن الولايات، متنزها، جلت رتبته عن القضاء، و كان أعلى من القضاة قدرا عند ولاة الأمر بالأندلس لزهده فى القضاء و امتناعه.

قال الحافظ ابن حزم: مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة و السلطان: مذهب أبى حنيفة، فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يولى إلا أصحابه و المنتسبين لمذهبه، و مذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاء، و كان لا يلى قاض فى أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته و اختياره، و لا يشير إلا بأصحابه و من كان على مذهبه، و الناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى لم يل قضاء قط، و لا أجاب إليه، و كان ذلك زائدا فى جلالته عندهم، و داعيا إلى قبول رأيه لديهم، انتهى.

و ذكرنا فى غير هذا الموضع قولا آخر فى سبب انتشار مذهب مالك بالأندلس، و اللّه سبحانه أعلم بحقيقة الأمر.

و قال ابن أبى الفياض: جمع الأمير عبد الرحمن بن الحكم الفقهاء فى قصره، و كان وقع على جارية يحبها فى رمضان، ثم ندم أشدّ ندم، فسألهم عن التوبة و الكفارة، فقال يحيى:

تكفر بصوم شهرين متتابعين، فلما بادر يحيى بهذه الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا، فقال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۸

بعضهم له: لم لم تفت بمذهب مالك بالتخيير؟ فقال: لو فتحنا له [هذا] الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم و يعتق رقبة، و لكن حملته

على أصعب الأمور لئلا يعود.

و قال بعض المالكيـة: إن يحيى ورّى بهذا، و رأى أنه لم يملك شيئا إذ هو مستغرق الذّمة فلا عتق له و لا إطعام، فلم يبق إلا الصيام، انتهى.

و لما انفصل يحيى عن مالك و وصل إلى مصر رأى ابن القاسم يدوّن سماعه من مالك، فنشط للرجوع إلى مالك ليسمع منه المسائل التى رأى ابن القاسم يدوّنها، فرحل رحلة ثانية، فألفى مالكا عليلا، فأقام عنده إلى أن مات و حضر جنازته، فعاد إلى ابن القاسم و سمع منه سماعه من مالك، هكذا ذكره ابن الفرضى فى تاريخه، و هو مما يرد الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أن يحيى سأل مالكا عن زكاة التين، فقال [له]: لا زكاة فيها، فقال: إنها تدّخر عندنا، و نذر إن وصل إلى الأندلس أن يرسل لمالك سفينة مملوءة تينا، فلما وصل أرسلها فإذا مالك قد مات، انتهى.

قال ابن الفرضى: و لما انصرف يحيى إلى الأندلس كان إمام وقته، و واحد بلاده، و كان ممن اتهم بالهيج فى وقعة الرّبض المشهورة ففر إلى طليطلة ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أمانا، و انصرف إلى قرطبة.

و قيل: لم يعط أحد من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أعطى يحيى من الحظوة، و عظم القدر، و جلالة الذكر.

و قال ابن بشكوال: إن يحيى بن يحيى كان مجاب الدعوة، و إنه أخذ فى سمته و هيئته و نفسه و مقعده هيئات مالك.

و يحكى عنه أنه قال: أخذت بركاب الليث بن سعد، فأراد غلامه أن يمنعنى، فقال:

دعه، ثم قال لى الليث: خدمك العلم! فلم تزل بى الأيام حتى رأيت مالكا، انتهى.

۳- و منهم القاضى أبو عبد اللّه محمد بن عيسى

.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۸۹

قال فى المطمح: من بنى يحيى بن يحيى الليثى، و هذه ثنية علم و عقل، و صحة ضبط و نقل، كان علم الأندلس، و عالمها النّدس، ولى القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق، و جمع فيها من الروايات و السماع كل مفترق، و جال فى آفاق ذلك الأفق، لا يستقر فى بلد، و لا يستوطن فى جلد، ثم كر إلى الأندلس فسمت رتبته، و تحلّت بالأمانى لبّته، و تصرف فى ولايات أحمد فيها منابه، و اتصلت بسببها بالخليفة أسبابه، و ولاه القضاء بقرطبة فتولاه بسياسة محمودة، و رياسة فى الدين مبرمة القوى مجهودة، و التزم فيها الصّرامة فى تنفيذ الحقوق، و الحزامة فى إقامة الحدود، و الكشف عن البيان فى السر، و الصّدع بالحق فى الجهر، لم يستمله مخادع، و لم يكده مخاتل، و لم يهب ذا حرمة، و لا داهن ذا مرتبة، و لا أغضى لأحد من أرباب السلطان و أهله، حتى تحاموا حدة جانبه، فلم يجسر أحد منهم عليه، و كان له نصيب وافر من الأدب، و حظ من البلاغة إذا نظم و إذا كتب.

و من ملح شعره ما قاله عند أوبته عن غربته: [الطويل]

كأن لم يكن بين و لم تك فرقة إذا كان من بعد الفراق تلاق

كأن لم تؤرّق بالعراقين مقلتى و لم تمر كفّ الشّوق ماء مآقى

و لم أزر الأعراب فى جنب أرضهم بذات اللّوى من رامة و براق

و لم أصطبح بالبيد من قهوة النّدى و كأس سقاها فى الأزاهر ساق

و له أيضا: [البسيط]

ما ذا أكابد من ورق مغرّدة على قضيب بذات الجزع ميّاس

ردّدن شجوا شجى قلب الخلىّ فهل فى عبرة ذرفت فى الحبّ من باس

ذكّرنه الزمن الماضى بقرطبة بين الأحبّة فى أمن و إيناس

هم الصّبابة لو لا همة شرفت فصيّرت قلبه كالجندل القاسى

و له أخبار تدل على رقة العراق و التغذى بماء تلك الآفاق:

فمنها أنه خرج إلى حضور جنازة بمقابر قريش، و رجل من بنى جابر كان يواخيه له منزل هناك، فعزم عليه فى الميل إليه، و على أخيه، فنزل عليه، فأحضر لهما طعاما، و أمر جارية له بالغناء، فغنت: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۰

طابت بطيب لثاتك الأقداح و زهت بحمرة خدّك التّفّاح

و إذا الرّبيع تنسّمت أرواحه طابت بطيب نسيمك الأرواح

و إذا الحنادس ألبست ظلماءها فضياء وجهك فى الدّجى مصباح

فكتبها القاضى فى ظهر يده، و خرج من عنده، قال يونس بن عبد اللّه: فلقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة و الأبيات مكتوبة على ظهر كفه.

و كان رحمه اللّه تعالى فى غاية اللطف، حكى بعض أصحابه قال: ركبنا معه فى موكب حافل من وجوه الناس، إذ عرض لنا فتّى متأدب قد خرج من بعض الأزقّة سكران يتمايل، فلما رأى القاضى هابه، و أراد الانصراف، فخانته رجلاه، فاستند إلى الحائط، و أطرق، فلما قرب القاضى رفع رأسه و أنشأ يقول: [الطويل]

ألا أيّها القاضى الّذى عمّ عدله فأضحى به بين الأنام فريدا

قرأت كتاب اللّه تسعين مرّة فلم أر فيه للشّراب حدودا

فإن شئت جلدا لى فدونك منكبا صبورا على ريب الزّمان جليدا

و إن شئت أن تعفو تكن لك منّة تروح بها فى العالمين حميدا

و إن أنت تختار الحديد فإنّ لى لسانا على هجو الزّمان حديدا

فلما سمع شعره و ميز أدبه أعرض عنه و ترك الإنكار عليه، و مضى لشأنه، انتهى ملخصا من المطمح.

و رأيت بخطى فى بعض مسوّداتى ما صورته: محمد بن عبد اللّه بن يحيى بن يحيى الليثى قاضى الجماعة بقرطبة، سمع عم أبيه عبيد اللّه بن يحيى و محمد بن عمر بن لبابة و أحمد بن خالد، و رحل من قرطبة سنة ۳۱۳، و دخل مصر، و حج، و سمع بمكة من ابن المنذر و العقيلى و ابن الأعرابى، و كان حافظا، معتنيا بالآثار، جامعا للسّنن، متصرفا فى علم الإعراب، و معانى الشعر، شاعرا مطبوعا، و شاوره القاضى أحمد بن بقى، و استقضاه الناصر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۱

عبد الرحمن بن محمد على إلبيرة و بجّانة، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبى طالب سنة ۳۲۴، و جمعت له مع القضاء الصلاة، و كان كثيرا ما يخرج إلى الثغور، و يتصرف فى إصلاح ما و هى منها، فاعتل فى آخر خرجاته، و مات فى بعض الحصون المجاورة لطليطلة سنة ۳۳۷، و مولده سنة ۲۸۴، انتهى و أظن أنى نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ، و اللّه أعلم.

۴- و منهم عتيق بن أحمد بن عبد الباقى الأندلسى،

الدمشقى وفاة، يكنى أبا بكر نزيل دمشق، كان مشهورا بالصلاح، و انتفع به جماعة من الفقراء، و ولد على ما قيل سنة ۵۱۶، و توفى سنة ۶۱۶، بدمشق، و دفن بمقابر الصوفية، فيكون عمره على هذا مائة سنة، رحمه اللّه تعالى و نفعنا ببركاته و بركات أمثاله!.

۵- و منهم أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن يوسف،

الأنصاری، الأندلسی، الأيّذی، الملقب فی البلاد المشرقية ببرهان الدين، و أبذة- بضم الهمزة، و تشديد الباء الموحدة و فتحها، و بعدها ذال معجمة- بلد بالأندلس، سمع المذكور بمكة و غيرها من البلاد، و بدمشق من الحافظ ابن طبرزذ، و أمّ بالصخرة، و كان فاضلا صالحا شاعرا، توفی سنة ۶۵۶، و أخبر عن بعض الأولياء المجاورين ببيت المقدس أنه سمع هاتفا يقول لما خرب القدس: [الخفيف]

إن يكن بالشّآم قلّ نصيری ثم خرّبت و استمرّ هلوكی

فلقد أثبت الغداة خرابی سمر العار فی حياة الملوك

هكذا رأيته بخط الصفدی «فی حياة» و يحتمل أن يكون «فی جباه» جمع جبهة، و اللّه أعلم.

۶- و منهم القاضی منذر بن سعيد البلوطی،

قاضی الجماعة بقرطبة، و قد قدمنا جملة من أخباره فی الباب الثالث و الرابع من هذا القسم، و كان لا يخاف فی اللّه لومة لائم.

و من مشهور ما جری له فی ذلك قصته فی أيتام أخی نجدة، و حدث بها جماعة من أهل العلم و الرواية، و هی أن الخليفة الناصر احتاج إلی شراء دار بقرطبة، لحظية من نسائه تكرم عليه، فوقع استحسانه علی دار كانت لأولاد زكريا أخی نجدة، و كانت بقرب النشارين فی

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۲

الرّبض الشرقی منفصلة عن دوره، و يتصل بها حمّام له غلة واسعة، و كان أولاد زكريا أخی نجدة أيتاما فی حجر القاضی، فأرسل الخليفة من قوّمها له بعد ما طابت نفسه، و أرسل ناسا أمرهم بمداخله وصی الأيتام فی بيعها عليهم، فذكر أنه لا يجوز إلا بأمر القاضی، إذ لم يجز بيع الأصل إلا عن رأيه و مشورته، فأرسل الخليفة إلی القاضی منذر فی بيع هذه الدار، فقال لرسوله: البيع علی الأيتام لا يصح إلا لوجوه: منها الحاجة، و منها الوهی الشديد، و منها الغبطة، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلی البيع، و أما الوهی فليس فيها، و أما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع، و إلا فلا، فنقل جوابه إلی الخليفة، فأظهر الزهد فی شراء الدار طمعا أن يتوخّی رغبته فيها، و خاف القاضی أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام ثورتها، فأمر وصیّ الأيتام بنقض الدار و بيع أنقاضها، ففعل ذلك و باع الأنقاض، فكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان، فاتصل الخبر به، فعز عليه خرابها، و أمر بتوقيف الوصی علی ما أحدثه فيها، فأحال الوصی علی القاضی أنه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضی منذر، و قال له: أ أنت أمرت بنقض دار أخی نجدة؟ فقال له: نعم، فقال: و ما دعاك إلی ذلك؟ قال: أخذت فيها بقول اللّه تعالی: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِی الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (۷۹) [الكهف: ۷۹] مقوّموك لم يقوموها إلا بكذا، و بذلك تعلق و همك، فقد نضّ فی أنقاضها أكثر من ذلك، و بقيت القاعة و الحمام فضلا، و نظر اللّه تعالی للأيتام، فصبر الخليفة عبد الرحمن علی ما أتی من ذلك، و قال: نحن أولی من انقاد إلی الحق، فجزاك اللّه تعالی عنا و عن أمانتك خيرا!.

قالوا: و كان- علی متانته و جزالته- حسن الخلق، كثير الدّعابة، فربما ساء ظنّ من لا يعرفه، حتی إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار له ثورة الأسد الضاری، فمن ذلك ما حدث به سعيد ابنه قال: قعدنا ليلة من ليالی شهر رمضان المعظم مع أبينا للإفطار بداره البرانية، فإذا سائل يقول: أطعمونی من عشائكم أطعمكم اللّه تعالی من ثمار الجنة، هذه الليلة، و يكثر من ذلك، فقال القاضی إن استجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا أحد.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۳

و حكی عنه قاسم بن أحمد الجهنی أنه ركب يوما لحيازة أرض محبّسة فی ركب من وجوه الفقهاء و أهل العدالة فيهم أبو إبراهيم

اللؤلؤى و نظراؤه، قال: فسرنا نقفوه و هو أمامنا، و أمامه أمناؤه يحملون خرائطه و ذووه عليهم السكينة و الوقار، و كانت القضاة حينئذ لا- تراكب و لا تماشى، فعرض له فى بعض الطريق كلاب مع مستوحمة، و الكلاب تلعق هنها و تدور حولها، فوقف و صرف وجهه إلينا و قال: ترون يا أصحابنا ما أبرّ الكلاب بالهن الذى تلعقه و تكرمه، و نحن لا نفعل ذلك، ثم لوى عنان دابته و قد أضحكنا، و بقينا متعجبين من هزله.

و حضر عند الحكم المستنصر بالله يوما فى خلوة له فى بستان الزهراء على بركة ماء طافحة، وسط روضة نافحة، فى يوم شديد الوهج، و ذلك إثر منصرفه من صلاة الجمعة، فشكا إلى الخليفة من وهج الحرّ و الجهد، و بث منه ما تجاوز الحدّ، فأمره بخلع ثيابه و التخفيف عن جسمه، ففعل، و لم يطف ذلك ما به، فقال له: الصواب أن تنغمس فى وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك، و ليس مع الخليفة إلا الحاجب جعفر الخادم الصقلبى أمين الخليفة الحكم، لا رابع لهم، فكأنه استحيا من ذلك و انقبض عنه وقارا، و أقصر عنه إقصارا، فأمر الخليفة حاجبه جعفرا بسبقه إلى النزول فى الصهريج ليسهل عليه الأمر فيه، فبادر جعفر لذلك، و ألقى نفسه فى الصهريج، و كان يحسن السّباحة، فجعل يجول يمينا و شمالا فلم يسع القاضى إلا إنفاذ أمر الخليفة، فقام و ألقى بنفسه خلف جعفر، و لاذ بالقعود فى درج الصهريج، و تدرّج فيه بعض تدريج، و لم ينبسط فى السباحة، و جعفر يمر مصعّدا و مصوبا فدسّه الحكم على القاضى، و حمله على مساجلته فى العوم، و هو يعجزه فى إخلاده إلى القعود، و يعابثه بإلقاء الماء عليه، و الإشارة بالجذب إليه، و هو لا ينبعث معه، و لا يفارق موضعه، إلى أن كلمه الحكم و قال له: ما لك لا تساعد الحاجب فى فعله و تتقبل صنعه؟ فمن أجلك نزل، و بسببك تبذّل، فقال له: يا سيدى، يا أمير المؤمنين، الحاجب سلمه اللّه تعالى لا هو جل معه، و إنما هذا، الهوجل الذى معى يعقلنى و يمنعنى من أن أجول معه مجاله، يعنى أن الحاجب خصىّ لا- هوجل معه، و الهوجل: الذكر، فاستفرغ الحكم ضحكا من نادرته و لطيف تعريضه لجعفر، و خجل جعفر من قوله، و سبه سب الأشراف، و خرجا من الماء، و أمر لهما الخليفة بخلع، و وصلهما بصلات سنية تشاكل كل واحد منهما.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۴

و حكى أن الخليفة الحكم قال له يوما: لقد بلغنى أنك لا تجتهد للأيتام، و أنك تقدم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم، قال: نعم، و إن أمكنهم نيك أمهاتهم لم يعفّوا عنهنّ، قال:

و كيف تقدم مثل هؤلاء؟ قال: لست أجد غيرهم و لكن أحلنى على اللؤلؤى و أبى إبراهيم و مثل هؤلاء، فإن أبوا أجبرتهم بالسّوط و السجن، ثم لا تسمع إلا خيرا.

و قال القاضى منذر: أتيت و أبو جعفر بن النحاس فى مجلسه بمصر يملى فى أخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول: [الطويل]

خليلىّ هل بالشّام عين حزينة تبكّى على نجد لعلّى أعينها

قد اسلمها الباكون إلّا حمامة مطوّقة باتت و بات قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدنّيها من الأرض لينها

فقلت له: يا أبا جعفر، ما ذا أعزك اللّه تعالى باتا يصنعان؟ فقال لى: و كيف تقول أنت يا أندلسى؟ فقلت له: بانت و بان قرينها، فسكت، و ما زال يستثقلنى بعد ذلك، حتى منعنى كتاب العين، و كنت ذهبت إلى الانتساخ من نسخته، فلما قطع بى قيل لى: أين أنت من أبى العباس بن ولّاد؟ فقصدته، فلقيت رجلا- كامل العلم حسن المروءة، فسألته الكتاب، فأخرجه إلىّ، ثم ندم أبو جعفر لما بلغه إباحة أبى العباس الكتاب إلى، و عاد إلى ما كنت أعرفه منه.

قال: و كان أبو جعفر لئيم النفس، شديد التقتير على نفسه، و ربما و هبت له العمامة فيقطعها ثلاث عمائم، و كان يأبى شراء حوائجه بنفسه، و يتحامل فيها على أهل معرفته، انتهى.

و أبو جعفر هذا يقال: إن تواليفه تزيد على خمسين، منها شرح عشرة دواوين للعرب، و إعراب القرآن، و معانى القرآن، و شرح أبيات

الكتاب و غير ذلك.

رجع- و قال منذر بن سعيد: كتبت إلى أبى على البغدادى أستعير منه كتابا من الغريب، و قلت: [المجتث]

بحق ريم مهفهف و صدغه المتعطّف

ابعث إلى بجزء من الغريب المصنف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۵

فقضى حاجتى، و أجاب بقوله:

و حقّ درّ تألّف بفيك أىّ تألّف

لأبعثنّ بما قد حوى الغريب المصنّف

و لو بعثت بنفسى إليك ما كنت أسرف

فرحم اللّه تعالى تلك الأرواح الطاهرة!.

و ذكر ابن أصبغ الهمدانى عن منذر أنه خطب يوما، و أراد التواضع، فكان من فصول خطبته أن قال: حتى متى و إلى متى أعظ و لا أتعظ، و أزجر و لا- أنزجر، أدل الطريق إلى المستدلين، و أبقى مقيما مع الحائرين؟ كلا إن هذا لهو البلاء المبين إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِى مَنْ تَشاءُ [الأعراف: ۱۵۵] الآية، اللهم فرغنى لما خلقتنى له، و لا تشغلنى بما تكفّلت لى به، و لا تحرمنى و أنا أسألك، و لا تعذبنى و أنا أستغفرك، يا أرحم الراحمين.

و سمع منذر بالأندلس من عبيد اللّه بن يحيى بن يحيى و نظرائه، ثم رحل حاجا سنة ثمان و ثلاثمائة فاجتمع بعدّة أعلام، و ظهرت فضائله بالمشرق، و ممن سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة محمد بن المنذر النيسابورى، سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء المسمى «بالإشراف» و روى بمصر كتاب «العين» للخليل عن أبى العباس بن ولّاد، و روى عن أبى جعفر بن النحاس، و كان منذر متفننا فى ضروب العلوم و غلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داود بن على الأصبهانى المعروف بالظاهرى، فكان منذر يؤثر مذهبه، و يجمع كتبه، و يحتج لمقالته، و يأخذ به فى نفسه و ذويه، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك و أصحابه، و هو الذى عليه العمل بالأندلس، و حمل السلطان أهل مملكته عليه، و كان خطيبا، بليغا، عالما بالجدل، حاذقا فيه، شديد العارضة، حاضر الجواب عتيده، ثابت الحجة ذا شارة عجيبة، و منظر جميل، و خلق حميد، و تواضع لأهل الطلب، و انحطاط إليهم، و إقبال عليهم، و كان- مع وقاره التام- فيه دعابة مستملحة، و له نوادر مستحسنة، و كانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر فى شهر ربيع الآخر سنة تسع و ثلاثين و ثلاثمائة، و لبث قاضيا من ذلك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۶

التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته، ثم للخليفة الحكم المستنصر إلى أن توفى رحمه اللّه تعالى عقب ذى القعدة من سنة خمس و خمسين و ثلاثمائة، فكانت ولايته لقضاء الجماعة المعبر عنه فى المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاما كاملة، لم يحفظ عليه فيها جور فى قضية، و لا- قسم بغير سويّة، و لا- ميل لهوى، و لا إصغاء إلى عناية، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه! و دفن بمقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة أعادها اللّه تعالى! جوفىّ مسجد السيدة الكبرى، بقرب داره.

و له رحمه اللّه تعالى تواليف مفيدة: منها كتاب «أحكام القرآن» و «الناسخ و المنسوخ» و غير ذلك فى الفقه و الكلام فى الرد على أهل المذاهب، تغمده اللّه تعالى برضوانه!.

و كتب بعض الأدباء إلى القاضى منذر بقوله: [السريع]

مسألة جئتك مستفتيا عنها، و أنت العالم المستشار

علام تحمّر وجوه الظّبا و أوجه العشّاق فيها اصفرار

فأجاب منذر بقوله: [السريع]

احمر وجه الظّبى إذ لحظه سيف على العشّاق فيه احورار

و اصفرّ وجه الصّبّ لمّا نأى و الشّمس تبقى للمغيب اصفرار

[۷- ترجمة أبى القاسم الشاطبى الرعينى المقرى]

۷- و ممن رحل إلى المشرق من الأندلس فشهد له بالسبق، كل أهل المغرب و الشرق، الإمام العلامة أبو القاسم الشاطبى، صاحب «حرز الأمانى» و «العقيلة» و غيرهما.

و هو أبو القاسم بن فيّره بن خلف بن أحمد، الرّعينى، الشاطبى، المقرى، الفقيه، الحافظ، الضرير، أحد العلماء المشهورين، و الفضلاء المشكورين، خطب ببلده شاطبة مع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۷

صغر سنه، و دخل الديار المصرية سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و حضر عند الحافظ السّلفى و ابن برّى و غيرهما، و ولد بشاطبة آخر سنة ثمان و ثلاثين و خمسمائة، و توفى بالقاهرة يوم الأحد الثامن و العشرين، و قيل: الثامن عشر، من جمادى الآخرة سنة تسعين و خمسمائة، بعد العصر، و دفن من الغد بالتربة الفاضلية بسفح المقطم.

و حكى أن الأمير عز الدين موسك، الذى كان والد ابن الحاجب حاجبا له بعث إلى الشيخ الشاطبى يدعوه إلى الحضور عنده، فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب إليه: [مجزوء الكامل]

قل للأمير مقالة من ناصح فطن نبيه

إنّ الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

و من نظمه رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

خالقت أبناء الزمان فلم أجد من لم أرم منه ارتيادى مخلصى

ردّ الشّباب و قد مضى لسبيله أهيا و أمكن من صديق مخلص

و كان رحمه اللّه تعالى قرأ بشاطبة القراءات، و أتقنها على النّفرى، ثم انتقل إلى بلنسية فقرأ بها التيسير من حفظه على ابن هذيل، و سمع الحديث منه و من ابن النعمة و ابن سعادة و ابن عبد الرحيم و غيرهم، و ارتحل إلى المشرق فاستوطن القاهرة، و اشتهر اسمه، و بعد صيته، و قصده الطلبة من النواحى، و كان إماما، علامة، ذكيا، كثير الفنون، منقطع القرين، رأسا فى القراءات، حافظا للحديث، بصيرا بالعربية، واسع العلم، و قد سارت الركبان بقصيدته «حرز الأمانى» و «عقيلة أتراب الفضائل» اللتين فى القراءات و الرسم، و حفظهما خلق كثير لا يحصون، و خضع لهما فحول الشعراء و كبار البلغاء و حذاق القراء، و لقد أوجز و سهّل الصعب.

و ممن روى عنه أبو الحسن بن خيرة، و وصفه من قوّة الحفظ بأمر عجيب معجب، و ممن قرأ عليه بالروايات الإمام الشهير محمد بن عمر القرطبى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۸

و تصدر الشاطبى رحمه اللّه تعالى للإقراء بالمدرسة الفاضلية، و كان موصوفا بالزهد و العبادة و الانقطاع.

و قبره بالقرافة يزار، و ترجى استجابة الدعاء عنده، و قد زرته مرارا، و دعوت اللّه بما أرجو قبوله.

و ترك أولادا: منهم أبو عبد اللّه محمد، عاش نحو ثمانين سنة.

و قال السبكى فى حق الإمام الشاطبى: إنه كان قوى الحافظة، واسع المحفوظ، كثير الفنون، فقيها، مقرئا، محدثا، نحويا، زاهدا، عابدا، ناسكا، يتوقد ذكاء، قال السخاوى:

أقطع أنه كان مكاشفا، و أنه سأل اللّه كتمان حاله، ما كان أحد يعلم أى شىء هو، انتهى.

و ترجمته واسعة، رحمه اللّه تعالى و نفعنا به آمين!.

و قال ابن خلّكان: إنه أبدع فى «حرز الأمانى» و هى عمدة قرّاء هذا الزمان فى تعلمهم، فقلّ من يشتغل بالقراءات إلا و يقدّم حفظها و معرفتها، و هى مشتملة على رموز عجيبة و إشارات لطيفة، و ما أظنه سبق إلى أسلوبها، و قد روى عنه أنه كان يقول: لا يقرأ أحد قصيدتى هذه إلا و ينفعه اللّه عز و جل، لأنى نظمتها للّه تعالى مخلصا، و كان عالما بكتاب اللّه تعالى قراءة و تفسيرا، و بحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، مبرزا فيه، و كان إذا قرىء عليه صحيحا البخارى و مسلم و الموطأ يصحح النسخ من حفظه، و يملى النكت على المواضع المحتاج إليها، و كان أوحد فى علم النحو و اللغة، عارفا بتعبير الرؤيا، حسن المقاصد، مخلصا فيما يقول و يفعل، و كان يجتنب فضول الكلام، و لا ينطق فى سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه الحاجة، و لا يجلس للقراءة إلا على طهارة فى هيئة حسنة و تخشع و استكانة، و كان يعتلّ العلة الشديدة فلا يشتكى و لا يتأوّه، و إذا سئل عن حاله قال: العافية، لا يزيد على ذلك، و كان كثيرا ما ينشد هذا اللغز فى النعش، و هو لأبى زكريا يحيى بن سلامة الخطيب: [الطويل]

أتعرف شيئا فى السّماء نظيره إذا سار صاح النّاس حيث يسير

فتلقاه مركوبا و تلقاه راكبا و كلّ أمير يعتليه أسير

يحضّ على التّقوى و يكره قربه و تنفر منه النّفس و هو نذير

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۱۹۹

و لم يسترر عن رغبة فى زيارة و لكن على رغم المزور يزور

و كان يقول عند دخوله إلى مصر: إنه يحفظ وقر بعير من العلوم، و كان نزيل القاضى الفاضل، و رتّبه بمدرسته بالقاهرة، و قيل: إن كنيته أبو محمد حسبما وجد فى بعض إجازاته، رحمه اللّه تعالى!.

[۸- ترجمة القاضى أبى بكر بن العربى المعافرى]

۸- و من الراحلين إلى المشرق من الأندلس الإمام القاضى: أبو بكر بن العربى.

قال ابن سعيد: هو الإمام العالم القاضى الشهير فخر المغرب، أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن العربى المعافرى، قاضى قضاة كورة إشبيلية، ذكره الحجارى فى المسهب، طبق الآفاق بفوائده، و ملأ الشام و العراق بأوابده، و هو إمام فى الأصول و الفروع و غير ذلك.

و من شعره و قد ركب مع أحد أمراء الملثّمين، و كان ذلك الأمير صغيرا، فهز عليه رمحا كان فى يده مداعبا له، فقال: [الطويل]

يهزّ علىّ الرّمح ظبى مهفهف لعوب بألباب البريّة عابث

و لو كان رمحا واحدا لا تّقيته و لكنّه رمح و ثان و ثالث

و قوله و قد دخل عليه غلام جميل الصورة فى لباس خشن: [الرمل]

لبس الصّوف لكى أنكره و أتانا شاحبا قد عبسا

قلت إيه عرفناك و ذا جلّ سوء لا يعيب الفرسا

كلّ شىء أنت فيه حسن لا يبالى حسن ما لبسا

و زعم بعض أن الأبيات ليست له، و إنما تمثل بها، فاللّه تعالى أعلم.

و ممن عرّف بابن العربى و ذكره ابن الإمام فى سمط الجمان، و الشّقندى فى الطرف،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰۰

و كان قد صحب المهدى محمد بن تومرت بالمشرق، فأوصى عليه عبد المؤمن و كان مكرما عنده، و حكى أنه كتب كتابا فأشار عليه

بعض من حضر أن يذرّ عليه نشارة، فقال: قف، ثم فكر ساعة، و قال: اكتب: [الخفيف]

لا تشنه بما تذرّ عليه فكفاه هبوب هذا الهواء

فكأنّ الّذى تذرّ عليه جدرىّ بوجنة حسناء

و لقى أبا بكر الطّرطوشى، و ما برح معظما إلى أن تولى خطة القضاء، و وافق ذلك أن احتاج سور إشبيلية إلى بنيان جهة منه، و لم يكن بها مال متوفر، ففرض على الناس جلود ضحاياهم، و كان ذلك فى عيد أضحى، فأحضروها كارهين، ثم اجتمعت العامة العمياء، و ثارت عليه، و نهبوا داره، و خرج إلى قرطبة.

و كان فى أحد أيام الجمع قاعدا ينتظر الصلاة، فإذا بغلام رومى وضىء قد جاء يخترق الصفوف بشمعة فى يده و كتاب معتّق، فقال: [السريع]

و شمعة تحملها شمعة يكاد يخفى نورها نارها

لو لا نهى نفس نهت غيّها لقبّلته و أتت عارها

و لما سمعهما أبو عمران الزاهد قال: إنه لم يكن يفعل، و لكنه هزته أريحية الأدب و لو كنت أنا لقلت: [البسيط]

لو لا الحياء و خوف اللّه يمنعنى و أن يقال صبا موسى على كبره

إذا لمتّعت لحظى فى نواظره حتى أوفّى جفونى الحقّ من نظره

رجع إلى أخبار ابن العربى- فنقول: إنه سمع بالأندلس أباه و خاله أبا القاسم الحسن الهوزنى و أبا عبد اللّه السّرقسطى، و ببجاية أبا عبد اللّه الكلاعى، و بالمهدية أبا الحسن بن الحداد الخولانى، و سمع بالإسكندرية من الأنماطى، و بمصر من أبى الحسن الخلعى و غيره، و بدمشق غير واحد كأبى الفتح نصر المقدسى، و بمكة أبا عبد اللّه الحسين الطبرى و ابن طلحة و ابن بندار، و قرأ الأدب على التبريزى، و عمل رحمه اللّه تعالى على مدينة إشبيلية سورا بالحجارة و الآجر بالنورة من ماله، و كان- كما فى الصلة - حريصا على آدابها و سيرها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰۱

ثاقب الذهن فى تمييز الصواب فيها، و يجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، و لين الكنف، و كثرة الاحتمال، و كرم النفس، و حسن العهد، و ثبات الود.

و ذكره ابن بشكوال فى الصلة و قال فيه: هو الإمام الحافظ، ختام علماء الأندلس، رحل إلى المشرق مع أبيه مستهلّ ربيع الأول سنة خمس و ثمانين و أربعمائة، و دخل الشام و العراق و بغداد، و سمع بها من كبار العلماء، ثم حج فى سنة تسع و ثمانين، و عاد إلى بغداد، ثم صدر منها.

و قال ابن عساكر: خرج من دمشق راجعا إلى مقره سنة ۴۹۱، و لما غرّب صنف «عارضة الأحوذى» و لقى بمصر و الإسكندرية جملة من العلماء، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث و تسعين، و قدم إشبيلية بعلم كثير، و كان موصوفا بالفضل و الكمال، و ولى القضاء بإشبيلية، ثم صرف عنه، و مولده ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان و ستين و أربعمائة، و توفى بمغيلة بمقربة من مدينة فاس، و دفن بفاس فى ربيع الآخر سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة، انتهى كلام ابن سعيد و غيره ملخصا.

و ما و فى ابن سعيد حافظ الإسلام أبا بكر بن العربى حقه، فلنعززه بما حضرنا من التعريف به، فنقول: إنه لقى ببغداد الشاشى الإمام أبا بكر و الإمام أبا حامد الطوسى الغزالى، و نقل عنه أنه قال: كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم إلا الباجى، أو كلاما هذا معناه، و كان من أهل التفنن فى العلوم، متقدما فى المعارف كلها، متكلما على أنواعها، حريصا على نشرها، و قام بأمر القضاء أحمد قيام، مع الصرامة فى الحق، و القوّة و الشدة على الظالمين، و الرفق بالمساكين، و قد روى عنه أنه أمر بثقب أشداق زامر، ثم صرف عن القضاء، و أقبل على نشر العلم و بثّه، و قرأ عليه الحافظ ابن بشكوال بإشبيلية.

و قال ابن الأبّار: إن الإمام الزاهد العابد أبا عبد اللّه بن مجاهد الإشبيلى لازم القاضى ابن العربى نحوا من ثلاثة أشهر، ثم تخلف عنه، فقيل له فى ذلك، فقال: كان يدرس و بغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۲۰۱

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰۲

و ذكره ابن الزبير فى صلته، و قال: إنه رحل مع أبيه أبى محمد عند انقراض الدولة العبّادية، و سنه نحو سبعة عشر عاما، إلى أن قال: و قيد الحديث، و ضبط ما روى، و اتسع فى الرواية، و أتقن مسائل الخلاف و الأصول و الكلام على أئمة هذا الشأن، و مات أبوه- رحمه اللّه تعالى!- بالإسكندرية أول سنة ثلاث و تسعين فانصرف حينئذ إلى إشبيلية، فسكنها، و شوور فيها، و سمع و درس الفقه و الأصول، و جلس للوعظ و التفسير، و صنف فى غير فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة، و ولى القضاء مدّة أوّلها فى رجب من سنة ثمان و عشرين، فنفع اللّه تعالى به لصرامته و نفوذ أحكامه، و التزم الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، حتى أوذى فى ذلك بذهاب كتبه و ماله، فأحسن الصبر على ذلك كله، ثم صرف عن القضاء، و أقبل على نشر العلم و بثّه و كان فصيحا، حافظا، أديبا، شاعرا، كثير الملح، مليح المجلس.

ثم قال: قال القاضى عياض- بعد أن وصفه بما ذكرته-: و لكثرة حديثه و أخباره و غريب حكاياته و رواياته أكثر الناس فيه الكلام، و طعنوا فى حديثه، و توفى منصرفه من مراكش من الوجهة التى توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحّدين مدينة إشبيلية، فحبسوا بمراكش نحو عام، ثم سرحوا، فأدركته منيته، و روى عنه خلق كثير، منهم القاضى عياض و أبو جعفر بن الباذش و جماعة، انتهى ملخصا.

و وقع فى عبارة ابن الزبير تبعا لجماعة أنه دفن خارج الجيسة بفاس، و الصواب خارج باب المحروق، كما أشبعت الكلام على ذلك فى «أزهار الرياض» و قد زرته مرارا، و قبره هنالك مقصود للزيارة خارج القصبة، و قد صرح بذلك بعض المتقدمين الذين حضروا و فاته، و قال: إنه دفن بتربة القائد مظفر خارج القصبة، و صلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج، رحمه اللّه تعالى!.

و من بديع نظمه: [المتقارب]

أتتنى تؤنّبنى بالبكاء فأهلا بها و بتأنيبها

تقول و فى نفسها حسرة: أتبكى بعين ترانى بها؟

فقلت: إذا استحسنت غيركم أمرت جفونى بتعذيبها!

و قال رحمه اللّه تعالى: دخل على الأديب ابن صارة و بين يدى نار علاها رماد، فقلت له: قل فى هذه، فقال: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰۳

شابت نواصى النّار بعد سوادها و تسترّت عنّا بثوب رماد

ثم قال لى أجز، فقلت: [الكامل]

شابت كما شبنا و زال شبابنا فكأنّما كنّا على ميعاد

و قد اختلف حذاق الأدباء فى قوله: «و لكنه رمح و ثان و ثالث» ما هو الثانى و الثالث؟

فقيل: القدّ و اللحظ، و قيل غير ذلك.

و لما ذكر رحمه اللّه تعالى فى كتابه «قانون التأويل» ركوبه البحر فى رحلته من إفريقية قال: و قد سبق فى علم اللّه تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله، و يغرقنا فى هوله، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر، و انتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بنى كعب بن سليم، و نحن من السّغب، على عطب، و من العرى، فى أقبح زى، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها، و دسّمت الأدهان و برها و جلدتها، فاحترمناها أزرا، و اشتملناها لفافا، تمجّنا الأبصار، و تخذلنا الأنصار، فعطف أميرهم علينا، فأوينا إليه فآوانا، و أطعمنا اللّه تعالى

على يديه و سقانا، و أكرم مثوانا، و كسانا بأمر حقير ضعيف، و فنّ من العلم طريف، و شرحه أنا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدبّر أعواد الشاه، فعل السامد اللاه، فدنوت منه فى تلك الأطمار، و سمح لى بياذقته إذ كنت من الصغر فى حدّ يسمح فيه للأغمار، و وقفت بإزائهم، أنظر إلى تصرفهم من ورائهم، إذ كان علق بنفسى بعض ذلك من بعض القرابة فى خلس البطالة، مع غلبة الصّبوة و الجهالة، فقلت للبياذقة: الأمير أعلم من صاحبه، فلمحونى شزرا، و عظمت فى أعينهم بعد أن كنت نزرا، و تقدّم إلى الأمير من نقل إليه الكلام، فاستدنانى، فدنوت منه، و سألنى: هل لى بما هم فيه بصر؟ فقلت: لى فيه بعض نظر، سيبدو لك و يظهر، حرّك تلك القطعة، ففعل كما أشرت و عارضه صاحبه، فأمرته أن يحرّك أخرى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰۴

و ما زالت الحركات بينهم كذلك تترى، حتى هزمهم الأمير، و انقطع التدبير، فقالوا: ما أنت بصغير، و كان فى أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الأمير منشدا: [الطويل]

و أحلى الهوى ما شكّ فى الوصل ربّه و فى الهجر فهو الدّهر يرجو و يتّقى

فقال: لعن اللّه أبا الطيب! أو يشك الربّ؟ فقلت له فى الحال: ليس كما ظنّ صاحبك أيها الأمير، إنما أراد بالرب ههنا الصاحب، يقول: ألذ الهوى ما كان المحبّ فيه من الوصال، و بلوغ الغرض من الآمال، على ريب، فهو فى وقته كله على رجاء لما يؤمله، و تقاة لما يقع به، كما قال: [الطويل]

إذا لم يكن فى الحبّ سخط و لا رضا فأين حلاوات الرّسائل و الكتب

و أخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض، فى طرفى إبرام و انتقاض، ما حرّك منهم إلى جهتى دواعى الانتهاض، و أقبلوا يتعجبون منى و يسألونى كم سنى، و يستكشفوننى عنى، فبقرت لهم حديثى، و ذكرت لهم نجيثى، و أعلمت الأمير بأن أبى معى، فاستدعاه، و قمنا الثلاثة إلى مثواه، فخلع علينا خلعه، و أسبل علينا أدمعه، و جاء كل خوان، بأفنان و ألوان.

ثم قال بعد المبالغة فى وصف ما نالهم من إكرامه: فانظر إلى هذا العلم الذى هو إلى الجهل أقرب، مع تلك الصّبابة اليسيرة من الأدب، كيف أنقذا من العطب؟ و هذا الذكر يرشدكم إن عقلتم إلى المطلب، و سرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر، انتهى مختصرا.

و الزول: العجب، و نجيث الخبر: ما ظهر من قبيحه، يقال: بدا نجيث القوم، إذا ظهر سرهم الذى كانوا يخفونه، قالهما الجوهرى.

و ذكر- رحمه اللّه تعالى-! فى رحلته عجائب:

منها: أنه حكى فى دخوله بدمشق بيوت بعض الأكابر أنه رأى فيه النهر جاريا إلى موضع جلوسهم، ثم يعود من ناحية أخرى، فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبل إلينا، فأخذها الخدم و وضعوها بين أيدينا، فلما فرغنا ألقى الخدم الأوانى و ما معها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰۵

فى النهر الراجع، فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية، فعلمت السر، و إن هذا لعجيب، انتهى بمعناه.

و قال فى «قانون التأويل»: ورد علينا ذانشمند - يعنى الغزالى- فنزل برباط أبى سعد بإزاء المدرسة النظامية، معرضا عن الدنيا، مقبلا على اللّه تعالى، فمشينا إليه، و عرضنا أمنيتنا عليه، و قلت له: أنت ضالّتنا التى كنا ننشد، و إمامنا الذى به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، و شاهدنا منه ما كان فوق الصفة، و تحققنا أن الذى نقل إلينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم و لو رآه علىّ بن العباس لما قال: [المتقارب]

إذا ما مدحت امرا غائبا فلا تغل فى مدحه و اقصد

فإنّك إن تغل تغل الظّنو ن فيه إلى الأمد الأبعد

فيصغر من حيث عظّمته لفضل المغيب على المشهد

و كنت نقلت من المطمح فى حقه ما صورته: الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربى علم الأعلام الطاهر الأثواب، الباهر الألباب، الذى أنسى ذكاء إياس، و ترك التقليد للقياس، و أنتج الفرع من الأصل، و غدا فى يد الإسلام أمضى من النّصل، سقى اللّه تعالى به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف، و مد عليها منه الظلّ الوارف، و كساها رونق نبله، و سقاها ريّق و بله، و كان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدرا فى فلكها، و صدرا فى مجلس ملكها، و اصطفاه معتمد بنى عبّاد، اصطفاء المأمون لابن أبى دواد، و ولاه الولايات الشريفة، و بوّأه المراتب المنيفة، فلما أقفرت حمص من ملكهم و خلت، و ألقتهم منها و تخلّت، رحل به إلى المشرق، و حل فيه محل الخائف الفرق، فجال فى أكنافه، و أجال قداح الرجاء فى استقبال العزو استئنافه، فلم يسترد ذاهبا، و لم يجد كمعتمده باذلا له و واهبا، فعاد إلى الرواية و السماع، و ما استفاد من آمال تلك الأطماع، و أبو بكر إذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب ما دوّح، و فى روض الشباب زهر ما صوّح، فألزمه مجالس العلم رائحا و غاديا، و لازمه سائقا إليها و حاديا، حتى استقرت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰۶

به مجالسه، و اطّردت له مقايسه، فجدّ فى طلبه، و استجدّ به أبوه متمزق أربه، ثم أدركه حمامه، و وارته هناك رجامه، و بقى أبو بكر متفردا، و للطلب متحردا، حتى أصبح فى العلم وحيدا، و لم تجد عنه رياسته محيدا، فكر إلى الأندلس فحلّها و النفوس إليه متطلعة، و لأنبائه متسمعة، فناهيك من حظوة لقى، و من عزة سقى، و من رفعة سما إليها ورقى، و حسبك من مفاخر قلّدها، و محاسن أنس أثبتها فيها و خلّدها، و قد أثبتّ من بديع نظمه ما يهز أعطافا، و ترده الأفهام نطافا، فمن ذلك قوله يتشوق إلى بغداد، و يخاطب فيها أهل الوداد:

[الطويل]

أمنك سرى و اللّيل يخدع بالفجر خيال حبيب قد حوى قصب الفخر؟

جلا ظلم الظّلماء مشرق نوره و لم يخبط الظّلماء بالأنجم الزّهر

و لم يرض بالأرض البسيطة مسحبا فسار على الجوزا إلى فلك يجرى

و حثّ مطايا قد مطاها بعزّة فأوطأها قسرا على قنّة النّسر

فصارت ثقالا بالجلالة فوقها و سارت عجالا تتّقى ألم الزّجر

و جرّت على ذيل المجرّة ذيلها فمن ثمّ يبدو ما هناك لمن يسرى

و مرّت على الجوزاء توضع فوقها فآثار ما مرّت به كلف البدر

و ساقت أريج الخلد من جنّة العلا فدع عنك رملا بالأنيعم يستذرى

فما حذرت قيسا و لا خيل عامر و لا أضمرت خوفا لقاء بنى ضمر

سقى اللّه مصرا و العراق و أهلها و بغداد و الشّامين منهمل القطر

و من تآليف الحافظ أبى بكر بن العربى المذكور كتاب «القبس، فى شرح موطأ مالك بن أنس» و كتاب «ترتيب المسالك، فى شرح موطأ مالك» و كتاب «أنوار الفجر» و كتاب «أحكام القرآن» و كتاب «عارضة الأحوذىّ، فى شرح الترمذى» و الأحوذى- بفتح الهمزة، و سكون الحاء المهملة، و فتح الواو، و كسر الذال المعجمة، و آخره ياء مشددة. و كتاب «مراقى الزّلف»

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۰۷

و كتاب «الخلافيات» و كتاب «نواهى الدواهى» و كتاب «سراج المريدين» و كتاب «المشكلين:

مشكل الكتاب، و السنة» و كتاب «الناسخ و المنسوخ فى القرآن» و كتاب «قانون التأويل» و كتاب «النيرين، فى الصحيحين» و كتاب «سراج المهتدين» و كتاب «الأمد الأقصى، بأسماء اللّه الحسنى و صفاته العلا» و كتاب «فى الكلام على مشكل حديث السبحات و

الحجاب»، و كتاب «العقد الأكبر، للقلب الأصغر» و «تبيين الصحيح، فى تعيين الذبيح» و «تفصيل التفضيل، بين التحميد و التهليل» و رسالة «الكافى، فى أن لا دليل على النافى» و كتاب «السباعيات» و كتاب «المسلسلات» و كتاب «المتوسط فى معرفة صحّة الاعتقاد، و الرد على من خالف أهل السنة من ذوى البدع و الإلحاد» و كتاب «شرح غريب الرسالة» و كتاب «الإنصاف، فى مسائل الخلاف» عشرون مجلدا، و كتاب «حديث الإفك» و كتاب «شرح حديث جابر فى الشفاعة» و كتاب «شرح حديث أم زرع» و كتاب «ستر العورة» و كتاب «المحصول، فى علم الأصول» و كتاب «أعيان الأعيان» و كتاب «ملجأة المتفقهين، إلى معرفة غوامض النحويين» و كتاب «ترتيب الرحلة» و فيه من الفوائد ما لا يوصف.

و من فوائد القاضى أبى بكر بن العربى رحمه اللّه تعالى قوله: قال علماء الحديث: ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة، لقول النبى صلى اللّه عليه و سلم: «نضّر اللّه امرأ سمع مقالتى فوعاها فأدّاها كما سمعها- الحديث» قال: و هذا دعاء منه عليه الصلاة و السلام لحملة علمه، و لا بدّ بفضل اللّه تعالى من نيل بركته، انتهى.

و إلى هذه النّضرة أشار أبو العباس العزفى بقوله: [الكامل]

أهل الحديث عصابة الحقّ فازوا بدعوة سيّد الخلق

فوجوههم زهر منضّرة لألاؤها كتألّق البرق

يا ليتنى معهم فيدركنى ما أدركوه بها من السّبق

و لا بأس أن نذكر هنا بعض فوائد الحافظ أبى بكر بن العربى رحمه اللّه تعالى:

فمنها قوله فى تصريف المحصنات: يقال: أحصن الرجل فهو محصن- بفتح العين فى

اسم الفاعل- و أسهب فى الكلام فهو مسهب، إذا أطال البحث فيه، و ألفج فهو ملفج، إذا كان عديما، لا رابع لها، و اللّه تعالى أعلم، انتهى.

و منها قوله: سمعت الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشى و هو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر يقول: يقال فى اللغة العربية لا تقرب كذا- بفتح الراء- أى لا تتلبس بالفعل، و إذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع، و هذا الذى قاله صحيح مسموع، انتهى.

و منها قوله: شاهدت المائدة بطورزيتا مرارا، و أكلت عليها ليلا و نهارا، و ذكرت اللّه سبحانه فيها سرا و جهارا، و كان ارتفاعها أشفّ من القامة بنحو الشبر، و كان لها درجان قبلى و جنوبى، و كانت صخرة صلودا لا تؤثر فيها المعاول، و كان الناس يقولون: مسخت صخرة إذ مسخ أربابها قردة و خنازير، و الذى عندى أنها كانت صخرة فى الأصل قطعت من الأرض محلا للمائدة النازلة من السماء، و كل ما حولها حجارة مثلها، و كان ما حولها محفوفا بقصور، و قد نحتت فى ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها و مجالسها منها، مقطوعة فيها، و حناياها فى جوانبها، و بيوت خدمتها قد صوّرت من الحجر كما تصوّر من الطين و الخشب، فإذا خلت فى قصر من قصورها و رددت الباب و جعلت من ورائه صخرة مقدار ثقل ثمن درهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض، و إذا هبّت الريح و حثت تحته التراب لم يفتح إلا بعد صب الماء تحته و الإكثار منه حتى يسيل بالتراب، و ينفرج منفرج الباب، و قد بار بها قوم بهذه العلة، و قد كنت أخلو فيها كثيرا للدرس، و لكنى كنت فى كل حين أكنس حول الباب، مخافة مما جرى لغيرى فيها، و قد شرحت أمرها فى كتاب «ترتيب الرحلة» بأكثر من هذا، انتهى.

و منها قوله رحمه اللّه تعالى: تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبى بكر الفهرى الطرطوشى حديث أبى ثعلبة المرفوع «إن من ورائكم أيّاما للعامل فيها أجر خمسين منكم»

فقالوا: بل منهم، فقال: «بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعوانا، و هم لا يجدون عليه أعوانا» و تفاوضنا كيف يكون أجر من يأتى من الأمّة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسّسوا الإسلام، و عضدوا الدين و أقاموا المنار، و افتتحوا الأمصار، و حموا البيضة، و مهّدوا الملة، و قد قال صلى اللّه عليه و سلم فى الصحيح: «لو أنفق أحدكم كلّ يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم و لا نصيفه» فتراجعنا القول، و تحصل ما أوضحناه فى شرح الصحيح، و خلاصته: أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد، و لا يدانيهم فيها بشر، و أعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها فى الأجر من أخلص إخلاصهم، و خلّصها من شوائب البدع و الرياء بعدهم، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين و الإسلام، و هو أيضا انتهاؤه، و قد كان قليلا فى ابتداء الإسلام، صعب المرام، لغلبة الكفار على الحق، و فى آخر الزمان أيضا يعود كذلك، لوعد الصادق صلى اللّه عليه و سلم بفساد الزمان، و ظهور الفتن، و غلبة الباطل، و استيلاء التبديل و التغيير على الحق من الخلق، و ركوب من يأتى سنن من مضى من أهل الكتاب، كما قال صلى اللّه عليه و سلم: «لتركبنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع، حتّى لو دخلوا جحر ضبّ خرب لدخلتموه» و قال صلى اللّه عليه و سلم: «بدأ الإسلام غريبا، و سيعود غريبا كما بدأ». فلا بد و اللّه تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق أن يرجع الإسلام إلى واحد، كما بدأ من واحد، و يضعف الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف و باع نفسه من اللّه تعالى فى الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معانا عليه بكثرة الدّعاء إلى اللّه تعالى، و ذلك قوله: «لأنّكم تجدون على الخير أعوانا و هم لا يجدون عليه أعوانا» حتى ينقطع ذلك انقطاعا باتّا لضعف اليقين و قلة الدين، كما قال صلى اللّه عليه و سلم: «لا تقوم السّاعة حتّى لا يقال فى الأرض اللّه اللّه» يروى برفع الهاء و نصبها، فالرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر اللّه عز و جل، و النصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف و لا ناه عن المنكر يقول:

أخاف اللّه، حينئذ يتمنى العاقل الموت، كما قال صلى اللّه عليه و سلم: «لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيقول: يا ليتنى كنت مكانه» انتهى و أنشد رحمه اللّه تعالى لبعض الصوفية: [السريع]

امتحن اللّه بذا خلقه فالنّار و الجنّة فى قبضته

فهجره أعظم من ناره و وصله أطيب من جنّته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۰

و من فوائد ابن العربى رحمه اللّه تعالى أنه قال: كنت بمجلس الوزير العادل أبى منصور ابن جهير على رتبة بيناها فى كتاب «الرحلة، للترغيب فى الملة» فقرأ القارئ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ [الأحزاب: ۴۴] و كنت فى الصف الثانى من الحلقة بظهر أبى الوفاء على بن عقيل إمام الحنبلية بمدينة السلام، و كان معتزلى الأصول، فلما سمعت الآية قلت لصاحب لى كان يجلس على يسارى: هذه الآية دليل على رؤية اللّه فى الآخرة: فإن العرب لا تقول: «لقيت فلانا» إلا إذا رأته، فصرف وجهه أبو الوفاء مسرعا إلينا، و قال ينتصر لمذهب الاعتزال فى أن اللّه تعالى لا يرى فى الآخرة: فقد قال اللّه تعالى: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ [التوبة: ۷۷] و عندك أن المنافقين لا يرون اللّه تعالى فى الآخرة، و قد شرحنا وجه الآية فى المشكلين، و تقدير الآية: فأعقبهم هو نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه، فيحتمل ضمير يلقونه أن يعود إلى ضمير الفاعل فى (أعقبهم) المقدر بقولنا هو، و يحتمل أن يعود إلى النفاق مجازا على تقدير الجزاء، انتهى.

و منها ما نقله عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما «لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة» فإن قوما قيل فيهم ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [التوبة: ۱۲۷] و قد أنبأنا محمد بن عبد الملك القيسى الواعظ، أنبأنا أبو الفضل الجوهرى سماعا منه: كنا فى جنازة فقال المنذر بها: انصرفوا رحمكم اللّه تعالى، فقال: لا يقل أحدكم انصرفوا فإن اللّه تعالى قال فى قوم ذمهم: ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [التوبة: ۱۲۷] و لكن قولوا: انقلبوا رحمكم اللّه، فإن اللّه تعالى قال فى قوم مدحهم: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ [آل عمران: ۱۷۴] انتهى.

و منها، و قد ذكر الخلاف فى شاهد يوسف، ما صورته: فإذا قلنا إنه القميص، فكان يصح من جهة اللغة أن يخبر عن حاله بتقدم مقاله، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال فى بعض الأمور، و قد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات بما تخبر عنه بما عليها من الصفات، و من أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد: لم تشقّنى؟ قال: سل من يدقنى، ما يتركنى و رائى، هذا الذى و رائى، لكن قوله تعالى بعد ذلك: مِنْ أَهْلِها [يوسف: ۲۶] فى صفة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۱

الشاهد يبطل أن يكون القميص، و أما من قال إنه ابن عمها أو رجل من أصحاب العزيز فإنه يحتمل، لكن قوله: مِنْ أَهْلِها [يوسف: ۲۶] يعطى اختصاصها من جهة القرابة، انتهى.

و منها قوله: إنه كان بمدينة السلام إمام من الصوفية و أى إمام، يعرف بابن عطاء، فتكلم يوما على يوسف و أخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه، فقام رجل من آخر مجلسه و هو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال: يا شيخ، يا سيدنا، فإذن يوسف همّ و ما تم، فقال: نعم، لأن العناية من ثمّ، فانظروا إلى حلاوة العالم و المتعلم و فطنة العامى فى سؤاله، و العالم فى اختصاره و استيفائه، و لذا قال علماؤنا الصوفية: إن فائدة قوله تعالى: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً [يوسف: ۲۲] إن اللّه تعالى أعطاه العلم و الحكمة أيام غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة. انتهى.

و منها قوله: كنت بمكة مقيما فى ذى الحجة سنة تسع و ثمانين و أربعمائة، و كنت أشرب من ماء زمزم كثيرا، و كل ما شربته نويت به العلم و الإيمان، ففتح اللّه تعالى لى ببركته فى المقدار الذى يسّره لى من العلم، و نسيت أن أشربه للعمل، و يا ليتنى شربته لهما، حتى يفتح اللّه تعالى لى فيهما، و لم يقدّر فكان صفوى للعلم أكثر منه للعمل، و أسأل اللّه تعالى الحفظ و التوفيق برحمته.

و منها قوله: سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول: إنما تبع الولد الأم فى المالية و صار بحكمها فى الرق و الحرية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له، و لا مالية فيه، و لا منفعة مبتوتة عليه، و إنما اكتسب ما اكتسب بها و منها، فلذلك تبعها، كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل و سقطت منه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة، لأنها انفصلت عن الآكل و لا قيمة لها، و هذه من البدائع، انتهى.

و منها قوله: و من نوادر أبى الفضل الجوهرى ما أخبرنا عنه محمد بن عبد الملك الواعظ و غيره أنه كان يقول: إذا أمسكت علاقة الميزان بالإبهام و السبابة، و ارتفعت سائر الأصابع كان شكلها مقروا بقولك اللّه، فكأنها إشارة منه سبحانه فى تيسير الوزن كذلك إلى أن اللّه سبحانه مطلع عليك، فاعدل فى وزنك، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۲

و منها قوله: كان ابن الكازرونى يأوى إلى المسجد الأقصى، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات، و لقد كان يقرأ فى مهد عيسى عليه السلام فيسمع من الطور، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئا دون قراءته، إلا الإصغاء إليه، انتهى.

و منها قوله فى تفسير قوله تعالى فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ [فصلت: ۱۶] قيل: إنها كانت آخر شوال، من الأربعاء إلى الأربعاء، و الناس يكرهون السفر يوم الأربعاء لأجل هذه الرواية، حتى إنى لقيت يوما مع خالى الحسن بن أبى حفص رجلا من الكتاب، فودعنا بنية السفر، فلما فارقنا قال لى خالى: إنك لا تراه أبدا لأنه سافر فى يوم أربعاء لا يتكرر، و كذا كان، مات فى سفره، و هذا ما لا أراه، لأن يوم الأربعاء يوم عجيب، بما جاء فى الحديث من الخلق فيه و الترتيب، فإن الحديث ثابت بأن اللّه تعالى خلق يوم السبت التربة، و يوم الأحد الجبال، و يوم الاثنين الشجر، و يوم الثلاثاء المكروه، و يوم الأربعاء النور، و روى النون، و فى غريب الحديث أنه خلق يوم الأربعاء الثّقن، و هو كل شىء تتقن به الأشياء، يعنى المعادن من الذهب و الفضة و النحاس و الحديد و الرصاص، فاليوم الذى خلق فيه المكروه لا يعافه الناس، و اليوم الذى خلق فيه النور أو الثّقن يعافونه، إن هذا لهو الجهل المبين!. و فى المغازى أن النبى صلى اللّه عليه و سلم دعا على الأحزاب من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء بين الظهر و العصر، فاستجيب له، و هى ساعة فاضلة، فالآثار الصّحاح تدل

على فضل هـذا اليوم، فكيف يـدعى فيه التحـذير و النحس بأحاديث لا أصل لها، و قـد صور قوم أياما من الأشـهر الشمسـيهٔ ادعوا فيها الكراهيهٔ لا يحل لمسلم أن ينظر إليها و لا يشغل بها بالا، فحسبهم اللّه، انتهى.

و منها: و كان يقرأ معنا برباط أبى سـعيد على الإمام دانشـمند من بلاد المغرب خنثى ليس له لحيـهٔ و له ثـديان و عنـده جاريهٔ، فربك أعلم به، و مع طول الصحبهٔ عقلنى الحياء عن سؤاله، و بودى اليوم لو كاشفته عن حاله، انتهى.

و من شعر ابن العربى مما نسبه الشيخ أبو حيان قوله: [مجزوء الرمل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۳

ليت شعرى هل دروا أىّ قلب ملكوا

و فؤادى لو درى أىّ شعب سلكوا

أ تراهم سلموا أم تراهم هلكوا

حار أرباب الهوى فى الهوى و ارتبكوا

و من فوائده: أخبرنى المهرهٔ من السّحرهٔ بأرض بابل أنه من كتب آخر آيهٔ من كل سورهٔ و يعلقها لم يبلغ إليه سحرنا، قال: هكذا قالوا، و اللّه تعالى أعلم بما نقلوه.

و قال رحمه اللّه تعالى: حـذقت القرآن ابن تسع سـنين ثم ثلاثا لضبط القرآن و العربيـهٔ و الحساب، فبلغت ست عشـرهٔ و قد قرأت من الأحرف نحوا من عشـرهٔ بما يتبعها فى إظهار و إدغام و نحوه، و تمرنت فى العربيهٔ و اللغهٔ، ثم رحل بى أبى إلى المشرق، ثم ذكر تمام رحلته، رحمه اللّه تعالى!.

۹- و منهم أبو بكر محمد بن أبى عامر بن حجّاج، الغافقى، الإشبيلى.

و من نظمه بالمدينهٔ المشرفهٔ على ساكنها أفضل الصلاهٔ و السلام: [السريع]

لم يبق لى سؤل و لا مطلب مذ صرت جارا لحبيب الحبيب

لا أبتغى شيئا سوى قربه وها أنا منه قريب قريب

من غاب عن حضرهٔ محبوبه فلست عن طيبهٔ ممّن يغيب

لا تسأل المغبوط عن حاله جار كريم و محلّ خصيب

العيش و الموت هنا طيّب بطيبهٔ لى كلّ شىء يطيب

و ممن روى عنه هذه الأبيات الأشرف بن الفاضل.

[۱۰- ترجمهٔ جمال الدين بن ذى النون]

۱۰- و منهم الشيخ الأديب الفاضل البارع جمال الدين أبو عبد اللّه محمد ابن الفقيه الخطيب أبى الحسن محمد بن أبى عبد اللّه محمد بن عيسى بن محمد بن على بن ذى النون، الأنصارى، المالقى، من أشياخ أبى حيّان، لقيه ببلبيس من ديار مصر، قال: و أنشدنى لشيخه أبى عبد اللّه الإستجى من قصيدهٔ: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۴

ما للنّسيم سرى يهبّ عليلا أ تراه يشكو لوعهٔ و غليلا

جرّ الذّيول على ديار أحبّتى فأتى يجرّ من السّقام ذيولا

و أنشد رحمه اللّه تعالى لرضوان المخزومى: [المجتث]

إن كنت يوسف حسنا و كنت عبد العزيز

فإنّ يوسف من قب ل كان عبد العزيز

و أخذ ابن ذى النون المذكور عن أبى عبد اللّه بن صالح، و قرأ للسبعة على أبى جعفر الفحام و أبى زيد القمارشى، و على أبى جعفر السّهيلى، و ولد ابن ذى النون سنة ۶۱۸ بمالقة، و من تواليفه «نفح المسك الأذفر، فى مدح المنصور بن المظفر» و «أزهار الخميلة، فى الآثار الجميلة» و «استطلاع البشير» و «محض اليقين» و «روض المتقين».

۱۱- و منهم زياد بن عبد الرحمن بن زيادة اللخمىّ، المعروف بشبطون،

يكنى أبا عبد اللّه، كان فقيه الأندلس على مذهب مالك، و هو أول من أدخل مذهبه الأندلس، و كانوا قبله يتفقّهون على مذهب الأوزاعى، و أراده الأمير هشام على القضاء بقرطبة و عزم عليه، فهرب، فقال هشام: ليت الناس كلهم كزياد حتى أكفى الرغبة فى الدنيا، و أرسل إلى زياد فأمّنه حتى رجع إلى داره.

و يحكى أنه لما أراده للقضاء كلمه الوزراء فى ذلك عن الأمير، و عرفوه عزمه عليه، فقال لهم: أما إن أكرهتمونى على القضاء فزوجتى فلانة طالق ثلاثا لئن أتانى مدّع فى شىء مما فى أيديكم لأخرجنّه عنكم ثم أجعلكم مدّعين فيه، فلما سمعوا منه ذلك علموا صدقه، فتكلموا عند الأمير فى معافاته.

سمع من مالك الموطأ، و يعرف سماعه بسماع زياد، و سمع من معاوية بن صالح، و كانت ابنة معاوية تحته، و روى يحيى بن يحيى الليثى عن زياد هذا الموطأ قبل أن يرحل إلى مالك، ثم رحل فأدرك مالكا فرواه عنه إلا أبوابا فى كتاب الاعتكاف، شك فى سماعها من مالك، فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالك.

و توفى سنة أربع و مائتين، و قيل: سنة ۱۹۳، و قيل: فى التى بعدها، و قيل: سنة ۱۹۹، و الأول أولى بالقبول، و اللّه تعالى أعلم..

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۵

و رحل فى ذلك العصر جماعة من أمثال شبطون، كفرغوس بن العباس و عيسى بن دينار و سعيد بن أبى هند و غيرهم ممن رحل إلى الحج أيام هشام بن عبد الرحمن والد الحكم، فلما رجعوا و صفوا من فضل مالك وسعة علمه و جلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس، فانتشر يومئذ رأيه و علمه بالأندلس، و كان رائد الجماعة فى ذلك شبطون.

و هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملا متقنا، فأخذه عنه يحيى بن يحيى كما مر، و هو إذ ذاك صدر فى طلاب الفقه، فأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك ما دام حيا، فرحل سريعا، و أخذ يحيى عن زياد هذا الكتب العشرة المنسوبة إلى يحيى.

و لقى أيضا عبد اللّه بن وهب صاحب مالك، و سمع منه الموطأ، و لقى أيضا عبد اللّه بن نافع المدنى صاحب مالك، و سمع منه و من الليث بن سعد فقيه مصر، و من سفيان بن عيينة بمكة، و قدم يحيى الأندلس أيام الحكم، فانتشر به و بزياد و بعيسى بن دينار علم مالك بالأندلس، رضى اللّه تعالى عن الجميع!.

و قد قدمنا الحديث الذى رواه زياد بن عبد الرحمن عن مالك، فليراجع فى الباب الثالث.

۱۲- و منهم سوار بن طارق

مولى عبد الرحمن بن معاوية، قرطبى، حج و دخل البصرة، و لقى الأصمعى و نظراءه، و انصرف إلى الأندلس، و أدّب الحكم، و من ولده محمد بن عبد اللّه بن سوار، حج أيضا، و لقى أبا حاتم بالبصرة و الرياشى و غيرهما، و أدخل الأندلس علما كثيرا، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۱۳- و منهم بقى بن مخلد،

الشهير الذكر، صاحب التآليف التى لم يؤلف مثلها فى الإسلام، و لقى مائتين و أربعة و ثمانين شيخا، و كانت له خاصة من الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّه تعالى، و ستأتى جملة فيما يتعلق ببقى بن مخلد فى رسالة ابن حزم فى الباب السابع، و بقىّ على وزن علىّ، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه! و قد عرف ببقى بن مخلد غير واحد من العلماء كصاحب النبراس و غيره.

۱۴- و منهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف، أبو محمد، البيّانى، و بيّانة:

من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۶

أعمال قرطبة، و أصل سلفه من موالى الوليد بن عبد الملك، و سمع المذكور بقرطبة من بقى ابن مخلد و محمد بن و ضاح و مطرّف بن قيس و أصبغ بن خليل و ابن مسرة و غير واحد، و رحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن و محمد بن زكريا بن عبد الأعلى سنة أربع و سبعين و مائتين، فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ و على بن عبد العزيز، و دخل العراق، فلقى من أهل الكوفة إبراهيم بن أبى العنبس قاضيها و إبراهيم بن عبد اللّه القصار، و سمع ببغداد من القاضى إسماعيل و أحمد بن زهير بن حرب و غيرهما كعبد اللّه ابن الإمام أحمد بن حنبل و الحارث بن أبى أسامة و كتب عن ابن أبى خيثمة تاريخه، و سمع من ابن قتيبة كثيرا من كتبه، و سمع من المبرد و ثعلب و ابن الجهم فى آخرين، و سمع بمصر من محمد بن عبد اللّه العمرى و مطلب بن شعيب و غيرهما، و سمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم و بكر بن حماد التاهرتى الشاعر، و انصرف إلى الأندلس بعلم كثير، فمال الناس إليه فى تاريخ أحمد بن زهير و كتب ابن قتيبة، و أخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن و ابن عبد الأعلى، و كان بصيرا بالحديث و الرجال، نبيلا فى النحو و الغريب و الشعر، و كان يشاور فى الأحكام، و صنف على كتاب السنن لأبى داود كتابا فى الحديث، و سببه أنه لما قدم العراق سنة ست و سبعين و مائتين مع صاحبه محمد بن أيمن، فوجدا أبا داود قد مات قبل وصولهما بيسير، فلما فاتهما عمل كل واحد منهما مصنفا فى السنن على أبواب كتاب أبى داود، و خرجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما و هما مصنفان جليلان، ثم اختصر قاسم بن أصبغ كتابه و سماه «المجتنى» بالنون. و ابتدأ اختصاره فى المحرم سنة أربع و عشرين و ثلاثمائة، و جعله باسم الحكم المستنصر، و فيه من الحديث المسند ألفان و أربعمائة و تسعون حديثا فى سبعة أجزاء.

و مولده يوم الاثنين عاشر ذى الحجة سنة سبع و أربعين و مائتين، رحمه اللّه تعالى!.

و حكى القرطبى فى تفسيره عند قوله تعالى: قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا [البقرة: ۳۲]: أن قاسم بن أصبغ قال: لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان، فأخذت عن بكر بن حماد حديث مسدّد، فقرأت عليه يوما فيه حديث النبى صلى اللّه عليه و سلم «أنه قدم عليه قوم من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۷

مضر مجتابى النمار» فقال: إنما هو مجتابى الثمار، فقلت: إنما هو مجتابى النمار، هكذا قرأته على كل من لقيته بالأندلس و العراق، فقال لى: بدخولك العراق تعارضنا و تفخر علينا؟ أو نحو هذا، ثم قال لى: قم بنا إلى ذلك، لشيخ كان فى المسجد، فإن له بمثل هذا علما، فقمنا إليه و سألناه عن ذلك، فقال: إنما هو مجتابى النمار كما قلت، و هم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم، و النمار: جمع نمرة، فقال بكر بن حماد، و أخذ بأنفه: رغم أنفى للحق، و انصرف، انتهى.

و هذه الحكاية دالة على عظيم قدر الرجلين، رحمهما اللّه تعالى و رضى عنهما، و نفعنا بهما!.

۱۵- و منهم قاسم بن ثابت، أبو محمد، العوفى، السّرقسطى،

رحل مع أبيه فسمع بمصر من أحمد بن شعيب النسائى و أحمد بن عمرو البزار، و بمكة من عبد اللّه بن على بن الجارود و محمد بن على الجوهرى، و اعتنى بجمع الحديث و اللغة هو و أبوه، فأدخلا إلى الأندلس علما كثيرا، و يقال: إنهما أوّل من أدخل كتاب العين إلى الأندلس، و ألف قاسم فى شرح الحديث كتابا سماه «الدلائل»، بلغ فيه الغاية فى الإتقان، و مات قبل إكماله، فأكمله أبوه ثابت بعده، و قد روى عن أبى على البغدادى أنه كان يقول: كتبت كتاب الدلائل، و ما أعلم أنه وضع بالأندلس، مثله، و كان قاسم عالما بالحديث و اللغة، متقدما فى معرفة الحديث و النحو و الشعر، و كان مع ذلك و رعا ناسكا، و أريد على القضاء بسرقسطة، فأبى ذلك، فأراد أبوه إكراهه عليه، فسأله أن يتركه ينظر فى أمره ثلاثة أيام، و يستخير اللّه تعالى، فمات فى هذه الثلاثة الأيام، فيروون أنه دعا لنفسه بالموت، و كان مجاب الدعوة، توفى سنة ۳۰۳ بسرقسطة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۶- و منهم علم الدين أبو محمد المرسىّ اللّورقى

، و هو قاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر، العلامة، المقرئ، الأصولى، النحوى، ولد سنة خمس و سبعين و خمسمائة، و قرأ بالروايات قبل الستمائة على أبى جعفر الحصار و أبى عبد اللّه المرادى و أبى عبد اللّه بن نوح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۸

الغافقى، و قدم مصر فقرأ بها على أبى الجود غياث بن فارس، و بدمشق على التاج زيد الكندى، و سمع ببغداد من أبى محمد بن الأخضر، و أخذ العربية عن أبى البقاء، و لقى الجزولى بالمغرب، و سأله عن مسألة مشكلة فى مقدمته، فأجابه، و برع فى العربية و فى علم الكلام و الفلسفة، و كان يقرئ ذلك و يحققه، و أقرأ بدمشق، و درس، و شرح المفصل فى النحو فى أربع مجلدات فأجاد و أفاد، و شرح الجزولية و الشاطبية، و كان مليح الشكل، حسن البزة، موطّأ الأكناف، قرأ عليه جماعة، و توفى سابع رجب سنة ۶۶۱، و كان معمرا مشتغلا بأنواع العلوم، و سماه بعضهم أبا القاسم، و الأوّل أصح.

۱۷- و منهم قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار،

أبو محمد، من أهل قرطبة، و جدّه مولى الوليد بن عبد الملك، رحل فسمع بمصر من محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم و المزنى و البرقى و الحارث بن مسكين و يونس بن عبد الأعلى و إبراهيم بن المنذر و غيرهم، و لزم ابن عبد الحكم للتفقه، و تحقق به و بالمزنى، و كان يذهب مذهب الحجة و النظر و ترك التقليد، و يميل إلى مذهب الشافعى، و لما قال له ابنه محمد بن القاسم: يا أبت أوصنى، قال: أوصيك بكتاب اللّه، فلا تنس حظك منه، و اقرأ منه كل يوم جزءا، و اجعل ذلك عليك واجبا، و إن أردت أن تأخذ من هذا الأمر بحظ، يعنى الفقه، فعليك برأى الشافعى، فإنى رأيته أقل خطأ، قال أبو الوليد بن الفرضى: و لم يكن بالأندلس مثله فى حسن النظر و البصر بالحجة، و قال أحمد بن خالد و محمد بن عمر بن لبابة: ما رأينا أفقه من قاسم بن محمد فيمن دخل الأندلس من أهل الرحلة، و قال أسلم بن عبد العزيز: سمعت عن ابن عبد الحكم أنه قال: لم يقدم علينا من الأندلس أحد أعلم من قاسم بن محمد، و لقد عاتبته فى حين انصرافه إلى الأندلس، و قلت له: أقم عندنا فإنك تعتقد ههنا رياسة و يحتاج الناس إليك، فقال: لا بدّ من الوطن، و قال سعيد بن عثمان: قال لى أحمد بن صالح الكوفى:

قدم علينا من بلادكم رجل يسمى قاسم بن محمد، فرأيت رجلا فقيها.

و ألف رحمه اللّه تعالى كتابا نبيلا فى الرد على ابن مزين و عبد اللّه بن خالد و العتبى يدل على علمه، و له كتاب فى خبر الواحد.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۱۹

و كان يلى و ثائق الأمير محمد طول أيامه.

روى عنه ابن لبابة و ابن أيمن و الأعناقى و ابنه محمد بن قاسم فى آخرين.

توفى سنة ست- أو سبع، أو ثمان- و سبعين و مائتين، رحمه اللّه تعالى!.

۱۸- و منهم أبو بكر الغسانى،

و هو محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود، من أهل المرية، قدم إلى مصر و لقى بها أبا بكر الطرطوشى، ثم عاد إلى بلده، و شوور، و استقضى بمرسية مدة طويلة، ثم صرف، و سكن مراكش، قال ابن بشكوال: توفى بمراكش فى رجب سنة ۶۳۶، و قال أبو جعفر بن الزبير: إن له كتاب تفسير القرآن، و بيته بيت علم و دين.

۱۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن حيّون،

من أهل وادى الحجارة، قال ابن الفرضى، سمع من ابن وضاح و الخشنى و نظرائهما بالأندلس، و رحل إلى المشرق، فتردد هنالك، نحوا من خمس عشرة سنة، و سمع بصنعاء و مكة و بغداد و لقى جماعة من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل: منهم عبد اللّه بن أحمد، و سمع بمصر من الخفاف النيسابورى و إبراهيم بن موسى و غيرهما، و بالمصيصة و القيروان، و كان إماما فى الحديث، عالما، حافظا للعلل بصيرا بالطرق، و لم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه، و هو ضابط متقن، حسن التوجيه للحديث، صدوق، و لم يذهب مذهب مالك، و من روى عنه ابن أيمن و قاسم بن أصبغ و وهب بن مسرة و أحمد بن سعيد بن حزم، و قال خالد بن سعيد: لو كان الصدق لسانا لكان ابن حيّون، و كان يزنّ بالتشيّع لشىء كان يظهر منه فى حق معاوية، رضى اللّه تعالى عنه! و كان شاعرا، و توفى بقرطبة سنة ۳۰۵، سامحه اللّه تعالى!.

۲۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن إبراهيم بن غالب، المالقىّ

، قال ابن نقطة: سمع بالإسكندرية من أبى الحسن بن المقدسى، و كان فاضلا، رأيت بخطه إجازة بمصر لبعض المصريين فى رجب سنة ۶۰۴، و سمع بمصر شيئا من الخلعيّات، قال ابن فرتون الفاسى فى ذيل تاريخ الأندلس: روى بمالقة، و رحل إلى المشرق،

و حج، و لقى أبا الحسن على بن المفضل المقدسى، و أخذ عنه كتاب «تحقيق الجواب، عمن أجيز له ما فاته من الكتاب» من تآليفه، و رجع إلى الأندلس، ثم نهض إلى مراكش فتوفى فى أقصى بلاد السّوس فى حدود سنة ۶۴۵، رحمه اللّه تعالى!.

۲۱- و منهم اليقّورى، و هو أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم مصنف كتاب «إكمال الإكمال»

للقاضى عياض على صحيح مسلم، و كتب على كتاب الشهاب القرافى فى الأصول، و سمع الحديث، و قدم إلى مصر و معه مصحف قرآن حمل بغل بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة، ثم عاد بعد حجه، و مات بمراكش سنة ۷۰۷، و قد زرت قبره بها مرارا، قال الحافظ المقريزى:

و اليقّورى نسبه إلى يقّورة - بياء آخر الحروف مفتوحة، و قاف مشددة، و راء مهملة- بلد بالأندلس، انتهى.

۲۲- و منهم أبو عبد اللّه الأنصارى، و هو محمد بن إبراهيم بن موسى بن عبد السلام،

و يعرف بابن شق الليل، من أهل طليطلة، سمع بمصر أبا الفرج الصوفى و أبا القاسم الطحان الحافظ و أبا محمد بن النحاس و أبا القاسم بن ميسرة و أبا الحسن بن بشر و غيرهم، و سمع بطليطلة من جماعة، و حدث عن جماعة من المحدثين كثيرة.

قال ابن بشكوال: و كان فقيها عالما، و إماما متكلما، حافظا للفقه و الحديث، قائما بهما، متقنا لهما، إلا أن المعرفة بالحديث و أسماء

رجاله و البصر بمعانيه و علله كان أغلب عليه، و كان مليح الخط، جيد الضبط، من أهل الرواية و الدراية و المشاركة فى العلوم، و كان أديبا شاعرا مجيدا لغويا دينا فاضلا، كثير التصانيف و الكلام على علم الحديث، حلو الكلام فى تآليفه، و له عناية بأصول الديانات و إظهار الكرامات، و توفى بطليرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ۴۵۵، رحمه اللّه تعالى!.

۲۳- و منهم الشيخ الإمام الشهير الكبير الولى العارف باللّه

سيدى أبو عبد اللّه القرشى الهاشمى الأندلسى، شيخ السالكين، و إمام العارفين، و قدوة المحققين، قدم مصر بعد ما صحب ببلاد المغرب جماعة من أعلام الزهاد، و كان يقول: صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۲۱

بأربعة: الشيخ أبى الربيع، و الشيخ أبى الحسن بن طريف، و الشيخ أبى زيد القرطبى، و الشيخ أبى العباس الجوزى، و سلك على يده جماعة: منهم الشيخ أبو العباس القسطلانى، فإنه أخذ عنه كلامه و جمعه فى جزء، و خرج سيدى أبو عبد اللّه القرشى من مصر إلى بيت المقدس فأقام به إلى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذى الحجة سنة ۵۹۹ عن خمس و خمسين سنة، و دفن هناك، و قبره ظاهر يقصد للزيارة زرته أول قدماتى على بيت المقدس سنة ۱۰۲۸، و من كلامه: من لم يدخل فى الأمور بلطف الأدب لم يدرك مطلوبه منها، و قوله: العاقل يأخذ ما صفا و يدع التكلف، فإنه تعالى يقول: وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ [يونس: ۱۰۷] و قال:

من لم يراع حقوق الإخوان بترك حقوقه حرم بركة الصحبة، و قال: سمعت الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن طريف يقول: لما حضرت الشيخ أبا الحسن بن غالب الوفاة قال لأصحابه:

اجتمعوا و هللوا سبعين ألف مرة، و اجعلوا ثوابها لى، فإنه بلغنى أنها فداء كل مؤمن من النار، قال: فعلمناها، و اجتمعنا عليها، و جعلنا ثوابها له.

ثم حكى عن شيخه أبى زيد القرطبى ما حكاه السنوسى عنه فى أواخر شرح صغراه: و قد أنكر غير واحد من الحفاظ كابن حجر و غيره كون ما ذكر حديثا، و لعل هؤلاء أخذوه من جهة الكشف و نحوه، و اللّه تعالى أعلم.

و قال رحمه اللّه تعالى: دخلت على الشيخ أبى محمد عبد اللّه المغاورى، فقال لى:

أعلمك شيئا تستعين به، إذا احتجت لشىء فقل: يا واحد يا أحد يا واحد يا واجد يا جواد، انفحنا منك بنفحة خير، إنك على كل شىء قدير، قال: فأنا أنفق منها منذ سمعتها، و قال رحمه اللّه تعالى: ما من حال ذكر فى رسالة القشيرى إلا و قد شاهدته نفسى، و تزوج رحمه اللّه تعالى بنساء حدثن عنه بكرامات، و منهن أم القطب القسطلانى، و حكت أنها خرجت عنه يوما لحاجتها، ثم عادت فسمعت عنده فى طبقته حسّ رجل، فتوقفت و تفقدت الباب فوجدته مغلقا، فلما انقطع الكلام دخلت إليه، فإذا هو وحده كما تركته، و سألته عن ذلك، فقال: هو الخضر دخل على و فى يده حية فقال: هذه حيتك جئتك بها من أرض نجد، و فيها شفاء مرضك، فقلت: لا أريد، اذهب أنت و حيتك لا حاجة لى بها، و دخل عليه بعض نسائه يوما، فوجدته بصيرا نقى الجسم من الجذام، فلما نظرته قال لها: أ تريدين أن أبقى لك هكذا؟ فقالت له: يا سيدى كن كيف شئت، إنما مقصودى خدمتك و بركتك، و قيل له، و قد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۲۲

تكاثرت منه رؤية الأشياء و إخباره بها، مع كونه ضريرا، عن ذلك، فقال: كلى أعين، بأى عضو أردت أن أنظر به نظرت، و قال: هممت أن أدعو برفع الغلاء، فقيل لى: لا تدع فما نسمع لأحد منكم فى هذا الأمر دعاء، فسافرت إلى الشام، فلما وصلت إلى بلد الخليل عليه السلام تلقانى رسول اللّه الخليل حين ورودى عليه، فقلت له: يا رسول اللّه اجعل ضيافتى عندك أهل مصر، فدعا لهم ففرج اللّه عنهم، و مناقبه رحمه اللّه تعالى و كراماته لا يفى بها هذا المختصر، و إنما قصدنا بذكره البركة و كفارة ما وقع فى هذا الكتاب من الإحماض، و اللّه المرجو فى العفو.

و من فوائده ما نقله عن شيخه أبى الربيع المالقى أنه قال له: ألا أعلمك كنزا تنفق منه و لا ينفد؟ قلت: بلى، قال: قل: يا اللّه، يا أحد، يا واحد، يا موجود، يا جواد، يا باسط، يا كريم، يا وهاب، يا ذا الطّول، يا غنى، يا مغنى، يا فتاح، يا رزاق، يا عليم، يا حى، يا قيوم، يا رحمن، يا رحيم، يا بديع السماوات و الأرض، يا ذا الجلال و الإكرام، يا حنان، يا منان، انفحنى منك بنفحة خير تغنينى بها عمن سواك إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ [الأنفال: ۱۹] إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً [الفتح: ۱] نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ [الصف: ۱۳]، اللهم يا غنى يا حميد، يا مبدئ يا معيد، يا رحيم يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعالا لما يريد، اكفنى بحلالك عن حرامك، و أغننى بفضلك عمن سواك، و احفظنى بما حفظت به الذكر الحكيم، و انصرنى بما نصرت به الرسل؛ إنك على كل شىء قدير، فمن دوام على قراءته بعد كل صلاة خصوصا صلاة الجمعة حفظه اللّه تعالى من كل مخوف، و نصره على أعدائه، و أغناه، و رزقه من حيث لا يحتسب، و يسّر عليه معيشته، و قضى عنه دينه، و لو كان عليه أمثال الجبال دينا، بكرمه و إحسانه، انتهى، نقله عنه العلامة ابن داود البلوى الأندلسى، و من خطه نقلت، رحم اللّه تعالى الجميع! و نقله اليافعى كما ذكر رحمه اللّه تعالى، إلا أنه لم يقل فيه «يا ودود»، و اتفقا فيما عدا ذلك، و اللّه سبحانه أعلم.

و قال ابن خلكان فى حقه: محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشى الهاشمى العبد الصالح الزاهد من أهل الجزيرة الخضراء، كانت له كرامات ظاهرة، و رأيت. أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة، و لقيت جماعة ممن صحبه، و كل منهم يثنى عليه من بركته، و ذكروا عنه أنه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۲۳

وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات و المناصب العلية، و أنها صحت كلها، و كان من السادات الأكابر و الطراز الأول، و هو مغربى صحب بالمغرب أعلام الزهاد، و انتفع بهم، فلما وصل إلى مصر انتفع به من صحبه أو شاهده، ثم سافر إلى الشام قاصدا زيارة بيت المقدس، و أقام بها إلى أن مات، و صلى عليه بالمسجد الأقصى، و هو ابن خمس و خمسين سنة، و قبره ظاهر للزيارة و التبرك به.

و الجزيرة الخضراء فى بلاد الأندلس: مدينة تقابل سبته من بر العدوة.

و من جملة وصاياه لأصحابه: سيروا إلى اللّه تعالى عرجا و مكاسير فإن انتظار الصحة بطالة، انتهى ببعض اختصار.

۲۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن على بن الحسين بن أبى الحسين

القرطبى، سمع من قاسم بن أصبغ و غيره، و قدم مصر فسمع بها من ابن الورد و ابن أبى الموال و البارودى و ابن السكن فى آخرين، و سمع بالرملة و بيت المقدس، و كان ضابطا بصيرا بالنحر و اللغة فصيحا بليغا طويل اللسان، ولى الشرطة ببلاد المغرب، توفى سنة ۳۷۳.

۲۵- و منهم أبو بكر الجيّانى محمد بن على بن خلف التّجيبى الإشبيلى،

الحافظ الكاتب، روى عن ابن الجد و غيره، و مر بمصر حاجا فلقى بمكة أبا حفص الميانشىّ و أبا الحسن المكناسى، و لقى بالإسكندرية السّلفى و ابن عوف و غيرهما، و كان مدرسا للفقه، فقيها جليلا، متقدما فيه عارفا فاضلا سنيا، توفى بعد امتحان من منصور بنى عبد المؤمن سنة ۵۹۶، و ذلك أنه و شى به للمنصور أيام عزم على ترك التقليد و العمل بالحديث.

۲۶- و منهم أبو بكر الأندلسى الجيّانى محمد بن على بن عبد اللّه بن محمد بن ياسر،

الأنصارى، الجيّانى سافر من بلده و دخل ديار مصر و الشام و العراق و خراسان و ما وراء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۲۴

النهر، و لقى أئمتها، و تفقه ببخارى حتى تمهر فى المذهب و الخلاف و الجدل، ثم اشتغل بالحديث و سماعه و حفظه و حصل منه كثيرا، ثم سكن بلخ مدة، و عاد إلى بغداد و دخلها سنة ۵۵۹، و توجه إلى مكة فحج، و رجع إلى الشام، و استوطن حلب، إلى أن توفى بها، و وقف كتبه، و كان متدينا صدوقا حافظا عالما بالحديث، و فيه فضل، ولد بجيّان سنة ۴۹۲، و مات بحلب سنة ۵۶۳.

۲۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن على التّجيبى الدهان الغرناطى،

كان حسن السّمت بارع الخط و الخلق و الخلق، رحل إلى الحج، و جال فى البلاد فى حدود سنة ست و ستمائة فأخذ بمكة و الشام و مصر و الإسكندرية عن جماعة كثيرة، و كان عدلا فاضلا على خير و دين، و كان متحرفا بالتجارة بغرناطة، ثم خرج منها آخر عمره فمات بقوص بعد ما حج سنة ۶۵۰، و صدر من مكة سنة ۶۵۳ فمات قبل منتصف السنة، رحمه اللّه تعالى!.

۲۸- و منهم أبو عمر محمد بن على بن محمد بن أبى الربيع القرشى العثمانى الأندلسى الإشبيلى النحوى،

ولد سنة ۶۱۷ بإشبيلية، و قدم مصر فسمع الكثير بها، و بدمشق و غيرها، و كان إماما عالما نحويا فاضلا، كتب عنه أبو محمد الدمياطى و القطب عبد الكريم، و ناهيك بهما علما.

۲۹- و منهم أبو بكر أبو عبد اللّه محمد بن على بن محمد بن على بن هذيل. البلنسى

رحل و سمع من السّلفى، و حج، قال أبو الربيع بن سالم: هو شيخ صدوق متيقظ، سمع أباه و أبا الوليد بن الدباغ و أبا الحسن طارق بن موسى بن يعيش و جماعة، و أخذ بمكة سنة ۵۳۹ عن أبى على حسن المقرى، و قفل إلى الأندلس سنة ۵۴۶، فأخذ عنه بها، و سمع منه جماعة، قال ابن الأبار: كان غاية فى الصلاح و أعمال البر و الورع، توفى ببعض قرى بلنسية سنة ۵۸۳، و مولده سنة سبع أو تسع عشرة و خمسمائة، و له حظ من علم التعبير و اللغة، رحمه اللّه تعالى!.

۳۰- و منهم أبو عبد اللّه، و يقال: أبو سلمة، محمد بن على البيّاسى الغرناطى

الأنصارى ناصر الدين، روى عن الحافظ أبى جعفر بن الزبير و غيره، و قدم إلى القاهرة و استوطنها بعد

الحج، حتى مات بها سنة ۷۰۳، و كان عارفا بعلم الحديث و كتب منه كثيرا، و مال إلى مذهب الظاهرية، و انتفع به جماعة من طلبة الحديث و كان ثقة، رحمه اللّه تعالى!.

۳۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن على بن يحيى بن على بن الشامى الأندلسى،

الغرناطى، قدم مصر حاجا، و أقام بمكة و المدينة، و كان إماما فاضلا عالما متفننا فى علوم ما بين فقه و أصول و نحو و لغة و قراءات و نظم و نثر، و مع معرفته بمذهب مالك ينقل كثيرا من مذهب الشافعى، و سمع الموطأ بتونس من أبى محمد بن هارون القرطبى، و مولده بغرناطة سنة ۶۷۱، و توفى سنة ۷۱۵.

و من شعره رضى اللّه تعالى عنه: [الطويل]

إذا كنت جارا للنّبىّ و صحبه و مكّة بيت اللّه منّى على قرب

فما ضرّنى أن فاتنى رغد عيشة و حسبى الّذى أوتيته نعمة حسبى

و قوله: [المتقارب]

نزيل الكرام عزيز الجوار و إنّى نزيل عليكم و جار
حللت ذراك و أنت الكريم و من حلّ مثوى كريم يجار

۳۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عمار الكلاعى الميورقى

- قدم مصر، و روى عن أبى محمد ابن الوليد بها، و كان عالما، و له قصيدة طويلة فيها حكم و مواعظ يوصى ابنه بها، منها قوله: [الوافر]

و طاعة من إليه الأمر فالزم و إن جاروا و كانوا مسلمينا
فإن كفروا ككفر بنى عبيد فلا تسكن ديار الكافرينا

و اسم ابنه حسن، و سمع من المذكور الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى فى رحلته سنة ۴۸۵، و وصفه بالعلم، و عمّار: بالراء.

۳۳- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن يوسف بن الفخّار القرطبى الحافظ

- روى عن عيسى الليثى و ابن عون اللّه أبى جعفر التميمى و أبى محمد الباجى، و قدم مصر، و حج،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۲۶

و جاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة و السلام، و أفتى بها، و افتخر بذلك على أصحابه، و قال: لقد شوورت بمدينة الرسول صلى اللّه عليه و سلم دار مالك بن أنس و مكان شوراه، و لقى جماعة من العلماء و أخذ عنهم، و كان من أهل العلم و الذكاء و الحفظ و الفهم، عارفا بمذاهب الأئمة و أقوال العلماء، ذاكرا للروايات، يحفظ المدونة و النوادر لابن أبى زيد، و يوردها من صدره دون كتاب.

قال ابن حيان مؤرخ الأندلس: توفى الفقيه المشاور الحافظ المستبحر الرواية، الطويل الهجرة فى طلب العلم، الناسك المتقشف بمدينة بلنسية فى ربيع الأول سنة ۴۱۷ لعشر خلون من الشهر، و كان الحفل فى جنازته عظيما، و عاين الناس فيها آية من ظهور أشباه الخطاطيف بها تجللت الجمع زافّة فوق النعش لم تفارق نعشه إلى أن ووري، فتفرقت، و مكث مدة ببلنسية مطاعا عظيم القدر عند السلطان و العامة.

و ذكر جماهر بن عبد الرحمن حديث الطير، و كذا ذكر الحسن بن محمد القبّشى خبر الطير.

قال: و كانت سنه نحو الثمانين سنة، و كان مجاب الدعوة، و ظهرت فى دعوته الإجابة.

و قال أبو عمرو الدانى: إن وفاته يوم السبت لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة و أربعمائة، و دفن يوم الأحد بمدينة بلنسية، و بلغ نحو ست و سبعين سنة، و هو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العاملين بالكتاب و السنة بالأندلس، رحمه اللّه تعالى!.

۳۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عمروس القرطبى

- سمع على بن مفرج و غيره من شيوخ قرطبة، و قدم مصر فأخذ بها عن ابن المهندس و غيره، و حج و دخل العراق، و سمع من أبى بكر الأبهرى و الدارقطنى و جماعة، و عاد إلى الأندلس، و شهر بالعلم و المال، و ولى الأحباس بقرطبة، حدث عنه أبو عمر بن عبد البر و غيره، و مات فى جمادى الآخرة سنة أربعمائة، رحمه اللّه تعالى!.

۳۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح، المعافرى

،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۲۷

المعروف بالأعشى، القرطبى- رحل سنة ۱۷۹ فسمع سفيان بن عيينة و وكيع بن الجراح و يحيى بن سعيد القطان و عبد اللّه بن وهب و جماعة، و كان الغالب عليه الحديث و رواية الآثار، و كان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب إلى مذهب أهل العراق، و توفى سنة ۲۲۱، ذكره ابن يونس و غيره.

۳۶- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن فطيس الغافقى، الإلبيرى

، الزاهد- قال الحميدى فى حقه: هو من أهل الحديث و الحفظ و الفهم و البحث عن الرجال، و له رحلة سمع فيها من محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم و من ابن وهب ابن أخى عبد اللّه بن وهب و غيرهما، و روى بالأندلس عن جماعة منهم بقى بن مخلد و ابن وضاح، و سمع بمكة و غيرها من مائة شيخ، قال ابن الفرضى: كان شيخا نبيلا، ضابطا لكتبه، ثقة فى روايته، صدوقا فى حديثه، و كانت الرحلة إليه بإلبيرة، و بها مات فى شوال سنة ۳۱۹ و هو ابن تسعين سنة، رحمه اللّه تعالى!.

۳۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيّار، القرطبى

- من موالى بنى أمية سمع من أبيه و من بقى بن مخلد و غيره، و رحل سنة ۲۹۴ فسمع بمصر من النسائى، و من أحمد بن حماد زغبة، و سمع بمكة و البصرة و الكوفة و بغداد و دمياط و الإسكندرية و القيروان من مائة و ستين رجلا، قال أبو محمد الباجى: لم أدرك بقرطبة أكثر حديثا منه، و كان عالما بالفقه، متقدما فى علم الوثائق، رأسا فيها، و كان مشاورا، سمع من الناس كثيرا، و كان ثقة صدوقا، و غزا سنة ۳۲۷، و مات ثالث ذى الحجة منها، و مولده سنة ۲۶۳، و قيل: توفى سنة ۳۲۸، قاله ابن يونس و الحميدى.

۳۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشى الفهرى

، عرف بابن رمان، الغرناطى- قرأ على أبى جعفر بن الزبير بها، و قدم إلى القاهرة سنة ۷۲۲، و مات بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام سنة ۷۲۹.

و من شعره قوله: [الوافر]

فديتم خبّرونى كيف صحّت فريضة هالك من غير مين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۲۸

لزيد زوجة و لها ابن أمّ فماتت عنهما لا غير ذين

فحاز البعل ما تركته إرثا و ولّى غيره صفر اليدين

و لا رقّ فديت على أخيها و ليس بكافر يرمى بشين

و ليس معجّلا إرثا بقتل مخافة أن ينال شقاوتين

۳۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن لبّ الشاطبى

- حدث بالقاهرة، و توفى قريبا من سنة ۶۴۰، و هو أحد أصحاب الشيخ أبى الحسن بن الصباغ، و من كلامه: اشتغالك بوقت لم يأت تضييع للوقت الذى أنت فيه، و لعمرى لقد صدق.

۴۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سراقة الشاطبى

بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة، محيى الدين، و يكنى أيضا أبا القاسم و أبا بكر، الأنصارى الشاطبى، المالكى- ولد بشاطبة سنة ۵۹۲، و سمع من أبى القاسم بن بقى، و رحل فى طلب الحديث، فسمع ببغداد من الشيخ أبى حفص عمر السهروردى و أبى طالب القبيطى و أبى حفص الدينورى و جماعة، و سمع بحلب من ابن شداد و غيره، و تولى مشيخة دار الحديث البهادية بحلب، ثم قدم مصر و تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل القصرى سنة ۶۴۲، و بقى بها إلى أن توفى بالقاهرة فى شعبان سنة ۶۶۳، و دفن بسفح المقطم، و كان الجمع كبيرا، و هو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل و كثرة العلم و الجلالة و النبل، و أحد المشايخ الصوفية، له فى ذلك إشارات لطيفة مع الدين و العفاف و البشر و الوقار و المعرفة الجيدة بمعانى الشعر، و كان صالح الفكرة فى حل التراجم، مع ما جبل عليه من كرم الأخلاق، و اطراح التكلف، و رقة الطبع، و لين الجانب.

و من شعره قوله: [الطويل]

نصبت و مثلى للمكارم ينصب و رمت شروق الشّمس و هى تغرّب

و حاولت إحياء النّفوس بأسرها و قد غرغرت يا بعد ما أنا أطلب

و أتعب إن لم تمنح الخلق راحة و غيرى إن لم تتعب الخلق يتعب

مرادى شيء و المقادير غيره و من عاند الأقدار لا شكّ يغلب

و قوله: [الطويل]

إلى كم أمنّى النّفس ما لا تناله فيذهب عمرى و الأمانىّ لا تقضى

و قد مرّ لى خمس و عشرون حجّة و لم أرض فيها عيشتى فمتى أرضى

و أعلم أنّى و الثّلاثون مدّتى حر بمغانى اللّهو أوسعها رفضا

فماذا عسى فى هذه الخمس أرتجى و وجدى إلى أوب من العشر قد أفضى

فيا ربّ عجّل لى حياة لذيذة و إلّا فبادر بى إلى العمل الأرضى

و قال رحمه اللّه تعالى: [مخلع البسيط]

و صاحب كالزّلال يمحو صفاؤه الشّكّ باليقين

لم يحص إلّا الجميل منّى كأنّه كاتب اليمين

و هذا عكس قول المنازى: [مخلع البسيط]

و صاحب خلته خليلا و ما جرى غدره ببالى

لم يحص إلّا القبيح منّى كأنّه كاتب الشّمال

۴۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الفرّيشى

- بكسر الفاء، و تشديد الراء المهملة، بعدها شين معجمة- نسبة إلى فرّيش إحدى مدائن قرطبة.

ولد بغرناطة سنة ۵۵۷، و قرأ بالروايات على أبى القاسم بن غالب، و سمع عليه و على أبى القاسم بن بشكوال و غيره، و سمع بمكة، و حدث بمصر، و عاد إلى الأندلس فمات بقرطبة سنة ۶۳۳، و كان مشهورا بالصلاح، معروفا بإجابة الدعاء، و رعا ثقة زاهدا فاضلا، رحمه اللّه تعالى!.

۴۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن خيرون،

و قيل: محمد بن عمر بن خيرون.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۰

أندلسى، سكن القيروان، و رحل إلى المشرق، و أخذ القراءات بمصر عن محمد بن سعيد الأنماطى و غيره كعبد اللّه بن رجاء و أبى الحسن إسماعيل بن يعقوب الأزرق المدنى، و دخل العراق، و سمع به من أصحاب على بن المدينى و يحيى بن معين، و عاد إلى القيروان، و سمع بها و بقرطبة، و قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية، و كان الغالب على قراءتهم حرف حمزة، و لم يكن يقرأ بحرف نافع إلا الخواص، حتى قدم بها فاجتمع إليه الناس، و رحل إليه أهل القيروان من الآفاق، و كان يأخذ أخذا شديدا على مذهب المشيخة من أصحاب ورش و توفى بشعبان سنة ۳۰۶، و كان رجلا صالحا فاضلا كريم الأخلاق إماما فى القراءات، مشهورا بذلك، ثقة، مأمونا، واحد أهل زمانه و أئمتهم فى علم القرآن، رحمه اللّه تعالى!.

۴۳- و منهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بندار، القيسى، الأندلسى، المالقى.

ولد بمالقة سنة ۶۲۵ و سمع الكثير، و قدم القاهرة حاجا فسمع بها و بدمشق و كتب بخطه كثيرا، و كان سريع الكتابة، سريع القراءة، كثير الفوائد، دينا، خيرا، فاضلا، له مشاركة جيدة فى عدة علوم، توفى شابا بالقاهرة سنة ۶۶۲ رحمه اللّه تعالى!.

۴۴- و منهم أبو بكر محمد الزّهرى، المعروف بابن محرز، البلنسى

.ولد بها سنة ۵۲۹، و قدم مصر فسمع ابن الفضل و غيره، و روى عنه جماعة، و كان أحد رجال الكمال علما و إدراكا و فصاحة و حفظا للفقه و تفننا فى العلوم و متانة فى الأدب، حافظا للغة و الغريب، و له شعر رائق، و دين متين، و أخذ الناس عنه ببلده و بمرسية و إشبيلية و مالقة، و غرناطة فى اجتيازه عليها، و بغيرها من البلاد، و علا صيته، و عرف بالدين و العلم و الفضل، و كان أبو الخطاب يثنى على علمه و دينه، و توفى ببجاية سنة ۶۵۵ عن سنّ عالية، رحمه اللّه تعالى!.

۴۵- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق القاضى أبو الوليد الباجى صاحب التصانيف المشهورة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۱

و قال ابن ماكولا فى حقه: إنه فقيه، متكلم، أديب، شاعر، سمع بالعراق، و درس الكلام و صنف إلى أن مات، و كان جليلا رفيع القدر و الخطر.

و قال غير واحد: إنه ولد سنة ۴۰۳، و ارتحل سنة ۴۲۶، و جاور ثلاثة أعوام ملازما لأبى ذر الهروى الحافظ يخدمه، و رحل إلى بغداد و دمشق، و لقى فى رحلته غير واحد، و تفقه بالقاضى أبى الطيب الطّبرى و غيره.

و قال أبو على بن سكرة: ما رأيت مثل أبى الوليد الباجى، و ما رأيت أحدا على هيئته و سمته و توقير مجلسه، و لما كنت ببغداد قدم ولده أبو القاسم، فسرت معه إلى شيخنا قاضى القضاة الشاشى، فقلت له: أدام اللّه تعالى عزك! هذا ابن شيخ الأندلس، فقال: لعله ابن الباجى، فقلت: نعم، فأقبل عليه.

قال القاضى عياض: و كثرت القالة فى القاضى أبى الوليد لمداخلته الرؤساء، و ولى قضاء أماكن تصغر عن قدره، و كان يبعث إلى تلك النواحى خلفاءه، و ربما أتاها المرة و نحوها، و كان فى أول أمره مقلا حتى احتاج إلى القصد بشعره، و استأجر نفسه مدة مقامه ببغداد فيما سمعته مستفيضا لحراسة درب، و قد جمع ابنه شعره.

قال: و لما قدم الأندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة، إلا أنه كان خارجا عن المذهب، و لم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته و كلامه، و اتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل، و حل بجزيرة ميورقة، فرأس فيها، و اتبعه أهلها، فلما قدم

أبو الوليد كلموه فى ذلك، فدخل إليه، و ناظره و شهر باطله، و له معه مجالس كثيرة.

و لما تكلم أبو الوليد فى حديث الكتابة يوم الحديبية الذى فى البخارى قال بظاهر لفظه، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر الصائغ و كفره بإجازة الكتب على الرسول الأمى صلى اللّه عليه و سلم، و أنه تكذيب للقرآن، فتكلم فى ذلك من لم يفهم الكلام، حتى أثاروا عليه الفتنة و قبّحوا عليه عند العامة ما أتى به، و تكلم به خطباؤهم فى الجمع، و قال شاعرهم: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۲

برئت ممّن شرى دنيا بآخرة و قال: إنّ رسول اللّه قد كتبا

فصنف أبو الوليد رحمه اللّه تعالى رسالة بيّن فيها أن ذلك غير قادح فى المعجزة. فرجع بها جماعة؛ إذ ليس من عرف أن يكتب اسمه فقط بخارج عن كونه أمّيا لأنه لا يسمّى كاتبا، و جماعة من الملوك قد أدمنوا على كتابة العلامة و هم أمّيون، و الحكم للغالب لا للصور النادرة، و قد قال عليه الصلاة و السلام: «إنّا أمّة أمّيّون» أى: أكثرهم كذلك، لندور الكتابة فى الصحابة، و قال تعالى: هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ [الجمعة: ۲] انتهى، و بعضه بالمعنى.

و ذكر ابن بسّام أن أبا الوليد الباجى نشأ و همته فى العلم، و أنه بدأ بالأدب، فبرز فى ميادينه، و جعل الشعر بضاعته، فنال به من كل الرغائب، ثم رحل فما حل بلدا إلا وجده ملآن بذكره، نشوان من قهوتى نظمه و نثره، فمال إلى علم الديانة، فمشى بمقياس، و بنى على أساس، حتى صار كثير من العلماء يسمعون منه، و يرتاحون للأخذ عنه، ثم كر و استقضى فى طريقه بحلب، فأقام بها نحوا من عام.

قال: و بلغنى عن ابن حزم أنه كان يقول: لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى بعد عبد الوهاب إلا مثل أبى الوليد الباجى لكفاهم.

و صنف أبو الوليد كتبا كثيرة منها كتاب «التسديد، إلى معرفة التوحيد» و كتاب «سنن المنهاج، و ترتيب الحجاج» و كتاب «إحكام الفصول، فى أحكام الأصول» و كتاب «التعديل و التجريح، لمن خرّج عنه البخارى فى الصحيح» و كتاب «شرح الموطأ» و هو نسختان: نسخة سماها الاستيفاء، ثم انتقى منها فوائد سماها «المنتقى» فى سبع مجلدات، و هو أحسن كتاب ألف فى مذهب مالك، لأنه شرح فيه أحاديث الموطأ، و فرع عليها تفريعا حسنا، و أفرد منه شيئا سماه «الإيماء»، و قال بعضهم: إنه صنف كتاب «المعانى، فى شرح الموطأ» فجاء عشرين مجلدا عديم النظير، و كان أيضا صنف كتابا كبيرا جامعا. بلغ فيه الغاية سماه «الاستيفاء» و له كتاب «الإيماء» فى الفقه، خمس مجلدات، انتهى.

و من تصانيفه «مختصر المختصر» فى مسائل المدونة، و له كتاب «اختلاف الموطأ» و كتاب «الإشارة، فى أصول الفقه» و كتاب «الحدود» و كتاب «سنن الصالحين» و كتاب «التفسير» لم يتمه، و كتاب «شرح المنهاج» و كتاب «التبيين، لسبيل المهتدين» فى اختصار فرق الفقهاء، و كتاب «السراج» فى الخلاف، و لم يتم، و غير ذلك.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۳

و حجّ الباجى رحمه اللّه تعالى أربع حجج جاور فيها ثلاثة أعوام ملازما لأبى ذر عبد الرحمن بن أحمد الهروى، و كان يسافر معه للسّروات لأن أبا ذر تزوّج من العرب، و سكن بها.

و أبو ذر المذكور هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن غفير الأنصارى المالكى، و يعرف بابن السماك، سمع بهراة و سرخس و بلخ و مرو و البصرة و بغداد و دمشق و مصر، و جاور بمكة، و ألف معجما لشيوخه، و عمل الصحيح، و صنف التصانيف، قال الخطيب: قدم أبو ذر بغداد و أنا غائب، فحدث بها، ثم حج و جاور، ثم تزوّج فى العرب، و سكن السّروات، و كان يحج كل عام و يحدث ثم يرجع، و كان ثقة ضابطا دينا، و قال الحسن بن بقى المالقى: حدثنى شيخى قال: قيل لأبى ذر: من أين تمذهبت بمذهب مالك و رأى الأشعرى مع أنك هروى؟

فقال: قدمت بغداد، و كنت ماشيا مع الدارقطنى، فلقينا أبا بكر بن الطيب، فالتزمه الدارقطنى، و قبّل وجهه و عينيه، فلما افترقنا قلت: من

هـذا؟ قال: هـذا إمام المسلمين، و الـذابّ عن الـدين، القاضـى أبو بكر بن الطيب. فمن ذلك الوقت تكررت إليه و تمذهبت بمذهبه، انتهى.

قلت: هـذا صـريح فى أن القاضـى أبا بكر الباقلانى مالكى، و هو الـذى جزم به غير واحـد، و لـذا ذكره عياض فى المدارك فى جملة المالكيۀ، و كذلك شـيخ السنۀ الإمام أبو الحسن الأشعرى مالكى المذهب فيما ذكره غير واحد من الأئمۀ، و ذكر بعض الشافعيۀ أنهما شافعيان، و اللّه تعالى أعلم.

و قال عبـد الغافر فى تاريـخ نيسابور: كان أبو ذر زاهـدا، و رعا، عالما، سـخيا لا يدخر شـيئا، و صار كبير مشـيخۀ الحرم، مشارا إليه فى التصوف، خرّج على الصـحيح تخريجا حسنا، و كان حافظا، كثير الشيوخ، توفى سنۀ ۴۳۵، و قال أبو على بن سـكرۀ: توفى عقب شوّال سنۀ ۴۳۴، و قـال الخطيب: فى ذى القعـدۀ من سـنۀ أربع و ثلاـثين، رحمه اللّه تعالى! و أكثر نسـخ البخارى الصـحيحۀ بالمغرب إمّا من روايۀ الباجى عن أبى ذر عبد بن أحمد الهروى المذكور، و إمّا من روايۀ أبى على الصّدفى الشهير المعروف بابن سكرۀ بسنده.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۴

و اعلم أن هراۀ المنسوب إليهـا الحافـظ أبو ذر ليست بهراۀ التى وراء النهر نظيرۀ بلـخ، و إنمـا هى هراۀ بنى شـيمانۀ بالحجاز، و بها كان سكنى أبى ذر، و اللّه تعالى أعلم.

رجع إلى القاضـى أبى الوليـد الباجى رحمه اللّه تعالى- ثم إنه- أعنى الباجى- قـدم بغـداد، و أقام بها ثلاثۀ أعوام يدرّس الفقه، و يقرأ الحديث، فلقى بها عدّۀ من العلماء كأبى الطيب الطبرى و الإمام الشـهير أبى إسـحاق الشـيرازى و الصّيمرى و ابن عمروس المالكى، و أقام بالموصل سـنۀ مع أبى جعفر السّمنانى يأخـذ عنه علم الكلام؛ فبرع فى الحديث و علله و رجاله، و فى الفقه و غوامضه و خلافه. و فى الكلام و مضايقه، و تدبج مع الحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى بحيث روى كل واحد منهما عن الآخر، رضـى اللّه تعالى عنهما و نفع بهما! و رجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرۀ سنۀ بعلم جمّ حصّله مع الفقر و التّعفّف.

و ممـا يفتخر به أنه روى عنه حافظـا المغرب و المشـرق أبو عمر بن عبـد البر و الخطيب أبو بكر بن ثابت البغـدادى، و ناهيك بهما، و هما أسنّ منه و أكبر، و أبو عبـد اللّه الحميـدى، و على بن عبد اللّه الصّقلى، و أحمد بن على بن غزلون، و أبو بكر الطرطوشـى، و أبو على بن الحسـين السّبتى، و أبو بحر سفيان بن العاصى، و ممن روى عنه ابنه أبو القاسم أحمد، و كان لما رجع إلى الأندلس فشا علمه، و تهيأت الـدنيا له، و عظم جاهه، و أجزلت له الصّلات، فمات عن مال وافر، و ترسل للملوك، و ولى القضاء بعدۀ مواضع، رحمه اللّه تعالى!.

و أما ما تقـدم عن القاضـى أبى الوليد الباجى من إجراء حديث الكتابۀ على ظاهره فهو قول بعض، و الصواب خلافه، قال القاضـى أبو الفضل عياض: حـدّثنا محمـد بن على المعروف بابن الصـيقل الشاطبى من لفظه، قال: حدثنى أبو الحسن بن مفوز قال: كان أبو محمد بن أحمـد بن الحـاج الهوّارى من أهـل جزيرۀ شـقر ممن لازم الباجى و تفقه عنـده، و كان يميل إلى مـذهب الباجى فى جواز مباشـرۀ النبى صـلى اللّه عليه و سـلم الكتابـۀ بيـده فى حـديث المقاضـاۀ فى الحديبيـۀ على ما جاء فى ظاهر بعض رواياته، و يعجب به، و كنت أنكر ذلك عليه، فلما كان بعد برهۀ أتانى زائرا على عادته، و أعلمنى أن رجلا من إخوانه كان يرى فى النوم أنه بالمدينۀ، و أنه يدخل المسـجد، فيرى قبر النبى صـلى اللّه عليه و سـلم أمامه، فتحدث له قشعريرۀ و هيبۀ عظيمۀ، ثم يراه ينشقّ و يميد، و لا يستقر، فيعتريه منه فزع عظيم، و سألنى عن عبارۀ رؤياه، فقلت: أخشـى على صاحب هذا المنام أن يصف رسول اللّه صـلى اللّه عليه و سـلم بغير صفته، أو ينحله ما ليس له بأصل، أو لعله يفترى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۵

عليه، فسألنى باللّه من أين قلت هذا؟ قلت له: من قول اللّه عز و جل تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ- إلى قوله تعالى- وَلَداً [مريم: ۹۰، ۹۲] فقـال لى: للّه درك يا سـيدى! و أقبل يقبل رأسـى و بين عينى، و يبكى مرۀ و يضـحك أخرى، ثم قال لى: أنا صاحب الرؤيا، و اسـمع

تمامها يشهد لك بصحة تأويلك، قال: إنه لما رأيتنى فى ذلك الفزع العظيم كنت أقول: و اللّه ما هذا إلا أننى أقول و أعتقد أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم كتب، فكنت أبكى و أقول: أنا تائب يا رسول اللّه، و أكرّر ذلك مرارا، فأرى القبر قد عاد إلى هيأته أوّلا، و سكن، فاستيقظت، ثم قال لى: و أنا أشهد أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ما كتب قط حرفا، و عليه ألقى اللّه تعالى، فقلت: الحمد للّه الذى أراك البرهان، فاشكر له كثيرا، انتهى.

و قال ابن الأبار: حدثنى بهذه الحكاية أبو الربيع بن سالم بقراءتى عليه، عن الكاتب أبى بكر عبد الرحمن بن مغاور قراءة عليه، عن القاضى أبى جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن جحدر، عن أبى الحسن طاهر بن مفوز قال: كان أبو محمد- إلى آخرها، و هى أتم من هذه، انتهى.

رجع إلى الباجى- ذكر أبو العرب عبد الوهاب البقسانى بسنده إلى القاضى أبى الوليد الباجى أنه كان يقول، و قد ذكرت له صحبة السلطان: لو لا السلطان لنقلتنى الذر من الظل إلى الشمس، أو ما هذا معناه، انتهى.

و من فوائد الباجى أنه حكى أن الطلبة كانوا يتناوبون مجلس أبى على البغدادى، و اتفق أنه كان يوم مطر و وحل، فلم يحضر من الطلبة سوى واحد، فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال و إتيانه فى تلك الحال أنشده: [البسيط]

دببت للمجد و السّاعون قد بلغوا حدّ النّفوس و ألقوا دونه الأزرا

و كابدوا المجد حتّى ملّ أكثرهم و عانق المجد من وافى و من صبرا

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتّى تلعق الصّبرا

و روى عن القاضى أبى الوليد الباجى رحمه اللّه تعالى الخطيب البغدادى قوله رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۶

إذا كنت أعلم علم اليقين بأنّ جميع حياتى كساعه

فلم لا أكون ضنينا بها و أجعلها فى صلاح و طاعه

و قد ذكرناهما فيما يأتى قريبا من كلام الفتح، لكوننا نقلنا كلامه بلفظه، رحمه اللّه تعالى، و رضى عنه!.

و قال فى القلائد فى حق الباجى رحمه اللّه تعالى، ما صورته: بدر العلوم اللائح، و قطرها الغادى الرائح، و ثبيرها الذى لا يزحم، و منيرها الذى ينجلى به ليلها الأسحم، كان إمام الأندلس الذى تقتبس أنواره، و تنتجع نجوده و أغواره، رحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهرا، و قطف من العلم أزاهرا، و تفنن فى اقتنائه، و ثنى إليه عنان اعتنائه، حتى غدا مملوء الوطاب، و عاد بلح طلبه إلى الإرطاب، فكر إلى الأندلس بحرا لا تخاض لججه، و فجرا لا يطمس منهجه، فتهادته الدول، و تلقته الخيل و الخول، و انتقل من محجر إلى ناظر، و تبدل من يانع بناضر، ثم استدعاه المقتدر بالله فصار إليه مرتاحا، و بدا بأفقه ملتاحا، و هناك ظهرت تواليفه و أوضاعه، و بدا و خده فى سبل الهدى و إيضاعه، و كان المقتدر يباهى بانحياشه إلى سلطانه، و إيثاره لحضرته باستيطانه، و يحتفل فيما يرتبه له و يجريه، و ينزله فى مكانه متى كان يوافيه، و كان له نظم يوقفه على ذاته، و لا يصرفه فى رفث القول و بذاته.

فمن ذلك قوله فى معنى الزهد: [المتقارب]

إذا كنت أعلم علم اليقين بأنّ جميع حياتى كساعه

فلم لا أكون ضنينا بها و أجعلها فى صلاح و طاعه

و له يرثى ابنيه و ماتا مغتربين، و غربا كوكبين، و كانا ناظرى الدهر، و ساحرى النّظم و النثر: [الطويل]

رعى اللّه قبرين استكانا ببلدة هما أسكناها فى السّواد من القلب

لئن غيّبا عن ناظرى و تبوّآ فؤادى لقد زاد التّباعد فى القرب

يقرّ بعينى أن أزور ثراهما و ألصق مكنون التّرائب بالتّرب

و أبكى و أبكى ساكنيها لعلّنى سأنجد من صحب و أسعد من سحب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۷

فما ساعدت ورق الحمام أخا أسى و لا روّحت ريح الصّبا عن أخى كرب

و لا استعذبت عيناى بعدهما كرى و لا ظمئت نفسى إلى البارد العذب

أحنّ و يثنى اليأس نفسى عن الأسى كما اضطرّ محمول على المركب الصّعب

و له يرثى ابنه محمدا: [الكامل]

أ محمّدا، إن كنت بعدك صابرا صبر السّليم لما به لا يسلم

و رزئت قبلك بالنّبىّ محمد و لرزؤه أدهى لدىّ و أعظم

فلقد علمت بأنّنى بك لا حق من بعد ظنّى أنّنى متقدّم

للّه ذكر لا يزال بخاطرى متصرّف فى صبره متحكّم

فإذا نظرت فشخصه متخيّل و إذا أصخت فصوته متوهّم

و بكلّ أرض لى من اجلك لوعة و بكلّ قبر وقفة و تلوّم

فإذا دعوت سواك حاد عن اسمه و دعاه باسمك معول بك مغرم

حكم الرّدى و مناهج قد سنّها لأولى النّهى و الحزن قبل متمّم

و لعمرى إنه لم يوف القاضى أبا الوليد الباجى حقه الواجب المفترض، و وددت أنه مدّ النفس فى ترجمته بعبارة يعترف ببراعتها من سلّم له و من اعترض، فإن ترجمة المذكور مما سطره أفسح مجالا، و أفصح رويّة و ارتجالا، و بالجملة فهو أحد الأعلام بالأندلس، و هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التّجيبى، و ذكره ابن بسّام فى الذخيرة و ابن خلّكان و غير واحد، و أصله من بطليوس، و انتقل جده إلى باجة قرب إشبيلية، و ليس هو من باجة القيروان، و مولده سنة ۴۰۳، و رحل سنة ۴۲۶، فقدم مصر، و سمع بها، و أجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب، و كان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب، و يعقد الوثائق، إلى أن فشا علمه، و تهيأت له الدنيا، و شهرته تغنى عن وصفه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۸

و من نظمه قوله: [الكامل]

ما طال عهدى بالدّيار، و إنّما أنسى معاهدها أسى و تبلّد

لو كنت أنبأت الدّيار صبابتى رقّ الصّفا بفنائها و الجلمد

و له فى المعتضد بن عباد والد المعتمد: [مخلع البسيط]

عبّاد استعبد البرايا بأنعم تبلغ النّعائم

مديحه ضمن كل قلب حتى تغنت به الحمائم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۲۳۸

من أشهر نظمه قوله:

إذا كنت أعلم- البيتين، و قد سبقا

و ممن ذكره أيضا الحجارى فى المسهب، و ابن بشكوال فى الصّلة، و أنه حج أربع حجج، رحمه اللّه تعالى! و توفى فى المريّة لإحدى عشرة بقيت من رجب، و قيل: ليلة الخميس تاسع رجب، و قيل: تاسع عشر صفر، سنة أربع و سبعين و أربعمائة.

و من تواليفه «المنتقى، فى شرح الموطأ» ذهب فيه مذهب الاجتهاد و إيراد الحجج، و هو مما يدل على تبحره فى العلوم و الفنون، و

لما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاما وجد ملوك الطوائف أحزابا مفترقة، فمشى بينهم فى الصلح، و هم يجلّونه فى الظاهر، و يستثقلونه فى الباطن، و يستبردون نزعته، و لم يفد شيئا، فاللّه تعالى يجازيه عن نيته. و لما ناظر ابن حزم قال له الباجى: أنا أعظم منك همة فى طلب العلم، لأنك طلبته و أنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب و طلبته و أنا أسهر بقنديل بائت السوق، فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم و أنت فى تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالى، و أنا طلبته فى حين ما تعلمه و ما ذكرته، فلم أرج به إلا علوّ القدر العلمى فى الدنيا و الآخرة، فأفحمه.

قال عياض: قال لى أصحابه: كان يخرج إلينا للإقراء، و فى يده أثر المطرقة، إلى أن فشا علمه و نوهت الدنيا به، و عظم جاهه، و أجزلت صلاته، حتى مات عن مال وافر، و كان يستعمله الأعيان فى ترسّلهم، و يقبل جوائزهم، و ولى القضاء بمواضع من الأندلس.

و ابن حزم المذكور هو أبو محمد بن حزم الظاهرى، قال ابن حيان و غيره: كان ابن حزم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۳۹

صاحب حديث و فقه و جدل، و له كتب كثيرة فى المنطق و الفلسفة لم يخل فيها من غلط، و كان شافعى المذهب، يناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريا، فوضع الكتب فى هذا المذهب، و ثبت عليه إلى أن مات، و كان له تعلق بالأدب، و شنّع عليه الفقهاء، و طعنوا فيه، و أقصاه الملوك و أبعدوه عن وطنه، و توفى بالبادية عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست و خمسين و أربعمائة.

و قال صاعد فى تاريخه: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، و أوسعهم معرفة، مع توسعه فى علم اللسان و البلاغة و الشعر و السير و الأخبار، أخبرنى ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليفه نحو أربعمائة مجلد، نقله عن تاريخ صاعد الحافظ الذهبى.

قال الذهبى: و هو العلامة أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح، الأموى، مولاهم، الفارسى الأصل، الأندلسى، القرطبى، الظاهرى، صاحب المصنفات، و أول سماعه سنة ۳۹۹، و كان إليه المنتهى فى الذكاء و حدّة الذهن و سعة العلم بالكتاب و السنة و المذاهب و الملل و النّحل و العربية و الآداب و المنطق و الشعر، و مع الصدق و الديانة و الحشمة و السؤدد و الرياسة و الثروة و كثرة الكتب.

قال الغزالى رحمه اللّه تعالى: وجدت فى أسماء اللّه تعالى كتابا لأبى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه و سيلان ذهن، انتهى باختصار.

و على الجملة فهو نسيج وحده، لو لا ما وصف به من سوء الاعتقاد، و الوقوع فى السلف الذى أثار عليه الانتقاد، سامحه اللّه تعالى!.

و ذكر الذهبى أن عمره اثنتان و سبعون سنة، و هو لا ينافى قول غيره «إنه كان عمره إحدى و سبعين سنة و عشرة أشهر» لأنه ولد رحمه اللّه تعالى بقرطبة بالجانب الشرقى فى ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس و بعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان، سنة أربع و ثمانين و ثلاثمائة، بطالع العقرب، و توفى ليومين بقيا من شعبان سنة ۴۵۶، و كان كثير المواظبة على التأليف، و من جملة تآليفه كتاب «الفصل، بين أهل الأهواء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۴۰

و النحل» و كتاب «الصادع و الرادع، على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين و الرد على فرق التقليد» و كتاب «شرح حديث الموطأ، و الكلام على مسائله» و كتاب «الجامع، فى حد صحيح الحديث باختصار الأسانيد و الاقتصار على أصحها» و كتاب «التلخيص و التخليص، فى المسائل النظرية و فروعها التى لا نص عليها فى الكتاب و الحديث» و كتاب منتقى الإجماع، و بيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف» و كتاب «الإمامة و الخلافة، فى سير الخفاء و مراتبها و الندب و الواجب منها» و كتاب «أخلاق النفس» و كتاب «الإيصال، إلى فهم كتاب الخصال» و كتاب «كشف الالتباس، ما بين أصحاب الظاهر و أصحاب القياس» انتهى.

و قال ابن سعيد فى حق ابن حزم، ما ملخصه: الوزير العالم الحافظ أبو محمد على بن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم

الفارسى، و شهرته تغنى عن وصفه و توفى منفيّا بقرية من بلده لبلة، و وصله من ابن عمه أبى المغيرة رسالة فيها ما أوجب أن جاوبه بهذه الرسالة، و هى: سمعت و أطعت، لقوله تعالى: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ [الأعراف: ۱۹۹] و أسلمت و انقدت لقول نبيه عليه الصلاة و السلام: «صل من قطعك، و اعف عمّن ظلمك» و رضيت بقول الحكماء: كفاك انتصارا ممن تعرض لأذاك إعراضك عنه، و أقول: [المتقارب]

تتبّع سواى امرأ يبتغى سبابك إنّ هواك السّباب

فإنّى أبيت طلاب السّفاه و نزّهت عرضى عمّا يعاب

و قل ما بدا لك من بعد ذا و أكثر فإنّ سكوتى خطاب

و أقول: [الطويل]

كفانى بذكر النّاس لى و مآثرى و مالك فيهم يا ابن عمّى ذاكر

عدوّى و أشياعى كثير كذاك من غدا و هو نفّاع المساعى و ضائر

و إنّى و إن آذيتنى و عققتنى لمحتمل ما جاءنى منك صابر

فوقّع له أبو المغيرة على ظهر رقعته: قرأت هذه الرقعة العاقّة، فحين استوعبتها أنشدتنى: [مجزوء الرجز]

نحنح زيد و سعل لمّا رأى وقع الأسل

فأردت قطعها، و ترك المراجعة عنها، فقالت لى نفسى: قد عرفت مكانها، بالله لا قطعتها إلا يده، فأثبت على ظهرها ما يكون سببا إلى صوتها، فقلت: [المتقارب]

نعقت و لم تدر كيف الجواب و أخطأت حتّى أتاك الصّواب

و أجريت وحدك فى حلبة نأت عنك فيها الجياد العراب

و بتّ من الجهل مستصحبا لغير قرى فأتتك الذّئاب

فكيف تبيّنت عقبى الظّلوم إذا ما انقضت بالخميس العقاب

لعمرى ما لى طباع تذمّ و لا شيمة يوم مجد تعاب

أنيل المنى و الظبا سخّط و أعطى الرّضا و العوالى غضاب

و أقول: [الطويل]

و غاصب حقّ أوبقته المقادر يذكّرنى حاميم و الرّمح شاجر

غدا يستعير الفخر من خيم خصمه و يجهل أنّ الحقّ أبلج ظاهر

أ لم تتعلّم يا أخا الظّلم أنّنى برغمك ناه منذ عشر و آمر

تذلّ لى الأملاك حرّ نفوسها و أركب ظهر النّسر و النّسر طائر

و أبعث فى أهل الزّمان شواردا تلينهم و هى الصّعاب النّوافر

فإن أثو فى أرض فإنّى سائر و إن أنا عن قوم فإنّى حاضر

و حسبك أنّ الأرض عندك خاتم و أنّك فى سطح السّلامة عاثر

و لا لوم عندى فى استراحتك الّتى تنفّست عنها و الخطوب فواقر

فإنّى للحلف الّذى مرّ حافظ و للنّزعة الأولى بحاميم ذاكر

هنيئا لكلّ ما لديه فإنّنا عطية من تبلى لديه السّرائر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۴۲

و من شعر أبى محمد بن حزم يخاطب قاضى الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير:

[الطويل]

أنا الشّمس فى جوّ العلوم منيرة و لكنّ عيبى أن مطلعى الغرب

و لو أنّنى من جانب الشّرق طالع لجدّ على ما ضاع من ذكرى النّهب

و لى نحو آفاق العراق صبابة و لا غرو أن يستوحش الكلف الصّبّ

فإن ينزل الرّحمن رحلى بينهم فحينئذ يبدو التّأسّف و الكرب

فكم قائل أغفلته و هو حاضر و أطلب ما عنه تجىء به الكتب

هنالك يدرى أنّ للعبد قصّة و أنّ كساد العلم آفته القرب

فيا عجبا من غاب عنهم تشوّقوا له، و دنوّ المرء من دارهم ذنب

و إنّ مكانا ضاق عنّى لضيّق على أنّه فيح مهامهه سهب

و إنّ رجالا ضيّعونى لضيّع و إنّ زمانا لم أنل خصبه جدب

و منها فى الاعتذار عن مدحه لنفسه:

و لكنّ لى فى يوسف خير أسوة و ليس على من بالنّبىّ ائتسى ذنب

يقول مقال الصّدق و الحقّ إنّنى حفيظ عليم، ما على صادق عتب

و قوله: [البسيط]

لا يشمتن حاسدى إن نكبة عرضت فالدّهر ليس على حال بمتّرك

ذو الفضل كالتّبر يلقى تحت متربة طورا، و طورا يرى تاجا على ملك

و قوله لما أحرق المعتضد بن عباد كتبه بإشبيلية: [الطويل]

دعونى من إحراق رقّ و كاغد و قولوا بعلم كى يرى النّاس من يدرى

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الّذى تضمّنه القرطاس، بل هو فى صدرى

يسير معى حيث استقلّت ركائبى و ينزل إن أنزل و يدفن فى قبرى

و قوله: [الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۴۳

لئن أصبحت مرتحلا بشخصى فقلبى عندكم أبدا مقيم

و لكن للعيان لطيف معنى لذا سأل المعاينة الكليم

و قوله: [الطويل]

و ذى عذل فيمن سبانى حسنه يطيل ملامى فى الهوى و يقول

أمن أجل وجه لاح لم تر غيره و لم تدر كيف الجسم أنت عليل

فقلت له أسرفت فى اللّوم فاتّئد فعندى ردّ لو أشاء طويل

أ لم تر أنى ظاهرىّ، و أنّنى على ما أرى حتّى يقوم دليل

و هو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن مزيد، القرطبى.

قال ابنه أبو رافع الفضل: اجتمع عندى بخط أبى من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة، انتهى.

و أبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور بن أبى عامر، و توفى- كما قال ابن حيان- بذى القعدة سنة اثنتين و أربعمائة، و كان منشؤه و مولده بقرية تعرف بالزاوية.

و حكى أن الحافظ أبا محمد بن حزم قصد أبا عامر بن شهيد فى يوم غزير المطر و الوحل شديد الريح، فلقيه أبو عامر، و أعظم قصده على تلك الحال، و قال له: يا سيدى، مثلك يقصدنى فى مثل هذا اليوم، فأنشده أبو محمد بن حزم بديها: [الطويل]

فلو كانت الدّنيا دوينك لجّة و فى الجوّ صعق دائم و حريق

لسهّل ودّى فيك نحوك مسلكا و لم يتعذّر لى إليك طريق

قال الحافظ ابن حزم: أنشدنى الوزير أبى فى بعض وصاياه لى: [الطويل]

إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن على حالة إلّا رضيت بدونها

و هذا كاف فى فضل الفرع و الأصل، رحم اللّه الجميع.

قال ابن حزم فى «طوق الحمامة»: إنه مر يوما هو و أبو عمر بن عبد البر صاحب «الاستيعاب» بسكة الحطابين من مدينة إشبيلية، فلقيهما شاب حسن الوجه، فقال أبو محمد:

هذه صورة حسنة، فقال له أبو عمر: لم نر إلا الوجه، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك، فقال ابن حزم ارتجالا

و ذى عذل فيمن سبانى حسنه

الأبيات المتقدمة.

و لابن حزم أيضا قوله: [الخفيف]

لا تلمنى لأنّ سبقة لحظ فات إدراكها ذوى الألباب

يسبق الكلب وثبة اللّيث فى العد و ويعلو النّخال فوق اللّباب

و لأبى بكر بن مفوّز جزء يردّ فيه على أبى محمد بن حزم، و فيه قال معرضا: [البسيط]

يا من تعانى أمورا لن تعانيها خلّ التّعانى و أعط القوس باريها

تروى الأحاديث عن كلّ مسامحة و إنّما لمعانيها معانيها

و قيل: إنه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم.

رجع إلى القاضى أبى الوليد الباجى- و من نظمه قوله من مرثية: [الطويل]

أحنّ و يثنى اليأس نفسى على الأسى كما اضطرّ محمول على المركب الصّعب

و من جيد نظمه قوله: [الطويل]

أسرّوا على اللّيل البهيم سراهم فنمّت عليهم فى الشّمال شمائل

متى نزلوا ثاوين بالخيف من منى بدت للهوى بالمأزمين مخايل

فللّه ما ضمّت منى و شعابها و ما ضمّنت تلك الرّبا و المنازل

و لمّا التقينا للجمار و أبرزت أكفّ لتقبيل الحصى و أنامل

أشارت إلينا بالغرام محاجر و باحت به منّا جسوم نواحل

و قال الباجى أبو الوليد رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

مضى زمن المكارم و الكرام سفاه اللّه من صوب الغمام

و كان البرّ فعلا دون قول فصار البرّ نطقا بالكلام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۴۵

و ذيله بعضهم بقوله: [الوافر]

و زال النّطق حتّى لست تلقى فتى يسخو بردّ للسّلام

و زاد الأمر حتّى ليس إلّا سخىّ بالأذى أو بالملام

[۴۶- أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى]

۴۶- و منهم الفقيه العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب الفهرى الطرطوشى صاحب «سراج الملوك»، و يعرف بابن أبى رندقة- بالراء المهملة المفتوحة، و سكون النون- و كفى بسراج الملوك دليلا على فضله.

ذكره ابن بشكوال فى الصلة، و توفى بالإسكندرية فى شعبان، و قيل: جمادى الأولى سنة عشرين و خمسمائة، و زرت قبره بالإسكندرية، و ممن أخذ عنه الحافظ القاضى أبو بكر بن العربى و غيره.

و من نظم الطرطوشى قوله من رسالة: [الطويل]

أقلّب طرفى فى السّماء تردّدا لعلّى أرى النّجم الّذى أنت تنظر

و أستعرض الرّكبان من كلّ وجهة لعلّى بمن قد شمّ عرفك أظفر

و أستقبل الأرواح عند هبوبها لعلّ نسيم الرّيح عنك يخبّر

و أمشى و ما لى فى الطّريق مآرب عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر

و ألمح من ألقاه من غير حاجة عسى لمحة من نور وجهك تسفر

و من نظمه أيضا قوله: [المتقارب]

يقولون ثكلى و من لم يذق فراق الأحبّة لم يثكل

لقد جرّعتنى ليالى الفراق كؤوسا أمرّ من الحنظل

و مما ينسب إليه و كان كثيرا ما ينشده: [المتقارب]

إذا كنت فى حاجة مرسلا و أنت بإنجازها مغرم

فأرسل بأكمه جلّابة به صمم أغطش أبكم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۴۶

ودع عنك كلّ رسول سوى رسول يقال له الدّرهم

و كان كثيرا ما ينشد: [الرمل]

إنّ للّه عبادا فطنا طلّقوا الدّنيا و خافوا الفتنا

فكّروا فيها فلمّا علموا أنّها ليست لحىّ وطنا

جعلوها لجّة و اتّخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

و قال رحمه اللّه تعالى: كنت ليلة نائما بالبيت المقدس إذ سمعت فى الليل صوتا حزينا ينشد: [الطويل]

أخوف و نوم، إنّ ذا لعجيب ثكلتك من قلب فأنت كذوب

أما و جلال اللّه لو كنت صادقا لما كان للإغماض فيك نصيب

قال: فأيقظ النوّام، و أبكى العيون.

و كان رحمه اللّه تعالى زاهدا، عابدا، متورعا، متقللا من الدنيا، قوّالا للحق.

و كان يقول: إذا عرض لك أمران أمر دنيا و أخرى، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا و الأخرى، و له طريقة فى الخلاف.

و دخل مرة على الأفضل بن أمير الجيوش فوعظه، و قال له: إن الأمر الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، و هو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتق اللّه فيما خوّلك من هذه الأمة، فإن اللّه عز و جل سائلك عن النقير و القطمير و الفتيل، و اعلم أن اللّه عز و جل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها فسخر له الإنس و الجن و الشياطين و الطير و الوحوش و البهائم، و سخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، و رفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عز من قائل: هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۹) [ص: ۳۹] فما عدّ ذلك نعمة كما عددتموها، و لا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجا من اللّه عز و جل، فقال: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ [النمل: ۴۰] فافتح الباب، و سهل الحجاب، و انصر المظلوم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۴۷

و كان إلى جانب الأفضل رجل نصرانى فأنشده: [السريع]

يا ذا الّذى طاعته قربة و حقّه مفترض واجب

إنّ الّذى شرفت من أجله يزعم هذا أنّه كاذب

و أشار إلى النصرانى، فأقامه الأفضل من مكانه:

و الطرطوشى- بضم الطاءين- نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس، و قد تفتح الطاء الأولى.

و عبر عنه ابن الحاجب فى مختصره الفقهى فى باب العتق بالأستاذ.

و كان رحمه اللّه تعالى صحب القاضى أبا الوليد الباجى رحمه اللّه تعالى بسرقسطة، و أخذ عنه مسائل الخلاف، و سمع منه، و أجازه، و قرأ الفرائض و الحساب بوطنه، و قرأ الأدب على أبى محمد بن حزم بمدينة إشبيلية، ثم رحل إلى المشرق سنة ست و سبعين و أربعمائة، و دخل بغداد و البصرة فتفقه هناك عند أبى بكر الشاشى و أبى محمد الجرجانى، و سمع بالبصرة من أبى على التّسترى، و سكن الشام مدّة، و درس بها، و كان راضيا باليسير.

و قال الصفدى فى ترجمة الطرطوشى: إن الأفضل بن أمير الجيوش أنزله فى مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد، و كان يكرهه، فلما طال مقامه به ضجر، و قال لخادمه: إلى متى نصبر؟ اجمع لى المباح، فجمعه، و أكله ثلاثة أيام، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه: رميته الساعة، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل، و ولى بعده المأمون بن البطائحى فأكرم الشيخ إكراما كثيرا، و له ألف الشيخ «سراج الملوك» انتهى.

و مقامه- أعنى الطرطوشى- مشهور، و هذه الحكاية تكفى فى ولايته.

و من تآليفه مختصر تفسير الثعالبى، و الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف، و كتاب فى تحريم جبن الروم، و كتاب «بدع الأمور و محدثاتها» و كتاب «شرح رسالة الشيخ ابن أبى زيد».

و ولد سنة إحدى و خمسين و أربعمائة تقريبا، و لما توفى صلى عليه ولده محمد، و دفن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۴۸

رحمه اللّه تعالى قبل الباب الأخضر بإسكندرية، و زرت قبره مرارا، رحمه اللّه تعالى، و رضى عنه، و نفعنا به!.

و كان القاضى عياض ممن استجازه فأجازه و لم يلقه، و شهرته رضى اللّه تعالى عنه تغنى عن الإطناب فيه.

و حكى أنه كتب على «سراج الملوك» الذى أهداه لولى الأمر بمصر: [السريع]

النّاس يهدون على قدرهم لكنّنى أهدى على قدرى

يهدون ما يفنى و أهدى الّذى يبقى على الأيّام و الدّهر

و حكى أنه لما سمع رضى اللّه تعالى عنه منشدا ينشد للوأواء الدمشقى: [مجزوء الكامل]

قمر أتى من غير وعد فى ليلة طرقت بسعد

بات الصّباح إلى الصّبا ح معانقى خدّا بخدّ

يمتار فىّ و ناظرى ما شئت من خمر و شهد

فقال: أو يظن هذا الدمشقى أن أحدا لا يحسن ينظم الكذب غيره؟ لو شئنا لكذبنا مثل هذا، ثم أنشد لنفسه يعارضه: [مجزوء الكامل]

قمر أتى من غير وعد حفّت شمائله بسعد

قبّلته و رشفت ما فى فيه من خمر و شهد

فمزجت مزن السّلسبى ل بزنجبيل مستعدّ

و لثمت فاه من الغرو ب إلى الصّباح المستجدّ

و سكرت من رشفى العقى ق على أقاح تحت رند

فنزعت عن فمه فمى و وضعت خدّا فوق خدّ

و شممت عرف نسيمه ال جارى على مسك و ندّ

و صحوت من ريّا القرن فل بين ريحان و ورد

و ألذّ من وصلى به شكواه وجدا مثل وجدى

و من نظم الطرطوشى قوله أيضا: [المتقارب]

كأن لسانى و المشكلات سنى الصّبح ينحر ليلا بهيما

و غيرى إن رام ما رمته خصىّ يحاول فرجا عقيما

و قوله أيضا: [المتدارك]

اعمل لمعادك يا رجل فالنّاس لدنياهم عملوا

و اذخر لمسيرك زاد تقى فالقوم بلا زاد رحلوا

۴۷- و منهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشى

- وفد إلى المشرق، و ذكره العماد فى «الخريدة» و له فى الآمدى العلى بمصر، و كان يخضب بسواد الرمّان قوله: [الخفيف]

اخلط العفص فيه يا أحوج النّا س إلى العفص حين يعكس عفص

۴۸- و منهم القاضى الشهير الشهيد أبو على الصيرفى

، و هو حسين بن محمد بن فيّره بن حيّون، و يعرف بابن شكّرة، و هو من أهل سرقسطة، سكن مرسية. و روى بسرقسطة عن الباجى و أبى محمد عبد اللّه بن محمد بن إسماعيل و غيرهما، و سمع ببلنسية من أبى العباس العذرى، و سمع بالمريّة من أبى عبد اللّه محمد بن سعدون القروى و أبى عبد اللّه بن المرابط و غيرهما، و رحل إلى المشرق أول المحرم من سنة إحدى و ثمانين و أربعمائة، و حج من عامه، و لقى بمكة أبا عبد اللّه الحسن بن على الطبرى و أبا بكر الطرطوشى و غيرهما، ثم سار إلى البصرة فلقى بها أبا يعلى المالكى و أبا العباس الجرجانى و أبا القاسم بن شعبة و غيرهم، و خرج إلى بغداد فسمع بواسط من أبى المعالى محمد بن عبد السلام الأصبهانى و غيره، و دخل بغداد سنة اثنتين و ثمانين و أربعمائة، فأطال الإقامة بها خمس سنين كاملة، و سمع بها من أبى الفضل بن

خيرون مسند بغداد، و من أبى الحسين المبارك بن عبد الجبار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵۰

الصيرفى، و طراد الزينبى، و الحميدى، و غيرهم، و تفقه عند أبى بكر الشاشى و غيره، ثم رحل منها سنة سبع و ثمانين، فسمع بدمشق من أبى الفتح نصر المقدسى و أبى الفرج الإسفرايني و غيرهما، و سمع بمصر من القاضى أبى الحسن الخلعى و أبى العباس أحمد بن إبراهيم الرازى، و أجاز له الحبال مسند مصر فى وقته و مكثرها، و سمع بالإسكندرية من أبى القاسم الوراق و شعيب بن سعيد و غيرهما، و وصل إلى الأندلس فى صفر من سنة سبعين و أربعمائة، و قصد مرسية، فاستوطنها، و قعد يحدّث الناس بجامعها، و رحل الناس من البلدان إليه، و كثر سماعهم عليه، و كان عالما بالحديث و طرقه، عارفا بعلله، و أسماء رجاله و نقلته، و كان حسن الخط جيد الضبط، و كتب بخطه علما كثيرا، و قيّده، و كان حافظا لمصنفات الحديث، قائما عليها، ذاكرا لمتونها و أسانيدها و رواتها، و كتب منها صحيح البخارى فى سفر، و صحيح مسلم فى سفر، و كان قائما على الكتابين مع مصنّف أبى عيسى الترمذى، و كان فاضلا، ديّنا، متواضعا، حلوما، و قورا، عالما، عاملا، و استقضى بمرسية، ثم استعفى فأعفى، و أقبل على نشر العلم و بثّه.

و قد ذكره أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه لدخوله الشام، قال: و بعد أن استقرت به النوى، و استمرت إفادته بما قيد و روى، رفعته ملوك أوانه، و شفّعته فى مطالب إخوانه، فأوسعته رعيا، و أحسنت فيه رأيا، و من أبنائهم من جعل يقصده، لسماع يسنده، و على وقاره الذى كان به يعرف، ندر له مع بعضهم ما يستطرف، و هو أن فتى يسمى يوسف لازم مجلسه، معطرا رائحته و منظفا ملبسه، ثم غاب لمرض قطعه، أو شغل منعه، و لما فرغ أو أبلّ، عاود ذلك النادى المبارك و المحل، و قبل إفضائه إليه، دلّ طيبه عليه، فقال الشيخ على سلامته من المجون، و خلاصه من الفتون إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ [يوسف: ۹۴] و هى من طرف نوادره، رحمة اللّه عليه.

و لما قلّد قضاء مرسية و عزم عليه صاحب الأمر فيه فر إلى المرية فأقام بها سنة خمس و بعض سنة ست و خمسمائة، و فى سنة ست قبل قضاءها على كره إلى أن استخفى آخر سنة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵۱

سبع فى قصة يطول إيرادها، و لطول مقامه بالمرية أخذ الناس عنه بها، فلما كانت وقعة كتندة كان ممن حضرها ففقد فيها سنة أربع عشرة و خمسمائة، رحمه اللّه تعالى!.

و قال القاضى عياض: و لقد حدثنى الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر أنه قال له: خذ الصحيح، و اذكر أى متن شئت منه أذكر لك سنده، أو أى سند شئت أذكر لك متنه، انتهى.

و ذكر غير واحد أنه حدث ببغداد بحديث واحد، و اللّه أعلم و هو من أبناء الستين.

۴۹- و منهم ابن أبى روح الجزيرى

- و من شعره لما تغرب بالمشرق قوله: [الطويل]

أحنّ إلى الخضراء فى كلّ موطن حنين مشوق للعناق و للضّمّ

و ما ذاك إلّا أنّ جسمى رضيعها و لا بدّ من شوق الرّضيع إلى الأمّ

۵۰- و منهم العالم أبو حفص عمر بن حسن الهوزنى

، الحسيب العالم المحدّث- ذكره ابن بسام فى «الذخيرة» و الحجارى فى «المسهب» و سبب رحلته للمشرق أنه لما تولى المعتضد بن عبّاد خاف منه، فاستأذنه فى الحج سنة ۴۴۴، و رحل إلى مصر، ثم إلى مكة، و سمع فى طريقه كتاب صحيح البخارى، و عنه أخذه

أهل الأنـدلس، و رجع، و سـكن إشبيلية و خدم المعتضد، فقتله و من من شـيء سـلط عليه، و كان قتله يوم الجمعة لإحدى عشـرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ستين و أربعمائة.

و من شعره يحرّضه على الجهاد: [الطويل]

أعبّاد جلّ الرّزء و القوم هجّع على حالة من مثلها يتوقّع

فلقّ كتابى من فراغك ساعة و إن طال فالموصوف للطّول موضع

إذا لم أبثّ الدّاء ربّ شكاية أضعت، و أهل للملام المضيّع

و وصـله بنثر، و هو: و مـا أخطأ السبيـل من أتى البيوت من أبوابهـا، و لاـ أرجأ الـدليل من نـاط الأـمور بأربابهـا، و لرب أمل بين أثناء المحاذير مدمـج، و محبوب فى طى المكاره مدرج، فانتهز فرصـتها فقد بان لك من غيرك العجز، و طبّق مضاربها فقد أمكنك الحزّ، و لا غرو أن يستمطر الغمام فى الجدب، و يستصحب الحسام فى الحرب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵۲

و له: [المديد]

صرّح الشّرّ فلا يستقلّ إن نهلتم جاءكم بعد علّ

بدء صعق الأرض رشّ و طلّ و رياح ثمّ غيم أبلّ

خفّضوا فالدّاء رزء أجلّ و اغمدوا سيفا عليكم يسلّ

و ابنه أبو القاسم هو الذى كان سبب فساد دولة المعتمد بن عباد بسبب قتل المعتضد والده كما مرّ.

۵۱- و منهم أبو عمرو عثمان بن الحسين

، أخو الحافظ أبى الخطاب بن دحيـة الآتى ذكره كان أسنّ من أخيه أبى الخطاب، و كان حافظا للغـة العرب، قيما بها، و عزل الملك الكامـل أبـا الخطاب عن دار الحـديث الكاملـية التى أنشأها بين القصـرين و رتب مكانه أخاه أبا عمرو المـذكور، و لم يزل بها إلى أن توفى سنة ۶۳۴، بالقاهرة، و دفن بسفح المقطم كأخيه، و كان موت أبى عمرو بعد أبى الخطاب بسنة، رحمهما اللّه تعالى!.

۵۲- و منهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم

- من أهـل وادى الحجارة، و يعرف باشـكنهادة، و ارتحل إلى المشـرق لما نبت به حضـرة قرطبـة عنـد تقلب دولها، و تحول ملوكها و خولها، فجال فى الفراق، و قاسى ألم الفراق، و اجتاز بحلب، و أقام بها مقام غريب لم يصف له حلب، و قال: [الرمل]

أين أقصى الغرب من أرض حلب أمل فى الغرب موصول التّعب

حنّ من شوق إلى أوطانه من جفاه صبره لمّا اغترب

جال فى الأرض لجاجا حائرا بين شوق و عناء و نصب

كلّ من يلقاه لا يعرفه مستغيثا بين عجم و عرب

لهف نفسى أين هاتيك العلا وا ضياعاه و يا غبن الحسب

و الّذى قد كان ذخرا و به أرتجى المال و إدراك الرّتب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵۳

صار لى أبخس ما أعددته بين قوم ما دروا طعم الأدب

يا أحبّاى اسمعوا بعض الّذى يتلقّاه الطّريد المغترب

و ليكن زجرا لكم عن غربة يرجع الرّأس لديها كالذّنب

و احملوا طعنا و ضربا دائما فهو عندى بين قومى كالضّرب

و لئن قاسيت ما قاسيته فبما أبصر لحظى من عجب

و لقد أخبركم أن ألتقى بكم حتّى تقولوا قد كذب

و اجتاز بدمشق فقال من أبيات رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

دمشق جنّة الدّنيا حقيقا و لكن ليس تصلح للغريب

بها قوم لهم عدد و مجد و صحبتهم تؤول إلى حروب

ثم إنه ودع الشرق بلا سلام، و حل بحضرة دانية لدى ملكها مجاهد العامرى فى بحبوحة عزّ لا يخشى فيه الملام، و استقبل الأندلس بخاطر جديد، و نال بها بعد من بلوغ الآمال ما ليس له عليه مزيد، و قال: [الطويل]

و كم قد لقيت الجهد قبل مجاهد و كم أبصرت عينى و كم سمعت أذنى

و لاقيت من دهرى و صرف خطوبه كما جرت النّكباء فى معطف الغصن

فلا تسألونى عن فراق جهنّم و لكن سلونى عن دخولى إلى عدن

و له من كتاب: و حامل كتابى- سلمه اللّه تعالى و أعانه!- ممن أخنى عليه الزمان، و أدار عليه و ما صحا إلى الآن كؤوس الهوان، و قد قصد على بعد جنابك الرحيب الخصيب، قصد الحسن محلّ الخصيب و يمم جناب ابن طاهر حبيب، و إنى لأرجو أن يرجع منك رجوع نصيب عن سليمان، و يستعين فى شكرك بكل لسان، و أنت عليم بأن الثناء هو الخلف، و قد قال الأول: [مجزوء الخفيف]

أرى النّاس أحدوثة فكونى حديثا حسن

و أنا القائل: [الطويل]

فلا تزهدن فى الخير قد مات حاتم و أخباره حتّى القيامة تذكر

و مع هذا فهو عليه بقدر ما يحتمل من التكليف هذا الأوان، عارف وجوه الأعذار غير ذى عجل فى العتب قبل البيان، و عند سيدى من التهدى للإيفاء، ما يحقق فيه جميل الرجاء، دامت أرجاؤه مؤملة، و لا برحت نعمه سابغة مكملة.

۵۳- و منهم الكاتب أبو عبد اللّه محمد بن عبد ربه المالقى

- و قال بعضهم: إنه من الجزيرة الخضراء، له رحلة إلى الديار المصرية، صنع فيها مقامه يقول فيها: [الطويل]

و فى جنبات الرّوض نهر و دوحة يروقك منها سندس و نضار

تقول وضوء البدر فيه مغربا ذراع فتاة دار فيه سوار

و من شعره: [السريع]

ما كلّ إنسان أخ منصف و لا اللّيالى أبدا تسعف

فلا تضع إن أمكنت فرصة و اصحب من الإخوان من ينصف

و انتف من الدّهر و لو ريشة فإنّما حظّك ما تنتف

و قوله يرثى السيد أبا عمران ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ملك المغرب و الأندلس: [الطويل]

بجيد المعالى أىّ عقد تبدّدا و صدر العوالى أىّ رمح تقصّدا

و لمّا دهت خيل الشّقىّ فجاءة و سال العدا بحرا من الموت مزبدا

شهدت بوجه كالغزالة مشرقا و إن كان وجه الشّمس بالنّقع مربدا

عزائم صدق ليس تصرف هكذا إلى الموت تسعى أو على الموت يعتدى

و كان السيد أبو عمران المرثى قتله الميورقى صاحب فتنة إفريقية فى الهزيمة المشهورة على تاهرت، و جمع ابن عبد ربه المذكور شعر السيد أبى الربيع بن عبد اللّه بن أمير

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵۵

المؤمنين عبد المؤمن بن على، و كان ابن عبد ربه المذكور كاتبا للسيد أبى الربيع سليمان المذكور، و لما أنشد لبعض الشعراء: [المنسرح]

حاكت يمين الرّياح محكمة فى نهر واضح الأسارير

فكلّما ضعّفت به حلقا قام لها القطر بالمسامير

أنشد لنفسه: [البسيط]

بين الرّياض و بين الجو معترك بيض من البرق أو سمر من السّمر

إن أوترت قوسها كفّ السّماء رمت نبلا من الماء فى زغف من الغدر

لأجل ذاك إذا هبّت طلائعها تدرّع النّهر و اهتزّت قنا الشّجر

و اجتمع ابن عبد ربه المذكور فى رحلته بالسعيد بن سناء الملك، و أخذ عنه شيئا من شعره، و رواه بالمغرب.

۵۴- و منهم الشاعر الأديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان، المالقىّ.

و من نظمه فى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قصيدة رحمه اللّه تعالى:

[الطويل]

و فى صهوات المقربات و فى القنا حصون حمى لا فى هضاب المعاقل

و منها: [الطويل]

و لا ملك يأتى كيوسف آخرا كما لم يجىء مثل له فى الأوائل

۵۵- و منهم الحافظ أبو الخطاب بن دحية

، و هو مجد الدين عمر بن الحسن بن على بن محمد بن فرح بن خلف، الظاهرى المذهب، الأندلسى.

كان من كبار المحدثين، و من الحفاظ الثّقات الأثبات المحصلين، استوطن بجاية فى مدة أبى عبد اللّه بن يومور، و روى بها، و أسمع، و كان من أحفظ أهل زمانه باللغة، حتى صار حوشىّ اللغة عنده مستعملا غالبا، و لا يحفظ الإنسان من اللغة حوشيّها إلا و ذلك أضعاف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵۶

أضعاف محفوظه من مستعملها، و كان قصده- و اللّه تعالى أعلم- أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب و انفردوا بالطريق الآخر، و لو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس، و كذا الشيخ أبو الخطاب ابن دحية له رسائل و مخاطبات كلها مغلقات مقفلات، و كان- رحمه اللّه تعالى!- إذا كتب اسمه فيما يجيزه أو غير ذلك يكتب «ابن دحية و دحية معا المتشبّه به جبريل و جبرائيل»، و يذكر ما ينيف على ثلاث عشرة لغة مذكورة فى جبريل، و يقول عند فاطر السماوات و الأرض، و هذا فرع انفرد به عمن عداه من أهل العلم.

قال صاحب عنوان الدرايـة: رأيت له تصـنيفا فى رجال الحـديث لا بأس به، و ارتحل إلى المشـرق فى دولة بنى أيوب، فرفعوا شأنه، و قربوا له مكـانه، و جمعوا له علمـاء الحـديث، و حضـروا له مجلسا أقروا له بالتقـدم، و عرفوا أنه من أولى الضـبط و الإتقان و التفهم، و ذكروا أحـاديث بأسانيـد حولـوا متونهـا، فأعـاد المتـون المحولـة، و عرّف عن تغييرهـا، ثم ذكر الأحـاديث على مـا هى عليه من متونها الأصلية، و مثل هذه الحكاية اتفق لأبى عمر بن عات فى كتاب مسلم بمراكش ببيت الطلبة منها.

و من شعر أبى الخطاب ما كتب به إلى الكامل بن العادل بن أيوب: [الكامل]

ما لى أسائل برق بارق عنكم من بعد ما بعدت ديارى منكم

فمحلّكم قلبى و أنتم بالحشا لا بالعقيق و لا برامة أنتم

و أنا المقيم على الوفاء بعهدكم يا مالكين، و فيتم أو خنتم

و هى طويلة، و منها:

رفعت له الأملاك منه سجيّة ملك السّماك الرّمح و هو محرّم

و منها أيضا:

لذوى النّهى و الفهم سرّ حكومة قد حار فيها كاهن و منجّم

فاقصد مرادك حيث سرت مظفّرا و اللّه يكلأ و الكواكب نوّم

و ليهنك الشّهر السّعيد تصومه و تفوز فيه بالثّواب و تغنم

فلأنت فى الدّنيا كليلة قدره قدرا، فقدرك فى الملوك معظّم

فأجابه السلطان مكافأة بنثر و نظم، فمن النظم: [الطويل]

و هيّجن شوقى للأجارع باللّوى و أين اللّوى منّى و أين الأجارع

مرابع لو أنّ المرابع أنجم لكان نجوم الأرض تلك المرابع

رعى اللّه أيّاما بها و لو أنّها إلىّ و قد ولّى الشّباب رواجع

ليالى لا ليلى إذا رمت وصلها يلوح لها من صبح شيبى مواقع

فى جملة أبيات.

و من النثر: الحمـد للّه ولى الحمد، وقف ولده على الأبيات التى حسن شـعرها، وصـفا درّها، و ليس من البديع أن يقذف البحر درا، أو ينظم الخليـل شـعرا، و قـد أخـذت الورقـة لأـتنزه فى معانيها، و أسـتفيد بما أودعه فيها، فاللّه تعالى لا يخلينا من فوائـد فكرته، و صالح أدعيته، و السلام.

فأجابه الحافظ أبو الخطاب عن الأبيات بقوله من قصيدة: [الطويل]

شجتنى شواج فى الغصون سواجع ففاضت هوام للجفون هوامع

و أكثر فيها من التغزل، إلى أن قال: [الطويل]

و لا حاكم أرضاه بينى و بينها سوى حاكم دهرى له اليوم طائع

يدافع عنّى الضّيم قائم سيفه إذا عزّ من للضّيم عنّى يدافع

هو الكامل الأوصاف و الملك الّذى تشير إليه بالكمال الأصابع

و بيض أياديه الكريمة فى الورى قلائد فى الأعناق و هى الصّنائع

و يوماه يوماه اللذان هما هما إذا جمعت غلب الملوك المجامع

و منها:

فما روضة غنّا بها مرّت الصّبا و نشر شذاها الطّيّب النّشر ذائع

له من شذىّ الزّهر برد مفوّف أتيح له من أرض صنعاء صانع

فراقك منها أخضر الثّوب ناضر و شاقك منها أصفر اللّون فاقع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵۸

و أحمر قان للخدود مورّد و أبيض كالثّغر المفلّج ناصع

بأحسن من توشيع مدحى الّذى له بدائع من وشى البديع و شائع

و ما ضائع من نشر شكرى الّذى به تأرّجت الأرجاء عندك ضائع

و لو لم يقيّدنى نداك لكان لى مجال فسيح فى البسيطة واسع

فأنت الّذى لى و الأعادى كثيرة فويق مكان النّجم فى الأفق دافع

و منها:

بقيت لعبد جدّه دحية الذى يشابه جبريل له و يضارع

و جدّته الزّهراء بنت محمّد عليه السّلام الدّائم المتتابع

و لا عدمت منك الممالك مالكا يقرّب للآمال ما هو شاسع

و منك عيون للمهمّات يقظ و عنك عيون الحادثات هواجع

و قال المقريزى فى ترجمة الملك الكامل: إنه كان مشغوفا بسماع الحديث النبوى، و تقدم عنده أبو الخطاب بن دحية، و بنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة، انتهى.

و قال أبو الخطاب بن دحية: أنشدنى أبو القاسم السّهيلى لنفسه، و ذكر أنه ما سأل اللّه تعالى بها شيئا إلا أعطاه: [الكامل]

يا من يرى ما فى الضّمير و يسمع أنت المعدّ لكلّ ما يتوقّع

يا من يرجّى للشّدائد كلها يا من إليه المشتكى و المفزع

يا من خزائن رزقه فى قول كن امنن فإنّ الخير عندك أجمع

ما لى سوى فقرى إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقرى أدفع

ما لى سوى قرعى لبابك حيلة فلئن رددت فأىّ باب أقرع

و من الّذى أدعو و أهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يمنع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۵۹

حاشا لجودك أن يقنّط عاصيا الفضل أجزل و المواهب أوسع

و من نظم السّهيلى رضى اللّه تعالى عنه: [الطويل]

أسائل عن جيرانه من لقيته و أعرض عن ذكراه و الحال تنطق

و ما لى إلى جيرانه من صبابة و لكنّ نفسى عن صبوح ترقّق

و له: [الكامل]

لمّا أجاب بلا طمعت بوصله إذ حرف لا حرفان معتنقان

و كذا نعم بنعيم وصل آذنت فنعم و لا فى اللّفظ متفقان

ولد أبو الخطاب بن دحية فى ذى القعدة سنة سبع- أو ثمان- و أربعين و خمسمائة و توفى فى انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع

الأول سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة بالقاهرة، و دفن بسفح المقطم.

و تكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار، و قدره أجل مما ذكروه، و قد روى رحمه اللّه تعالى بالمغرب و مصر و الشام و العراق و خراسان و عراق العجم، و كل ذلك فى طلب الحديث، و سمع بالأندلس من ابن بشكوال و ابن زرقون فى جمع كثير، و ببغداد من أبى الفرج بن الجوزى، و بأصبهان من أبى جعفر الصيدلانى معجم الطبرانى و من غيره، و بنيسابور من أبى سعيد بن الصفار و منصور بن الفراوى و المؤيد الطوسى، و حصل الكتب و الأصول، و حدث، و أفاد، و كان من أعيان العلماء، و مشاهير الفضلاء، متقنا لعلم الحديث و ما يتعلق به، عارفا بالنحو و اللغة و أيام العرب و أشعارها.

و صنف كتبا كثيرة مفيدة جدا، منها كتاب «التنوير، فى مولد السراج المنير» صنفه عند قدومه إلى إربل سنة أربعة و ستمائة، و هو متوجه إلى خراسان لما رأى ملك إربل مظفر الدين كوكبرى معتنيا بعمل المولد النبوى فى شهر ربيع الأول كل عام، مهتما به غاية الاهتمام،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۰

و كمله و قرأه عليه بنفسه، و ختمه بقصيدة طويلة، فأجازه بألف دينار، و صنف أيضا «العلم المشهور، فى فضائل الأيام و الشهور»، و «الآيات البينات، فى ذكر ما فى أعضاء رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من المعجزات» و كتاب «شرح أسماء النبى صلى اللّه عليه و سلم» و كتاب «النبراس، فى أخبار خلفاء بنى العباس» و كتاب «الإعلام المبين، فى المفاضلة بين أهل صفّين».

و ولى قضاء بلد أصوله دانية مرتين، ثم صرف عن ذلك لسيرة نسبت إليه، فرحل عنها و حدث بتونس سنة ۵۹۵، ثم حج و كتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان و نيسابور، و عاد إلى مصر، فاستأدبه العادل لولده الكامل، و أسكنه القاهرة، فنال بذلك دنيا عريضة، ثم زادت حظوته عند الكامل، و أقبل عليه إقبالا عظيما و كان يعظمه و يحترمه، و يعتقد فيه الخير، و يتبرك به، حتى كان يسوى له المداس حين يقوم، و هو بلنسى كما قاله ابن خلكان و غيره، و بلنسية مشهورة بشرق الأندلس ثلث سنة بالتصحيف.

۵۶- و منهم: خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ

، الحافظ، الأندلسى.

رحل إلى المشرق، و كان حافظا فهما عارفا بالرجال، حدث حديث مالك و شعبة و أشياء فى الزهد، و سمع بمصر أبا الحسن بن الورد البغدادى و مسلم بن الفضل و الحسن بن رشيق و جماعة، و سمع بدمشق على بن أبى العقب و أبا الميمون بن راشد و بمكة من بكير الحداد و أبى الحسن الخزاعى و الأجرى، و بقرطبة من أحمد بن يحيى بن الشاهد و محمد بن معاوية، و توفى سنة ۳۹۳.

۵۷- و منهم: خلف بن سعيد بن عبد اللّه بن زرارة أبو القاسم بن المرابط، الكلبى،

من ذرية الأبرش الكلبى، و يعرف بالمبرقع، المحتسب، القرطبى.

رحل إلى المشرق مرتين، أولاهما سنة ۳۳۳، و هو ابن ثلاث و عشرين سنة و سمع أبا سعيد بن الأعرابى و ابن الورد، و أبا بكر الآجرى، و روى عنه أبو إسحاق بن شنظير و أبو جعفر الزهراوى، و قال ابن شنظير: إنه توفى فى نحو الأربعمائة رحمه اللّه تعالى، و رضى عنه!.

۵۸- و منهم: سابق فضلاء زمانه، أبو الصّلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصّلت الإشبيلى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۱

يقال: إن عمره ستون سنة، منها عشرون فى بلده إشبيلية، و عشرون فى إفريقية عند ملوكها الصّنهاجيين، و عشرون فى مصر محبوسا فى

خزانة الكتب، و كان وجّهه صاحب المهدية إلى ملك مصر فسجن بها طول تلك المدة فى خزانة الكتب، فخرج فى فنون العلم إماما، و أمتن علومه الفلسفة و الطب و التلحين، و له فى ذلك تواليف تشهد بفضله و معرفته، و كان يكنى بالأديب الحكيم، و هو الذى لحن الأغانى الإفريقية.

قال ابن سعيد: و إليه تنسب إلى الآن، و ذكره العماد فى «الخريدة» و له كتاب «الحديقة» على أسلوب «يتيمة الثعالبى» و توفى سنة ۵۲۰، و قيل: سنة ۵۲۸، بالمهدية، و قيل: مستهل السنة بعدها، و دفن بها.

و له فيمن اسمه واصل: [الكامل]

يا هاجرا سمّوه عمدا و اصلا و بضدّها تتبيّن الأشياء

ألغيتنى حتّى كأنّك واصل و كأنّنى من طول هجرى الرّاء

و قوله، و هو من بدائعه: [الكامل]

لا غرو أن سبقت لهاك مدائحى و تدفّقت جدواك ملء إنائها

يكسى القضيب و لم يحن إثماره و تطقطق الورقاء قبل غنائها

و قال فى الأفضل: [الكامل]

تردى بكلّ فتى إذا شهد الوغى نثر الرّماح على الدّروب كعوبا

قد لوّحته يد الهواجر فاغتدى مثل القناة قضافة و شحوبا

تخذوا القنا أشطانهم و استنبطوا فى كلّ قلب بالطّعان قليبا

و منها: [الكامل]

تعطى الّذى أعطتكه سمر القنا أبدا فتغدو سالبا مسلوبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۲

و منها:

و أنا الغريب مكانه و بيانه فاجعل صنيعك فى الغريب غريبا

و له: [الكامل]

و مهفهف شربت محاسن وجهه ما مجّه فى الكاس من إبريقه

ففعالها من مقلتيه، و لونها من وجنتيه، و طعمها من ريقه

أخذه من ابن حيّوس، و قصر عنه، فى قوله: [الكامل]

و مهفهف يغنى بلحظ جفونه عن كاسه الملأى و عن إبريقه

فعل المدام و لونها و مذاقها فى مقلتيه و وجنتيه و ريقه

و لأبى الصلت فيمن اسمه محسن: [مجزوء الخفيف]

أيّها الظّالم المسى ء مدى دهره بنا

ما لهم أخطئوا الصوا ب فسمّوك محسنا

و له فى لابس قرمزية حمراء: [المنسرح]

أقبل يسعى أبو الفوارس فى مرأى عجيب و منظر أنق

أقبل فى قرمزيّة عجب قد صبغت لون خدّه الشّرق

كأنّما جيده و غرّته من دونها إذ بدون فى نسق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۲۶۲

عمود فجر من فوقه قمر دارت به قطعة من الشّفق

و له فى ثقيل و قد أجاد: [الخفيف]

لى جليس عجبت كيف استطاعت هذه الأرض و الجبال تقلّه

أنا أرعاه مكرها و بقلبى منه ما يقلق الجبال أقلّه

فهو مثل المشيب أكره مرآ ه و لكن أصونه و أجلّه

أخذه من قول أبى الحسن جعفر بن الحاج الميورقى، و هما فى عصر واحد: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۳

لى صاحب عميت علىّ شؤونه حركاته مجهولة و سكونه

يرتاب بالأمر الجلىّ توهّما فإذا تيقّن نازعته ظنونه

إنّى لأهواه على شرقى به كالشّيب تكرهه و أنت تصونه

و أوصى أن يكتب على قبره أبو الصلت المذكور مما نظمه قبل موته: [الطويل]

سكنتك يا دار الفناء مصدّقا بأنّى إلى دار البقاء أصير

و أعظم ما فى الأمر أنّى صائر إلى عادل فى الحكم ليس يجور

فيا ليت شعرى كيف ألقاه عندها و زادى قليل و الذنوب كثير

فإن أكُ مجزيّا بذنبى فإنّنى بشرّ عقاب المذنبين جدير

و إن يكُ عفو ثمّ عنّى و رحمة فثمّ نعيم دائم و سرور

و له أيضا: [الطويل]

إذا كان أصلى من تراب فكلّها بلادى، و كلّ العالمين أقاربى

و لا بدّ لى أن أسأل العيس حاجة تشقّ على شمّ الذّرا و الغوارب

و قال: [الكامل]

دبّ العذار بخدّه ثمّ انثنى عن لثم مبسمه البرود الأشنب

لا غرو أن خشى الرّدى فى لثمه فالرّيق سمّ قاتل للعقرب

و قد ذكروا أن من خواصّ ريق الإنسان أنه يقتل العقرب، و هو مجرب.

و قال: [السريع]

لا تدعنى و لتدع من شئته إليك من عجم و من عرب

فنحن أكّالون للسّحت فى ذراك سمّاعون للكذب

و قال: [الكامل]

لا تسألنّى عن صنيع جفونها يوم الوداع وسل بذلك من نجا

لو كنت أملك خدّها للثمته حتّى أعيد به الشّقيق بنفسجا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۴

أو كنت أهجع لاحتضنت خيالها و منعت ضوء الصّبح أن يتبلّجا

و بثثت فى الظّلماء كحل جفونها و عقدت هاتيك الذّوائب بالدّجا

و قال مهنّئا بمولود: [السريع]

يلوح فى المهد على وجهه تجهّم البأس و بشرى النّدى

و الشّمس و البدر إذا استجمعا لم يلبثا أن يلدا فرقدا

فابق له حتّى ترى نجله و إن عرا خطب فنحن الفدا

قال ابن سعيد: و هذا البيت الأخير من أثقل الشعر يتطير من سماعه، و تركه أولى و قال رحمه اللّه تعالى فى الرصد: [البسيط]

فذا غدير، و ذا روض، و ذا جبل، فالضّبّ و النّون و الملّاح و الحادى

۵۹- و منهم الفقيه أبو محمد عبد اللّه بن يحيى بن محمد بن بهلول السّرقسطى.

ذكره العماد الأصبهانى فى «الخريدة» و ذكره السمعانى فى الذيل، و أنه دخل بغداد فى حدود سنة ست عشرة و خمسمائة.

و من شعره: [الطويل]

أيا شمس إنّى إن أتتك مدائحى و هنّ لآل نظّمت و قلائد

فلست بمن يبغى على الشّعر رشوة أبى ذاك لى جد كريم و والد

و أنّى من قوم قديما و محدثا تباع عليهم بالألوف القصائد

۶۰- و منهم الفقيه المقرئ أبو عامر التيارى

.من رجال «الذخيرة» رحل إلى المشرق، و قرأ على أبى جعفر الدباجى كتابه فى العروض و سائر كتبه، و لقى شيخ القيروان فى العربية ابن القزاز و أديبها الحصرى.

و أخبر عن نفسه أنه كان بين يديه تلميذ له و سيم، فمر به أبو جعفر التجانى بسحاءة كتب له فيها و خلاها بين يديه، و هو قد غلب النوم عليه، فقال: [مجزوء الكامل]

يا نائما متعمّدا إبصار طيف حبيبه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۵

هو جوهر فاثقبه إنّ الطّيب فى مثقوبه

أو أركبنّى ظهره إن لم تقل بركوبه

فلما قرأها علم أنها للتّجانى، فكتب تحتها: [مجزوء الكامل]

يا طالبا أضحى حجا ب دون ما مطلوبه

لو لم يكن فى ذاك إث م لم أكن أسخو به

إنّى أغار عليه من أثوابه و رقيبه

و أنشد يوما فى حلقته لابن الرومى فى خبّاز: [البسيط]

إن أنس لا أنس خبّازا مررت به يدحو الرّقاقة و شك اللّمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفّه كرة و بين رؤيتها قوراء كالقمر

إلّا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

فقال بعض تلامذته: أما إنه لا يقدر على الزيادة على هذا، فقال: [البسيط]

فكاد يضرط إعجابا برؤيتها و من رأى مثل ما أبصرت منه خرى

فضحك من حضر، و قال: البيت لائق بالقطعة، لو لا ما فيه من ذكر الرجيع، فقال:

إن كان بيتى هذا ليس يعجبكم فعجّلوا محوه أو فالعقوه طرى

۶۱- و منهم الأديب الطبيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى.

مطبوع فى الشعر و التوشيح، قال ابن سعيد: اجتمعت به فى القاهرة مرارا بمجلس الأمير جمال الدين أبى الفتح موسى بن يغمور بن جلدك و فى غيره، و توفى فى مارستان القاهرة.

و من شعره: [الكامل]

أمّا الغراب فإنّه سبب النّوى لا ريب فيه و للنّوى أسباب

يدعو الغراب و بعد ذاك يجيبه جمل و تعوى بعد ذاك ذئاب

لا تكذبنّ فهذه أسبابه لكنّ منها بدأة و جواب

[۶۲- أبو بكر محمد بن يوسف المعروف (بابن مسدى)]

۶۲- و منهم الإمام المحدث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن موسى، الأندلسى، المعروف بابن مسدى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۶

و هو من الأئمة المشهورين بالمشرق و المغرب، قال رحمه اللّه تعالى: أنشدنى رئيس الأندلس و أديبها أبو الحسن سهل بن مالك الأزدى الغرناطى لنفسه سنة ۶۳۷ فى شوّال بداره بغرناطة: [البسيط]

منغّص العيش لا يأوى إلى دعة من كان ذا بلد أو كان ذا ولد

و السّاكن النّفس من لم ترض همّته سكنى مكان و لم يسكن إلى أحد

۶۳- و منهم الإمام الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن فتّوح بن عبد اللّه الأزدى الحميدى

، نسبة لجده حميد الأندلسى.

ولد أبوه بقرطبة، و ولد هو بالجزيرة بليدة بالأندلس، قبل العشرين و أربعمائة، و كل يحمل على الكتف للسماع سنة ۴۲۵، فأول ما سمع من الفقيه أبى القاسم أصبغ، قال: و كنت أفصح من يقرأ عليه، و كان قد لقى ابن أبى زيد و قرأ عليه و تفقه، و روى عنه رسالته و مختصر المدوّنة، و رحل سنة ۴۴۸، و قدم مصر و سمع بها من الضّرّاب و القضاعى و غير واحد، و كان سمع بالأندلس من ابن عبد البر و ابن حزم و لازمه و قرأ عليه مصنفاته و أكثر من الأخذ عنه، و شهر بصحبته و صار على مذهبه إلا أنه لم يكن يتظاهر به، و سمع بدمشق و غيرها، و روى عن الخطيب البغدادى و كتب عنه أكثر مصنفاته، و سمع بمكة من الزنجانى، و أقام بواسط مدّة بعد خروجه من بغداد، ثم عاد إلى بغداد و استوطنها و كتب بها كثيرا من الحديث و الأدب و سائر الفنون، و صنف مصنفات كثيرة، و علق فوائد، و خرج تخاريج للخطيب و لغيره، و روى عنه أبو بكر الخطيب أكثر مصنفاته و ابن ماكولا، و كان إماما من أئمة المسلمين فى حفظه و معرفته و إتقانه و ثقته و صدقه و نبله و ديانته و ورعه و نزاهته، حتى قال بعض الأكابر ممن لقى الأئمة: لم تر عيناى مثل أبى عبد اللّه الحميدى فى فضله و نبله و نزاهة نفسه و غزار علمه و حرصه على نشر العلم و بثه فى أهله، و كان ورعا ثقة إماما فى علم الحديث و علله و معرفة متونه و رواته، محققا فى علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث، متبحّرا فى علم الأدب و العربية، و من تصانيفه كتاب «جذوة المقتبس، فى أخبار علماء الأندلس» و كتاب «تاريخ الإسلام» و كتاب «من ادعى الأمان، من أهل الإيمان» و كتاب «الذهب المسبوك، فى وعظ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۷

الملوك» و كتاب «تسهيل السبيل، إلى علم الترسيل» و كتاب «مخاطبات الأصدقاء، فى المكاتبات و اللقاء» و كتاب «ما جاء من النصوص و الأخبار، فى حفظ الجار» و كتاب «ذم النميمة» و كتاب «الأمانى الصادقة» و غير ذلك من المصنفات، و «الأشعار الحسان، فى المواعظ و الأمثال» و كان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل فى الحر و يجلس فى إجانة ماء يتبرد به، و من مشهور مصنفاته كتاب «الجمع بين الصحيحين».

و ذكره الحجارى فى المسهب و قال عنه: إنه أظهر العلم فى طرق ميورقة بعد ما كانت عطلاء من هذا الشأن، و ترك لها فخرا تبارى به خواص البلدان، و هو من علماء أئمة الحديث، و لازم أبا محمد بن حزم من الأندلس و استفاد منه، و رحل إلى بغداد، و بها ألف كتاب الجذوة، و من شعره قوله رضى اللّه تعالى عنه. [الطويل]

ألفت النّوى حتّى أنست بوحشها و صرت بها لا فى الصّبابة مولعا

فلم أحص كم رافقته من مرافق و لم أحص كم خيّمت فى الأرض موضعا

و من بعد جوب الأرض شرقا و مغربا فلا بدّ لى من أن أوافى مصرعا

و قال رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

لقاء النّاس ليس يفيد شيئا سوى الهذيان من قيل و قال

فأقلل من لقاء النّاس إلّا لأخذ العلم أو إصلاح حال

و ذكره ابن بشكوال فى الصّلة، و توفى ببغداد سنة ثمان و ثمانين و أربعمائة، رحمه اللّه تعالى!.

قال ابن ماكولا: أخبرنا صديقنا أبو عبد اللّه الحميدى، و هو من أهل العلم و الفضل و التيقظ، لم أر مثله فى عفّته و نزاهته و ورعه و تشاغله بالعلم، و كان أوصى مظفرا ابن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند قبر بشر الحافى، فخالف وصيته و دفنه فى مقبرة باب أبرز، فلما كانت مدة رآه مظفر فى النوم كأنه يعاتبه على مخالفته، فنقل فى صفر سنة ۴۹۱ إلى مقبرة باب حرب، و دفن عند قبر بشر، و كان كفنه جديدا و بدنه طريا تفوح منه رائحة الطيب، و وقف كتبه على أهل العلم، رحمه اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۸

و من مناقبه أنه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ: تعديت بعين إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت، انتهى.

و من شعر الحميدى أيضا قوله: [الوافر]

طريق الزّهد أفضل ما طريق و تقوى اللّه تالية الحقوق

فثق بالله يكفك، و استعنه يعنك، و دع بتيّات الطّريق

و قوله: [الوافر]

كلام اللّه عزّ و جلّ قولى و ما صحّت به الآثار دينى

و ما اتّفق الجميع عليه بدءا و عودا فهو عن حقّ مبين

فدع ما صدّ عن هذا و هذا تكن منها على عين اليقين

۶۴- و منهم الكمال أبو العباس أحمد الشريشى

، و هو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن، القيسى، من أهل شريش، روى عن أبى الحسن بن لبّال و أبى بكر بن أزهر و أبى عبد اللّه بن زرقون و أبى الحسين بن جبير و غيرهم، و أقرأ العربية، و له تواليف أفاد بما حشد فيها: منها شرح الإيضاح للفارسى، و الجمل للزجاج، و له فى العروض تواليف، و جمع مشاهير قصائد العرب، و اختصر نوادر أبى على القالى.

قال ابن الأبار: لقيته بدار شيخنا أبى الحسن بن حريق من بلنسية، قبل توجهى إلى إشبيلية فى سنة ست عشرة و ستمائة، و هو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات، فسمعت عليه بعضه، و أجاز لى سائره مع رواياته و تواليفه، و أخذ عنه أصحابنا، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية، انتهى.

و من بديع نظمه و هو بمصر يتشوق إلى الشام: [البسيط]

يا جيرة الشّام هل من نحوكم خبر فإنّ قلبى بنار الشّوق يستعر

بعدت عنكم فلا و اللّه بعدكم ما لذّ للعين لا نوم و لا سهر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۶۹

إذا تذكّرت أوقاتا نأت و مضت بقربكم كادت الأحشاء تنفطر

كأنّنى لم أكن بالنّيربين ضحى و الغيم يبكى و منه يضحك الزّهر

و الورق تنشد، و الأغصان راقصة و الدّوح يطرب بالتّصفيق و النّهر

و السّفح أين عشيّاتى الّتى سلفت لى منه فهى لعمرى عندى العمر

سقاك يا سفح سفح الدّمع منهملا و قلّ ذاك له إن أعوز المطر

و له رحمة اللّه تعالى شروح لمقامات الحريرى: كبير، و وسط، و صغير، و فى الكبير من الآداب ما لا كفاء له، و كان رحمه اللّه تعالى معجبا بالشام:

و قال ابن الأبار عندما ذكره: إنه شرح مقامات الحريرى فى ثلاث نسخ: كبراها الأدبية، و وسطاها اللغوية، و صغراها المختصرة، انتهى.

و توفى بشريش بلده سنة تسع عشرة و ستمائة، رحمه اللّه تعالى!.

۶۵- و منهم أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد، الأزدى، القرطبى

، الملقب بضياء الدين.

أحد الأئمة المتأخرين فى القراءات و علوم القرآن الكريم و الحديث النحو و اللغة و غير ذلك.

قال القاضى الشمس ابن خلكان: إنه رحل من الأندلس فى عنفوان شبابه و قدم مصر فسمع بالإسكندرية أبا عبد اللّه محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازى، و بمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدنى المصرى و أبا طاهر أحمد بن محمد الأصبهانى المعروف بالسّلفى و غيرهم، و دخل بغداد سنة ۵۱۷، و قرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبى محمد عبد اللّه بن على المقرى المعروف بابن بنت الشيخ أبى منصور الخياط، و سمع عليه كتبا كثيرة منها كتاب سيبويه، و قرأ الحديث على أبى بكر محمد بن عبد الباقى البزار المعروف بقاضى المارستان و أبى القاسم بن الحصين و أبى العز و غيرهم، و كان ديّنا ورعا عليه وقار و سكينة، و كان ثقة صدوقا ثبتا نبيلا قليل الكلام كثير الخير مفيدا، أقام بدمشق مدة، و استوطن الموصل، و رحل منها إلى أصبهان، ثم عاد إلى الموصل، و أخذ عنه شيوخ ذلك العصر، و ذكره الحافظ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۰

ابن السمعانى فى كتاب الذيل، و قال: إنه اجتمع به بدمشق، و سمع عنه مشيخة أبى عبد اللّه الرازى، و انتخب عليه أجزاء، و سأله عن مولده فقال: ولدت سنة ۴۸۶ فى مدينة قرطبة، و رأيت فى بعض الكتب أن مولده سنة ۴۸۷، و الأول أصح، و كان شيخنا القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضى حلب رحمه اللّه تعالى يفتخر بروايته و قراءته عليه، و قال: كنا نقرأ عليه بالموصل، و نأخذ عنه، و كنا نرى رجلا يأتى إليه كل يوم فيسلم عليه و هو قائم، ثم يمد يده إلى الشيخ بشىء ملفوف، فيأخذه الشيخ من يده، و لا نعلم ما هو، و يتركه ذلك الرجل و يذهب، ثم تقفينا ذلك فعلمنا أنها دجاجة مسموطة كانت ترسم للشيخ

فى كل يوم، يبتاعها له ذلك الرجل و يسمطها و يحضرها، و إذا دخل الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده.

و ذكر فى كتاب «دلائل الأحكام» أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة، آخرها سنة ۵۶۷.

و كان الشيخ أبو بكر القرطبى المذكور كثيرا ما ينشد مسندا إلى أبى الخير الكاتب الواسطى: [الوافر]

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التّحرّك و السّكون

جنون منك أن تسعى لرزق و يرزق فى غشاوته الجنين

و توفى القرطبى المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ۵۶۷، رحمه اللّه تعالى!.

انتهى كلام ابن خلكان ببعض اختصار.

۶۶- و منهم الوزير أبو عبد اللّه محمد، ابن الشيخ الأجل أبى الحسن بن عبد ربه

، و هو من حفداء صاحب كتاب «العقد» المشهور.

حدث الشيخ الأجل أبو عبد اللّه محمد بن على اليحصبى القرمونى رفيقه قال:

اصطحبت معه فى المركب من المغرب إلى الإسكندرية، فلما قربنا منها هاج علينا البحر،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۱

و أشفينا على الغرق، فلاح لنا و نحن على هذه الحال منار الإسكندرية، فسررنا برؤيته، و طمعنا فى السلامة، فقال لى: لا بد أن أعمل فى المنار شيئا، فقلت له: أعلى مثل هذه الحال التى نحن فيها؟ فقال: نعم، فقلت: فاصنع، فأطرق ثم عمل بديها: [البسيط]

للّه درّ منار اسكندريّة كم يسمو إليه على بعد من الحدق

من شامخ الأنف فى عرنينه شمم كأنّه باهت فى دارة الأفق

يكسّر الموج منه جانبى رجل مشمّر الذّيل لا يخشى من الغرق

لا يبرح الدّهر من ورد على سفن ما بين مصطبح منها و مغتبق

للمنشآت الجوارى عند رؤيته كموقع النّوم من أجفان ذى أرق

و تقدمت ترجمة الكاتب أبى عبد اللّه بن عبد ربه، و أظنه هذا، فليتنبه له، بل أعتقد أنه هو لا غيره، و اللّه تعالى أعلم.

۶۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن الصفار، القرطبى

.قال فى القدح المعلى: بيتهم مشهور بقرطبة، لم يزل يتوارث فى العلم و الجاه و علو المرتبة، و نشأ أبو عبد اللّه هذا حافظا للآداب، إماما فى علم الحساب، مع أنه كان أعمى مقعدا مشوه الخلقة، و لكنه إذا نطق علم كل منصف حقه، و من عجائبه أنه سافر على تلك الحالة، حتى غدت بغداد له هالة، اجتمعت به بحضرة تونس فرأيت بحرا زاخرا، و روضا ناضرا، إلا أنه حاطب ليل، و ساحب ذيل، لا يبالى ما أورده، و لا يلتفت إلى ما أنشده، جامعا بين السمين و الغث، حافظا للمتين و الرث، و كان يقرئ الأدب بمراكش و فاس و تونس و غيرها.

و من مشهور حكاياته أنه لما قال أبو زيد الفازازى فى أبى على المستنصر قصيدته التى مطلعها: [البسيط]

الحزم و العزم منسوبان للعرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۲

عارضه بقصيدة، ثم قال فيه و فى ابن أخيه يحيى بن الناصر الذى نازعه فى ذلك الأوان: [البسيط]

و إن ينازعك فى المنصور ذو نسب فنجل نوح ثوى فى قسمة العطب

و إن يقل أنا عمّ فالجواب له عمّ النّبيّ بلا شكّ أبو لهب

و شاعت القصيدة فبلغت أبا العلاء، فحرض على قتله، و سلمه اللّه تعالى منه، و مات سنة ۶۳۹.

و من شعر قوله: [السريع]

لا تحسب النّاس سواء متى تشابهوا فالنّاس أطوار

و انظر إلى الأحجار، فى بعضها ماء، و بعض ضمنها نار

و قوله: [المجتث]

يا طالعا فى جفونى و غائبا فى ضلوعى

بالغت فى السّخط ظلما و ما رحمت خضوعى

إذا نويت انقطاعا فاحسب حساب الرّجوع

انتهى باختصار يسير.

[أبو الوليد بن الجنان الكنانى الشاطبى]

۶۸- و منهم أبو الوليد بن الجنّان محمد بن المشرف أبى عمرو بن الكاتب أبى بكر بن العالم الجليل أبى العلاء بن الجنّان، الكنانى، الشاطبى.

قال ابن سعيد: توارثوا بشاطبة، مراتب تحسدها النجوم الثاقبة، و أبو الوليد أشعرهم، و قد تجدّد به فى أقطار المشرق مفخرهم، و هو معروف هناك بفخر الدين، و متصدر فى أئمة النحويين، و مرتب فى شعراء الملك الناصر صاحب الشام، و مقطّعاته الغرامية قلائد أهل الغرام، صحبته بمصر و دمشق و حلب، و جريت معه طلق الجموح فى ميادين الأدب، و أنشدنى بدمشق: [الرمل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۳

أنا من سكر هواهم ثمل لا أبالى هجروا أم وصلوا

فبشعرى و حديثى فيهم زمزم الحادى و سار المثل

إن عشّاق الحمى تعرفنى و الحمى يعرفنى و الظّلل

رحلوا عن ربع عينى فلذا أدمعى عن مقلتى ترتحل

ما لها قد فارقت أوطانها و هى ليست لحماهم تصل

لا تظنّوا أنّنى أسلو فما مذهبى عن حبّكم ينتقل

و قوله رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

باللّه يا بانة الوادى إذا خطرت تلك المعاطف حيث الشّيح و الغار

فعانقيها عن الصّبّ الكئيب فما على معانقة الأغصان إنكار

و عرّفيها بأنّى فيك مكتئب فبعض هذى لها بالحبّ إخبار

و أنتم جيرة الجرعاء من إضم لى فى حماكم أحاديث و أسمار

و أنتم أنتم فى كلّ آونة و إنما حبّكم فى الكون أطوار

و يا نسيما سرى تحدو ركائبه لى بالغوير لبانات و أوطار

و قوله: [الخفيف]

يا رعى أنسنا بين روض حيث ماء السّرور فيه يجول

تحسب الزهر عنده يتثنى و تخال الغصون فيه تميل

و له: [البسيط]

هات المدام فقد ناح الحمام على فقد الظّلام و جيش الصّبح فى غلب

و أعين الزّهر من طول البكا رمدت فكحّلتها يمين الشّمس بالذّهب

و الكأس حلّتها حمراء مذهبة لكن أزرّتها من لؤلؤ الحبب

كم قلت للأفق لمّا أن بدا صلفا بشمسه عندما لاحت من الحجب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۴

إن تهت بالشّمس يا أفق السّماء فلى شمسان وجه نديمى و ابنة العنب

قم اسقنيها و ثغر الصّبح مبتسم و اللّيل تبكيه عين البدر بالشّهب

و السّحب قد لبست سود الثّياب و قد قامت لترثيه الأطيار فى القضب

و له: [السريع]

عليك من ذاك الحمى يا رسول بشرى علامات الرّضا و القبول

جئت و فى عطفيك منهم شذى يسكر من خمر هواه العذول

و منها: [السريع]

أحبابنا ودّعتم ناظرى و أنتم بين ضلوعى نزول

حللتم قلبى و هو الّذى يقول فى دين الهوى بالحلول

أنا الّذى حدّث عن الهوى بأنّنى عن حبّكم لا أحول

فليزد العاذل فى عذله و ليقل الواشى لكم ما يقول

انتهى كلام النور بن سعيد.

و قال غيره: ولد المذكور بشاطبة منتصف شوال سنة ۶۱۵، و مات بدمشق و دفن بسفح قاسيون، و كان عالما فاضلا، دمث الأخلاق، كريم الشمائل، كثير الاحتمال، واسع الصدر، صحب الشيخ كمال الدين بن العديم، و ولده قاضى القضاة مجد الدين، فاجتذبوه إليهم، و صار حنفى المذهب، و درس بالمدرسة الإقبالية الحنفية بدمشق، و له مشاركة فى علوم كثيرة، و له يد فى النظم، و من شعره: [الكامل]

للّه قوم يعشقون ذوى اللّحى لا يسألون عن السّواد المقبل

و بمهجتى قوم و إنّى منهم جبلوا على حبّ الطّراز الأوّل

و له أيضا: [البسيط]

قم اسقنيها و ليل الهمّ منهزم و الصّبح أعلامه محمرّة العذب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۵

و السّحب قد نثرت فى الأرض لؤلؤها تضمّه الشّمس فى ثوب من الذّهب

و قد تقدم عن ابن سعيد له ما يقارب هذا.

و له- رحمه اللّه تعالى!- فى كاتب: [الطويل]

و بى كاتب أضمرت فى القلب حبّه مخافة حسّادى عليه و عذّالى

له صنعة فى خطّ لام عذاره و لكن سها إذ نقّط اللّام بالخال

۶۹- و منهم أبو محمد القرطبى

:قال ابن سعيد: لقيته بالقاهرة، و كأنه لا خبر عنده من الآخرة، و قد طال عمره فى أكل الأعراض، و فساد الأغراض، و مما بقى فى أذنى من شعره قوله: [الخفيف]

رحم اللّه من لقيت قديما فلقد كان بى رؤوفا رحيما

أتمنّى لقاء حرّ و قد أع وز بختى كما عدمت الكريما

و توفى بالقاهرة سنة ۶۴۳، انتهى.

۷۰- و منهم على بن أحمد، القادسى، الكنانى

قال ابن سعيد: لقيته ببيت المقدس على زى الفقراء، و حصلت منه هذه الأبيات، و ندمت بعد ذلك على ما فات، و هى: [المجتث]

ذاك العذار المطلّ دمى عليه يطلّ

كأنّما الخدّ ماء و قد جرى فيه ظلّ

عقود صبرى عليه مذ حلّ قلبى تحلّ

جرت دموعى عليه فقلت آس و طلّ

۷۱- و منهم أبو عبد اللّه بن العطار، القرطبى

.قال ابن سعيد: هو حلو المنازع، ظريف المقاطع و المطالع، مطبوع النوادر، موصوف بالأديب الشاعر، مازجته بالإسكندرية، و بهذه الحضرة العلية، و ما زال يدين بالانفراد،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۶

و التجول فى البلاد، حتى قضى مناه، و ألقى بهذه المدينة عصاه، لا يخطر الهم له ببال، و لا يبيت إلا على وعد من وصال، و له حين سمع ما ارتجلته فى السكين بالإسكندرية حين داعبنى باختلاسها القاضى زين القضاة بن الرّيغى، و قال: ما لى إليه سبيل، حتى يحضر مصرى نبيل: [الطويل]

أيا سارقا ملكا مصونا و لم يجب على يده قطع و فيه نصاب

ستندبه الأقلام عند عثارها و يبكيه إن يعد الصّواب كتاب

فقال: [الطويل]

أحاجيك ما شىء إذا ما سرقته و فيه نصاب ليس يلزمك القطع

على أنّ فيه القطع و الحدّ ثابت و لا حدّ فيه، هكذا حكم الشّرع

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه «القدح المعلى» فيما أظن.

و يعنى و اللّه سبحانه و تعالى أعلم بقوله «و بهذه الحضرة العلية» حضرة تونس المحروسة، فإنها كانت محط رحال الأفاضل، من الأواخر و الأوائل، حتى إن قاضى القضاة ابن خلدون أقام بها مدة، و منها ارتحل إلى مصر، و كذلك الخطيب الجليل سيدى أبو عبد اللّه بن مرزوق رحمه اللّه تعالى، و منها خاطب الوزير لسان الدين بن الخطيب و سلطانه فى الشفاعة له عند سلطان المغرب، فكتب لسان الدين عن سلطانه فى ذلك ما نصه: المقام الذى نؤكد إليه ببر سلفه الوداد، و نغرى بتخليد فخره و أمره القلم و المداد، و نصل به الاستظهار على عدو اللّه تعالى و الاستعداد، و نخطب له من اللّه بهزّ أعطافه للخير و التوفيق و السداد، و الإعانة منه و الإمداد، مقام

محل أخينا الذى اشتهر فضله و دينه، و وضح سعده متألقة براهينه، و حياه الصنع الجميل و بيّاه مشرقا جبينه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللّه يرعى الذّمم، و يسلك من الفضائل المنهج الأمم، و يغلى البضائع النافقة عند اللّه تعالى و يعلى الهمم، معظم قدره، و ملتزم بره، الحريص على توفير أجره، و تخليد فخره، فلان، أما بعد حمد اللّه تعالى ناصر الإمرة المطاعة، المحافظة على السنة و الجماعة، و حافظها من الإضاعة، إلى قيام الساعة، الذى جعل المودة فيه أنفع الوسائل النفّاعة، و الصلاة و السلام على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۷

سيدنا و مولانا محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة على العموم و الإشاعة، متمم مكارم الأخلاق من الفضل و البذل و الحياء و الشجاعة، و الرضا عن آله و صحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة، و زرعوا الخير فى العاجلة ففازوا فى الآجلة بفائدة تلك الزراعة، و الدعاء لمقامكم الأعلى بصنع يروى فيه عن الأشمط الباتر خبر النصر المتواتر لسان البراعة، و تأييد لا ترضى فيه القنا بمقام تلك القناعة، فإنا كتبناه إليكم كتب اللّه تعالى لثنائكم العاطر بتخليد المفاخر منشور الإذاعة، فى أيدى النواسم الضّوّاعة، من حمراء غرناطة- حرسها اللّه تعالى!- عن خير هامى السحاب، و بشر مفتح الأبواب، و عز للإسلام، ببركة الاعتداد بملككم المنصور الأعلام، مقتبل الشباب، و يمن ضافى الجلباب، و الحمد للّه على تضافر الأيدى فى ذاته و توفر الأسباب، و جانبكم الرفيع الأمل للمنتاب، إذا حدت الحداة ذوات الأقتاب، و مطمح الوسائل المطرزة المسائل بتصحيح الود اللّباب، و إلى هذا وصل اللّه تعالى سعيكم بسوابغ نعمه و آلائه دائمة الانسكاب، و جعل ما عجل لكم من نعمه و آلائه كفيلة بالزلفى و حسن المتاب، و ألهمكم تقييد شواردها بالشكر قولا و عملا فالشكر مستدعى المزيد كما ورد فى الكتاب، فإن من المنقول الذى اشتهر، و راق فضله و بهر، قوله «اشفعوا تؤجروا» و ما فى معناه من المعتبر فى الخبر و تنفيس كربة عن مسلم، و سماع شكوى من متظلم، و لو لا أن مقامكم السنى أغنى، لجلبنا الكثير من هذا المعنى، و لما تحقق ما أنتم عليه من سلوك سبيل والدكم الملك الصالح- قدس اللّه تربته، و ضاعف قربته!- من يمن الظفر، و سلوك سبيل الخير و إقامة رسول الدين، و الاهتداء من هديه بالنور المبين، خفّ علينا أن نقصدكم بالشفاعات مع الساعات، و نتّجر لكم مع اللّه بأنفس البضاعات، فما أثمر من ذلك شكرنا اللّه تعالى عليه حقيقة و شكرناكم عليه شريعة، و ما تأخر أوسعناكم فيه عذرا يسد ذريعة، و علمنا أن اللّه تعالى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۸

لم يأذن فى تعجيله، و سألناه فى تيسيره و تسهيله، سواء لدينا فى ذلك ما عاد، بإعانة عامة و إمداد، و ساهم فى قصد جهاد، و ما لم يعد علينا خصوصا و على المسلمين عموما بإعانة و لا إرفاد، إنما علينا أن نجلب الخير الباقى و الأجر الراقى إلى بابكم، و ندلّ عليه كريم جنابكم، بمقتضى و داد، صبحه باد، و جميل ظن فى دينكم المتين و اعتقاد، سلم محمله و مفصّله من انتقاد، و ذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الأوحد العلامة سلالة الصالحين، و خطيب والدكم كبير الخلفاء و السلاطين، و يا لها من مزية دنيا و دين، أبا عبد اللّه بن مرزوق جبر اللّه تعالى على يدكم البرة حاله، و سنّى من مقامكم السنى آماله، جرى عليه من المحن، و تباريح الإحن، ما يعلم كل ذى مروءة و عقل، و اجتهاد و نقل، أن ذلك من الجنايات على والدكم السلطان محسوب، و إلى معقّاته منسوب، و لو كانت ذنوبه رضوى و ثبيرا، لاستدعت إلى تعمدها عفوا كبيرا، رعيا لذلك الإمام الصالح الذى كبر خلفه و أحرم، و تشهد و سلم، و أمّن عقب دعائه، و نصب كفه لمواهب اللّه تعالى و آلائه، و أنصت لخطبته و وعظه، و أوجب المزية لسعة حفظه و عذوبة لفظه، فأحبط ذلك من أحبط الأعمال الصالحة، و عطّل المتاجر الرابحة، و أسف الملك المذكور بدم ولده، و إحراق خزائنه و عدده، و تغيير رسومه و حدوده و إسخاطه و إسخاط اللّه معبوده، إلى أن طهر سيفكم الملك من عاره، و أخذ منه بثاره، و تقرب إلى اللّه و إلى السلف الكريم بمحو آثاره، و الحمد للّه على ما خصّه من إيثاره، و تدارك الإسلام بإقالة عثاره، و إنه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرر من حاله ما يفتّ الفؤاد، و يوجب الامتعاض له و الاجتهاد، يطلب منا الإعانة بين يديكم و الإنجاد، و يشكو العيلة و

الأولاد، و الغربة التى أحلّته الأقطار النازحة و البلاد، و الحوادث التى سلبته الطارف و التّلاد، و أن نذكركم بوسيلته، و ضعف حيلته، فبادرنا لذلك عملا بالواجب، و سلوكا من بره و رعى حقه على السّنن اللاحب، و إن كنا نطوقه فى أمرنا عند الحادثة علينا تقصيرا، و لا نشكر إلا اللّه وليا و نصيرا، فحقه علينا أوجب، فهو الذى لا يجحد و لا يحجب، و لا يلتبس منه المذهب، و كيف لا يشفع فيمن جعله السلف إلى اللّه تعالى شفيعا، و أحلّه محلا منيعا رفيعا، إلى وليه الذى جبر ملكه سريعا، و صير جنابه بعد المحول مريعا، و جدد رسومه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۷۹

تأصيلا لها و تفريعا، و مثلكم من اغتنم بره فى نصر مظلوم، و سبر مكلوم، و إعداء كرم على لوم، و هى منا ذكرى تنفع، و حرص على أجر من يشفع، و إسعاف لمن سأل ما يعلى من قدركم و يرفع، و تأدية لحق سلفكم الذى توفرت حقوقه، و إبلاغ نصيحة دينية إلى مجدكم الذى لا يمنعه عن المجد مانع و لا يعوقه، و مطلبه فى جنب ملككم الكبير حقير، و هو إلى ما يفتح اللّه تعالى به على يد صدقتكم فقير، و منهلكم الأروى، و باعكم فى الخير أطول و ساعدكم أقوى وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى [البقرة: ۱۹۷] و اللّه عز و جل يسلك بكم المسالك التى تخلد بالجميل ذكركم، و تعظم عند اللّه أجركم، فما عند اللّه خير للأبرار، و الدنيا دار الغرور و الآخرة دار القرار، و هو سبحانه يصل سعدكم، و يحرس مجدكم، و السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته، انتهى.

و السلطان المخاطب بهذا هو أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان الكبير الشهير أبى الحسن المرينى، و كان ابن مرزوق غالبا على دولة السلطان أبى سالم أخى أبى فارس المذكور، فقتله الوزير عمر بن عبد اللّه الفودودى، و تغلب على الملك، و نصب أخا لأبى سالم معتوها، و سجن ابن مرزوق، و رام قتله، فخلصه اللّه تعالى منه، ثم إن السلطان أبا فارس ثار على الوزير المتغلب و قتله، و استقل بالملك، فخوطب فى شأن ابن مرزوق بما ذكر.

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر الراحلين من أعلام الأندلسيين إلى البلاد المشرقية المحروسة بالله سبحانه و تعالى، فنقول:

[۷۲- أبو الوليد عبد اللّه بن محمد الأزدى، القرطبى، (ابن الفرضى،)]

۷۲- و منهم أبو الوليد و أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن يوسف بن نصر، الأزدى، القرطبى، المعروف بابن الفرضى، الحافظ المشهور.

كان فقيها عالما، عارفا بعلم الحديث و رجاله، بارعا فى الأدب و غيره، و له من التصانيف «تاريخ علماء الأندلس»، وقفت عليه بالمغرب، و هو بديع فى بابه و هو الذى ذيل عليه ابن بشكوال بكتاب «الصلة» و له كتاب حسن فى المؤتلف و المختلف و فى مشتبه النسبة، و كتاب فى أخبار شعراء الأندلس، و غير ذلك، و رحل من الأندلس إلى المشرق سنة ۳۸۲، فحج و سمع من العلماء و أخذ منهم و كتب من أماليهم، و روى عن شيوخ عدّة من أهل المشرق.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۰

و من شعره: [الطويل]

أسير الخطايا عند بابك واقف على وجل ممّا به أنت عارف

يخاف ذنوبا لم يغب عنك غيبها و يرجوك فيها فهو راج و خائف

و من ذا الّذى يرجى سواك و يتّقى و ما لك فى فصل القضاء مخالف

فيا سيّدى لا تخزنى فى صحيفتى إذا نشرت يوم الحساب الصّحائف

و كن مؤنسى فى ظلمة القبر عندما يصدّ ذوو القربى و يجفو المؤالف

لئن ضاق عنّى عفوك الواسع الّذى أرجّى لإسرافى فإنّى لتالف

و كان- رحمه اللّه تعالى!- حسن الشعر و البلاغة.

و من شعره أيضا رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

إنّ الّذى أصبحت طوع يمينه إن لم يكن قمرا فليس بدونه

ذلّى له فى الحبّ من سلطانه و سقام جسمى من سقام جفونه

و له شعر كثير، و مولده فى ذى القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ۳۵۱، و تولى القضاء بمدينة بلنسية فى دولة محمد المهدى المروانى، و قتله البربر يوم فتح قرطبة يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة ۴۰۳، و بقى فى داره ثلاثة أيام، و دفن متغيرا من غير غسل و لا كفن و لا صلاة، رحمه اللّه تعالى!.

و روى عنه أنه قال: تعلقت بأستار الكعبة، و سألت اللّه تعالى الشهادة، ثم انحرفت و فكرت فى هول القتل، فندمت و هممت أن أرجع فأستقيل اللّه سبحانه و تعالى فاستحييت.

و أخبر من رآه بين القتلى و دنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف: لا يكلم أحد فى سبيل اللّه، و اللّه أعلم بمن يكلم فى سبيله، إلا جاء يوم القيامة و جرحه يثعب دما اللون لون الدم و الريح ريح المسك، كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد فى ذلك، قال: ثم قضى على إثر ذلك.

و هذا الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه.

و قد ساق فى المطمح حكايته فقال: كان حافظا عالما كلفا بالرواية، رحل فى طلبها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۱

و تبحر فى المعارف بسببها، مع حظ من الأدب كثير، و اختصاص بنظيم منه و نثير، حج و برع، فى الزهادة و الورع، فتعلق بأستار الكعبة يسأل اللّه الشهادة ثم فكر فى القتل و مرارته، و السيف و حرارته، فأراد أن يرجع و يستقيل اللّه تعالى فاستحيا، و آثر نعيم الآخرة على شقاء الدنيا، فأصيب فى تلك الفتن مكلوما، و قتل مظلوما، ثم ذكر مثل ما مر.

و مما قال فى طريقه إلى قرطبة يتشوق إلى فريقه: [الطويل]

مضت لى شهور منذ غبتم ثلاثة و ما خلتنى أبقى إذا غبتم شهرا

و ما لى حياة بعدكم أستلذّها و لو كان هذا لم أكن فى الهوى حرّا

و لم يسلنى طول التّنائى عليكم بلى زادنى وجدا و جدّد لى ذكرا

يمثّلكم لى طول شوقى إليكم و يدنيكم حتّى أناجيكم سرّا

سأستعتب الدّهر المفرّق بيننا و هل نافعى أن صرت أستعتب الدّهرا

أعلّل نفسى بالمنى فى لقائكم و أستسهل البرّ الّذى جبت و البحرا

و يؤنسنى طىّ المراحل عنكم أروح على أرض و أغدو على أخرى

و تاللّه ما فارقتكم عن قلى لكم و لكنّها الأقدار تجرى كما تجرى

رعتكم من الرّحمن عين بصيرة و لا كشفت أيدى النّوى عنكم سترا

و قد عرف به ابن حيان فى المقتبس، و ذكر قصة شهادته، رحمه اللّه تعالى!.

۷۳- و منهم الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه، البكرى، الشريشى، المالكى

.ولد بشريش سنة ۶۰۱، و رحل إلى العراق، فسمع به المشايخ كالقطيعىّ و ابن روزبة و ابن الكثير و غيرهم، و اشتغل و ساد أهل

زمانه، و اشتهر بين أقرانه، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية، ثم انتقل إلى القدس الشريف، فأقام به شيخ الحرم، ثم جاء إلى دمشق المحروسة بالله، و تولى مشيخة الحديث بتربة أم صالح و مشيخة الرباط الناصرى و مشيخة المالكية،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۲

و عرض عليه القضاء فلم يقبل، و كانت وفاته يوم الاثنين الرابع و العشرين من رجب، بالرباط الناصرى، و دفن بسفح قاسيون، رحمه اللّه تعالى! و ذلك سنة خمس و ثمانين و ستمائة، رحمه اللّه تعالى!.

و ليس هو بشارح المقامات، بل هو غيره، و قد اشتركا فى البلد، فبسبب ذلك ربما يقع فى الأذهان الوهم فى أمرهما، و شارح المقامات أحمد و هذا محمد، و قد ترجمنا صاحب شرح المقامات فيما تقدم من هذا الباب، فليراجع، و اللّه سبحانه و تعالى أعلم.

۷۴- و منهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلّس، القيسى، الأندلسى، البلنسى.

كان من أهل العلم باللغة و العربية، مشارا إليه فيهما، رحل من الأندلس، و سكن بمصر و استوطنها، و قرأ الأدب على أبى العلاء صاعد اللغوى صاحب كتاب الفصوص، و على أبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن خرّزاذ النّجيرمى، و دخل بغداد، و استفاد و أفاد، و له شعر حسن، فمن ذلك قوله: [المتقارب]

مريض الجفون بلا علّة و لكنّ قلبى به ممرض

أعان السّهاد على مقلتى بفيض الدّموع فما تغمض

و ما زار شوقا و لكن أتى يعرّض لى أنّه معرض

و له أشعار كثيرة، و توفى يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة ۴۲۷، و قيل:

سنة ۴۲۹، بمصر، و كان استوطنها، و صلى عليه الشيخ أبو الحسن على بن إبراهيم الحوفى صاحب التفسير فى مصلى الصّدفى، و دفن عند أبى إسحاق رحمه اللّه تعالى.

و مغلّس: بضم الميم، و فتح الغين، و تشديد اللام المكسورة، و بعدها سين مهملة.

و كانت بينه و بين أبى الطاهر إسماعيل بن خلف صاحب كتاب «العنوان» معارضات فى قصائد.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۳

و من شعر ابن المغلّس أيضا قوله فى حمّام: [الطويل]

و منزل أقوام إذا ما اغتدوا به تشابه فيه وغده و رئيسه

يخالط فيه المرء غير خليطه و يضحى عدوّ المرء و هو جليسه

يفرّج كربى إن تزايد كربه و يؤنس قلبى أن يعدّ أنيسه

إذا ما أعرت الحوض ماء تكاثرت على مائه أقماره و شموسه

۷۵- و منهم أبو الحكم عبيد اللّه بن المظفر بن عبد اللّه، الحكيم، الأديب، المعروف بالمغربى

.و هو من أهل المرية، و انتقل إلى المشرق، و كان كامل الفضيلة، و جمع بين الأدب و الحكمة، و له ديوان شعر جيد، و الخلاعة و المجون غالبة عليه، و ذكر العماد فى «الخريدة» أنه كان طبيب المارستان المستصحب فى معسكر السلطان السلجوقى حيث حلّ و خيّم، و كان السديد يحيى بن سعيد المعروف بابن المرخّم الذى صار أقضى القضاة ببغداد فى أيام المقتفى فاصدا و طبيبا فى المارستان، و أثنى العماد على أبى الحكم المذكور، و ذكر فضله و ما كان عليه، و أن له كتابا سماه «نهج الوضاعة، لأولى الخلاعة» ثم إن أبا الحكم انتقل إلى الشام، و سكن دمشق، و له فيها أخبار و ماجريات ظريفة تدل على خفة روحه.

قال ابن خلكان: رأيت فى ديوانه أن أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسى كان عند الأمراء بنى منقذ بقلعة شيزر، و كانوا مقبلين عليه، و كان بدمشق شاعر يقال له أبو الوحش، و كانت فيه دعابة، و بينه و بين أبى الحكم المذكور مداعبات، فسأل منه كتابا إلى ابن منير بالوصية عليه، فكتب أبو الحكم: [المنسرح]

أبا الحسين استمع مقال فتى عوجل فيما يقول فارتجلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۴

هذا أبو الوحش جاء ممتدحا للقوم فاهنأ به إذا وصلا

و اتل عليهم بحسن شرحك ما أنقله من حديثه جملا

و خبّر القوم أنّه رجل ما أبصر النّاس مثله رجلا

تنوب عن وصفه شمائله لا يبتغى عاقل به بدلا

و منها:

و هو على خفّة به أبدا معترف أنّه من الثّقلا

يمتّ بالثلب و الرّقاعة و السّ خف، و أمّا بغير ذاك فلا

إن أنت فاتحته لتخبر ما يصدر عنه فتحت منه خلا

فهبه إن حلّ خطّة الخسف و ال هون و رحّب به إذا رحلا

و أسقه السّمّ إن ظفرت به و امزج له من لسانك العسلا

و له أشياء مستملحة، منها مقصورة هزلية، ضاهى بها مقصورة ابن دريد، من جملتها:

[الرجز]

و كلّ ملموم فلا بدّ له من فرقة لو ألزقوه بالغرا

و له مرثية فى عماد الدين زنكى بن آق سنقر الأتابكى، شاب فيها الجد بالهزل، و الغالب على شعره الانطباع.

و توفى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة سنة ۵۴۹، و قيل: فى السنة التى قبلها، بدمشق، رحمه اللّه تعالى!.

و القاضى ابن المرخّم المذكور هو الذى يقول فيه أبو القاسم هبة اللّه بن الفضل الشاعر المعروف بابن القطان: [الكامل]

يا ابن المرخّم صرت فينا قاضيا خرف الزّمان تراه أم جنّ الفلك

إن كنت تحكم بالنّجوم فربما أمّا بشرع محمّد من أين لك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۵

و كان أبو الحكم المذكور فاضلا فى العلوم الحكمية، متقنا للصناعة الطبية، حسن النادرة، كثير المداعبة، محبا للهو و الخلاعة و الشراب، و كان يعرف صنعة الموسيقى و يلعب بالعود، و يجلس فى دكان بجيرون للطب، و سكناه باللبادين، و أتى فى ديوانه «نهج الوضاعة» بكل غريب، يدل على أنه أريب، سامحه اللّه تعالى و غفر له!.

۷۶- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق:

من هو الأحق بالتقديم و السبق، الشهير عند أهل الغرب و الشرق، الحافظ المقرئ الإمام الربانى، أبو عمرو الدّانى، عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر، الأموى، مولاهم، القرطبى، صاحب التصانيف التى منها المقنع و التيسير.

و عرف بالدانى لسكناه دانية، و ولد سنة ۳۷۱، و ابتدأ بطلب العلم سنة ۳۸۷ و رحل إلى المشرق سنة ۳۹۷، فمكث بالقيروان أربعة أشهر، و دخل مصر فى شوّالها، فمكث بها سنة، و حج، و رجع إلى الأندلس فى ذى القعدة سنة ۳۹۹، و قرأ بالروايات على عبد العزيز

بن جعفر الفارسی و غیره بقرطبة، و علی أبی الحسن بن غلبون و خلف بن خاقان المصری و أبی الفتح فارس بن أحمد، و سمع من أبی مسلم الکاتب، و هو أکبر شیخ له، و من عبد الرحمن بن عثمان القشیری، و حاتم بن عبد اللّه البزار، و غیر واحد من أهل مصر و سواها، و سمع من الإمام أبی الحسن القابسی، و خلف کتبه بالحجاز و مصر و المغرب و الأندلس، و تلا علیه خلق منهم مفرج الأقفالی و أبو داود بن نجاح صاحب التنزیل فی الرسم، و هو من أشهر تلامذته، و حدث عنه خلق کثیر، منهم خلف بن إبراهیم الطّلیطلی.

قال أبو محمد عبید اللّه الحجری: ذکر بعض الشیوخ أنه لم یکن فی عصر الحافظ أبی عمرو الدانی و لا بعد عصره أحد یدانیه و لا یضاهیه فی حفظه و تحقیقه، و کان یقول: ما رأیت شیئا قط إلا کتبته، و لا کتبته إلا حفظته، و لا حفظته فنسیته.

قال ابن بشکوال: کان أبو عمرو أحد الأئمة فی علم القرآن و روایاته و تفسیره و معانیه و طرقه و إعرابه، و جمع فی ذلک کله توالیف حسانا، و له معرفة بالحدیث و طرقه و إعرابه و أسماء رجاله، و کان حسن الخط و الضبط، من أهل الحفظ و الذکاء و الیقین، و کان دینا فاضلا ورعا سنیا.

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۲، ص: ۲۸۶

و قال بعضهم، و أظنه المغامی: کان أبو عمرو مجاب الدعوة، مالکی المذهب.

و قال بعض أهل مکة: إن أبا عمرو الدانی مقرئ متقدّم، و إلیه المنتهی فی علم القراءات و إتقان القرآن، و القراء خاضعون لتصانیفه، واثقون بنقله فی القراءات و الرسم و التجوید و الوقف و الابتداء و غیر ذلک، و له مائة و عشرون مصنفا، و روی عنه بالإجازة رجلان: أحمد بن محمد بن عبد اللّه الخولانی، و أبو العباس أحمد بن عبد الملک بن أبی حمزة، و کانت وفاته رحمه اللّه تعالی بدانیة فی نصف شوّال سنة أربع و أربعین و أربعمائة.

۷۷- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن عیسی بن عبد اللّه بن أحمد بن أبی حبیب، الأندلسی.

من بیت علم و وزارة، صرف عمره فی طلب العلم، و کان غزیر العلم فی الفقه و الحدیث و الأدب و ولی القضاء بالأندلس مرة، ثم دخل الإسکندریة و مصر، و جاور بمکة المشرفة، ثم قدم العراق، و أقام ببغداد مدّة، ثم وافی خراسان فأقام بنیسابور و بلخ، و کانت ولادته ببلاد الأندلس، و توفی بهراة فی شعبان سنة ۵۴۸، رحمه اللّه تعالی، و رضی عنه!.

۷۸- و منهم أبو العباس أحمد بن علی بن محمد بن علی بن شکر، الأندلسی، المقرئ.

رحل و أخذ القراءات عن أبی الفضل جعفر الهمدانی، و سمع من أبی القاسم بن عیسی، و سکن الفیوم، و اختصر «التیسیر» و صنف شرحا للشاطبیة، و توفی سنة ۶۴۰، رحمه اللّه تعالی!

۷۹- و منهم العلامة ذو الفنون علم الدین القاسم بن أحمد المرینی، اللورقی، المقرئ، النحوی.

ولد سنة ۵۷۵، و قرأ القراءات، و أحکم العربیة، و برع فیها، و اجتمع بالجزولی، و سأله عن مسألة فی مقدمته، و قرأ علم الکلام و الأصولین و الفلسفة، و کان خبیرا بهذه العلوم، مقصودا بإقرائها و ولی مشیخة قراءة العادلیة، و درس بالعزیزیة نیابة، و صنف شرحا للشاطبیة، و شرحا للمفصل فی عدة مجلدات، و شرح الجزولیة، و غیر ذلک، و کان ملیح الشکل، حسن البزة، و توفی سنة ۶۶۱ رحمه اللّه تعالی و رضی عنه.

۸۰- و منهم أبو عبد اللّه بن أبی الربیع، القیسی، الأندلسی، الغرناطی.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۷

قدم مصر سنة ۵۱۵ أو بعدها، فسمع على السّلفى، و بقراءته على جماعة من شيوخ مصر، و كان لديه فقه و أدب، ثم سافر إلى باب الأبواب، و كان حيّا سنة ۵۵۶.

و من نظمه يمدح كتاب الشهاب: [البسيط]

إنّ الشّهاب له فضل على الكتب بما حوى من كلام المصطفى العربى

كم ضمّ من حكمة غرّا و موعظة و من و عيد و من وعد و من أدب

أمّا القضاعىّ فالرّحمن يرحمه كما حباه من التّأليف بالعجب

۸۱- و منهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى، القرشى، العبدرى

.من أهل ميورقة من بلاد الأندلس، سكن بغداد، و سمع بها من أبى الفضل بن خيرون و طرّاد الزينبى و أبى عبد اللّه الحميدى و جماعة، و لم يزل يسمع إلى حين وفاته، و كتب بخطه كثيرا من الكتب و الأجزاء، و جمع و خرّج، و كان صحيح العقل، معتمد الضبط، مرجوعا إليه فى الإتقان، و كفاه فخرا و شرفا أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السّلفى و أبو الفضل محمد بن ناصر، و كان فهامة علامة ذا معرفة بالحديث، متعففا مع فقره، و كان يذهب إلى أن المناولة و العرض كالسماع.

و قال السلفى فيه: إنه من أعيان علماء الإسلام، بمدينة السلام، متصرف فى فنون من العلم أدبا و نحوا و معرفة بأنساب العرب و المحدثين، و كان داودى المذهب، قرشى النسب، و قد كتب عنى و كتبت عنه، و سمعنا معا كثيرا على شيوخ بغداد، و مولده بقرطبة من مدن الأندلس، و قبل اجتماعى به كنت أسمع إسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان يثنى عليه، فلما اجتمعنا و جدته فوق ما وصفه، انتهى.

و قال ابن عساكر: كان أحفظ شيخ لقيته، و ربما حكى عنه بعضهم كابن عساكر أمورا منكرة، فاللّه أعلم.

و توفى فى ربيع الآخر سنة ۵۲۴ ببغداد، رحمه اللّه تعالى!.

۸۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سعدون، الباجى

.سمع بمصر من ابن الورد و ابن السكن و ابن رشيق، و بمكة من الآجرى، و كان صالحا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۸

فاضلا زاهدا ورعا، حدث، و مات ببطليوس فجأة سنة ۳۹۲، و مولده سنة ۳۲۲.

۸۳- و منهم أبو بكر محمد بن سعدون، التميمى، الجزيرى، المتعبد.

كانت آدابه كثيرة، و حج غير مرة، و رابط ببلاد المغرب، و كان حسن الصوت بالقرآن، سمع بمصر من جماعة، و بمكة، و صحب الفقراء، و طاف بالشام، و غزا غزوات، و تعرض للجهاد، و حرض عليه، و ساح بجبل المقطم، و ذكر أنه صلى بمصر الضحى اثنتى عشرة ركعة، ثم نام فرأى النبى صلى اللّه عليه و سلم، فقال: يا رسول اللّه، إن مالكا و الليث اختلفا فى الضحى، فمالك يقول: ثنتا عشرة ركعة و الليث يقول: ثمانيا، فضرب عليه الصلاة و السلام بين وركى ابن سعدون و قال: رأى مالك هو الصواب، ثلاث مرات، قال: و كان فى وركى وجع، فمن تلك الليلة زال عنى، و كان له براهين من نور يضىء عليه إذا صلى و نحوه، و أنشد: [الكامل]

سجن اللّسان هو السّلامة للفتى من كلّ نازلة لها استئصال

إنّ اللّسان إذا حللت عقاله ألقاك فى شنعاء ليس تقال

توفى سنة ۳۴۴.

۸۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سعد الأعرج، الطّليطلى الخطيب.

و قال فيه ابن سعيد: سمع بمصر ابن الورد و ابن السكن، و حدث، مولده سنة ۳۰۹، و توفى فى ربيع الآخر سنة ۳۸۴.

۸۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سعيد بن إسحاق بن يوسف، الأموى، القرطبى.

و أصله من لبلة، و لكن سكن قرطبة، و قدم مصر، و حج، و سمع فى طريقه من الشيخ أبى محمد بن أبى زيد صاحب الرسالة، و أخذ عن القابسى و عن جماعة من علماء مصر و الحجاز، و مولده سنة ۳۵۲، و رحلته سنة ۴۱۸.

۸۶- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سعيد بن حسان بن الحكم بن هشام، القرطبى.

سمع من أبيه و يحيى بن يحيى و عبد الملك بن حبيب، و رحل، فسمع من أشهب بن عبد العزيز و عبد اللّه بن نافع و عبد اللّه بن عبد الحكم، و عاد إلى الأندلس و بها توفى سنة ۲۶۰، رحمه اللّه تعالى!.
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۸۹

۸۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن سليمان، المعافرى، الشاطبى

، نزيل الإسكندرية، و يعرف بابن أبى الربيع.
أحد أولياء اللّه تعالى، شيخ الصالحين، صاحب الكرامات المشهورة، جمع بين العلم و العمل و الورع و الزهد و الانقطاع إلى اللّه تعالى و التخلى عن الناس و التمسك بطريقة السلف، قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبى عبد اللّه محمد بن سعادة الشاطبى و غيره، و قرأ بدمشق على الواسطى، و سمع عليه الحديث، و رحل، فسمع من الزاهد أبى يوسف يعقوب خادم أضياف رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بين قبره و منبره سنة ۶۱۷، و سمع بدمشق على أبى القاسم بن صصرى و أبى المعالى بن خضر و أبى الوفاء بن عبد الحق و غيرهم، و انقطع لعبادة اللّه تعالى فى رباط سوار من الإسكندرية بتربة أبى العباس الراسى، و تلمذ للشاطبى تلميذ الراسى، و صنف كتبا حسنة: منها كتاب «المسلك القريب، فى ترتيب الغريب» و كتاب «اللمعة الجامعة، فى العلوم النافعة» فى تفسير القرآن العزيز، و كتاب «شرف المراتب و المنازل، فى معرفة العالى من القراءات و المنازل» و كتاب «المباحث السنية، فى شرح الحصرية» و كتاب «الحرقة، فى إلباس الخرقة» و كتاب «المنهج المفيد، فيما يلزم الشيخ و المريد» و كتاب «النبذ الجلية، فى ألفاظ اصطلح عليها الصوفية» و كتاب «زهر العريش، فى تحريم الحشيش» و كتاب «الزهر المضى، فى مناقب الشاطبى» و كتاب «الأربعين المضية، فى الأحاديث النبوية» و مولده بشاطبة سنة ۵۸۵، و وفاته بالإسكندرية فى رمضان سنة ۶۷۲، و دفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته، رحمهما اللّه تعالى، و نفع بهما!.

۸۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن شريح، الرّعينى، الإشبيلى.

قدم مصر، و سمع بها من ابن نفيس و أبى على الحسن البغدادى و أبى جعفر النحوى و أبى القاسم بن الطيب البغدادى الكاتب، و بمكة من أبى ذر الهروى.
قال ابن بشكوال: كان من جملة المقرئين و خيارهم، ثقة فى روايته، و كانت رحلته إلى المشرق سنة ۴۲۳، و ولد سنة ۳۹۲، و توفى سنة ۴۷۶، و عمره أربع و ثمانون سنة إلا خمسة و خمسين يوما، و روى بإشبيلية عن جماعة، رحمه اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۰

۸۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن صالح الأنصارى، المالقى.

قال السلفى: هو شاب من أهل الأدب، له خاطر، سمح كان يحضر عندى بالإسكندرية، كثير السماع للحديث، و ذكر أنه قرأ الأدب على أبى الحسين بن الطّراوة النحوى بالأندلس، و على نظرائه، و أنشدنى لنفسه: [الكامل]

كم ذا تقلقلنى النّوى و تسوقنى و إلى متى أشجّى بها و أسام

ألفت ركائبى الفلا فكأنّما للبين عهد بيننا و ذمام

يا ويح قلبى من فراق أحبّة أبدا تصدّعه به الأيّام

۹۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن صالح، القحطانى، المعافرى، الأندلسى، المالكى.

رحل إلى المشرق فسمع بالشام من خيثمة بن سليمان، و بمكة أبا سعيد بن الأعرابى، و ببغداد إسماعيل بن محمد الصفار، و سمع بالمغرب بكر بن حماد التّاهرتى و محمد بن وضاح و قاسم بن أصبغ و غيرهم و بمصر جماعة من أصحاب يونس و المزنى، روى عنه أبو عبد اللّه الحاكم و قال: اجتمعنا به بهمذان، مات ببخارى سنة ۳۸۳، و قيل: سنة ثمان، و قيل: سنة تسع و سبعين، و قال فيه أبو سعيد الأندلسى: إنه كان من أفاضل الناس، و من ثقاتهم، و قال غنجار: إنه كان فقيها حافظا، جمع تاريخا لأهل الأندلس، و قال السمعانى فيه: كان فقيها حافظا، رحل فى طلب العلم إلى المشرق و المغرب، رحمه اللّه تعالى!.

۹۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن طاهر بن على بن عيسى، الخزرجى، الدانى، النحوى،

أخو أبى العباس بن عيسى.

سمع بدانية من أبى داود المقرى و غيره، و قدم دمشق سنة ۵۵۴ حين خرج حاجا، و أقرأ بدمشق النحو مدّة، ثم خرج إلى بغداد، و أقام بها إلى أن مات سنة ۶۱۹، و ولد سنة ۵۱۲، و قدم مصر سنة ۵۷۲، و له من المصنفات كتاب «تحصيل عين الذهب، من معدن جوهر الأدب، فى علم مجازات العرب» و من كلامه: ليست هيبة الشيخ لشيبه و لا لسنه و لا لشخصه، و لكن لكمال عقله، و العقل هو المهاب، و لو رأيت شخصا جمع جميع الخصال و عدم العقل لما هبته، و قال: من جهل شيئا عابه، و من قصر عن شىء هابه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۱

۹۲- و منهم القاضى الشهير محمد بن بشير، و هو محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل، المعافرى

، و قيل فى آبائه غير ذلك كما يأتى.

و لما أشير على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بتقديم ابن بشير إلى خطة القضاء بقرطبة وجّه إليه بباجة، فأقبل و لا يعلم ما دعى إليه، و نزل على صديق له من العبّاد، فتحدث فى شأن استدعائه، و قدّم أنه يعرف فن الكتابة، فقال له العابد: ما أراه بعث فيك إلا للقضاء، فإن القاضى بقرطبة مات و هى الآن دون قاض، فقال ابن بشير: فأنا أستشيرك فى ذلك إن وقع، فقال: أسألك عن أشياء ثلاثة، و أعزم عليك أن تصدقنى فيها، ثم أشير بعد ذلك عليك، فقال: ما هى؟ فقال: كيف حبّك للأكل الطيب و اللباس اللين و ركوب الفاره؟ فقال:

و اللّه لا أبالى ما رددت به جوعى و سترت به عورتى و حملت به رحلى، فقال: هذه واحدة، فكيف حبك للتمتع بالوجوه الحسان و التبطن للكواعب الغيد و ما شاكل ذلك من الشهوات؟

فقال: هذه حال و اللّه ما استشرفت قط إليها، و لا خطرت ببالى، و لا اكترثت لفقدها، فقال:

و هذه ثانية، فكيف حبّك لمدح الناس لك و ثنائهم عليك؟ و كيف حبك للولاية و كراهيتك للعزل؟ فقال: و اللّه ما أبالى فى الحق من مدحنى و ذمّنى، و ما أسر للولاية و لا أستوحش للعزل، فقال: و هذه الثالثة، أقبل الولاية فلا بأس عليك، فقدم قرطبة، فولاه الأمير الحكم القضاء و الصلاة.

قال ابن وضاح: أخبرنى من كان يرى محمد بن بشير القاضى داخلا على باب المسجد الجامع يوم الجمعة، و عليه رداء معصفر، و فى رجله نعل صرّارة، و له جمّة مفرقة، ثم يقوم فيخطب و يصلى و هو فى هذا الزى، و به كان يجلس للقضاء بين الناس، فإن رام أحد من دينه شيئا وجده أبعد من الثريا.

و أتاه رجل لا يعرفه، فلما رأى ما هو فيه من زى الحداثة من الجمة المفرقة و الرداء المعصفر و ظهور الكحل و السواك و أثر الحناء فى يديه، توقف و قال: دلّونى على القاضى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۲۹۱

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۲

فقيل له:ها هو، و أشير إليه، فقال: إنى رجل غريب، و أراكم تستهزئون بى، أنا أسألكم عن القاضى و أنتم تدلوننى على زامر، فصححوا له أنه القاضى، فتقدم إليه و اعتذر، فأدناه و تحدث معه، فوجد عنده من العدل و الإنصاف فوق ما ظنه، فكان يحدث بقصته معه.

و عوتب فى إرسال لمّته و لبسه الخز و المعصفر، فقال: حدثنى مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر- و كان سيد القراء- كانت له لمّة، و أن هشام بن عروة فقيه هذا البلد- يعنى المدينة- كان يلبس المعصفر، و أن القاسم بن محمد كان يلبس الخز، و لقد سئل يحيى بن يحيى عن لباس العمائم فقال: هى لباس الناس فى المشرق، و عليه كان أمرهم فى القديم، فقيل له: لو لبستها لاتّبعك الناس فى لباسها، فقال: قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه، و كان ابن بشير أهلا أن يقتدى به، فلعلى لو لبست العمامة لتركنى الناس و لم يتبعونى كما تركوا ابن بشير.

و كان أول ما نظر فيه محمد بن بشير- حين ولى القضاء- التسجيل على الخليفة الحكم فى أرحى القنطرة إذ قيم عليه فيها و ثبت عنده حق المدّعى، و أعذر إلى الحكم فلم يكن عنده مدفع، فسجل فيها، و أشهد على نفسه، فما مضت مديدة حتى ابتاعها الحكم ابتياعا صحيحا، فسر بذلك، و قال: رحم اللّه محمد بن بشير! فلقد أحسن فيما فعل بنا على كره منا، كان فى أيدينا شىء مشتبه فصححه لنا، و صار حلالا- طيب الملك فى أعقابنا، و حكم على ابن فطيس الوزير، و لم يعرّفه بالشهود، فرفع الوزير ذلك إلى الحكم، و تظلم من ابن بشير، فأومأ الحكم إليه أن الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تعرّفه بهم، و لا أعذرت إليه فيهم، و إن أهل العلم يقولون: إن ذلك له، فكتب إليه ابن بشير: ليس ابن فطيس ممن يعرّف بمن شهد عليه، لأنه إن لم يجد سبيلا إلى تجريحهم لم يتحرج عن طلب أذاهم فى أنفسهم و أموالهم، فيدعون الشهادة هم و من ائتسى بهم، و تضيع أموال الناس.

و أكثر موسى بن سماعة أحد خواصّ الأمير الحكم فى ابن بشير الشكاية، و أنه يجور عليه، فقال له الحكم: أنا أمتحن قولك الساعة، فاخرج إليه فورا، و استأذن عليه، فإن أذن لك عزلته، و صدّقت قولك فيه، و إن لم يأذن لك دون خصمك ازددت بصيرة فيه، فليس هو عندى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۳

بجائر على حال، و إنما مقصده الحق فى كل ما يتصرف فيه، فخرج يؤم دار ابن بشير: و قد أمر الحكم من يثق به من الفتيان الصّقالبة أن يقفوا أثره و يعلموا ما يكون منه، فلم يكن إلا ريثما بلغ، ثم انصرف فحكى للحكم أنه لما خرج الآذن إلى موسى و علم القاضى بمكانه عاد إليه فقال له: إن كانت لك حاجة فاقصد فيها إذا جلس القاضى مجلس القضاء، فتبسم الحكم، و قال: قد أعلمته أن ابن

بشير صاحب حق لا هوادة فيه عنده لأحد.

و ولى القضاء مرتين، فلما عزل المرة الأولى انصرف إلى بلده، و كان بعض إخوانه يعاتبه فى صلابته، و يقول له: أخشى عليك العزل، فيقول له: ليته قدر أن الشقراء- يعنى بغلته- تقطع الطريق بى جادة نحو باجة، فما مضى إلا يسير حتى عتب عليه الأمير فى قصة اشتد فيها على بعض خاصته، فكانت سببا لعزله، و انصرف كما تمنى، فلم يمكث إلا يسيرا حتى أتى فيه رقّاص من قبل الأمير الحكم، و الرقاص عند المغاربة: هو الساعى عند المشارقة، فعاد إلى قرطبة، و جبره على القعود للقضاء الأمير الحكم، فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته و بصدقة ما يملك فى سبيل اللّه تعالى إن حكم بين اثنين، فلم يعذره، و أخرجه من ماله، و عوّضه من طيب ما عنده، و وهب له جارية من جواريه، فعاد إلى القضاء ثانية.

و مما يحكى عنه فى العدل أن سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل و كّل عند ابن بشير وكيلا يخاصم عنه لشيء اضطر إليه، و كانت بيده فيه و ثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا، و لم يكن فيها من الأحياء إلا الأمير الحكم و شاهد آخر مبرز، فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد، و ضربت على وكيله الآجال فى شاهد ثان، وجدّ به الخصام، فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الحكم و أراه شهادته فى الوثيقة، و قد كان كتبها قبل الخلافة فى حياة أبيه، و عرفه مكان حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفا من بطلان حقه، و كان الحكم يعظم سعيد الخير عمّه، و يلتزم مبرته، فقال له: يا عمّ، إنا لسنا من أهل الشهادات، و قد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله، و نخشى أن توقفنا مع القاضى موقف مخزاة كنا نفديه بملكنا، فصر فى خصامك حيث صيرك الحق إليه، و علينا خلف ما انتقصك، فأبى عليه، و قال: سبحان اللّه! و ما عسى أن يقول قاضيك فى شهادتك؟ و أنت ولّيته، و هو حسنة من حسناتك، و قد لزمتك فى الديانة أن تشهد لى بما علمته، و لا تكتمنى ما أخذ اللّه عليك! فقال: بلى، إن ذلك لمن حقك كما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۴

تقول، و لكنك تدخل علينا به داخلة، فإن أعفيتنا منه فهو أحبّ إلينا، و إن اضطررتنا لم يمكنا عقوقك، فعزم عليه عزم من لم يشكّ أن قد ظفر بحاجته، و ضايقته الآجال، فألح عليه، فأرسل الحكم عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه، و خط شهادته بيده فى قرطاس، و ختم عليها بخاتمه، و دفعها إلى الفقيهين و قال لهما: هذه شهادتى بخطى تحت ختمى، فأدياها إلى القاضى، فأتياه بها إلى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود، فأدياها إليه، فقال لهما:

قد سمعت منكما فقوما راشدين فى حفظ اللّه تعالى، و جاء وكيل سعيد الخير، و تقدم إليه مدلّا واثقا، و قال له: أيها القاضى، قد شهد عندك الأمير- أصلحه اللّه تعالى!- فما تقول؟ فأخذ كتاب الشهادة و نظر فيه، ثم قال للوكيل: هذه شهادة لا تعمل عندى، فجئنى بشاهد عدل، فدهش الوكيل، و مضى إلى سعيد الخير فأعلمه، فركب من فوره إلى الحكم، و قال: ذهب سلطاننا، و أزيل بهاؤنا، يجترئ هذا القاضى على رد شهادتك، و اللّه سبحانه قد استخلفك على عباده، و جعل الأمر فى دمائهم و أموالهم إليك؟ هذا ما يجب أن تحمله عليه، و جعل يغريه بالقاضى و يحرضه على الإيقاع به، فقال له الحكم: و هل شككت أنا فى هذا يا عم؟

القاضى رجل صالح و اللّه، لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، فعل ما يجب عليه و يلزمه، و سدّ دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه، فأحسن اللّه تعالى جزاءه! فغضب سعيد الخير، و قال: هذا حسبى منك، فقال له: نعم قد قضيت الذى كان لك على، و لست و اللّه أعارض القاضى فيما احتاط به لنفسه، و لا أخون المسلمين فى قبض يد مثله.

و لما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه: يا عاجز، أما تعلم أنه لا بد من الإعذار فى الشهادات، فمن كان يجترئ على الدفع فى شهادة الأمير لو قبلتها؟ و لو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه.

و توفى القاضى محمد بن بشير سنة ۱۹۸ قبل الشافعى بست سنين كما يأتى قريبا و محاسنه- رحمه اللّه تعالى!- كثيرة، و قد استوفى ترجمته بقدر الإمكان القاضى عياض فى المدارك، فليراجها من أرادها، فإن عهدى بها فى المغرب.

و قال بعض من عرف به، ما نصه: القاضى محمد بن بشير بن محمد المعافرى، أصله من جند باجة من عرب مصر، ولاه الحكم بن

هشام قضاء القضاة الذى يعبرون عنه بالمغرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۵

بقضاء الجماعة، بقرطبة، بعد المصعب بن عمران، ثم صرفه و ولى مكانه الفرج بن كنانة، و عن ابن حارث، قال أحمد بن خالد: طلب محمد بن بشير العلم بقرطبة عند شيوخ أهلها حتى أخذ منه بحظ وافر، ثم كتب لأحد أولاد عبد الملك بن مروان لمظلمة نالته على وجه الاعتصام به و تصرف معه تصرفا لطيفا، ثم انقبض عنه، و خرج حاجا، قال ابن حارث: و كتب محمد بن بشير فى حداثته للقاضى مصعب بن عمران، ثم خرج حاجا فلقى مالك بن أنس و جالسه و سمع منه، و طلب العلم أيضا بمصر، ثم انصرف فلزم ضيعته فى باجة.

و قال ابن حيان: إنه استقدم من باجة للقضاء برأى العباس بن عبد الملك.

و قال ابن شعبان فى الرواة عن مالك من أهل الأندلس: محمد بن بشير بن سرافيل، و يقال شراحيل، ولى القضاء، و كان رجلا صالحا، و بعدله تضرب الأمثال، و استوطن قرطبة، و توفى بها سنة ثمان و تسعين و مائة، انتهى، و بعضه عن غيره.

و من شعره قوله: [الرمل]

إنّما أزرى بقدرى أنّنى لست من بابة أهل البلد

ليس منهم غير ذى مقلية لذوى الألباب أو ذى حسد

يتحامون لقائى مثل ما يتحامون لقاء الأسد

مطلعى أثقل فى أعينهم و على أنفسهم من أحد

لو رأونى وسط بحر لم يكن أحد يأخذ منهم بيدى

۹۳- و منهم محمد بن عيسى بن دينار، الغافقى.

من أهل قرطبة، كان فقيها زاهدا، و حج و حضر افتتاح إقريطش، و استوطنها، قاله الرازى.

۹۴- و منهم محمد بن يحيى بن يحيى الليثى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۶

خرج حاجا، و لقى سحنون بن سعيد بإفريقية، و لقى بمصر رجالا من أصحاب مالك، فسمع منهم، و عرف بالفقه و الزهد، و جاور بمكة، و توفى هنالك.

۹۵- و منهم محمد بن مروان بن خطاب، المعروف بابن أبى جمرة.

رحل حاجا هو و ابناه خطاب و عميرة فى سنة اثنتين و عشرين و مائتين، و سمعوا ثلاثتهم من سحنون بن سعيد المدونة بالقيروان، و أدركوا أصبغ بن الفرج، و أخذوا عنه.

۹۶- و منهم محمد بن أبى علاقة، البواب، من أهل قرطبة.

كانت له رحلة إلى المشرق، و لقى فيها جماعة من أهل العلم، و أخذ عن أبى إسحاق الزجاجى، و عن أبى بكر بن الأنبارى، و عن أبى الحسن على بن سليمان الأخفش، و أبى عبد اللّه نفطويه، و غيرهم، و سمع من الأخفش «الكامل» للمبرد و قال الحكم المستنصر: لم يصح كتاب «الكامل» عندنا من رواية إلا من قبل ابن أبى علاقة، و كان ابن جابر الإشبيلى قد رواه قبل بمصر بمدة، و ما علمت

أحدا رواه غيرهما، و كان ابن الأحمر القرشي يذكر أنه رواه، و كان صدوقا، و لكن كتابه ضاع، و لو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين.

۹۷- و منهم محمد بن حزم بن بكر، التّنوخي.

من أهل طليطلة، و سكن قرطبة، يعرف بابن المدينى، سمع من أحمد بن خالد و غيره، و صحب محمد بن مسرة الجبلى قديما، و اختص بمرافقته فى طريق الحج، و لازمه بعد انصرافه، و كان من أهل الورع و الانقباض، و حكى عن ابن مسرة أنه كان فى سكناه المدينة يتتبع آثار النبى صلى اللّه عليه و سلم، قال: و دله بعض أهل المدينة على دار مارية أم إبراهيم سرّيّة النبى صلى اللّه عليه و سلم، فقصد إليها فإذا هى دويرة لطيفة بين البساتين بشرقى المدينة عرضها و طولها واحد قد شق فى وسطها بحائط، و فرش على حائطها خشب غليظ يرتقى إلى ذلك الفرش على خارج لطيف، و فى أعلى ذلك بيتان و سقيفة كانت مقعد النبى صلى اللّه عليه و سلم فى الصيف، قال: فرأيت أبا عبد اللّه بعد ما صلى فى البيتين و السقيفة و فى كل ناحية من نواحى تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره، فكشفته بعد انصرافى و هو ساكن فى الجبل عن ذلك، فقال: هذا البيت الذى ترانى فيه بنيته على تلك الحالة فى العرض و الطول بلا زيادة و لا نقصان، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۷

۹۸- و منهم محمد بن يحيى بن مالك بن يحيى بن عائذ

، ولد أبى زكريا الراوية.

من أهل طرطوشة، يكنى أبا بكر، تأدب بقرطبة، و سمع بها من قاسم بن أصبغ، و محمد بن معاوية القرشى، و أحمد بن سعيد، و منذر بن سعيد، و أبى على القالى، و غيرهم، و كان حافظا للنحو و اللغة و الشعر، يفوت من جاراه على حداثة سنة، شاعرا مجيدا مرسلا بليغا، و رحل مع أبيه إلى المشرق سنة تسع و أربعين و ثلاثمائة، فسمع بمصر من ابن الورد و ابن السكن و حمزة الكنانى و غيرهم، و سمع أيضا بالبصرة و بغداد كثيرا، و خرج إلى أرض فارس فسمع هنالك، و جمع كتبا عظيمة، و أقام بها إلى أن توفى بأصبهان معتبطا مع الستين و ثلاثمائة، و مولده بطرطوشة صدر ذى القعدة سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة، ذكره ابن حيان، رحمه اللّه تعالى!.

۹۹- و منهم محمد بن عبدون الجبلى، العدوى، من أهل قرطبة.

أدب بالحساب و الهندسة، و رحل فى سنة سبع و أربعين و ثلاثمائة، فدخل مصر و البصرة، و عنى بعلم الطب فمهر فيه، و دبر فى مارستان الفسطاط، ثم رجع إلى الأندلس فى سنة ستين و ثلاثمائة، فاتصل بالمستنصر باللّه و ابنه المؤيد باللّه، و له فى التكسير تأليف حسن، رحمه اللّه تعالى!.

۱۰۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن، الأزدى، الفراء، القرطبى.

صحب أبا بكر بن يحيى بن مجاهد، و اختص به، و لطف محله منه، و قرأ عليه القرآن، و رحل صحبته لأداء فريضة الحج، و كان رجلا صالحا كثير التلاوة للقرآن و الخشوع، إذا قرأ بكى و رتّل و بيّن فى مهل، و يقول: أبو بكر علمنى هذه القراءة، و حكى أنه سرد الصوم اثنتى عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد مفطرا كلّ ليلة وقت الإفطار، ثم تمادى على ذلك بعد موته مفطرا عقب العشاء الآخرة لالتزامه الصلاة من المغرب إليها، تزيّدا من الخير، و اجتهادا فى العمل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۸

۱۰۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن صالح، المعافرى، الأندلسى.

رحل إلى المشرق فسمع خيثمة بن سليمان و أبا سعيد بن الأعرابى و إسماعيل بن محمد الصفار و بكر بن حماد التاهرتى و غيرهم، روى عنه أبو عبد اللّه الحاكم، و قال: اجتمعنا بهمذان سنة إحدى و أربعين، يعنى و ثلاثمائة، فتوجه منها إلى أصبهان، و كان قد سمع فى بلاده و بمصر من أصحاب يونس، و بالحجاز و بالشام و بالجزيرة من أصحاب على بن حرب، و ببغداد، و ورد نيسابور فى ذى الحجة سنة إحدى و أربعين فسمع الكثير، ثم خرج إلى مرو و منها إلى بخارى فتوفى بها فى رجب من سنة ثلاث و ثمانين و ثلاثمائة، و روى عنه أيضا أبو القاسم بن حبيب النيسابورى و غيرهما، ذكره ابن عساكر، و أسند إليه قوله: [الكامل]

ودّعت قلبى ساعة التّوديع و أطعت قلبى و هو غير مطيعى

إن لم أشيّعهم فقد شيّعتهم بمشيّعين تنفّسى و دموعى

و ذكره ابن الفرضى و قال: إنه استوطن بخارى، و جعل وفاته بها سنة ثمان و سبعين، و الأول قول الحاكم، و هو أصح.

۱۰۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الأنصارى، السّرقسطى.

روى عن الباجى و ابن عبد البر، و رحل حاجا فقدم دمشق و حدث بها عن شيوخه الأندلسيين، و عن أبى حفص عمر بن أبى القاسم بن أبى زيد القفصىّ، و ذكره ابن عساكر، و قال: سمع عنه أبو محمد الأكفانى، و حكى عنه تدليسا ضعفه به، و توفى سنة ۴۷۷.

۱۰۳- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عيسى بن بقاء، الأنصارى.

من بلاد الثغر الشرقى، أخذ القراءات عن أبى داود سليمان بن نجاح، و رحل حاجا، فقدم دمشق، و أقرأ بها القرآن بالسبع، و أخذ عنه جماعة من أهلها، و كان شيخا فاضلا حافظا للحكايات قليل التكلف فى اللباس، ذكره ابن عساكر و قال: رأيته و سمعته ينشد قصيدة يوم خرج الناس للمصلى للاستسقاء على المنبر، أولها: [البسيط]

أستغفر اللّه من ذنبى و إن كبرا و أستقلّ له شكرى و إن كثرا

و كان يسكن فى دار الحجارة، و يقرئ بالمسجد الجامع.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۲۹۹

ولد فى الثانى و العشرين من شعبان سنة أربع و خمسين و أربعمائة، و توفى يوم الأربعاء عند صلاة العصر، و دفن يوم الخميس لصلاة الظهر الثانى من ذى الحجة سنة اثنتى عشرة و خمسمائة، و دفن فى مقابر الصحابة بالقرب من قبر أبى الدّرداء، رضى اللّه تعالى عنه! قال:

و شهدت أنا غسله و الصلاة عليه و دفنه، و ذكره السلفى.

۱۰۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن طاهر بن على بن عيسى، الأنصارى، الخزرجى.

من أهل دانية، سمع كتاب التقصى لابن عبد البر، و لقى أبا الحسن الحصرى ثم خرج حاجا فقدم دمشق سنة أربع و خمسمائة، و أقام بها مدة يقرئ العربية، و كان شديد الوسوسة فى الوضوء.

و ذكر ابن عساكر و قال: أنشدنى أخى أبو الحسين هبة اللّه بن الحسن الفقيه قال: أنشدنا ابن طاهر الأندلسى بدمشق قال: أنشدنى الحصرى لنفسه: [مخلع البسيط]

يموت من فى الأنام طرّا من طيّب كان أو خبيث

فمستريح و مستراح منه، كما جاء فى الحديث

قال: و أنشدنى الحصرى لنفسه: [الكامل]

لو كان تحت الأرض أو فوق الذّرى حرّ أتيح له العدوّ ليوذى

فاحذر عدوّك و هو أهون هيّن إنّ البعوضة أردت النّمروذا

۱۰۵- و منهم محمد بن أبى سعيد الفرج بن عبد اللّه، البزار.

من أهل سرقسطة، لقى بدانية الحصرى، و سمع منه بعض منظومه، و رحل حاجا فأدى الفريضة، و دخل العراق فسمع من جماعة و أجازوا له: منهم ابن خيرون، و الحميدى، و أبو زكريا التبريزى، و المبارك بن عبد الجبار، و ثابت بن بندار، و هبة اللّه بن الأكفانى، و غيرهم، و نزل الإسكندرية، و حدث بها، و أخذ الناس عنه، و توفى هنالك، و أنشد للحصرى: [المتقارب]

النّاس كالأرض، و منها هم من خشن اللّمس و من ليّن

صلد تشكّى الرّجل منه الوجى و إثمد يجعل فى الأعين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۰

و روى عنه ابن الحضرمى و ابن جارة، و غيرهما.

۱۰۶- و منهم أبو بكر محمد بن الحسين، الشهير بالميورقى،

لأن أصله منها، و سكن غرناطة.

و روى عن أبى على الصّدفى، و رحل حاجا فسمع بمكة من أبى الفتح عبد اللّه بن محمد البيضاوى، و أبى نصر عبد الملك بن أبى مسلم النهاوندى، فى شوّال و ذى القعدة من سنة ۵۱۷، و بالإسكندرية من أبى عبد اللّه الرازى و أبى الحسن بن مشرّف و أبى بكر الطّرطوشى و غيرهم، و عاد إلى الأندلس بعد مدة طويلة فحدث فى غير ما بلد لتجوّله، و كان فقيها ظاهريا، عارفا بالحديث و أسماء الرجال، متقنا لما رواه، يغلب عليه الزهد و الصلاح، روى عنه أبو عبد اللّه النميرى الحافظ و يقول فيه «الأزدى» تدليسا، لأن الأنصار من الأزد، و أبو بكر بن رزق، و أبو عبد اللّه بن عبد الرحيم، و ابنه عبد المنعم، و سواهم، و صار أخيرا إلى بجاية هاربا من صاحب المغرب حينئذ بعد أن حمل إليه هو و أبوه العباس بن العريف و أبو الحكم بن برّجان، و حدث هنالك، و سمع منه فى سنة ۵۳۷، رحمه اللّه تعالى!.

۱۰۷- و منهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطّفيل

، العبدى الإشبيلى.

و يعرف بابن عظيمة، أخذ القراءات عن أبى عبد اللّه السرقسطى، و روى عن أبى عبد اللّه الخولانى، و أبى عبد اللّه بن فرج، و أبى على الغسانى، و أبى داود المقرى، و أبى جعفر بن عبد الحق، و أبى الوليد بن طريف، و رحل حاجا فروى بمكة عن رزين بن معاوية، ثم بالإسكندرية عن ابن الحضرمى أبى عبد اللّه محمد بن منصور، و أبى الحسن بن مشرّف الأنماطى، و بالمهدية عن المازرىّ، و كانت رحلته مع أبى على منصور بن الخير الأحدب للقاء أبى معشر الطبرى، فبلغهما نعيه بمصر، فلما قفلا من حجهما قعد منصور يقول: قرأت على أبى معشر، و اقتصر أبو الحسن فى تصدره للإقراء على التحديث عمن لقى، فعرف مكانه من الصدق و العدالة، و ولى الصلاة ببلده، و تقدّم فى صناعته، و اشتهر بها، و تلاه أهل بيته فيها، فأخذ عنهم الناس، و له أرجوزة فى القراءات السبع، و أخرى فى مخارج الحروف، و شرح قصيدة الشّقراطسى، و له أيضا كتاب «الفريدة الحمصية، فى شرح القصيدة الحصرية» و إليه و إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۱

بنيه بعده كانت الرياسة فى هذا الشأن، و من جلة الرواة عنه أبو بكر: محمد بن خير، قرأ عليه «الشهاب» للقضاعى، و أجاز له جميع رواياته و تواليفه فى رجب سنة ۵۳۶، و توفى فى حدود الأربعين و خمسمائة، و روى عنه أبو الضحاك الفزارى.

۱۰۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عيسى بن هشام بن جراح، الخزرجى

.من أهل جيّان، و يعرف بالبغدادى لطول سكناه إياها، روى عن أبى على الغسّانى، و أبى محمد بن عتاب، و رحل حاجّا فلقى أبا الحسن الطبرى المعروف بالكيا، و أبا طالب الزينبى، و أبا بكر الشاشى، و غيرهم. و كان فقيها مشاورا حدث عنه أبو عبد اللّه النميرى، و أبو محمد بن عبيد اللّه، و أبو عبد اللّه بن حميد و أبو القاسم عبد الرحيم بن الملجوم، و غير واحد، و توفى بفاس سنة ۵۴۷.

۱۰۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن على بن ياسر، الأنصارى، الجيّانى

، و نزل حلب يكنى أبا بكر.

رحل إلى المشرق، و أدّى الفريضة، و قدم دمشق قبل العشرين و خمسمائة، و سكن قنطرة سنان منها، و كان يعلم القرآن، و يتردد إلى أبى عبد اللّه نصر اللّه بن محمد يسمع الحديث منه، ثم رحل صحبة أبى القاسم بن عساكر صاحب تاريخ الشام إلى بغداد سنة عشرين، و كان زميله، فسمع بها معه من هبة اللّه بن الحصين و غيره، ثم خرج إلى خراسان فسمع بها من حمزة الحسينى و أبى عبد اللّه الفراوى و أبى القاسم الشّحّامى و غيرهم، و سمع ببلخ جماعة منهم أبو محمد الحسن بن على الحسينى و أبو النجم مصباح بن محمد المكى و غيرهما، و بلغ الموصل فأقام بها مدة يسمع منه و يؤخذ عنه، ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها، و سلّمت إليه خزانة الكتب النورية، و أجريت عليه جراية، و كان فيه عسر فى الرواية و الإعارة معا، و وقف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۲

كتبه على أصحاب الحديث، و له عوال مخرّجة من حديثه ساوى بعض شيوخه البخارى و مسلما و أبا داود و الترمذى و النسائى، روى عنه أبو حفص الميّانشى و أبو المنصور مظفر بن سوار اللخمى و أبو محمد عبد اللّه بن على بن سويدة و ابن أبى السنان و غيرهم.

ذكره ابن عساكر فى تاريخه و قال: سمعت منه، و مات فى جمادى الأولى سنة ثلاث و ستين و خمسمائة على ما بلغنى.

و قال ابن نقطة: حدث عن جماعة منهم أبو القاسم سهل بن إبراهيم النيسابورى و أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الهمدانى، حدثنا عنه أبو محمد عبد الرحمن بن عبد اللّه بن علوان الحلبى و أخوه أبو العباس أحمد، و حكى عن الحسن بن هبة اللّه بن صصرى أنه توفى بحلب فى جمادى الأولى سنة ثلاث و ستين و خمسمائة كما تقدم، و قد بلغ السبعين، قاله ابن الأبار.

۱۱۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن سعادة.

مرسىّ سكن شاطبة، و دار سلفه بلنسية، سمع أبا على الصّدفى و اختص به، و أكثر عنه، و إليه صارت دواوينه و أصوله العتاق و أمّهات كتبه الصحاح، لصهر كان بينهما، و سمع أيضا أبا محمد بن أبى جعفر، و لازم حضور مجلسه للتفقه به، و حمل ما كان يرويه، و رحل إلى غرب الأندلس فسمع محمد بن عتاب و أبا بحر الأسدى و أبا الوليد بن رشيد، و أبا عبد اللّه الخولانى، و أبا الوليد بن رشد و أبا عبد اللّه بن الحاج و أبا بكر العربى و غيرهم، و كتب إليه أبو عبد اللّه الخولانى و أبو الوليد بن طريف و أبو الحسن بن عفيف و أبو القاسم بن صواب و أبو محمد بن السّيد و غيرهم، ثم رحل إلى المشرق سنة عشرين و خمسمائة، فلقى بالإسكندرية أبا الحجاج بن نادر الميورقى، و صحبه و سمع منه، و أخذ عنه الفقه و علم الكلام، و أدى فريضة الحج فى سنة إحدى و عشرين، و لقى بمكة أبا الحسن رزين بن معاوية العبدرى إمام المالكية بها، و أبا محمد بن صدقة المعروف بابن غزال من أصحاب كريمة المروزية:

فسمع منهما و أخذ عنهما، و روى عن أبى الحسن على بن سند بن عياش الغسانى ما حمل عن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۳

أبى حامد الغزالى من تصانيفه، ثم انصرف إلى ديار مصر فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندرية، و لقى أبا طاهر بن عوف و أبا عبد اللّه بن مسلم القرشى و أبا طاهر السّلفى و أبا زكريا الزناتى و غيرهم، فأخذ عنهم، و كان قد كتب إليه منها أبو بكر الطّرطوشى و أبو الحسن بن مشرّف الأنماطى، و لقى فى صدره بالمهدية أبا عبد اللّه المازرى فسمع منه بعض كتاب المعلم، و أجاز له باقيه، و عاد إلى مرسية فى سنة ست و عشرين، و قد حصل فى رحلته علوما جمة و رواية فسيحة، و كان عارفا بالسنن و الآثار، مشاركا فى علم القرآن و تفسيره، حافظا للفروع، بصيرا باللغة و الغريب، ذا حظ من علم الكلام، مائلا إلى التصوف، مؤثرا له، أديبا بليغا خطيبا فصيحا، ينشئ الخطب مع الهدى و السّمت و الوقار و الحلم، جميل الشارة، محافظا على التلاوة بالخشوع، راتبا على الصوم، و ولى خطة الشورى بمرسية مضافة إلى الخطبة بجامعها، و أخذ فى إسماع الحديث و تدريس الفقه، ثم ولى القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمين، و نقل إلى قضاء شاطبة فاتخذها وطنا، و كان يسمع الحديث بها و بمرسية و بلنسية، و يقيم الخطب أيام الجمع فى جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقبا عليها، و قد حدث بالمرية و هناك أبو الحسن بن موهب و أبو محمد الرّشاطى و غيرهما، و سمع منه أبو الحسن بن هذيل جامع الترمذى، و ألف كتابه «شجرة الوهم، المترقية إلى ذروة الفهم» و لم يسبق إلى مثله، و ليس له غيره، و جمع فهرسة حافلة.

و وصفه غير واحد بالتّفنّن فى العلوم و المعارف، و الرسوخ فى الفقه و أصوله، و المشاركة فى علم الحديث و الأدب.

و قال ابن عياد فى حقه: إنه كان صليبا فى الأحكام، مقتفيا للعدل، حسن الخلق و الخلق، جميل المعاملة، لين الجانب، فكه المجالسة، ثبتا، حسن الخط، من أهل الإتقان و الضبط.

و حكى أنه كانت عنده أصول حسان بخط عمه، مع الصحيحين بخط الصّدفى، فى سفرين، قال: و لم يكن عند شيوخنا مثل كتبه فى صحتها و إتقانها و جودتها، و لا كان فيهم من رزق عند الخاصة و العامة من الحظوة و الذكر و جلالة القدر ما رزقه.

و ذكره أبو سفيان أيضا و أبو عمر بن عات، و رفعوا جميعا بذكره.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۴

و توفى بشاطبة مصروفا عن قضائها آخر ذى الحجة سنة خمس و خمسين و خمسمائة و دفن أول يوم من سنة ست و خمسين و خمسمائة، و دفن بالروضة المنسوبة إلى أبى عمر بن عبد البر، و مولده فى رمضان، سنة ۴۹۶.

۱۱۱- و منهم محمد بن إبراهيم بن وضاح، اللخمى

.من أهل غرناطة، و نزل جزيرة شقر، يكنى أبا القاسم، و أخذ القراءة عن أبى الحسن بن هذيل و سمع منه كثيرا، و رحل حاجا فأدى الفريضة، و أخذ القراءات بمكة عن أبى على بن العرجاء فى سنة ست و أربعين و خمسمائة و سنة سبع بعدها، و حج ثلاث حجات، و دخل بغداد، و أقام فى رحلته نحوا من تسعة أعوام، و قفل إلى الأندلس، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، و أقرأ بها القرآن نحوا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجرا، و لا قبل هدية، و ولى الصلاة و الخطبة بجامعها، و كان رجلا صالحا زاهدا مشاورا يشار إليه بإجابة الدعوة، معروفا بالورع و الانقباض، و توفى فى صفر سنة ۵۸۷.

۱۱۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن، التجيبى، نزيل تلمسان.

من أهل لقنت عمل مرسية، و سكن أبوه أريوله، رحل إلى المشرق فأدى الفريضة، و أطال الإقامة هنالك، و استوسع فى الرواية، و كتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة و ثلاثين، من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر السّلفى، صحبه و اختص به و أكثر عنه، و حكى

عنه أنه لما ودعه فى قفوله إلى المغرب سأله عما كتب عنه، فأخبره أنه كتب كثيرا من الأسفار و مئتين من الأجزاء، فسرّ بذلك، و قال له: تكون محدّث المغرب إن شاء اللّه تعالى، قد حصلت خيرا كثيرا، قال: ودعا لى بطول العمر حتى يؤخذ عنى ما أخذت عنه، و قد جمع فى أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفا مفيدا أكثر فيه من الآثار و الحكايات و الأخبار، و قفل من رحلته، و له أربعون حديثا فى المواعظ، و أخرى فى الفقر، و فضله، و ثالثة فى الحب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۵

فى اللّه تعالى، و رابعة فى فضل الصلاة على النبى صلى اللّه عليه و سلم، و مسلسلاته فى جزء، و كتاب «فضائل الأشهر الثلاثة رجب و شعبان و رمضان» و كتاب «فضل عشر ذى الحجة» و كتاب «مناقب السبطين» و كتاب «الفوائد الكبرى» مجلد، و «الفوائد الصغرى» جزء، و كتاب «الترغيب فى الجهاد» خمسون بابا فى مجلد، و كتاب «المواعظ و الرقائق» أربعون مجلسا، سفران، و كتاب «مشيخة السّلفى» و غير ذلك.

و مولده بلقنت الصغرى فى نحو الأربعين و خمسمائة، و توفى سنة عشر و ستمائة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۱۳- و منهم الشيخ الأكبر، ذو المحاسن التى تبهر، سيدى محيى الدين بن عربى محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد اللّه، الحاتمى،

من ولد عبد اللّه بن حاتم أخى عدىّ بن حاتم، الصوفى، الفقيه، المشهور، الظاهرى.

ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ۵۶۰، قرأ القرآن على أبى بكر بن خلف بإشبيلية، بالسبع و بكتاب الكافى، و حدّثه به عن ابن المؤلف أبى الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعينى عن أبيه، و قرأ أيضا السبع بالكتاب المذكور على أبى القاسم الشّرّاط القرطبى، و حدّثه به عن ابن المؤلف، و سمع على ابن أبى بكر محمد بن أبى جمرة كتاب «التيسير» للدانى عن أبيه عن المؤلف، و سمع على ابن زرقون و أبى محمد عبد الحق الإشبيلى الأزدى و غير واحد من أهل المشرق و المغرب يطول تعدادهم.

و كان انتقاله من مرسية لإشبيلية سنة ۵۶۸، فأقام بها إلى سنة ۵۹۸، ثم ارتحل إلى المشرق، و أجازه جماعة منهم الحافظ السّلى و ابن عساكر و أبو الفرج بن الجوزى، و دخل مصر، و أقام بالحجاز مدّة، و دخل بغداد و الموصل و بلاد الروم، و مات بدمشق سنة ۶۳۸، ليلة الجمعة الثامن و العشرين من شهر ربيع الآخر، و دفن بسفح قاسيون، و أنشدنى لنفسه مؤرخا وفاته الشيخ محمد بن سعد الكلشنى سنة ۱۰۳۷، حفظه اللّه تعالى: [الخفيف]

إنّما الحاتمىّ فى الكون فرد و هو غوث و سيّد و إمام

كم علوم أتى بها من غيوب من بحار التّوحيد يا مستهام

إن سألتم متى توفّى حميدا قلت أرّخت: مات قطب همام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۶

و قال ابن الأبار: هو من أهل المريّة، و قال ابن النجار: أقام بإشبيلية إلى سنة ۵۹۸، ثم دخل بلاد المشرق، و قال ابن الأبار: إنه أخذ عن مشيخة بلده، و مال إلى الآداب، و كتب لبعض الولاة، ثم رحل إلى المشرق حاجا، و لم يعد بعدها إلى الأندلس، و قال المنذرى: ذكر أنه سمع بقرطبة من أبى القاسم بن بشكوال و جماعة سواه، و طاف البلاد، و سكن بلاد الروم مدّة، و جمع مجاميع فى الطريقة، و قال ابن الأبار: إنه لقيه جماعة من العلماء و المتعبدين، و أخذوا عنه، و قال غيره: إنه قدم بغداد سنة ۶۰۸، و كان يومأ إليه بالفضل و المعرفة، و الغالب عليه طرق أهل الحقيقة، و له قدم فى الرياضة و المجاهدة و كلام على لسان أهل التصوّف، و وصفه غير واحد بالتقدّم و المكانة من أهل هذا الشأن بالشام و الحجاز، و له أصحاب و أتباع.

و من تأليفه مجموع ضمنه منامات رأى فيها النبى صلى اللّه عليه و سلم و ما سمع منه و منامات قد حدث بها عمن رآه صلى اللّه عليه و سلم.

قال ابن النجار: و كان قد صحب الصوفية، و أرباب القلوب، و سلك طريق الفقر، و حج و جاور، و كتب فى علم القوم، و فى أخبار مشايخ المغرب و زهادهم، و له أشعار حسنة، و كلام مليح، اجتمعت به فى دمشق فى رحلتى إليها، و كتبت عنه شيئا من شعره، و نعم الشيخ هو، ذكر لى أنه دخل بغداد سنة ۶۰۱، فأقام بها اثنى عشر يوما، ثم دخلها ثانيا حاجا مع الركب سنة ۶۰۸، و أنشدنى لنفسه: [الطويل]

أيا حائرا ما بين علم و شهوة ليتّصلا، ما بين ضدّين من وصل

و من لم يكن يستنشق الرّيح لم يكن يرى الفضل للمسك الفتيق على الزّبل

و سألته عن مولده فقال: ليلة الاثنين ۱۷ رمضان سنة ۵۶۰ بمرسية من بلاد الأندلس، انتهى.

و قال ابن مسدى: إنه كان جميل الجملة و التفضيل، محصلا لفنون العلم أخص تحصيل، و له فى الأدب الشأو الذى لا يلحق، و التقدم الذى لا يسبق، سمع ببلاده من ابن زرقون و الحافظ ابن الجد و أبى الوليد الحضرمى، و بسبتة من أبى محمد بن عبد اللّه، و قدم عليه إشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجى فسمع منه، و أبو جعفر بن مصلّى، و ذكر أنه لقى عبد الحق الإشبيلى، و فى ذلك عندى نظر، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۷

قلت: لا نظر فى ذلك، فإن سيدى الشيخ محيى الدين ذكر فى إجازته للملك المظفر غازى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ما معناه أو نصه: و من شيوخنا الأندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد اللّه الإشبيلى، رحمه اللّه تعالى! حدثنى بجميع مصنفاته فى الحديث، و عين لى من أسمائها تلقين المهتدى، و الأحكام الكبرى، و الوسطى، و الصغرى، و كتاب التهجد، و كتاب العاقبة، و نظمه و نثره، و حدثنى بكتب الإمام أبى محمد على بن أحمد بن حزم عن أبى الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه، انتهى.

و قال: إن الحافظ السّلفى أجاز له، انتهى.

قال بعض الحفاظ: و أحسبها الإجازة العامة، و كان ظاهرى المذهب فى العبادات، باطنى النظر فى الاعتقادات، و كان دفنه يوم الجمعة بجبل قاسيون، و اتفق أنه لما أقام ببلاد الروم زكاه ذات يوم الملك فقال: هذا تذلّ له الأسود، أو كلاما هذا معناه، فسئل عن ذلك، فقال:

خدمت بمكة بعض الصلحاء، فقال لى يوما: اللّه يذلّ لك أعز خلقه، و أمر له ملك الروم مرة بدار تساوى مائة ألف درهم، فلما نزلها و أقام بها مرّ به فى بعض الأيام سائل، فقال له:

شىء للّه، فقال: ما لى غير هذه الدار، خذها لك، فتسلّمها السائل و صارت له.

و قال الذهبى فى حقه: إن له توسعا فى الكلام، و ذكاء، و قوة خاطر، و حافظة، و تدقيقا فى التصوف، و تواليف جمة فى العرفان، لو لا شطحه فى كلامه و شعره، و لعل ذلك وقع منه حال سكره و غيبته، فيرجى له الخير، انتهى.

و قال القطب اليونينى فى ذيل «مرآة الزمان»: عن سيدى الشيخ محيى الدين. رضى اللّه تعالى عنه و نفعنا به!- أنه كان يقول: إنى أعرف اسم اللّه الأعظم، و أعرف الكيمياء، انتهى.

و قال ابن شودكين عنه: إنه كان يقول: ينبغى للعبد أن يستعمل همته فى الحضور فى مناماته، بحيث يكون حاكما على خياله يصرفه بعقله نوما، كما كان يحكم عليه يقظة، فإذا حصل للعبد هذا الحضور و صار خلقا له وجد ثمرة ذلك فى البرزخ و انتفع به جدا، فليهتم العبد بتحصيل هذا القدر، فإنه عظيم الفائدة بإذن اللّه تعالى.

و قال: إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأن ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عزمه بذلك.

و قال: ينبغى للسالك أنه متى حضر له أنه يعقد على أمر و يعاهد اللّه تعالى عليه أن يترك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۸

ذلك الأمر إلى أن يجيء وقته، فإن يسر اللّه تعالى فعله فعله، و إن لم ييسر اللّه فعله يكون مخلصا من نكث العهد، و لا يكون متصفا بنقض الميثاق.

و من نظم الشيخ محيى الدين- رحمه اللّه تعالى!- قوله: [الكامل]

بين التّذلّل و التّدلّل نقطة فيها يتيه العالم النّحرير

هى نقطة الأكوان إن جاوزتها كنت الحكيم و علمك الإكسير

و قوله أيضا رحمه اللّه: [الكامل]

يا درّة بيضاء لاهوتيّة قد ركّبت صدفا من النّاسوت

جهل البسيطة قدرها لشقائهم و تنافسوا فى الدّرّ و الياقوت

و حكى العماد بن النحاس الأطروش أنه كان فى سفح جبل قاسيون على مستشرف، و عنده الشيخ محيى الدين، و الغيث و السحاب عليهم، و دمشق ليس عليها شيء، قال: فقلت للشيخ: أما ترى هذه الحال؟ فقال: كنت بمراكش و عندى ابن خروف الشاعر، يعنى أبا الحسن على بن محمد القرطبى القبذاقى، و قد اتفق الحال مثل هذه، فقلت له مثل هذه المقالة، فأنشدنى: [المتقارب]

يطوف السّحاب بمرّاكش طواف الحجيج ببيت الحرم

يروم نزولا فلا يستطيع لسفك الدّماء و هتك الحرم

و حكى المقريزى فى ترجمة سيدى عمر بن الفارض- أفاض اللّه علينا من أنواره!- أن الشيخ محيى الدين بن العربى بعث إلى سيدى عمر يستأذنه فى شرح التائية، فقال: كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها، انتهى.

و قال بعض من عرّف به: إنه لما صنف «الفتوحات المكية» كان يكتب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان، و حصلت له بدمشق دنيا كثيرة، فما ادّخر منها شيئا، و قيل: إن صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم، و ابن الزكى كل يوم ثلاثين درهما، فكان يتصدق بالجميع،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۰۹

و اشتغل الناس بمصنفاته، و لها ببلاد اليمن و الروم صيت عظيم، و هو من عجائب الزمان، و كان يقول: أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب.

و من نظمه رضى اللّه تعالى عنه: [مجزوء الرجز]

حقيقتى همت بها و ما رآها بصرى

و لو رآها لغدا قتيل ذاك الحور

فعندما أبصرتها صرت بحكم النّظر

فبتّ مسحورا بها أهيم حتّى السّحر

يا حذرى من حذرى لو كان يغنى حذرى

و اللّه ما هيّمنى جمال ذاك الخفر

فى حسنها من ظبية ترعى بذات الخمر

إذا رنت أو عطفت تسبى عقول البشر

كأنّما أنفاسها أعراف مسك عطر

كأنّها شمس الضّحى فى النّور أو كالقمر

إن أسفرت أبرزها نور صباح مسفر

أو سدلت غيبها سواد ذاك الشّعر

يا قمرا تحت دجى خذى فؤادى و ذرى

عينى لكى أبصركم إذ كان حظّى نظرى

و قال الخويّىّ: قال الشيخ سيدى محيى الدين بن عربى رضى اللّه تعالى عنه: رأيت بعض الفقهاء فى النوم فى رؤيا طويلة، فسألنى: كيف حالك مع أهلك؟ فقلت: [البسيط]

إذا رأت أهل بيتى الكيس ممتلئا تبسّمت و دنت منّى تمازحنى

و إن رأته خليّا من دراهمه تجهّمت و انثنت عنّى تقابحنى

فقال لى: صدقت، كلنا ذلك الرجل.

و ذكر الإمام العالم بالله تعالى لسان الحقيقة، و شيخ الطريقة، صفى الدين حسين بن الإمام العلامة جمال الدين أبى الحسن على، ابن الإمام مفتى الأنام كمال الدين أبى منصور ظافر الأزدى الأنصارى رضى اللّه تعالى عنه فى رسالته الفريدة المحتوية على من رأى من سادات مشايخ عصره، بعد كلام، ما صورته: و رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيى الدين بن عربى، و كان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية، و ما وقر له من العلوم الوهبية، و منزلته شهيرة، و تصانيفه كثيرة، و كان غلب عليه التوحيد علما و خلقا و حالا، لا يكترث بالوجود، مقبلا كان أو معرضا، و له علماء أتباع أرباب مواجيد، و تصانيف، و كان بينه و بين سيدى الأستاذ الحرّار، إخاء و رفقة فى السياحات، رضى اللّه تعالى عنهما فى الآصال و البكرات، و من نظم سيدى الشيخ محيى الدين رضى اللّه تعالى عنه قوله: [مجزوء الكامل]

يا من يرانى و لا أراه كم ذا أراه و لا يرانى

و قال رحمه اللّه تعالى: قال لى بعض إخوانى لما سمع هذا البيت: كيف تقول: إنه لا يراك و أنت تعلم أنه يراك؟ فقلت له مرتجلا: [مجزوء الكامل]

يا من يرانى مجرما و لا أراه آخذا

كم ذا أراه منعما و لا يرانى لائذا

قلت: من هذا و شبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه اللّه تعالى مؤوّل، و أنه لا يقصد ظاهره، و إنما له محامل تليق به، و كفاك شاهدا هذه الجزئية الواحدة، فأحسن الظن به و لا تنتقد، بل اعتقد، و للناس فى هذا المعنى كلام كثير، و التسليم أسلم، و اللّه سبحانه بكلام أوليائه أعلم.

و من النظم المنسوب لمحاسن الشيخ سيدى محيى الدين رضى اللّه تعالى عنه فى ضابط ليلة القدر: [الطويل]

و إنّا جميعا إن نصم يوم جمعة ففى تاسع العشرين خذ ليلة القدر

و إن كان يوم السّبت أوّل صومنا فحادى و عشرين اعتمده بلا عسر

و إن كان صوم الشّهر فى أحد فخذ ففى سابع العشرين ما شئت فاستقرى

و إن هلّ بالاثنين فاعلم بأنّه يواتيك نيل المجد فى تاسع العشر

و يوم الثّلاثا إن بدا الشّهر فاعتمد على خامس العشرين فاعمل بها تدرى

و فى الأربعا إن هلّ يا من يرومها فدونك فاطلب وصلها سابع العشر

و يوم خميس إن بدا الشّهر فاجتهد ففى ثالث العشرين تظفر بالنّصر

و ضابطها بالقول ليلة جمعة توافيك بعد النّصف فى ليلة الوتر

قلت: لست على يقين من نسبة هذا النظم إلى الشيخ رحمه اللّه تعالى! فإن نفسه أعلى من هذا النظم، و لكنى ذكرته لما فيه من الفائدة، و لأن بعض الناس نسبه إليه، فاللّه تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

و مما نسبه إليه رحمه اللّه تعالى غير واحد قوله: [المنسرح]

قلبى قطبى، و قالبى أجفانى سرّى خضرى، و عينه عرفانى

روحى هارون و كليمى موسى نفسى فرعون، و الهوى هامانى

و ذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يكتبان لمن به القولنج فى كفه و يلحسهما، فإنه يبرأ بإذن اللّه تعالى، قال: و هو من المجرّبات.

و قد تأوّل بعض العلماء قول الشيخ رحمه اللّه تعالى بإيمان فرعون أن مراده بفرعون النفس بدليل ما سبق، و حكى فى ذلك حكاية عن بعض الأولياء ممن كان ينتصر للشيخ، رحمه اللّه تعالى!.

و ولد للشيخ محيى الدين- رحمه اللّه تعالى!- ابنه محمد المدعوّ سعد الدين بملطية فى رمضان سنة ۶۱۸، و سمع الحديث، و درس، و قال الشعر الجيد، و له ديوان شعر مشهور، و توفى بدمشق سنة ۶۵۶ سنة دخل هولاكو بغداد و قتل الخليفة المستعصم، و دفن المذكور عند والده بسفح قاسيون، و كان قدم القاهرة، و سكن حلبا، و من شعره: [الرجز]

لمّا تبدّى عارضاه فى نمط قيل ظلام بضياء اختلط

و قيل سطر الحسن فى خدّيه خط و قيل نمل فوق عاج انبسط

و قيل مسك فوق ورد قد نقط و قال قوم: إنّها اللّام فقط

قلت: تذكرت بهذا ما قاله الكاتب أبو عبد اللّه بن جزىّ الأندلسى كاتب سلطان المغرب أبى عنان حين تنازع الكتاب أرباب الأقلام و الرؤساء أصحاب السيوف فى تشبيه العذار، و قالت له فرقة: لا نشبهه إلا بما هو مناسب لصنعتنا، فلما فرغوا قال ابن جزى: [البسيط]

أتى أولو الكتب و السّيف الأولى عزموا من بعد سلمى على حربى و إسلامى

بكلّ معنى بديع فى العذار على ما تقتضى منهم أفكار أحلامى

فقال ذو الكتب: لا أرضى المحارب فى تشبيهه لا و أنقاسى و أقلامى

و قال ذو الحرب: لا أرضى الكتائب فى تشبيهه و مظلّاتى و أعلامى

فقلت: أجمع بين المذهبين معا باللام، فاستحسنوا التّشبيه باللّام

و هذه الغاية التى لا تدرك مع البديهة و لزوم ما لا يلزم.

رجع- و من نظم سعد الدين قوله: [الكامل]

سهرى من المحبوب أصبح مرسلا و أراه متّصلا بفيض مدامع

قال الحبيب: بأنّ ريقى نافع فاسمع رواية مالك عن نافع

و من نظمه أيضا قوله: [الطويل]

و قالوا: قصير شعر من قد هويته، فقلت: دعونى لا أرى منه مخلصا

محيّاه شمس قد علت غصن قدّه فلا عجب للظّلّ أن يتقلّصا

و قوله: [مخلع البسيط]

و ربّ قاض لنا مليح يعرب عن منطق لذيذ

إذا رمانا بسهم لحظ قلنا له دائم النّفوذ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۱۳

و قوله: [مجزوء الخفيف]

لكك و اللّه منظر قلّ فيه المشاركك

إنّ يوما نراك فى ه ليوم مباركك

و من نظمه أيضا ما كتب به إلى أخيه عماد الدين أبى عبد اللّه محمد بن الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى أفاض اللّه تعالى علينا من فتوحاته قوله: [البسيط]

ما للنّوى رقّة ترثى لمكتئب حرّان فى قلبه و الدّمع فى حلب

قد أصبحت حلب ذات العماد بكم و جلّق إرم هذا من العجب

و توفى الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ۶۶۷، و دفن بسفح قاسيون عند والده بتربة القاضى ابن الزكى، رحم اللّه تعالى الجميع!.

و ابن الزكىّ أيضا محيى الدين.

و من نظم سعد الدين المذكور فى وسيم رآه بالزيادة فى دمشق: [الخفيف]

يا خليلىّ فى الزّيادة ظبى سلبت مقلتاه جفنى رقاده

كيف أرجو السّلوّ عنه و طرفى ناظر حسن وجهه فى الزّيادة

و له: [السريع]

علقت صوفيّا كبدر الدّجى لكنّه فى وصلى الزّاهد

يشهد وجدى بغرامى له فديت صوفيّا له شاهد

و له أيضا: [الوافر]

صبوت إلى حريرىّ مليح تكرّر نحو منزله مسيرى

أقول له: ألا ترثى لصبّ عديم للمساعد و النّصير

أقام ببابكم خمسين شهرا فقال: كذا مقامات الحريرى

و له: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۱۴

و غزال من اليهود أتانى زائرا من كنيسه أو كناسه

بتّ أجنى الشّقيق من وجنتيه و أشمّ العبير من أنفاسه

و اعتنقنا إذ لم نخف من رقيب و أمنّا الوشاة من حرّاسه

من رآنى يظنّنى لنحولى و اصفرارى علامة فوق راسه

و له: [الخفيف]

لى حبيب بالنّحو أصبح مغرى فهو منّى بما أعانيه أدرى

قلت: ما ذا تقول حين تنادى يا حبيبى المضاف نحوك جهرا

قال لى: يا غلام، أو يا غلامى، قلت: لبّيك ثمّ لبّيك عشرا

و له أيضا: [الكامل]

ساءلتنى عن لفظة لغويّة فأجبت مبتدئا بغير تفكّر

خاطبتنى متبسّما فرأيتها من نظم ثغرك فى صحاح الجوهرى

و له: [الكامل]

و علمت أنّ من الحديد فؤاده لمّا انتضى من مقلتيه مهنّدا

آنست من وجدى بجانب خدّه نارا و لكن ما وجدت بها هدى

و قال الشيخ محيى الدين- أفاض اللّه تعالى علينا من أنواره، و كسانا بعض حلل أسراره!- إنه بلغنى فى مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت فى بأمور عظيمة، فقلت:

هذه قد جعلها اللّه تعالى سببا لخير وصل إلى فلأكافئنّها، و عقدت فى نفسى أن أجعل جميع ما اعتمرت فى رجب لها و عنها، ففعلت ذلك، فلما كان الموسم استدلّ على رجل غريب، فسأله الجماعة عن قصده، فقال: رأيت بالينبع فى الليلة التى بتّ فيها كأن آلافا من الإبل أوقارها المسك و العنبر و الجوهر، فعجبت من كثرته، ثم سألت: لمن هو؟ فقيل: هو لمحمد بن عربى يهديه إلى فلانة، و سمى تلك المرأة، ثم قال: و هذا بعض ما تستحق، قال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۱۵

سيدى ابن عربى: فلما سمعت الرؤيا و اسم المرأة، و لم يكن أحد من خلق اللّه تعالى علم منى ذلك، علمت أنه تعريف من جانب الحق، و فهمت من قوله إن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها، فقصدت المرأة و قلت: اصدقينى، و ذكرت لها ما كان من ذلك، فقالت: كنت قاعدة قبالة البيت، و أنت تطوف، فشكرت الجماعة الذين كنت فيهم، فقلت فى نفسى: اللهم إنى أشهدك أنى قد وهبت له ثواب ما أعمله فى يوم الاثنين و فى يوم الخميس، و كنت أصومهما و أتصدق فيهما، قال: فعلمت أن الذى وصل منى إليها بعض ما تستحق فإنها سبقت بالجميل، و الفضل للمتقدّم.

و من نظم الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

يا غاية السّؤل و المأمول يا سندى شوقى إليك شديد لا إلى أحد

ذبت اشتياقا و وجدا فى محبّتكم فآه من طول شوقى آه من كمدى

يدى وضعت على قلبى مخافة أن ينشقّ صدرى لمّا خاننى جلدى

ما زال يرفعها طورا و يخفضها حتّى وضعت يدى الأخرى تشدّ يدى

و حكى سبط ابن الجوزى عن الشيخ محيى الدين أنه كان يقول: إنه يحفظ الاسم الأعظم، و يقول: إنه يعرف السيميا بطريق التنزل، لا بطريق التكسب، انتهى و اللّه تعالى أعلم، و التسليم أسلم.

و من نظم الشيخ محيى الدين قوله: [السريع]

ما فاز بالتّوبة إلّا الّذى قد تاب قدما و الورى نوّم

فمن يتب أدرك مطلوبه من توبة النّاس و لا يعلم

و له رحمه اللّه تعالى من المحاسن ما لا يستوفى.

و أنشدنى لنفسه بدمشق صاحبنا الصوفى الشيخ محمد بن سعد الكلشنى- حفظه اللّه تعالى!- قوله: [الطويل]

أمولاى محيى الدّين أنت الّذى بدت علومك فى الآفاق كالغيث مذ همى

كشفت معانى كلّ علم مكتّم و أوضحت بالتّحقيق ما كان مبهما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۱۶

و بالجملة فهو حجة اللّه الظاهرة، و آيته الباهرة، و لا يلتفت إلى كلام من تكلم فيه، و للّه در السيوطى الحافظ! فإنه ألف «تنبيه الغبى، على تنزيه ابن عربى» و مقام هذا الشيخ معلوم، و التعريف به يستدعى طولا، و هو أظهر من نار على علم.

و كان بالمغرب يعرف بابن العربى بالألف و اللام، و اصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف و لام، فرقا بينه و بين القاضى أبى بكر

بن العربى.

و قال ابن خاتمة فى كتابه «مزية المرية» ما نصه: محمد بن على بن محمد الطائى الصوفى، من أهل إشبيلية، و أصله من مرسية، يكنى أبا بكر، و يعرف بابن العربى، و بالحاتمى أيضا، أخذ عن مشيخة بلده، و مال إلى الآداب، و كتب لبعض الولاة بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق حاجّا فأدّى الفريضة، و لم يعد بعدها إلى الأندلس، و سمع الحديث من أبى القاسم الحرستانى و من غيره، و سمع صحيح مسلم من الشيخ أبى الحسن بن أبى نصر فى شوّال سنة ۶۰۶، و كان يحدّث بالإجازة العامّة عن أبى طاهر السّلفى، و يقول بها، و برع فى علم التصوف، و له فى ذلك تواليف كثيرة: منها «الجمع و التفصيل، فى حقائق التنزيل» و «الجذوة المقتبسة، و الخطرة المختلسة» و كتاب «كشف المعنى، فى تفسير الأسماء الحسنى» و كتاب «المعارف الإلهية» و كتاب «الإسرا إلى المقام الأسرى» و كتاب «مواقع النجوم، و مطالع أهلة أسرار العلوم» و كتاب «عنقاء مغرب، فى صفة ختم الأولياء و شمس المغرب» و كتاب فى فضائل مشيخة عبد العزيز بن أبى بكر القرشى المهدوى، و الرسالة الملقبة «بمشاهد الأسرار القدسية، و مطالع الأنوار الإلهية» فى كتب أخر عديدة، و قدم على المريّة من مرسية مستهلّ شهر رمضان سنة خمس و تسعين و خمسمائة، و بها ألف كتابه الموسوم ب «مواقع النجوم» انتهى.

و لا خفاء أن مقام الشيخ عظم بعد انتقاله من المغرب، و قد ذكر رحمه اللّه تعالى فى بعض كتبه أن مولده بمرسية.

و فى الكتاب المسمى ب «الاغتباط، بمعالجة ابن الخياط» تأليف شيخ الإسلام قاضى القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازى الفيروزابادى الصديقى صاحب القاموس، قدس اللّه تعالى روحه! الذى ألفه بسبب سؤال سئل فيه عن الشيخ سيدى محيى الدين بن عربى الطائى قدس اللّه تعالى سره العزيز فى كتبه المنسوبة إليه، ما صورته:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۱۷

ما تقول السادة العلماء شدّ اللّه تعالى بها أزر الدين، و لمّ بهم شعث المسلمين، فى الشيخ محيى الدين بن عربى فى كتبه المنسوبة إليه كالفتوحات و الفصوص، هل تحل قراءتها و إقراؤها و مطالعتها؟ و هل هى الكتب المسموعة المقروءة أم لا؟ أفتونا مأجورين جوابا شافيا لتحوزوا جميل الثواب، من اللّه الكريم الوهاب، و الحمد للّه وحده.

فأجابه بما صورته: الحمد للّه، اللهم أنطقنا بما فيه رضاك، الذى أعتقده فى حال المسؤول عنه و أدين اللّه تعالى به، أنه كان شيخ الطريقة حالا و علما، و إمام الحقيقة حقيقة و رسما، و محيى رسوم المعارف فعلا و اسما: [البسيط]

إذا تغلغل فكر المرء فى طرف من بحره غرقت فيه خواطره

و هو عباب لا تكدره الدّلاء، و سحاب لا تتقاصر عنه الأنواء، و كانت دعواته تخترق السبع الطّباق، و تفترق بركاته فتملأ الآفاق، و إنى أصفه و هو يقينا فوق ما وصفته، و ناطق بما كتبته، و غالب ظنى أنى ما أنصفته [البسيط].

و ما علىّ إذا ما قلت معتقدى دع الجهول يظنّ العدل عدوانا

و اللّه و اللّه و اللّه العظيم و من أقامه حجّة للدّين برهانا

بأنّ ما قلت بعض من مناقبه ما زدت إلّا لعلّى زدت نقصانا

و أما كتبه و مصنفاته فالبحار الزواخر، التى لجواهرها و كثرتها لا يعرف لها أول و لا آخر، ما وضع الواضعون مثلها، و إنما خص اللّه سبحانه بمعرفة قدرها أهلها، و من خواص كتبه أن من واظب على مطالعتها و النظر فيها، و تأمل ما فى مبانيها، انشرح صدره لحل المشكلات، و فك المعضلات، و هذا الشأن لا يكون إلا لأنفاس من خصه اللّه تعالى بالعلوم اللدنية الربانية، و وقفت على إجازة كتبها للملك المعظم فقال فى آخرها: و أجزته أيضا أن يروى عنه مصنفاتى، و من جملتها كذا و كذا، حتى عد نيفا و أربعمائة مصنف، منها التفسير الكبير الذى بلغ فيه إلى تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى: وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً [الكهف: ۶۵] و توفى و لم يكمل، و هذا التفسير كتاب عظيم، كل سفر بحر لا ساحل له، و لا غرو فإنه صاحب الولاية العظمى، و الصديقية الكبرى، فيما نعتقد و ندين اللّه

تعالى به، و ثم طائفة، فى الغى حائفة، يعظمون عليه النكير، و ربما بلغ بهم الجهل إلى حد التكفير، و ما ذاك إلا لقصور أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله و أفعاله و معانيها، و لم تصل أيديهم لقصرها إلى اقتطاف مجانيها. [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۱۸

علىّ نحت القوافى من معادنها و ما علىّ إذا لم تفهم البقر

هذا الذى نعلم و نعتقد، و ندين اللّه تعالى به فى حقه، و اللّه سبحانه و تعالى أعلم، و صورة استشهاده: كتب محمد الصديقى الملتجئ إلى حرم اللّه تعالى، عفا اللّه عنه!.

و أما احتجاجه بقول شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام شيخ مشايخ الشافعية فغير صحيح، بل كذب وزور، فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائى عن جماعة من المشايخ كلهم عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه قال: كنا فى مجلس الدرس بين يدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فجاء فى باب الردة ذكر لفظة الزنديق، فقال بعضهم:

هل هى عربية أو عجمية؟ فقال بعض الفضلاء: إنما هى فارسية معربة، أصلها زن دين، أى على دين المرأة، و هو الذى يضمر الكفر و يظهر الإيمان، فقال بعضهم: مثل من؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ: مثل ابن عربى بدمشق، فلم ينطق الشيخ و لم يرد عليه، قال الخادم: و كنت صائما ذلك اليوم، فاتفق أن الشيخ دعانى للإفطار معه، فحضرت و وجدت منه إقبالا و لطفا، فقلت له: يا سيدى، هل تعرف القطب الغوث الفرد فى زماننا؟ فقال: مالك و لهذا؟ كل، فعرفت أنه يعرفه، فتركت الأكل و قلت له: لوجه اللّه تعالى عرّفنى به، من هو؟ فتبسم رحمه اللّه تعالى و قال لى: الشيخ محيى الدين بن عربى، فأطرقت ساكتا متحيرا، فقال: مالك؟

فقلت: يا سيدى، قد حرت، قال: لم؟ قلت: أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال فى ابن عربى و أنت ساكت؟ فقال: اسكت ذلك مجلس الفقهاء، هذا الذى روى لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام.

و أما قول غيره من أضراب الشيخ عز الدين فكثير، كان الشيخ كمال الدين الزملكانى من أجلّ مشايخ الشام أيضا يقول: ما أجهل هؤلاء! ينكرون على الشيخ محيى الدين بن عربى لأجل كلمات و ألفاظ وقعت فى كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها، فيأتونى لأحلّ لهم مشكله، و أبين لهم مقاصده، بحيث يظهر لهم الحق، و يزول عنهم الوهم.

و هذا القطب سعد الدين الحموى سئل عن الشيخ محيى الدين بن عربى لما رجع من الشام إلى بلاده: كيف وجدت ابن عربى؟ فقال: وجدته بحرا زخارا لا ساحل له.

و هذا الشيخ صلاح الدين الصّفدى له كتاب جليل وضعه فى تاريخ علماء العالم فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۱۹

مجلدات كثيرة، و هى موجودة فى خزانة السلطان، تنظر فى باب الميم ترجمة محمد بن عربى لتعرف مذاهب أهل العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية و المواهب الربانية.

و قوله فى شىء من الكتب المصنفة كالفصوص و غيره: إنه صنفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية، و أمره بإخراجه إلى الناس.

قال الشيخ محيى الدين الذهبى حافظ الشام: ما أظن المحيى يتعمد الكذب أصلا، و هو من أعظم المنكرين و أشدهم على طائفة الصوفية.

ثم إن الشيخ محيى الدين رحمه اللّه تعالى كان مسكنه و مظهره بدمشق، و أخرج هذه العلوم إليهم، و لم ينكر عليه أحد شيئا من ذلك، و كان قاضى القضاة الشافعية فى عصره شمس الدين أحمد الخويّى يخدمه خدمة العبيد، و قاضى القضاة المالكية زوجه بابنته، و ترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ.

و أما كراماته و مناقبه فلا تحصرها مجلدات، و قول المنكرين فى حق مثله غثاء و هباء لا يعبأ به، و الحمد للّه تعالى، انتهى ما نقلته من كلام العارف باللّه تعالى سيدى عبد الوهاب الشعرانى، رضى اللّه تعالى عنه!.

و قد حكى الشيخ رضى اللّه تعالى عنه عن نفسه فى كتبه ما يبهر الألباب، و كفى بذلك دليلا على ما منحه اللّه الذى يفتح لمن شاء الباب، و قد اعتنى بتربته بصالحية دمشق سلاطين بنى عثمان، نصرهم اللّه تعالى على توالى الأزمان! و بنى عليه السلطان المرحوم سليم خان المدرسة العظيمة، و رتب له الأوقاف، و قد زرت قبره و تبركت به مرارا، و رأيت لوائح الأنوار عليه ظاهرة، و لا يجد منصف محيدا إلى إنكار ما يشاهد عند قبره من الأحوال الباهرة، و كانت زيارتى له بشعبان و رمضان و أول شوال سنة ۱۰۳۷.

و قال فى «عنوان الدراية»: إن الشيخ محيى الدين كان يعرف بالأندلس بابن سراقة، و هو فصيح اللسان، بارع فهم الجنان، قوى على الإيراد، كلما طلب الزيادة يزاد، رحل إلى العدوة، و دخل بجاية فى رمضان سنة ۵۹۷، و بها لقى أبا عبد اللّه العربى و جماعة من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۰

الأفاضل، و لما دخل بجاية فى التاريخ المذكور قال: رأيت ليلة أنى نكحت نجوم السماء كلها، فما بقى منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها، ثم عرضت رؤياى هذه على من قصّ ها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها، و قلت للذى عرضتها عليه: لا تذكرنى، فلما ذكر الرؤيا استعظمها و قال: هذا هو البحر الذى لا يدرك قعره، صاحب هذه الرؤيا يفتح اللّه تعالى له من العلوم العلوية و علوم الأسرار و خواص الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه، ثم سكت ساعة و قال: إن كان صاحب هذه الرؤيا فى هذه المدينة فهو ذاك الشاب الأندلسى الذى وصل إليها.

ثم قال صاحب العنوان ما ملخصه: إن الشيخ محيى الدين رحل إلى المشرق، و استقرت به الدار، و ألف تواليفه، و فيها ما فيها إن قيّض اللّه تعالى من يسامح و يتأول سهل المرام، و إن كان ممن ينظر بالظاهر فالأمر صعب، و قد نقد عليه أهل الديار المصرية و سعوا فى إراقة دمه، فخلصه اللّه تعالى على يد الشيخ أبى الحسن البجائى، فإنه سعى فى خلاصه و تأول كلامه، و لما وصل إليه بعد خلاصه قال له الشيخ رحمه اللّه تعالى: كيف يحبس من حل منه اللاهوت فى الناسوت؟ فقال له: يا سيدى، تلك شطحات فى محل سكر و لا عتب على سكران و توفى الشيخ محيى الدين فى نحو الأربعين و ستمائة، و كان يحدث بالإجازة العامة عن السّلفى، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

و من موشحات الشيخ محيى الدين رضى اللّه تعالى عنه قوله:

مطلع

سرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين

و العاشق الغيران من ذاك فى حرّان

يبدى الأنين

دور

يقول و الوجد أضنا ه و البعد قد حيّره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۱

لمّا دنا البعد لم أدر من بعد

من غيّره

و هيّم العبد و الواحد الفرد

قد حيّره

فى البوح و الكتمان و السّرّ و الإعلان

فى العالمين

أمّا هو الدّيّان يا عابد الأوثان

أنت الضّنين

دور

كلّ الهوى صعب على الّذى يشكو

ذلّ الحجاب

يا من له قلب لو أنّه يذكو

عند الشّباب

قد قرّب الرّبّ لكنّه إفكك

فانو المتاب

و ناد يا رحمن يا ربّ يا منّان

إنّى حزين

أضنانى الهجران و لا حبيب دان

و لا معين

دور

فنيت بالله عمّا تراه العين

من كونه

فى موقف الجاه و صحت أين الأين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۲

فى بينه

فقال: يا ساهى عاينت قطّ عين

بعينه

أما ترى غيلان و قيس أو من كان

فى الغابرين

قالوا الهوى سلطان إن حلّ بالإنسان

أفناه دين

دور

كم مرّة قالا أنا الّذى أهوى

من هو أنا

فلا أرى حالا و لا أرى شكوى

إلّا الفنا

لست كمن مالا عن الّذى يهوى

بعد الجنا

و دان بالسّلوان هذا هو البهتان

للعارفين

سلوهم ما كان عن حضرة الرّحمن

و الآفكين

دور

دخلت فى بستان الأنس و القرب

كمكنسه

فقام لى الرّيحان يختال بالعجب

فى سندسه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۳

أنا هو الإنسان مطيّب الصّبّ

فى مجلسه

جنّان يا جنّان اجن من البستان

الياسمين

و حلّل الرّيحان بحرمة الرّحمن

للعاشقين

و قال الإمام الصفى بن ظافر الأزدى فى رسالته: رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيى الدين بن عربى، و كان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية و ما وقر له من العلوم الوهبية، و منزلته شهيرة، و تصانيفه كثيرة، و كان غلب عليه التوحيد علما و خلقا و حالا لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا، و له علماء أتباع أرباب مواجيد و تصانيف، و كان بينه و بين سيدى الأستاذ الخراز إخاء و رفقة فى السياحات، رضى اللّه تعالى عنهما! انتهى.

و ذكر الإمام سيدى عبد اللّه بن سعد اليافعى اليمنى فى «الإرشاد» أنه اجتمع مع الشهاب السّهروردى، فأطرق كل واحد منهما ساعة، ثم افترقا من غير كلام، فقيل للشيخ ابن عربى:

ما تقول فى السهروردى؟ فقال: مملوء سنّة من قرنه إلى قدمه، و قيل للسهروردى: ما تقول فى الشيخ محيى الدين؟ فقال: بحر الحقائق.

ثم قال اليافعى ما ملخصه: إن بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ و يشرحه، فلما حضرته الوفاة نهى عن مطالعته، و قال: إنكم لا تفهمون معانى كلامه، ثم قال اليافعى:

و سمعت أن العز بن عبد السلام كان يطعن عليه و يقول: هو زنديق، فقال له بعض أصحابه:

أريد أن ترينى القطب، أو قال وليا، فأشار إلى ابن عربى، فقال له: فأنت تطعن فيه، فقال:

أصون ظاهر الشرع، أو كما قال.

و أخبرنى بهذه الحكاية غير واحد من ثقات مصر و الشام، ثم قال: و قد مدحه و عظمه طائفة كالنجم الأصبهانى و التاج بن عطاء اللّه و غيرهما، و توقف فيه طائفة، و طعن فيه آخرون، و ليس الطاعن فيه بأعلم من الخضر عليه السلام، إذ هو أحد شيوخه، و له معه اجتماع كثير.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۴

ثم قال: و ما ينسب إلى المشايخ له محامل: الأول أنه لم تصح نسبته إليهم، الثانى بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق، فإن لم يوجد له تأويل فى الظاهر فله تأويل فى الباطن لم نعلمه، و إنما يعلمه العارفون، الثالث: أن يكون ذلك صدر منهم فى حال السكر و الغيبة، و السكران سكرا مباحا غير مؤاخذ و لا مكلف، انتهى ملخصا.

و ممن ذكر الشيخ محيى الدين الإمام شمس الدين محمد بن مسدى فى معجمه البديع المحتوى على ثلاث مجلدات، و ترجمه ترجمة عظيمة مطولة أذكر منها أنه قال: إنه كان ظاهرى المذهب فى العبادات، باطنى النظر فى الاعتقادات، خاض بحار تلك العبارات، و تحقق بمحيّا تلك الإشارات، و تصانيفه تشهد له عند أولى البصر بالتقدم و الإقدام، و مواقف النهايات فى مزالق الأقدام، و لهذا ما ارتبت فى أمره، و اللّه تعالى أعلم بسره، انتهى.

و نقلت من خط ابن علوان التونسى رحمه اللّه تعالى، قال الشيخ محيى الدين: [مخلع البسيط]

بالمال ينقاد كلّ صعب من عالم الأرض و السّماء

يحسبه عالم حجابا لم يعرفوا لذّة العطاء

و لو لا الّذى فى النّفوس منه لم يجب اللّه فى الدّعاء

لا تحسب المال ما تراه من عسجد مشرق الضّياء

بل هو ما كنت يا بنىّ به غنيّا عن السّواء

فكن بربّ العلا غنيّا و عامل الخلق بالوفاء

و قال: [السريع]

نبّه على السّرّ و لا تفشه فالبوح بالسّرّ له مقت

على الّذى يبديه فاصبر له و اكتمه حتّى يصل الوقت

و قال:

قد ثاب غلماننا علينا فمالنا فى الوجود قدر

أذنابنا صيّرت رؤوسا مالى على ما أراه صبر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۵

هذا هو الدّهر يا خليلى فمن يقاسيه فهو قهر

و نظم الشيخ محيى الدين هو البحر الذى لا ساحل له.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۳۲۵

لنختم ما أوردنا منه بقوله: [السريع]

يا حبّذا المسجد من مسجد و حبّذا الرّوضة من مشهد

و حبّذا طيبة من بلدة فيها ضريح المصطفى أحمد

صلّى عليه اللّه من سيّد لو لاه لم نفلح و لم نهتد

قد قرن اللّه به ذكره فى كلّ يوم فاعتبر ترشد

عشر خفيّات و عشر إذا أعلن بالتّأذين فى المسجد

فهذه عشرون مقرونة بأفضل الذّكر إلى الموعد

۱۱۴- و منهم الصوفى الشهير أبو الحسن على الشّشترى

، و هو على بن عبد اللّه النميرى.

عروس الفقهاء، و إمام المتجردين، و بركة لابسى الخرقة، و هو من قرية ششتر من عمل وادى آش، و زقاق الششترى معلوم بها، و كان مجودا للقرآن، قائما عليه، عارفا بمعانيه، من أهل العلم و العمل، جال فى الآفاق، و لقى المشايخ، و حج حجات، و آثر التجرد و

العبادات.

و ذكره القاضى أبو العباس الغبرينى فى «عنوان الدراية» فقال: الفقيه الصوفى، من الطلبة المحصلين، و الفقراء المنقطعين، له علم بالحكمة، و معرفة بطريق الصوفية، و تقدم فى النظم و النثر على طريقة التحقيق، و أشعاره و موشحاته و أزجاله الغاية فى الانطباع.

أخذ عن القاضى محيى الدين محمد بن إبراهيم بن الحسن بن سراقة الأنصارى الشاطبى و غيره من أصحاب السّهروردى صاحب «عوارف المعارف» و اجتمع بالنجم بن إبراهيم الدمشقى سنة ۶۵۰، و خدم أبا محمد بن سبعين، و تلمذ له، و كان ابن سبعين دونه فى السن، لكن اشتهر باتباعه، و عول على ما لديه، حتى صار يعبر عن نفسه فى منظوماته و غيرها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۶

بعبد ابن سبعين، و قال له لما لقيه- يريد المشايخ-: إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبى مدين، و إن كنت تريد رب الجنة فهلم إلى، و لما مات أبو محمد انفرد بعده بالرياسة و الإمامة على الفقراء المتجردين، فكان يتبعه فى أسفاره ما ينيف على أربعمائة فقير فيقتسمهم الترتيب فى وظائف خدمته.

صنف كتبا: منها كتاب «العروة الوثقى، فى بيان السنن و إحصاء العلوم، و ما يجب على المسلم أن يعمله و يعتقده إلى وفاته» و له كتاب «المقاليد الوجودية، فى أسرار الصوفية» و «الرسالة القدسية، فى توحيد العامة و الخاصة» و «المراتب الإيمانية و الإسلامية و الإحسانية» و «الرسالة العلمية» و غير ذلك.

و له ديوان شعر مشهور، و من نظمه قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

لقد تهت عجبا بالتّجرّد و الفقر فلم أندرج تحت الزّمان و لا الدّهر

و جاءت لقلبى نفحة قدسيّة فغبت بها عن عالم الخلق و الأمر

طويت بساط الكون و الطّىّ نشره و ما القصد إلّا التّرك للطّىّ و النّشر

و غمّضت عين القلب غير مطلّق فألفيتنى ذاك الملقّب بالغير

وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة و نزّهت من أعنى عن الوصل و الهجر

و ما الوصف إلّا دونه غير أنّنى أريد به التّشبيب عن بعض ما أدرى

و ذلك مثل الصّوت أيقظ نائما فأبصر أمرا جلّ عن ضابط الحصر

فقلت له الأسماء تبغى بيانه فكانت له الألفاظ سترا على ستر

و قال: [الكامل]

من لامنى لو أنّه قد أبصرا ما ذقته أضحى به متحيّرا

و غدا يقول لصحبه إن أنتم أنكرتم ما بى أتيتم منكرا

شذّت أمور القوم عن عاداتهم فلأجل ذاك يقال سحر مفترى

و قال، و هى من أشهر ما قال: [الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۷

أرى طالبا منّا الزّيادة لا الحسنى بفكر رمى سهما فعدّى به عدنا

و طالبنا مطلوبنا من وجودنا تغيب به عنّا لدى الصّعق إن عنّا

و هى طويلة مشهورة بالشرق و الغرب، و قد شرحها شيخ شيوخ شيوخنا العارف باللّه تعالى سيدى أحمد زرّوق نفعنا اللّه تعالى ببركاته!

و أشار ابن الخطيب فى «الإحاطة» إلى أنها لا تخلو عن شذوذ من جهة اللسان، و ضعف فى العربية، قال: و مع ذلك فهى غريبة المنزع، أشار فيها إلى مراتب الأعيان الأعلام من أهل هذه الطريقة، و كأنها مبنية على كلام شيخه الذى خاطبه به عند لقائه حسبما

قدّمناه، إذ الحسنى: الجنة، و الزيادة: مقام النظر، و قوله فيها: [الطويل]

و أظهر منها الغافقى لنا جنّى و كشّف عن أطواره الغيم و الدّجنا

هو شيخه أبو محمد بن سبعين لأنه مرسىّ الأصل غافقيّه.

و لما وصل الششترى من الشام إلى ساحل دمياط و هو مريض مرض موته نزل قرية بساحل البحر الرومى فقال: ما اسم هذه القرية؟ فقيل: الطينة، فقال: حنت الطينة إلى الطينة، و أوصى أن يدفن بمقبرة دمياط، إذ الطينة بمفازة، و أقرب المدن إليها دمياط، فحمله الفقراء على أعناقهم إلى دمياط.

و كانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ۶۶۸، فدفن بدمياط، رحمه اللّه تعالى، و رضى عنه!.

۱۱۵- و منهم سيدى أبو الحسن على بن أحمد الحرالى الأندلسى

.و حرالة: قرية من أعمال مرسية، غير أنه ولد بمراكش، و أخذ بالأندلس عن أبى الحسن بن خروف و غير واحد، و رحل إلى المشرق فأخذ عن أبى عبد اللّه القرطبى إمام الحرم و غيره، و لقى جملة من المشايخ شرقا و غربا.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۸

و هو إمام، ورع، صالح، زاهد، كان بقية السلف، و قدوة الخلف، و قد زهد فى الدنيا و تخلى عنها، و أقام فى تفسير الفاتحة نحوا من ستة أشهر يلقى فى التعليل قوانين تتنزل فى علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام، حتى من اللّه تعالى ببركات و مواهب لا تحصى، و على أحكام تلك القوانين وضع كتابه «مفتاح اللب المقفل، على فهم القرآن المنزل» و هو ممن جمع العلم و العمل، و صنف فى كثير من الفنون كالأصول و المنطق و الطبيعيات و الإلهيات، و كان يقرئ «النجاة» لابن سينا فينقضه عروة عروة، و كان من أعلم الناس بمذهب مالك، و لما ظن فقهاء عصره أنه لا يحسن المذهب لاشتغاله بالمعقولات قرأ «التهذيب» و أبدى فيه الغرائب، و بين مخالفته للمدونة فى بعض المواضع، و وقع بينه و بين الشيخ عز الدين بن عبد السلام شىء، و طلب عز الدين أن يقف على تفسيره، فلما وقف عليه قال. أين قول مجاهد؟ أى قول فلان و فلان؟ و كثر القول فى هذا المعنى، ثم قال: يخرج من بلادنا إلى وطنه، يعنى الشام، فلما بلغ كلامه الشيخ قال: هو يخرج و أقيم أنا، فكان كذلك، و له عدة مؤلفات فى الفنون، و قال رحمه اللّه تعالى: أقمت ملازما لمجاهدة النفس سبعة أعوام، حتى استوى عندى من يعطينى دينارا و من يزدرينى، و أصبح- رحمه اللّه تعالى!- ذات يوم و لا شىء لأهله يقيمون به أودهم، و كانت أم ولده جارية تسمى كريمة، و كانت سيئة الخلق، فاشتدّت عليه فى الطلب، و قالت له: إن الأصاغر لا شىء لهم، فقال لها؛ الآن يأتى من قبل الوكيل ما نتقوّت به، فبينما هم كذلك و إذا بالحمّال يضرب الباب و معه قمح، فقال لها: يا كريمة، ما أعجلك! هذا الوكيل بعث بالقمح، فقالت: و من يصنعه؟ فأمر فتصدق به، ثم قال لها: يأتيك ما هو أحسن منه، فانتظرت يسيرا، و بدا لها فتكلمت بما لا يليق، فبينما هم كذلك، و إذا بحمال سميذ، فقال لها: هذا السميذ أيسر و أسهل من القمح، فلم يقنعها ذلك، فأمر أيضا بصدقته، فلما تصدق به زادت فى المقال، و إذا برجل على رأسه طعام، فقال لها: يا كريمة، قد كفيت المؤنة، هذا الوكيل قد لطف بحالك.

و من كراماته أن بعض طلبته اجتمعوا فى نزهة، و أخذوا حليا من زينة النساء، فزينوا به بعض أصحابهم، فلما انقضى ذلك و اجتمعوا بمجلس الشيخ صار الذى كان فى يده الحلى يتحدث و يشير بيده، فقال الشيخ: يد يجعل فيها الحلى لا يشار بها فى الميعاد.

و منها أنه أصاب الناس جدب ببجاية، فأرسل إلى داره من يسوق ماء إلى الفقراء، فامتنعت كريمة، و نهرت رسله، فسمع كلامها، فقال للرسول: قل لها يا كريمة، و اللّه لأشربنّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۲۹

من ماء المطر الساعة، فرمق السماء بطرفه، و دعا اللّه سبحانه و تعالى، و رفع يده به، و شرع المؤذن فى الأذان، و لم يختم المؤذن أذانه

حتى كان المطر كأفواه القرب.

و توفى رحمه اللّه تعالى بحماة من بلاد الشام سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، انتهى ملخصا من «عنوان الدراية» للغبرينى.

و وقع للذهبى فى حقه كلام على عادته فى الحط على هذه الطائفة، ثم قال: و رأيت شيخنا المجد التونسى يتغالى فى تفسيره، و رأيت غير واحد معظما له و موقرا و قوما تكلموا فى عقيدته، و كان نازلا عند قاضى حماه البارزى و قال لنا شرف الدين البارزى: تزوج بحماة، و كانت زوجته تشتمه و تؤذيه، و هو يتبسم، و إن رجلا راهن جماعة على أن يحرجه، فقالوا: لا تقدر، فأتى و هو يعظ و صاح، و قال له: أنت أبوك كان يهوديا و أسلم، فنزل من الكرسى، فاعتقد الرجل أنه غضب و أنه تم له ما رامه حتى وصل إليه فخلع مرطيه عليه، و أعطاه إياهما، و قال له: بشّرك اللّه بالخير! لأنك شهدت لأبى أنه كان مسلما، انتهى.

و ظاهر كلام الغبرينى أن تفسير الشيخ الحرالى كامل، و قال بعضهم: إنه لم يكمل، و هو تفسير حسن، و عليه نسج البقاعىّ مناسباته، و ذكر أن الذى وقف عليه منه من أول القرآن إلى قوله فى سورة آل عمران كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً [آل عمران: ۳۷].

و كلام الذهبى فى الشيخ يرده كلام الغبرينى، إذ هو أعرف به، و اللّه تعالى أعلم.

و حكى الغبرينى أنه أنشد بين يديه الزجل المشهور:

جنّان يا جنّان اجن من البستان

الياسمين

و اترك الرّيحان بحرمة الرّحمن

للعاشقين

فسأل بعض عن معناه، فقال بعض الحاضرين: أراد به العذار، و قال آخر: إنما أشار إلى دوام العهد، لأن الأزهار كلها ينقضى زمانها إلا الريحان فإنه دائم، فاستحسن الشيخ هذا أو وافق عليه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۰

۱۱۶- و منهم ولى اللّه العارف به الشيخ الشهير الكرامات، الكبير المقامات، سيدى أبو العباس المرسى

، نفعنا اللّه تعالى به!.

و هو من أكابر الأولياء، صحب سيدى الشيخ- الفرد القطب الغوث الجامع سيدى أبا الحسن الشاذلى، أعاد اللّه تعالى علينا من بركاته! و خلفه بعده، و كان قدم من الأندلس من مرسية، و قبره بالإسكندرية مشهور بإجابة الدعوات و قد زرته مرارا كثيرة، و دعوت اللّه عنده بما أرجو قبوله.

و قد عرّف به الشيخ العارف باللّه ابن عطاء اللّه فى كتابه «لطائف المنن فى مناقب الشيخ سيدى أبى العباس و شيخه سيدى أبى الحسن، رضى اللّه تعالى عنهما».

و قال الصفدى فى الوافى: أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العباس، الأنصارى المرسى، وارث شيخه الشاذلى تصوفا الأشعرى معتقدا، توفى بالإسكندرية سنة ۶۸۶، و لأهل مصر و لأهل الثغر فيه عقيدة كبيرة، و قد زرته لما كنت بالإسكندرية سنة ۷۳۸، قال ابن عرّام سبط الشاذلى: و لو لا قوة اشتهاره و كراماته لذكرت له ترجمة طويلة، كان من الشهود بالثغر، انتهى.

و كان سيدى أبو العباس يكرم الناس على نحو رتبهم عند اللّه تعالى، حتى إنه ربما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به، و ربما دخل عليه عاص فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى و هو متكثّر بعمله، ناظر لفعله، و ذلك العاصى دخل بكسر معصيته و ذل مخالفته، و كان شديد الكراهة للوسواس فى الصلاة و الطهارة، و يثقل عليه شهود من كان على صفته، و ذكر عنده يوما شخص بأنه صاحب علم و صلاح،

إلا أنه كثير الوسوسة، فقال: و أين العلم؟ العلم هو الذى ينطبع فى القلب كالبياض فى الأبيض و السواد فى الأسود.

و له كلام بديع فى تفسير القرآن العزيز: فمن ذلك أنه قال: قال اللّه سبحانه و تعالى الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) [الفاتحة: ۲] علم اللّه عجز خلقه عن حمده، فحمد نفسه بنفسه فى أزله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده، فقال الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) أى: الحمد الذى حمد به نفسه بنفسه هو له، لا- ينبغى أن يكون لغيره، فعلى هذا تكون الألف و اللام للعهد. و قال فى قول تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵) [الفاتحة: ۵]:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۱

إياك نعبد شريعة، و إياك نستعين حقيقة، إياك نعبد إسلام، و إياك نستعين إحسان، إياك نعبد عبادة، و إياك نستعين عبودية، إياك نعبد فرق، و إياك نستعين جمع، و له فى هذا المعنى و غيره كلام نفيس يدل على عظيم ما منحه اللّه سبحانه من العلوم اللدنية.

و قال رضى اللّه تعالى عنه فى قوله تعالى اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة: ۶] بالتثبيت فيما هو حاصل، و الإرشاد لما ليس بحاصل، و هذا الجواب ذكره ابن عطية فى تفسيره، و بسطه الشيخ رضى اللّه تعالى عنه، فقال: عموم المؤمنين يقولون اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل و الإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد، وفاتهم درجات الصالحين، و الصالحون يقولون اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل و الإرشاد لما ليس بحاصل، لأنهم حصل لهم الصلاح، و فاتهم درجات الشهداء، و الشهداء، يقولون اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ أى بالتثبيت فيما هو حاصل، و الإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصلت لهم درجة الشهادة، و فاتهم درجة الصديقية، و الصديق كذلك يقول اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ إذ حصلت له درجة الصديقية، و فاتته درجة القطبانية، و القطب كذلك يقول اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ فإنه حصلت له رتبة القطبانية، وفاته علم إذا شاء اللّه تعالى أن يطلعه عليه أطلعه. و قال رضى اللّه تعالى عنه: الفتوّة الإيمان، قال اللّه سبحانه و تعالى إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً [الكهف: ۱۳]. و قال رضى اللّه تعالى عنه فى قوله سبحانه و تعالى حاكيا عن الشيطان ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ [الأعراف: ۱۷] و لم يقل من فوقهم و لا من تحتهم لأن فوقهم التوحيد و تحتهم الإسلام. و قال رضى اللّه تعالى عنه:

التقوى فى كتاب اللّه عز و جل على أقسام: تقوى النار قال اللّه سبحانه و تعالى وَ اتَّقُوا النَّارَ [آل عمران: ۱۳۱] و تقوى اليوم، قال اللّه تعالى وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ [البقرة: ۲۸۱] و تقوى الربوبية، قال اللّه تعالى يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ [الحج الآية: ۱ لقمان: ۳۲] و تقوى الألوهية (و اتقوا اللّه) و تقوى الإنية وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ [البقرة الآية: ۱۹۷] و قال رضى اللّه تعالى عنه فى قول رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم «أنا سيد ولد آدم و لا- فخر» أى: لا أفتخر بالسيادة، و إنما الفخر لى بالعبودية للّه، و كان كثيرا ما ينشد: [السريع]

يا عمرو ناد عبد زهراء يعرفه السّامع و الرّائى

لا تدعنى إلّا بيا عبدها فإنّه أشرف أسمائى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۲

و قال رضى اللّه تعالى عنه فى قول سمنون المحب: [مخلع البسيط]

و ليس لى فى سواك حظّ فكيفما شئت فاختبرنى

الأولى أن يقول: فكيفما شئت فاعف عنى، إذ طلب العفو أولى من طلب الاختبار.

و قال رضى اللّه تعالى عنه: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، و العارف جاء من الآخرة إلى الدنيا. و قال رضى اللّه تعالى: العارف لا دنيا له، لأن دنياه لآخرته، و آخرته لربه. و قال:

الزاهد غريب فى الدنيا، لأن الآخرة وطنه، و العارف غريب فى الآخرة. قال بعض العارفين:

معنى الغربة فى كلام الشيخ رضى اللّه تعالى عنه أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه و معشّش روحه،

فيكون غريبا فى الدنيا، إذ ليست وطنا لقلبه، عاين الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها و نوالها، و فيما شهد من عقوبتها و نكالها، فتغرب فى هذه الدار. و أما العارف فإنه غريب فى الآخرة إذ كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هناك، فصار غريبا فى الآخرة، لأن سره مع اللّه تعالى بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشّش قلوبهم، إليها يأوون، و فيها يسكنون، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق، أو أرض الخصوص، فبالإذن و التمكين، و الرسوخ فى اليقين، فلم ينزلوا إلى الخصوص لشهوة، و لم يصعدوا إلى الحقوق بسوء الأدب و الغفلة، بل كانوا فى ذلك كله بآداب اللّه تعالى و آداب رسله و أنبيائه متأدبين، و بما اقتضى منهم مولاهم عاملين، رضى اللّه تعالى عنهم، و نفعنا بهم آمين!.

و كلام سيدى الشيخ أبى العباس رضى اللّه تعالى عنه بحر لا ساحل له، و كراماته كذلك، و ليراجع كتاب تلميذه ابن عطاء اللّه، فإن فيه من ذلك ما يشفى و يكفى، و ما بقى أكثر.

و من كراماته رضى اللّه تعالى عنه أنه عزم عليه إنسان و قدم إليه طعاما يختبره به، فأعرض عنه و لم يأكله، ثم التفت إلى صاحب الطعام و قال له: إن الحارث المحاسبى رضى اللّه تعالى عنه كان فى أصبعه عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه، و أنا فى يدى سبعون عرقا تتحرك على إذا كان مثل ذلك، فاستغفر صاحب الطعام، و اعتذر إلى الشيخ، رضى اللّه تعالى عنه و نفعنا به!.

۱۱۷- و منهم أبو إسحاق الساحلى، المعروف بالطّويجن

- بضم الطاء المهملة، و فتح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۳

الواو، و سكون الياء التحتية، و كسر الجيم، و قيل بفتحها- العالم المشهور، و الصالح المشكور، و الشاعر المذكور، من أهل غرناطة من بيت صلاح و ثروة و أمانة، و كان أبوه أمين العطارين بغرناطة، و كان مع أمانته من أهل العلم فقيها متقنا متفننا، و له الباع المديد فى الفرائض.

و أبو إسحاق هذا كان فى صغره موثّقا بسماط شهود غرناطة، و ارتحل عن الأندلس إلى المشرق، فحج، ثم سار إلى بلاد السودان فاستوطنها، و نال جاها مكينا من سلطانها، و بها توفى، رحمه اللّه تعالى! انتهى ملخصا من كلام الأمير ابن الأحمر فى كتابه «نثير الجمان، فيمن نظمنى و إياه الزمان».

و قال أبو المكارم منديل بن آجرّوم: حدثنى من يوثق بقوله أن أبا إسحاق الطويجن كانت وفاته يوم الاثنين ۲۷ جمادى الأخيرة سنة ۷۴۷ بتنبكتو موضع بالصحراء من عمالة مالى، رحمه اللّه تعالى! ثم ضبط الطويجن بكسر الجيم، قال: و بذلك ضبطه بخط يده رحمه اللّه تعالى، قال: و من نسبه للساحلى فإنه نسبه لجده للأم، انتهى.

۱۱۸- و منهم الشيخ الأديب الفاضل المعمر ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد بن يوسف بن عفيف، الخزرجى، الساعدى.

من أهل غرناطة، و يشهر بالخزرجى، مولده ببيغة، رحل عن الأندلس قديما و استقر أخيرا بالإسكندرية، و بها لقيه الحافظ ابن رشيد غير مرة، و قد أطال فى رحلته فى ترجمته، إلى أن قال: و ذكره صاحبنا أبو حيان، و هو أحد من أخذ عنه و لقيه، فقال: تلا القرآن بالأندلس على أبى الوليد هشام بن واقف المقرى، و سمع بها من أبى زيد الفازازى العشرينيات، و سمع بمكة من شهاب الدين السّهروردى صاحب «عوارف المعارف» و تلا بالإسكندرية على أبى القاسم بن عيسى، و لا يعرف له نظم فى أحد من العالم إلا فى مدح رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

و من شعره يعارض الحريرى:

أهن لأهل البدع و الهجر و التّصنّع

ودن بترك الطّمع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۴

و لذ بأهل الورع

و عدّ عن كلّ بذى لم يكترث بالنبذ

و الهج ببرّ جهبذ

و عالم متّضع

و اندب زمانا قد سلف و لم تجد منه خلف

و ابعث بأنواع الأسف

رسائل التّضرّع

و هى طويلة فلتراجع ترجمته فى «ملء العيبة» لابن رشيد، رحمه اللّه تعالى!.

۱۱۹- و منهم الفقيه الجليل، العارف النبيل، الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر، الشهير بابن سبعين،

العكى، المرسى، الأندلسى، و يلقب من الألقاب المشرقية بقطب الدين.

قال الشيخ المؤرخ ابن عبد الملك: درس العربية و الآداب بالأندلس، ثم انتقل إلى سبتة، و انتحل التصوف، و عكف برهة على مطالعة كتبه، و التكلم على معانيها، فمالت إليه العامة، ثم رحل إلى المشرق، و حج حججا، و شاع ذكره، و عظم صيته، و كثر أشياعه، و صنف أوضاعا كثيرة تلقوها منه، و نقلوها عنه، و يرمى بأمور اللّه تعالى أعلم بها و بحقيقتها، و كان حسن الأخلاق، صبورا على الأذى، آية فى الإيثار، انتهى.

و قال غير واحد: إن أغراض الناس فيه متباينة، بعيدة عن الاعتدال، فمنهم المرهق المكفر، و منهم المقلد المعظم الموقر، و حصل بهذين الطرفين من الشهرة و الاعتقاد، و النفرة و الانتقاد، ما لم يقع لغيره، و اللّه تعالى أعلم بحقيقة أمره، و لما ذكر الشريف الغرناطى عنه أنه كان يكتب عن نفسه «ابن ه» يعنى الدارة التى هى كالصفر، و هى فى بعض طرق المغاربة فى حسابهم سبعون، و شهر لذلك بابن دارة- ضمن فيه البيت المشهور: [الطويل]

محا السّيف ما قال ابن دارة أجمعا

حسبما ذكره الشريف فى شرح مقصورة حازم، و قد طال عهدى به فليراجعه من ظفر به.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۵

و قال صاحب «درة الأسلاك» فى سنة ۶۶۹، ما صورته: و فيها توفى الشيخ قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسى، صوفى متفلسف، متزهد متقشف، يتكلم على طريق أصحابه، و يدخل البيت و لكن من غير أبوابه، شاع أمره، و اشتهر ذكره، و له تصانيف و أتباع، و أقوال يميل إليها بعض القلوب و تملها بعض الأسماع، و كانت وفاته بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة، تغمده اللّه تعالى برحمته! انتهى.

و قال بعض الأعلام فى حق ابن سبعين: إنه كان رحمه اللّه تعالى عزيز النفس، قليل التصنع، يتولى خدمة الكثير من الفقراء و السّفارة أصحاب العبادات و الدفافيس بنفسه، و يحفون به فى السكك، و لما توفرت دواعى النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل، و وجهت لألفاظه المعاريض، و فليت موضوعاته، و تعاورته الوحشة، و جرت بينه و بين الكثير من أعلام المشرق و المغرب خطوب يطول ذكر.

و وقع فى رسالة لبعض تلامذة ابن سبعين المذكور، و أظن اسمه يحيى بن محمد بن أحمد بن سليمان، و سماها «بالوراثة المحمدية، و الفصول الذاتية» ما صورته: فإن قيل: ما الدليل على أن هذا الرجل الذى هو ابن سبعين هو الوارث المشار إليه؟ قلنا: عدم النظير، و

احتياج الوقت إليه، و ظهور الكلمة المشار إليها عليه، و نصيحته لأهل الملة، و رحمته المطلقة للعالم المطلق، و محبته لأعدائه، و قصده لراحتهم مع كونهم يقصدون أذاه، و عفوه عنهم مع قدرته عليهم، و جذبهم إلى الخير مع كونهم يطلبون هلاكه، و هذه كلها من علامات الوراثة و التبعية المحضة التى لا يمكن أحدا أن يتصف بها إلا بمجد أزلى و تخصيص إلهى، وها أنا أصف لك بعض ما خصه اللّه سبحانه و تعالى به من الأمور التى هى خارقة للعادة، و نلغى عن الأمور الخفية التى لا نعلمها، و نقصد الأمور الظاهرة التى نعلمها، و التى لا يمكن أحدا أن يستريب فيها إلا من أصمه اللّه تعالى و أعماه، و لا يجحدها إلا حسود قد أتعب اللّه تعالى قلبه و أنساه رشده، و نعوذ باللّه ممن عاند من اللّه تعالى مساعده و مؤيده، و هو معه بنصره و عونه، فما أتعب معانده، و ما أسعد مواده، و ما أكبت مراده، فنبدأ بذكر ما وعدنا، فنقول:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۶

الأول: فى شرفه و استحقاقه لما ذكرنا، كونه خلقه اللّه تعالى من أشرف البيوت التى فى بلاد المغرب، و هم بنو سبعين، قرشيا، هاشميا، علويا، و أبواه و جدوده يشار إليهم، و يعوّل فى الرياسة و الحسب و التعين عليهم.

و الثانى: كونه من بلاد المغرب، و النبى عليه السلام قال: «لا يزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة» و ما ظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه، فهو المشار إليه بالحديث، ثم نقول: أهل المغرب أهل الحق، و أحق الناس بالحق و أحق المغرب بالحق علماؤه لكونهم القائمين بالقسط، و أحق علمائه بالحق محققهم و قطبهم الذى يدور الكل عليه و يعول فى مسائلهم و نوازلهم السهلة و العويصة عليه فهو حق المغرب، و المغرب حق اللّه تعالى، و الملة حق العالم، فهو المشار إليه بالوراثة، ثم نقول: أهل المغرب ظاهرون على الحق، أى على الدين، و الحق سر الدين، و المحقق سر الحق، فالمحقق سر الدين، فهو المشار إليه بالوراثة. ثم نقول: أهل اللّه خير العالم، و أهل الحق هم خير أهل اللّه، و المحقق خير أهل الحق، فالمحقق خير العالم، فهو المشار إليه، ثم نقول: انظر فى بدايته و حفظ اللّه سبحانه له فى صغره، و ضبطه له من اللهو و اللعب، و إخراجه من اللذة الطبيعية التى هى فى جبلّة البشرية، و تركه للرياسة العرضية المعول عليها عند العالم، مع كونه وجدها فى آبائه، و هى الآن فى إخوته، و خروجه عن الأهل و الوطن الذى قرنه الحق مع قتل الإنسان نفسه، و انقطاعه إلى الحق انقطاعا صحيحا تعلم تخصيصه و خرقه للعادة، ثم انظر فى تأيده و فتحه من الصغر، و تأليف كتاب بدء العارف و هو ابن خمس عشرة سنة، و فى جلالة هذا الكتاب و كونه يحتوى على جميع الصنائع العلمية و العملية، و جميع الأمور السّنية و السّنية، تجده خارقا للعادة، و فى نشأته فى بلاد الأندلس و لم يعلم له كثرة نظر و ظهوره فيها بالعلوم التى لم تسمع قط تعلم أنه خارق للعادة، و فى تواليفه و اشتمالها على العلوم كلها، ثم انفرادها و غرابتها و خصوصيتها بالتحقيق الشاذ عن أفهام الخلق تعلم أنه مؤيد بروح القدس، و فى شجاعته و قوة عزمه و نصره لصنائعه و ظهور حجته على خصمائه و إقامة حقه و برهانه و فصاحة كلامه و بيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوة إلهية و عناية ربانية، و فى امتحان أهل المغرب له، و اجتماعهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۷

عليه فى كل بلد معتبر للمناظرة، و يظهر اللّه تعالى حجته، و يقمع خصمه، و يكبت عدوه، و يعجز معارضه، و يفحم معترضه، و فى غيرة الحق عليه، و هلاك من تعرض بالأذى إليه- يعلم العاقل المخصوص، أنه عند اللّه مخصوص، و فى خلقه و قهره لقواه النزوعية و الغضبية و إسلام قرينه و جلالة قوته الحافظة التى لا تنسى شيئا و المفكرة التى تتصور الذوات المجردة و المعلومة سر عين الطيف، و كذلك الذاكرة و سرعة ظهوره و انتشار رايته و استجلاب ثنائه فى الجهات كلها، و بالجملة جميع ما ذكرت فيه هو خارق للعادة البشرية، و معجز لمعارضه من كل الجهات، و لو لا خوف التطويل لكنت أفصّل كل صفة ذكرت فيه بالكلام الصناعى، و نقيم الأدلة القطعية على تعجيزها، و لكن أعطيت الأنموذج، و عرفت أن النبيه يمعن فكره، و يجد ذلك كله كما قلته، و بالجملة جميع جزئياته إذا تؤملت توجد خارقة للعادة، و تشهد لها ماهية الوجود بالتخصيص، فصح أنه هو المشار إليه، و المعول فى جملة الأمور عليه، و إنما أعطيت الأمر المشهور، و تركت ما يعلم منه من خرق العوائد فى ظهور الطعام و الشراب و السمن و التمر و أخذ الدراهم من الكون، و

إخباره عن وقائع قبل وقوعها بسنين كثيرة و ظهرت كما أخبر، فصح أنه هو المذكور، انتهى ما تعلق به الغرض مما فى الرسالة فى شأن الشيخ ابن سبعين.

و قد ذكر غير واحد من المؤرخين- و منهم لسان الدين بن الخطيب فى «الإحاطة» كما سيأتى قريبا- أن ابن سبعين عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها، فعظم عليه بذلك الحمل، و قبحت الأحدوثة عنه، انتهى.

لكن قال شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى الأديب الشهير، و هو صاحب كتاب السكردان و ديوان الصبابة و منطق الطير و الاعتراض على العارف بالله تعالى ابن الفارض، ما معناه: أخبرنى الشيخ الصالح أبو الحسن بن برغوش التلمسانى شيخ المجاورين بمكة و كانت له معرفة تامة بهذا الرجل، أنه صده عن زيارة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، أنه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة على ساكنها الصلاة و السلام يهراق منه دم كدم الحيض، و اللّه تعالى أعلم بحقيقة أمره، انتهى.

و قال غيره: نعم زار النبى صلى اللّه عليه و سلم مستخفيا على طريق المشاة، حدّث بذلك أصهاره بمكة، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۸

و قال لسان الدين: أما شهرته و محله من الإدراك و الآراء و الأوضاع و الأسماء و الوقوف على الأقوال و التعمق فى الفلسفة و القيام على مذاهب المتكلمين فما يقضى منه بالعجب.

و قال الشيخ أبو البركات بن الحاج البلفيقى رحمه اللّه تعالى: حدثنى بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الأمير أبا عبد اللّه بن هود سالم طاغية النصارى، فنكث به، و لم يف بشرطه، فاضطره ذلك إلى مخاطبة القس الأعظم برومية، فوكل أبا طالب بن سبعين أخا أبى محمد عبد الحق بن سبعين فى التكلم عنه، و الاستظهار بين يديه، قال: فلما بلغ ذلك الشخص رومية، و هو بلد لا يصل إليه المسلمون، و نظر إلى ما بيده، و سئل عن نفسه، فأخبر بما ينبغى، كلّم ذلك القس من دنا منه بكلام معجم ترجم لأبى طالب بما معناه: اعلموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه، انتهى.

و قال غير واحد: إنه ظهر منه و اشتهرت عنه أشياء كثيرة اللّه تعالى أعلم باستحقاقه رتبة ما ادعاه منها: فمنها قوله- فيما زعموا- و قد جرى ذكر الشيخ ولى اللّه سيدى أبى مدين نفعنا اللّه تعالى ببركاته: «شعيب عبد عمل، و نحن عبيد حضرة» و ممن حكى هذا لسان الدين فى الإحاطة.

و قد ذكر ابن خلدون فى تاريخه الكبير فى ترجمة السلطان المستنصر بالله تعالى أبى عبد اللّه محمد ابن السلطان زكريا بن عبد الواحد بن أبى حفص ملك إفريقية و ما إليها: أن أهل مكة بايعوه، و خطبوا له بعرفة، و أرسلوا له ببيعتهم، و هى من إنشاء ابن سبعين، و سردها ابن خلدون بجملتها، و هى طويلة، و فيها من البلاغة و التلاعب بأطراف الكلام ما لا مطمح وراءه، غير أنه يشير فيها إلى أن المستنصر هو المهدى المبشر به فى الأحاديث الذى يحثو المال و لا يعدّه، و حمل حديث مسلم و غيره عليه، و ذلك ما لا يخفى ما فيه، فليراجع كلام ابن خلدون فى محله.

و لابن سبعين من رسالة: سلام عليك و رحمة اللّه، سلام عليك ثم سلام مناجاتك، سلام اللّه و رحمة اللّه الممتدة على عوالمك كلها، السلام عليك يا أيها النبى و رحمة اللّه تعالى و بركاته، و صلى اللّه عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتك، و كصلاة أعز ملائكتك من حيث حقيقتك، و كصلاته من حيث حقه و رحمانيته السلام عليك يا حبيب اللّه، السلام عليك يا قياس الكمال، و مقدمة العلم، و نتيجة الحمد، و برهان المحمود، و من إذا نظر الذهن إليه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۳۹

قرأ نِعْمَ الْعَبْدُ [ص: ۳۰]، السلام عليك يا من هو الشرط فى كمال الأولياء، و أسرار مشروطات الأذكياء الأتقياء، السلام عليك يا من جاوز فى السماوات مقام الرسل و الأنبياء، و زادك رفعة و استعلاء على ذوات الملأ الأعلى، و ذكر قوله تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (۱) [الأعلى: ۱] و قال بعضهم عند إيراده جملة من رسائله التى منها هذه: إنها تشتمل على ما يشهد له بتعظيم النبوة و إيثار الورع،

انتهى.

و قال بعض العلماء الأكابر، عند تعرضه لترجمة الشيخ ابن سبعين المترجم به، ما نصه ببعض اختصار: هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم، و تعدد المعارف، و كثرة التصانيف، ولد سنة ۶۱۴، و درس العربية و الأدب بالأندلس، و نظر فى العلوم العقلية، و أخذ عن أبى إسحاق بن دهاق، و برع فى طريقه، و جال فى البلاد، و قدم القاهرة، ثم حج و استوطن مكة، و طار صيته، و عظم أمره، و كثر أتباعه، حتى إنه تلمذ له أمير مكة، فبلغ من التعظيم الغاية، و له كتاب «الدرج» و كتاب «السفر» و كتاب «الأبوبة اليمنية» و كتاب «الكد» و كتاب «الإحاطة» و رسائل كثيرة فى الأذكار و ترتيب السلوك و الوصايا و المواعظ و الغنائم.

و من شعره: [البسيط]

كم ذا تموّه بالشّعبين و العلم و الأمر أوضح من نار على علم

و كم تعبّر عن سلع و كاظمة و عن زرود و جيران بذى سلم

ظللت تسأل عن نجد و أنت بها و عن تهامة، هذا فعل متّهم

فى الحىّ حىّ سوى ليلى فتسأله عنها؟ سؤالك و هم جرّ للعدم

و نشأ رحمه اللّه تعالى ترفا مبجلا فى ظل جاه و نعمة، لم تفارق معها نفسه البأو، و كان وسيما، جميلا، ملوكى البزة، عزيز النفس، قليل التصنع، و كان آية من الآيات فى الإيثار و الجود بما فى يده، رحمه اللّه تعالى!.

و قال فى الإحاطة: للناس فى أمره اختلاف بين الولاية و ضدها، و لما وجه إلى كلامه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۰

سهام الناقدين قصر أكثرهم عن مداه فى الإدراك، و الخوض فى تلك البحار و الاطلاع، و ساءت منهم فى الممازجة له السيرة، فانصرفوا عنه مكلومين، يبذرون عنه فى الآفاق من سوء القالة ما لا شىء فوقه، و جرت بينه و بين أعلام المشرق خطوب ثم نزل مكة، و عاقه الخوف من أمير المدينة النبوية عن الدخول إليها إلى أن توفى فعظم بذلك الحمل عليه، و قبحت الأحدوثة عنه، و لما وردت على سبتة المسائل الصقلية- و كانت جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبكيتا للمسلمين- انتدب للجواب المقنع عنها، على فتاء من سنه، و بديهة من فكرته، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

و قال بعض من عرف به: إنه من أهل مرسية، و له علم و حكمة و معرفة و نباهة و براعة و فصاحة و بلاغة.

و قال فى «عنوان الدراية»: رحل إلى العدوة، و سكن ببجاية مدة، و لقى من أصحابنا ناسا، و أخذوا عنه، و انتفعوا به فى فنون خاصة، له مشاركة فى معقول العلوم و منقولها، و له فصاحة لسان، و طلاقة قلم، و فهم جنان، و هو أحد العلماء الفضلاء، و له أتباع كثيرة من الفقراء و من عامة الناس، و له موضوعات كثيرة هى موجودة بأيدى أصحابه، و له فيها ألغاز و إشارات بحروف أبجد، و له تسميات مخصوصة فى كتبه هى نوع من الرموز، و له تسميات ظاهرة هى كالأسامى المعهودة، و له شعر فى التحقيق، و فى مراقى أهل الطريق، و كتابته مستحسنة فى طريق الأدباء، و له من الفضل و المزية ملازمته لبيت اللّه الحرام، و التزامه الاعتمار على الدوام، و حجه مع الحجاج فى كل عام، و هذه مزية لا يعرف قدرها و لا يرام، و لقد مشى به للمغاربة فى الحرم الشريف حظ لم يكن لهم فى غير مدّته، و كان أهل مكة يعتمدون على أقواله، و يهتدون بأفعاله.

توفى رحمه اللّه تعالى يوم الخميس تاسع شوّال سنة ۶۶۹، انتهى ببعض اختصار.

و ذكر رحمه اللّه تعالى فى ترجمة تلميذه الشيخ أبى الحسن الششترى السابق الذكر أن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۱

أكثر الطلبة يرجّحونه على شيخه أبى محمد بن سبعين، و إذا ذكر له هذا يقول: إنما ذلك لعدم اطلاعهم على حال الشيخ و قصور باعهم.

و من تآليف ابن سبعين «الفتح المشترك» و مما حكاه صاحب «عنوان الدراية» فى ترجمة الششترى- مما لم نذكره فى ترجمته الماضية، و رأينا ذكره هنا تبركا أن الششترى كان فى بعض أسفاره فى البرية، و كان رجل من أصحابه قد أسر فسمعه الفقراء يقول: إلينا يا أحمد، فقيل له: من أحمد الذى ناديته يا سيدى فى هذه البرية؟ فقال لهم: من تسرون به غدا إن شاء اللّه تعالى، فلما كان من الغد ورد الشيخ و أصحابه بلدة قابس، فعند دخولهم إذا بالرجل المأسور، فقال الشيخ للفقراء و أصحابه: هنيئا لنا باقتحام العقبة، صافحوا أخاكم، المنادى به.

و من مناقبه- نفع اللّه تعالى به!- أنه لما نزل بلدة قابس برباط البحر المعروف بالصهريج جاءه الشيخ الصالح أبو إسحاق الزرنانىّ نفع اللّه تعالى به بجميع أصحابه برسم الزيارة، فوافق وصوله وصول الشيخ الصالح الفاضل الولى أبى عبد اللّه الصّنهاجى- نفع اللّه تعالى به!- مع جملة أصحابه للزيارة، فوجدوا الشيخ أبا الحسن قد خرج إلى موضع بخارج المدينة برسم الخلوة، فجلسوا لانتظاره، فلم يكن إلا قليل إذ أقبل الشيخ على هيئة معتبر متفكر، فلما دخل الرباط سلم على الواصلين برسم الزيارة، و حيّا المسجد، و أقبل على الفقراء، و أثر العبرة على وجنته، فقال: ائتونى بمداد، فلما أحضر بين يديه تأوّه تأوّها شديدا كاد أن يحرق بنفسه جليسه، و جعل يكتب على لوح هذه الأبيات: [السريع]

لا تلتفت باللّه يا ناظرى لأهيف كالغصن النّاضر

يا قلب و اصرف عنك و هم البقا و خلّ عن سرب حمى حاجر

ما السّرب و البان و ما لعلع ما الخيف ما ظبى بنى عامر؟

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۲

جمال من سمّيته داثر ما حاجة العاقل بالدّاثر

و إنّما مطلبه فى الّذى هام الورى من حسنه الباهر-

أفاد للشّمس سنى كالّذى أعاره للقمر الزّاهر

أصبحت فيه مغرما حائرا للّه در المغرم الحائر

و كانوا يوما ببلد مالقة، و كثيرا ما يجوّد عليه القرآن العزيز، فقرأ طالب قوله تعالى:

إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا- إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى [طه: ۱۴] فقال معجلا- رضى اللّه تعالى عنه، و فهم من الآية ما لم يفهم، و علم منها ما لم يعلم: [البسيط]

انظر للفظ أنا يا مغرما فيه من حيث نظرتنا لعلّ تدريه

خلّ ادّخارك لا تفخر بعارية لا يستعير فقير من مواليه

جسوم أحرفه للسّرّ حاملة إن شئت تعرفه جرّب معانيه

و دخل عليه شخص ببجاية من أهلها يعرف بأبى الحسن بن علال، من أهل الأمانة و الديانة، فوجده يذاكر بعض أهل العلم، فاستحسن منه إيراده للعلم، و استعماله لمحاضرة الفهم، فاعتقد شياخته و تقديمه، ثم نوى أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين دينارا شكرا للّه تعالى، و يأتيهم بمأكول، فلما يسر جميع ما اهتم به أراد أن يقسمه فيعطيه شطره و يدع الشطر الثانى إلى حين انصراف الشيخ، ليكون للفقراء زادا، فلما كان فى الليل رأى فى منامه النبى صلى اللّه عليه و سلم و معه أبو بكر و على رضى اللّه تعالى عنهما، قال الرجل: فنهضت إليه بسرور رؤية النبى صلى اللّه عليه و سلم، و قلت: يا رسول اللّه ادع اللّه تعالى لى، فالتفت لأبى بكر رضى اللّه تعالى عنه، و قال: «يا أبا بكر، أعطه»، فإذا به رضى اللّه عنه قسم رغيفا كان بيده و أعطانى نصفه، ثم أفاق الرجل من منامه، و أخذه وجد من هذه الرؤيا المباركة، فأيقظ أهله، و استعمل نفسه فى العبادة، فلما كان من الغد سار و أتى الشيخ ببعض الطعام و نصف الدراهم المحتسب بها، فلما دفعها للشيخ قال له الشيخ: يا على، اقرب، فلما قرب قال له: يا على، لو أتيت بالكل لأخذت منه الرغيف بكماله، انتهى.

۱۲۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم، الشهير بابن غصن، الإشبيلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۳

من ولد شدّاد بن أوس الأنصارى، الجزيرى، نسبة إلى الجزيرة الخضراء، الإمام، المقرى، الزاهد، عرض على الأستاذ ابن أبى الربيع الموطأ من حفظه، و أخذ عنه النحو، و كان من أولياء اللّه تعالى الصالحين، و عباده الناصحين، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، قوّالا بالحق، لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، عارفا بمتون الحديث و أحكامه، فقيها عارفا متقنا لمذاهب الأئمة الأربعة و الصحابة و التابعين، لا يقبل من أحد شيئا، مخلصا للّه تعالى، يتكلم على المنبر على عادة أهل العلم من تعليم المسائل الدينية، و أقرأ القرآن بمكة مدّة بالقراءات و بالمدينة و بيت المقدس، و ممن قرأ عليه خليل إمام المالكية بالحرم، و الشهاب الطبرى إمام الحنفية بالحرم، و له مصنفات فى القراءات: منها «مختصر الكافى» و كتاب فى معجزات النبى صلى اللّه عليه و سلم، و مولده سنة ۶۳۱ تخمينا، و توفى ببيت المقدس آخر سنة ۷۲۳، رحمه اللّه تعالى!.

۱۲۱- و منهم الشيخ الفقيه، الأستاذ، النحوى، التاريخى، اللغوى، أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى، اللّبلى

، يكنى أبا العباس و أبا جعفر.

قرأ بالأندلس على مشايخ من أفضلهم الأستاذ أبو على عمر الشّلوبين، ثم ارتحل إلى العدوة، و سكن بجاية، و أقرأ بها مدّة، و ارتحل إلى المشرق فحج، ثم رجع إلى حضرة تونس و اتخذها وطنا، و اشتغل بها بالإقراء إلى أن مات، كان يتبسط لإقراء سائر كتب العربية، و له علم جليل باللغة، و له تواليف كثيرة: منها على الجمل، و «شرح الفصيح» لثعلب، و لم يشذ فيه شىء من فصيح كلام العرب.

قال الغبرينى رحمه اللّه تعالى: و رأيت له تأليفا فى الأذكار، و له عقيدة فى علم الكلام، و رأيت له مجموعا سماه «الإعلام، بحدود قواعد الكلام» تكلم فيه على الكلم الثلاث، الاسم و الفعل و الحرف، و له تواليف أخر، و كان من أساتيذ إفريقية فى وقته، و ممن أخذ عنه، و استفيد منه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۴

و ذكر الشيخ أبو الطيب بن علوان التونسى عن والده أحمد التونسى الشهير بالمصرى أن للمذكور تأليفا سماه «التجنيس» و له شرح أبيات الجمل، سماه «وشى الحلل» رفعه للملك المستنصر الحفصى بتونس، فدفعه المستنصر للأستاذ أبى الحسن حازم، و أمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وجده، فحكى أبو عبد اللّه القطان المسفر- و كان يخدم حازما- قال: كنت يوما بدار أبى الحسن حازم و بين يديه هذا الكتاب، فسمعت نقر الباب، فخرجت فإذا بالفقيه أبى جعفر، فرجعت و أخبرت أبا الحسن، فقام مبادرا حتى أدخله و بالغ فى بره و إكرامه، فرأى الكتاب بين يديه، فقال له: يا أبا الحسن، قال الشاعر: [الطويل]

و عين الرّضا عن كلّ عيب كليلة

فقال له: يا فقيه أبا جعفر، أنت سيدى و أخى، و لكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه إلا قول الحق، و العلم لا يحتمل المداهنة، فقال له: فأخبرنى بما عثرت عليه، قال له: نعم، فأظهر له مواضع، فسلّمها أبو جعفر و بشرها و أصلحها بخطه.

و أصل هذا اللّبلى من لبلة قرية بالأندلس، اجتمع فى رحلته للمشرق بالقاضى ابن دقيق العيد، و كان نحويا، فلما دخل عليه اللّبلى قال له القاضى: خير مقدم، ثم سأله بعد حين: بم انتصب خير مقدم؟ فقال له اللبلى: على المصدر، و هو من المصادر التى لا تظهر أفعالها، و قد ذكره سيبويه، ثم سرد عليه الباب من أوله إلى آخره، فإنه كان يحفظ أكثره، فأكرمه القاضى و عظمه.

ثم قال ابن علوان: و ذكر والدى أيضا رحمه اللّه تعالى، و من خطه المبارك نقلت، أن الأستاذ أبا جعفر اللبلى المذكور رحمه اللّه تعالى قرىء عليه يوما قول امرئ القيس: [الكامل]

حتّى الحمول بجانب العزل إذ لا يلائم شكلها شكلى

فقال لطلبته: ما العامل فى هذا الظرف يعنى «إذ»؟ فتنازعوا القول، فقال: حسبكم، قرىء هذا البيت على أستاذنا أبى على الشّلوبين، فسألنا هذا السؤال، و كان أبو الحسن بن عصفور قد برع و استقل و جلس للتدريس، و كان الشلوبين يغض منه، فقال لنا: إذا خرجتم فاسألوا ذلك الجاهل، يعنى ابن عصفور، فلما خرجنا سرنا إليه بجمعنا، و دخلنا المسجد، فرأيناه قد دارت به حلقة كبيرة، و هو يتكلم بغرائب النحو، فلم نجسر على سؤاله لهيبته، و انصرفنا، ثم جئنا بعد على عادتنا لأبى على، فنسى حتى قرىء عليه قول النابغة: [البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۵

فعدّ عمّا ترى إذ لا ارتجاع له

:فتذكر، و قال: ما فعلتم فى سؤال ابن عصفور؟ فصدقنا له الحديث، فأقسم ألّا يخبرنا ما العامل فيه، ثم قال اللّبلى لطلبته: و أنا أقول لكم مثل ذلك، فانظروا لأنفسكم، قالوا: فنظرنا فإذا المسألة مسألة فحص و نظر، كلما حكمنا بحكم صدّتنا عنه قوانين نحوية، حتى مضت مدة طويلة، فوفد علينا بتونس المحروسة أحد طلبة ابن أبى الربيع، و كان ابن أبى الربيع هذا ساكنا بسبتة، و هو أحد طلبة الشلوبين أيضا، و من كبار هذه الطبقة التى نشأت بعده، قالوا: فتذاكرنا مع هذا الطالب فى مسائل نحوية، فمرت هذه المسألة فى قوله تعالى: إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۹۸) [الشعراء: ۹۸] فقال هذا الطالب: إن هذا الظرف وقع موقع لام العلة، فعلمنا أن هذا هو الذى أراد الأستاذ أبو على، ثم ناقشنا الطالب و قلنا له: إذا جعلته ظرفا فلا بد من العامل، و إذا جعلته واقعا موقع الحرف كان هذا على شذوذ قول الكوفيين، و الذى يجوز عكسه على مذهب الجميع، و إنما الأولى أن يقال: إذ حرف معناه التعليل تشترك فيه الأسماء و الحروف كما اشتركت فى عن، و اللّه أعلم بغيبه، انتهى.

۱۲۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح القرطبى.

قال الحافظ المقريزى: و فرح بسكون الراء، و قال الحافظ عبد الكريم فى حقه: إنه كان من عباد اللّه الصالحين، و العلماء العارفين الورعين، الزاهدين فى الدنيا، المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة، فيما بين توجه و عبادة و تصنيف، جمع فى تفسير القرآن كتابا خمسة عشر مجلدا، و شرح أسماء اللّه الحسنى فى مجلدين، و له كتاب «التذكرة، فى أمور الآخرة» فى مجلدين، و شرح «التفصى» و له تآليف غير ذلك مفيدة، و كان مطرح التكلف، يمشى بثوب واحد، و على رأسه طاقية، سمع من الشيخ أبى العباس أحمد بن عمر القرطبى صاحب «المفهم، فى شرح مسلم» بعض هذا الشرح، و حدث عن أبى الحسن على بن محمد بن على بن حفص اليحصبى، و عن الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد البكرى، و غيرهما، و توفى بمنية ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ۶۷۱، و دفن بها، رحمه اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۶

و فى تاريخ الكتبى فى حقه ما نصه: كان شيخا فاضلا، و له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه و وفور علمه، منها «تفسير القرآن» مليح إلى الغاية اثنا عشر مجلدا، انتهى.

و كتب بعض تلامذته على الهامش ما صورته: قد أجحف المصنف فى ترجمته جدا، و كان متقنا متبحرا فى العلم، انتهى.

و كتب بعض بأثر هذا الكلام ما نصه: قال الذهبى: رحل و كتب و سمع، و كان يقظا، فهما، حسن الحفظ، مليح النظم، حسن المذاكرة، ثقة، حافظا، انتهى.

و كتب آخر أثر ذلك الكلام ما صورته: مشاحة شيخنا للمصنف فى هذه العبارة مالها فائدة، فإن الذهبى قال فى تاريخ الإسلام: العلامة أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح، الإمام، القرطبى، إمام متفنن، متبحر فى العلم، له تصانيف مفيدة، تدل على كثرة اطلاعه و وفور عقله و فضله، ثم ذكر موته، و قال بعده: و قد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، و له «الأسنى، فى شرح

الأسماء الحسنى» و «التذكرة» و أشياء تدل على إمامته و ذكائه و كثرة اطلاعه، انتهى.

و كتب آخر بأثر هذا الكلام ما نصه: غفر اللّه لك! إذا كان الذهبى ترجمه بما ذكرت، و هو و اللّه فوق ذلك، فكيف تقول: إن مشاحة شيخك لا فائدة فيها، و تسيء الأدب معه، و تقول إن كلامه لا فائدة فيه؟ فاللّه يستر عليك! انتهى.

۱۲۳- و منهم أبو القاسم بن حاضر، الجزيرى، الخزرجى، محمد بن أحمد.

من جزيرة شقر، قدم مصر، و سكن قوص بعد ما كان من عدول بلنسية، و كان فصيحا، عالما بصناعة التوريق، و له نظم لم يحضرنى الآن شيء منه، و مات بالقاهرة سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۲۴- و منهم أبو القاسم التّجيبى، محمد بن أحمد التّجيبى.

من أهل بلّش، قرأ على ابن مفرّج و ابن أبى الأحوص، و رحل فاستوطن القاهرة، و كان شيخا فاضلا خيرا، له أدب و شعر، منه قوله من أبيات: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۷

أحوى الجفون له رقيب أحول الشّيء فى إدراكه شيئان

يا ليته ترك الّذى أنا مبصر و هو المخيّر فى الغزال الثّانى

ولد ببلّش سنة ۶۲۳، و توفى بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ۶۹۵، و ممن روى عنه نحويّ الزمان أثير الدين ابن حيّان و غيره، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۱۲۵- و منهم أبو بكر الخزرجى، محمد بن أحمد بن حسن، و قيل: محمد بن عيسى، المالقىّ، المالكى.

قال الشريف أبو القاسم: إنه كان أحد الزهاد الورعين، و عباد اللّه المتقين، مشتغلا بنفسه، متخليا عما فى أيدى الناس، يأكل من كسب يده، و لا يقبل لأحد شيئا، مع وجد و علم و عمل و فضل و أدب، و لم يكن فى زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له.

و قال الحافظ عبد الكريم: إنه دخل إشبيلية، و اشتغل بالعربية على الشّلوبين و قرأ القراءات السبع، ثم قدم مصر و اشتغل بمذهب مالك، و كان والده نجارا، و كان لا يأكل إلا من كسب يده، يخيط الثياب، فازدحم الناس عليه تبركا به، فترك ذلك و صار يدق القصدير و يأكل منه و يتصدق بما فضل عنه، و كان شديد الزهد، كثير العبادة، لا يسلم يده إلى أحد ليقبلها، و جاءه شخص قد زيد عليه فى أجرة مسكنه ليشفع إلى صاحب الدار أن لا يقبل الزائد، فمضى إلى صاحب الدار و أعطاه الزائد مدة أشهر، فعلم بذلك الساكن بعد مدة، فقال له: يا سيدى ما سألت إلا شفاعة، و أنت تزن عنى، فقال له: رجل له دار يأخذ أجرتها يجيء إليه الخزرجى يقطع عليه حقه؟ و اللّه ما يدفع هذا إلا أنا، فلم يزل يدفع الزائد إلى أن انتقل الساكن إلى غيرها، و مات ليلة الاثنين الثامن و العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ۶۵۱، عن خمس و أربعين سنة، و دفن بالقرافة، رحمه اللّه تعالى، و نفعنا به!.

۱۲۶- و منهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمى، مولاهم، لأن ولاءه لبنى العباس من أهل قرطبة.

ولد فى شهر رمضان سنة ۳۲۲، بقرطبة، و سمع بها من وهب بن مسرة، و خالد بن سعيد و غيره، و رحل فحج و أدرك بمصر ابن الورد و ابن رشيق، و أبا على بن السكن و نظراءهم فى سنة ۳۴۹، و عاد إلى بلده، و بها مات فى شهر رمضان سنة ست و أربعمائة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۸

قال ابن بشكوال: كان رجلا صالحا فاضلا، من أهل الاجتهاد فى العبادات مائلا إلى التقشف و الزهادة، قديم الطلب، حسن المذهب،

متبعا للسنن.

۱۲۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن سلمان بن أحمد بن إبراهيم، الزهرى، الأندلسى، الإشبيلى.

ولد بمالقة، و طاف الأندلس، و طلب العلم، و حصل طرفا صالحا من علم الأدب، و دخل مصر قبل التسعين و خمسمائة، فسمع الحديث بها، و دخل الشام و بلاد الجزيرة، و قدم بغداد سنة ۵۹۰، و عمره ثلاثون سنة، و أقام بها مدة، و سمع من شيوخها كأبى الفرج بن كليب و نحوه، و قرأ و نسخ بخطه، و سافر إلى أصبهان و بلاد الجبل، و كان فاضلا حسن المعرفة بالأدب، يقول الشعر، و ينشئ المقامات و صنف كتاب «البيان و التبيين، فى أنساب المحدثين» ستة أجزاء، و كتاب «البيان، فيها أبهم من الأسماء فى القرآن» مجلد، و كتاب «أقسام البلاغة، و أحكام الصناعة» فى مجلدين، و كتاب «شرح الإيضاح، لأبى على الفارسى» فى خمسة عشر مجلدا، و كتاب «شرح المقامات» مجلد، و كتاب «شرح اليمينى» فى مجلد، قال المنذرى:
توفى شهيدا، قتله التتار فى رجب، و قال ابن النجار: فى سابع عشر رجب سنة ۶۱۷، رحمه اللّه تعالى!.

۱۲۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم، القرطبى، المقرى المعروف بالورشى

، نسبة إلى قراءة ورش لاشتهاره بها.
و هو أحد القراء المعروفين، قال الحاكم: هو من الصالحين المذكورين بالتقدم فى علم القراءات، سمع بمصر و الشام و الحجاز و العراقين و الجبل و أصبهان، و ورد نيسابور، و دخل خراسان فسمع على بن المرزبان بأصبهان، و بالأهواز عبد الواحد بن خلف الجنديسابورى، و بفارس أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقى، و قال ابن النجار: قدم بغداد، و حدث بها، توفى بسجستان فى ربيع الأول سنة ۳۹۳.

۱۲۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الباجى، اللخمى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۴۹
قال ابن بشكوال: مولده فى صفر سنة ۳۵۶، و سمع عن جده، و رحل إلى المشرق.
و قال ابن غلبون فى مشيخته: إنه كان من أهل العلم و الحديث و الرواية و الحفظ للمسائل، قائما بها، واقفا عليها، قاعدا للشروط، محسنا لها، عارفا، و بيتهم بيت علم، و نشأ فيه هو و أبوه وجده، و كان جميعهم فى الفضل و التقدم على درجاتهم فى السن، و على منازلهم فى السبق، و كانت رحلته مع أبيه و روايتهما واحدة، و شاركه فى السماع و الرواية عن جده، و سمع بمصر من أبى الحسن أحمد بن عبد اللّه بن حميد بن زريق المخزومى.
و قال ابن بشكوال: كان من أجل الفقهاء عندنا دراية و رواية، بصيرا بالعقود، و متقدما على أهل الوثائق، عارفا بعللها، و ألف فيها كتابا حسنا، و كتابا فى السجلات إلى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ و المتأخرين، مع ما كان عليه من الطريقة المثلى، و توفية العلم حقه من الوفاء و التصون، توفى فى المحرم سنة ۴۳۳ لعشرين بقين منه.

۱۳۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عبد العزيز، العتبى، الأندلسى، القرطبى

الفقيه المالكى المشهور، صاحب العتبيّة.
سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى و سعيد بن حسان و غيرهما، و رحل إلى المشرق فسمع من سحنون و أصبغ بن الفرج و غيرهما، و كان حافظا للمسائل، جامعا لها، عالما بالنوازل، و هو الذى جمع المستخرجة من الأسمعة المسموعة غالبا من مالك بن أنس، و تعرف

بالعتبية، و أكثر فيها من الروايات المطروحة و المسائل الغريبة الشاذة، و كان يؤتى بالمسألة الغربية الشاذة فإذا سمعها قال: أدخلوها فى المستخرجة، و لذا روى عن ابن وضاح أنه كان يقول: المستخرجة فيها خطأ كثير، كذا قال، و لكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من علماء المالكية كابن رشد و غيره.

قال ابن يونس: توفى بالأندلس سنة ۲۵۵.

و العتبى: نسبة إلى عتبة بن أبى سفيان بن حرب، و قيل: إلى جد للمذكور يسمى عتبة، و قيل إلى ولاء عتبة بن أبى يعيش.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۰

۱۳۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافرى، المقرى، الفرضى، الأديب.

ولد بالأندلس سنة ۵۹۱، و نشأ ببلنسية، و أقام بالإسكندرية، و قرأ القرآن على أصحاب ابن هذيل، و نظم قصيدة فى القراءات على وزن الشاطبية، لكن أكثر أبياتا، و صرح فيها بأسماء القراء، و لم يرمز كما فعل الشاطبى، و كانت له يد فى الفرائض و العروض، مع معرفة القراءات و الأدب.

و من شعره: [الطويل]

إذا ما اشترت بنت أباها فعتقه بنفس الشّرا شرعا عليها تأصّلا

و ميراثه إن مات من غير عاصب و من غير ذى فرض لها قد تأثّلا

لها النّصف بالميراث و النّصف بالولا فإن وهب ابنا أو شراه تفضّلا

فأعتق شرعا ذلك الابن ما لها سوى الثّلث، و الثّلثان للأخ أصّلا

و ميراثها فيه إذا مات قبلها كميراثها فى الأب من قبل يجتلى

و مولى أبيها ما لها الدّهر فيه من ولاء و لا إرث مع الأب فاعتلى

و هذه المسألة ذكر الغزالى فى الوسيط أنه قضى فيها أربعمائة قاض، و غلطوا، و صورتها ابنة اشترت أباها فعتق عليها، ثم اشترى الأب ابنا فعتق عليه، ثم اشترى الأب عبدا فأعتقه، ثم مات الأب، فورثه الابن و البنت للذكر مثل حظ الأنثيين، ثم مات العبد المعتق، فلمن يكون ولاؤه؟ و فرضها المالكية على غير هذا الوجه و هى مشهورة.

۱۳۲- و منهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل، أبو عبد اللّه، الأموى، الأندلسى، الطّليطلى، المعروف بالنقاش.

نزل مصر، و قعد للإقراء بجامع عمرو بن العاص، و أخذ عنه جماعة، و توفى بمصر سنة ۵۲۹.

۱۳۳- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد القيسى، القبرى، القرطبى، المؤدب.

رحل من الأندلس سنة ۳۴۲، فسمع بمصر من أبى محمد بن الورد و أبى قتيبة سالم بن الفضل البغدادى و غيره، و كان صالحا خيرا مؤدبا، سمع من الناس. و توفى سنة ۳۶۲.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۱

و القبرى- بفتح القاف، و سكون الباء الموحدة، ثم راء مهملة- نسبة إلى قبرة بلد بالأندلس بقرب قرطبة بنحو ثلاثين ميلا.

۱۳۴- و منهم جمال الدين أبو بكر الوائلى، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن سجمان، الشريشى، المالكى.

ولد بشريش سنة ۶۰۱، و رحل فسمع بالإسكندرية من ابن عماد الحرانى، و بدمشق من مكرم بن أبى الصقر، و بحلب من أبى البقاء

يعيش بن على النحوى، و سمع بإربل و بغداد، و أقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدّة يفيد الناس فتخرّج به جماعة، و ولى مشيخة المدرسة بالقدس، و مشيخة الرباط الناصرى بالجبل، و أقام بدمشق يفتى و يدرس، و كان من العلماء الزهاد كثير العبادة و الورع و الزهد، أحد الأئمة المبرزين المتبحرين فى العربية و الفقه على مذهب الإمام مالك، و التفسير، و الأصول، و صنف كتابا فى الاشتقاق، و شرح ألفية ابن معطى، و أخذ عنه الناس، و طلب للقضاء بدمشق فامتنع منه زهدا و ورعا، و بقى المنصب لأجله شاغرا إلى أن مات برجب سنة ۶۸۵، و دفن بقاسيون.

و سجمان: بسين مهملة مضمومة، ثم جيم ساكنة، بعدها ميم مفتوحة، و نون.

۱۳۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرّج، القرطبى، المعروف والده بالقنتورى.

و كان جد أبيه مفرج صاحب الركاب للحكم بن عبد الرحمن الداخل، و كان أبوه أحمد بن يحيى رجلا صالحا، و ولد هو سنة ۳۱۵، و كان سكناه بقرطبة بقرب عين قنت أورية، و سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ كثيرا، و من ابن أبى دليم و الخشنى، و رحل سنة ۳۳۷ فسمع بمكة من ابن الأعرابى، و لزمه حتى مات، و سمع بها من جماعة غيره، و سمع بجدّة، و المدينة النبوية على ساكنها الصلاة و السلام، و دخل صنعاء و زبيد و عدن، و سمع بها من جماعة، و سمع بمصر من البرقى صاحب أحمد البزار، و سمع من السيرافى و جماعة كثيرة، و سمع بغزة و عسقلان و طبرية و دمشق و طرابلس و بيروت و صيدا و الرملة و صور و قيسارية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۲

و القلزم و الفرما و الإسكندرية، فبلغت عدة شيوخه إلى مائتين و ثلاثين شيخا، و روى عنه أبو عمر الطلمنكى و جماعة، و كتب تاريخ مصر عن مؤلفه أبى سعيد بن يونس، و روى عنه ابن يونس و هو من أقرانه، و عاد إلى الأندلس من رحلته سنة ۳۴۵، و اتّصل بالحكم المستنصر، و صارت له عنده مكانة، و ألف له عدة كتب، و استقضاه على إستجة ثم على المريّة، و مات برجب سنة ۳۴۸.

قال الحميدى: هو محدث، حافظ، جليل، صنف كتبا فى فقه الحديث، و فى فقه التابعين: فمنها «فقه الحسن البصرى» فى سبع مجلدات، و «فقه الزهرى» فى أجزاء كثيرة، و سمع مسند ابن الفرضى و حديث قاسم بن أصبغ.

قال ابن الفرضى: و كان عالما بالحديث، بصيرا برجاله، صحيح النقل، حافظا، جيد الكتابة على كثرة ما جمع.

و قال ابن عفيف فى حقه: إنه كان من أعنى الناس بالعلم، و أحفظهم للحديث، و أبصرهم بالرجال، ما رأيت مثله فى هذا الفن، من أوثق المحدثين بالأندلس، و أصحهم كتبا، و أشدهم تعبا لروايته، و أجودهم ضبطا لكتبه، و أكثرهم تصحيحا لها، لم يدع فيها شبهة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۳۶- و منهم أبو عبد اللّه القيسى، الوضاحى، محمد بن أحمد بن موسى.

رحل إلى المشرق، و سمع من السّلفى و غيره جملة صالحة، و غيره جملة صالحة، ثم عاد إلى الأندلس بعد الحج، و سكن المرية مدّة، و بها مات سنة ۵۳۹، و قيل: فى التى بعدها، و كان من أظرف الناس، و أحسنهم أدبا، فقيها، فاضلا، ثقة، ذا فرائد جمة، عفيفا، معتنيا بالعلم.

۱۳۷- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل، العبدرى، البلنسى.

ولد سنة ۵۱۹، و سمع من أبيه و جماعة، و رحل حاجا فسمع من السّلفى و ابن عوف و الحضرمى و التنوخى و العثمانى و غيرهم، و رجع بعد الحج إلى الأندلس فحدث، و كان غاية فى الصلاح و الورع و أعمال البر، و له حظ من علم العبارة، و مشاركة فى اللغة، و كتب بخطه على ضعفه كثيرا، رحمه اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۳

۱۳۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن نوح، الإشبيلى.

و مولده سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة بإشبيلية، و جال فى بلاد المغرب و المشرق، و قرأ على الشيوخ الفضلاء، و حصّل كثيرا فى علم القراءات و الأدب، و له نظم و نثر، و كان كثير التلاوة للقرآن، جيد الأداء له، و أقام بدمشق حتى مات بها سنة ۶۹۹، رحمه اللّه تعالى!.

۱۳۹- و منهم محمد بن أسباط، المخزومى، القرطبى.

روى عن يحيى بن يحيى، و قدم مصر فسمع من الحارث بن مسكين، و كان حافظا للفقه، عالما، توفى سنة ۲۷۹.

۱۴۰- و منهم أبو بكر محمد بن إسحاق، الشهير بابن السّليم، قاضى الجماعة بقرطبة.

مولده سنة ۳۰۶، روى عن قاسم بن أصبغ و طبقته، و رحل سنة ۳۳۲، فسمع بمكة من ابن الأعرابى، و بمصر من الزبيرىّ و ابن النحاس و غيرهما، و عاد إلى الأندلس فأقبل على الزهد و دراسة العلم، و حدث، فسمع منه الناس، و كان حافظا للفقه، بصيرا بالاختلاف، حسن الخط و البلاغة متواضعا، و توفى بجمادى الأولى سنة ۳۶۷.

و سليم بفتح السين مكبرا.

۱۴۱- و منهم موسى بن بهيج، المغربى، الأندلسى، الواعظ، الفقيه العالم.

من أهل المرية، نزل مصر، يكنى أبا عمران، كان من أهل العلم و الأدب، و له فى الزهد و غيره أشعار حملت عنه، و حدث المرشانى عنه بمخمسة فى الحج و أعماله كلها، و لقيه بمصر و قرأها عليه.

و لابن بهيج هذا قوله: [مجزوء الرمل]

إنّما دنياك ساعه فاجعل السّاعة طاعه

و احذر التّقصير فيها و اجتهد، ما قدر ساعه

و إذا أحببت عزّا فالتمس عزّ القناعه

۱۴۲- و منهم أبو عمران موسى بن سعادة، مولى سعيد بن نصر.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۴

من أهل مرسية، سمع صهره أبا على ابن سكرة الصّدفى، و كانت بنته عند أبى على، و لازمه، و أكثر عنه، و روى عن أبى محمد بن مفوّز الشاطبى و أبى الحسن بن شفيع، قرأ عليهما الموطأ، و رحل، و حج، و سمع السنن من الطرطوشى، و عنى بالرواية، و انتسخ صحيحى البخارى و مسلم بخطه، و سمعهما على صهره أبى على، و كانا أصلين لا يكاد يوجد فى الصحة مثلهما، حكى الفقيه أبو محمد عاشر بن محمد أنه سمعهما على أبى على نحو ستين مرة، و كتب أيضا الغريبين للهروى، و غير ذلك، و كان أحد الأفاضل الصلحاء، و الأجواد السّمحاء، يؤم الناس فى صلاة الفريضة، و يتولى القيام بمؤن صهره أبى على و بما يحتاج إليه من دقيق الأشياء و جليلها، و إليه أوصى عند توجّهه إلى غزوة كتندة التى فقد فيها سنة أربع عشرة و خمسمائة، و كانت له مشاركة فى علم اللغة و الأدب، و قد حدث عنه ابن أخيه القاضى أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن سعادة بكتاب «أدب الكتاب» لابن قتيبة، و «بالفصيح» لثعلب.

۱۴۳- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن طاهر، الأزدى.

من أهل وادى آش، له رحلة إلى المشرق أدى فيها الفريضة، و سمع بدمشق من أبى طاهر الخشوعى مقامات الحريرى و ابن عساكر و غيرهما، ثم قفل إلى بلده، انتهى ملخصا من ابن الأبار.

و حكى الصفدى أن ابن المستكفى اجتمع بالمتنبى بمصر، و روى عنه شيئا من شعره، و مما روى عنه أنه قال: أنشدنى المتنبى لنفسه: [السريع]

لا عبت بالخاتم إنسانة كمثل بدر فى الدّجى الفاحم

و كلّما حاولت أخذى له من البنان المطرف النّاعم

ألقته فى فيها فقلت: انظروا قد خبّت الخاتم فى الخاتم

۱۴۴- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد اللّه بن مالك.

صاحب التسهيل و الألفية، و هو: جمال الدين محمد بن عبد اللّه بن عبد اللّه بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۵

مالك، الإمام، العلامة، الأوحد، الطائى، الجيّانى، المالكى حين كان بالمغرب، الشافعى حين انتقل إلى المشرق، النحوى، نزيل دمشق. ولد سنة ستمائة أو فى التى بعدها، و سمع بدمشق من مكرم و أبى صادق الحسن بن صبّاح و أبى الحسن السخاوى و غيرهم، و أخذ العربية عن غير واحد، فممن أخذ عنه بجيّان أبو المظفر، و قيل: أبو الحسن، ثابت بن خيار، عرف بابن الطيلسان، و أبى رزين، بن ثابت بن محمد يوسف بن خيار الكلاعى من أهل لبلة، و أخذ القراءات عن أبى العباس أحمد بن نوّار، و قرأ كتاب سيبويه على أبى عبد اللّه بن مالك المرشانى، و جالس يعيش و تلميذه ابن عمرون و غيره بحلب، و تصدر بها لإقراء العربية، و صرف همته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، و أربى على المتقدمين، و كان إماما فى القراءات، و عالما بها، و صنف فيها قصيدة دالية مرموزة فى قدر الشاطبية، و أما اللغة فكان إليه المنتهى فيها.

قال الصفدى: أخبرنى أبو الثناء محمود قال: ذكر ابن مالك يوما ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهرى فى اللغة، قال الصفدى: و هذا أمر معجز، لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما فى الكتابين، و أخبرنى عنه أنه كان إذا صلى فى العادلية- لأنه كان إمام المدرسة- يشيعه قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان إلى بيته تعظيما له.

و قد روى عنه الألفية شهاب الدين محمود المذكور، و رواها الصفدى خليل عن شهاب الدين محمود قراءة، و رواها إجازة عن ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر و عن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه.

و أما النحو و التصريف فكان فيهما ابن مالك بحرا لا يشقّ لجّه، و أما اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد بها على النحو و اللغة فكان أمرا عجيبا، و كان الأئمة الأعلام يتحيرون فى أمره، و أما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية، لأنه كان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، و إن لم يكن فيه شىء عدل إلى أشعار العرب، هذا مع ما هو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۶

عليه من الدين و العبادة، و صدق اللهجة، و كثرة النوافل، و حسن السّمت، و كمال العقل، و أقام بدمشق مدة يصنف و يشتغل بالجامع و بالتربة العادلية، و تخرج به جماعة، و كان نظم الشعر عليه سهلا رجزه و طويله و بسيطه، و صنف كتاب «تسهيل الفوائد» قال الصفدى: و مدحه سعد الدين محمد بن عربى بأبيات مليحة إلى الغاية، و هى: [البسيط]

إنّ الإمام جمال الدّين جمّله ربّ العلا و لنشر العلم أهّله

أملى كتابا له يسمى «الفوائد» لم يزل مفيدا لذى لبّ تأمّله

و كلّ مسألة فى النّحو يجمعها إنّ الفوائد جمع لا نظير له

قال: و فى هذه الأبيات مع حسن التورية فيها ما لا يخلو من إيراد ذكرته فى كتابى «فص الخاتم» انتهى.

قلت: أجاب العجيسى عن ذلك بأن الأبيات ليست فى التسهيل، و إنما هى فى كتاب له يسمى «الفوائد» و هو الذى لخصه فى «التسهيل» فقوله فى اسم التسهيل «تسهيل الفوائد» معناه تسهيل هذا الكتاب، و ذكر أيضا أنه مثل التسهيل فى القدر على ما ذكره من وقف عليه، و قال:

و إليه يشير سعد الدين محمد بن عربى بقوله «إن الإمام- إلى آخره» و سعد الدين ابن الشيخ محيى الدين الفصوص و غيرها.

ثم قال العجيسى: و ذكر غير واحد من أصحابنا أن له كتابا آخر سماه بالمقاصد، و ضمنها تسهيله، فسماه لذلك «تسهيل الفوائد، و تكميل المقاصد» فعلى هذا لا يصح قول الصفدى «إن المدح المذكور فى التسهيل» إلا بارتكاب ضرب من التأويل، انتهى كلام العجيسى.

قلت: و ذكر غيره أن قوله فى الألفية «مقاصد النحو بها محوية» إشارة لكتاب المقاصد، و تعقب بقوله «محوية» فإنه لو كان كما ذكر فقال محوىّ، و أجاب بعضهم بأنه من باب الاستخدام، و فيه تعسف.

رجع- و من تصانيف ابن مالك «الموصل، فى نظم المفصل» و قد حل هذا النظم فسماه «سبك المنظوم، و فك المختوم» و من قال «إن اسمه فك المنظوم و سبك المختوم» فقد خالف النقل و العقل، و من كتب ابن مالك كتاب «الكافية الشافية» ثلاثة آلاف بيت، و شرحها، و الخلاصة،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۷

و هى مختصر الشافية، و «إكمال الإعلام، بمثلث الكلام» و هو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم، و «لامية الأفعال» و شرحها، و «فعل و أفعل» و «المقدمة الأسدية» وضعها باسم ولده الأسد، و «عدّة اللافظ، و عمدة الحافظ» و «النظم الأوجز، فيما يهمز» و «الاعتضاد، فى الظاء و الضاد» مجلد، و «إعراب مشكل البخارى» و «تحفة المودود، فى المقصور و المدود» و غير ذلك كشرح التسهيل. و روى عنه ولده بدر الدين محمد، و محب الدين بن جعوان، و شمس الدين بن أبى الفتح، و ابن العطار، و زين الدين أبو بكر المزّى، و الشيخ أبو الحسين اليونينى، و أبو عبد اللّه الصيرفى، و قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، و شهاب الدين محمود و شهاب الدين بن غانم، و ناصر الدين بن شافع، و خلق كثير سواهم.

و من نظمه فى الحلبة: [البسيط]

خيل السّباق المجلّى يقتفيه مص لّ و المسلّى و تال قبل مرتاح

و عاطف و حظىّ و المؤمّل و ال لّطيم و الفسكل السّكّيت يا صاح

و له من هذه الضوابط شىء كثير.

و كان يقول عن الشيخ ابن الحاجب: إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل، و صاحب المفصل نحوىّ صغير، و ناهيك بمن يقول هذا فى حق الزمخشرى.

و كان الشيخ ركن الدين بن القوبع يقول: إن ابن مالك ما خلّى للنحو حرمة.

و حكى عنه أنه كان يوما فى الحمام و قد اعتزل فى مكان يستعمل فيه الموسى، فهجم عليه فتى فقال: ما تصنع؟ فقال: أكنس لك الموضع للقعود، قال بعضهم: و هذا مما يستبعد على دين ابن مالك، و العهدة على ناقله، قال الصفدى: و لا يستبعد ذلك من لطف النحاة و طباع أهل الأندلس.

و توفى ابن مالك بدمشق سنة اثنتين و سبعين و ستمائة.

و قال بعضهم: من أحسن شعر ابن مالك قوله: [الطويل]

إذا رمدت عينى تداويت منكم بنظرة حسن أو بسمع كلام

فإن لم أجد ماء تيمّمت باسمكم و صلّيت فرضى و الدّيار أمامى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۸

و أخلصت تكبيرى عن الغير معرضا و قابلت أعلام السّوى بسلام

و لم أر إلّا نور ذاتك لائحا فهل تدع الشّمس امتداد ظلام

و قدم- رحمه اللّه تعالى!- القاهرة، ثم رحل إلى دمشق، و بها مات كما علم.

و قال الشرف الحصنى يرثيه: [الخفيف]

يا شتات الأسماء و الأفعال بعد موت ابن مالك المفضال

و انحراف الحروف من بعد ضبط منه فى الانفصال و الاتّصال

مصدرا كان للعلوم بإذن اللّه من غير شبهة و محال

عدم النّحو و التّعطّف و التّو كيد مستبدلا من الأبدال

ألم اعتراه أسكن منه حركات كانت بغير اعتلال

يا لها سكتة لهمز قضاء أورثت طول مدّة الانفصال

رفعوه فى نعشه فانتصبنا نصب تمييز، كيف سير الجبال؟

فخّموه عند الصّلاة بدلّ فأميلت أسراره للدّلال

صرّفوه يا عظم ما فعلوه و هو عدل معرّف بالجمال

أدغموه فى التّرب من غير مثل سالما من تغيّر الانتقال

وقفوا عند قبره ساعة الدّف ن وقوفا ضرورة الامتثال

و مددنا الأكفّ نطلب قصرا مسكنا للنّزيل من ذى الجلال

آخر الآى من سبأ الحظّ منه حظّه جاء أوّل الأنفال

يا بيان الإعراب يا جامع الإغ راب يا مفهما لكلّ مقال

يا فريد الزّمان فى النّظم و النّث ر و فى نقل مستندات العوالى

كم علوم بثثتها فى أناس علّموا ما بثثت عند الزّوال

انتهت ملخصة.

قال الصفدى: و ما رأيت مرثية فى نحوى أحسن منها على طولها، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۵۹

و دفن ابن مالك بسفح قاسيون، بتربة القاضى عز الدين بن الصائغ، و قال العجيسى:

بتربة ابن جعوان.

و رثاه الشيخ بهاء الدين بن النحاس بقوله: [الكامل]

قل لابن مالك ان جرت بك أدمعى حمرا يحاكيها النّجيع القانى

فلقد جرحت القلب حين نعيت لى و تدفّقت بدمائه أجفانى

لكن يهوّن ما أجنّ من الأسى علمى بنقلته إلى رضوان

فسقى ضريحا ضمّه صوب الحيا يهمى به بالرّوح و الرّيحان

و ابن النحاس المذكور أحد تلامذة ابن مالك، و هو القائل يخاطب رضى الدين الشاطبى الأندلسّى، و قد كلفه أن يشترى له قطرا: [الخفيف]

أيّها الأوحد الرّضيّ الّذى طا ل علاء و طاب فى النّاس نشرا

أنت بحر لا غرو إن نحن وافى ناك زاجين من نداك القطرا

و ابن النحاس المذكور له نظم كثير مشهور بين الناس، و هو: بهاء الدين أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر، الحلبى الأصل، المعروف بابن النحاس، و هو شيخ أبى حيّان، و لم يأخذ أبو حيّان عن ابن مالك و إن عاصره بنحو ثلاثين سنة.

و قال بعض من عرّف بابن مالك: إنه تصدر بحلب مدة، و أم بالسلطانية، ثم تحول إلى دمشق، و تكاثر عليه الطلبة، و حاز قصب السبق، و صار يضرب به المثل فى دقائق النحو، و غوامض الصرف، و غريب اللغات، و أشعار العرب، مع الحفظ و الذكاء و الورع و الديانة و حسن السّمت و الصيانة و التحرى لما ينقله و التحرير فيه، و كان ذا عقل راجح، حسن الأخلاق، مهذبا، ذا رزانة و حياء و وقار، و انتصاب للإفادة، و صبر على المطالعة الكثيرة، تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجى و غيره، و سارت بتصانيفه الركبان، و خضع لها العلماء الأعيان، و كان حريصا على العلم، حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۰

و قال بعض الحفاظ حين عرف بابن مالك: يقال إن عبد اللّه فى نسبه مذكور مرتين متواليتين، و بعض يقول: مرة واحدة، و هو الموجود بخطه أول شرحه لعمدته، و هو الذى اعتمده الصفدى و ابن خطيب داريّا محمد بن أحمد بن سليمان الأنصارى، و على كل حال فهو مشهور بجدّه فى المشرق و المغرب.

و حكى بعضهم أن ولادته سنة ثمان و تسعين و خمسمائة، و عليه عوّل شيخ شيوخ شيوخنا ابن غازى فى قوله: [رجز]

قد خبع ابن مالك فى خبعا و هو ابن عه كذا وعى من قد وعى

و قيل، كما تقدم: إن مولده سنة ستمائة أو بعدها بجيّان الحرير مدينة من مدن الأندلس جبر اللّه كسرها، و هى مفتوحة الجيم و ياؤها مشددة تحتانية، و تصدّر ابن مالك بحماة مدة، و انتقد بعضهم على ابن خلكان إسقاطه من تاريخه، مع كونه كان يعظّمه إلى الغاية، و قدم رحمه اللّه تعالى لصاحب دمشق قصة يقول فيها عن نفسه: إنه أعلم الناس بالعربية و الحديث، و يكفيه شرفا أن من تلامذته الشيخ النووى، و العلم الفارقى، و الشمس البعلى، و الزين المزّى، و غيرهم ممن لا يحصى.

و كان رحمه اللّه تعالى كثير المطالعة، سريع المراجعة، لا يكتب شيئا من محفوظه حتى يراجعه فى محله، و هذه حالة المشايخ الثقات، و العلماء الأثبات، و لا يرى إلا و هو يصلى أو يتلو أو يصنف أو يقرئ، و كذا كان الشيخ أبو حيّان، و لكن كان جدّه فى التصنيف و الإقراء.

و حكى أنه توجه يوما مع أصحابه للفرجة بدمشق، فلما بلغوا الموضع الذى أرادوه غفلوا عنه سويعة، فطلبوه فلم يجدوه، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبا على أوراق.

و أغرب من هذا فى اعتنائه بالعلم ما مر أنه حفظ يوم موته عدة أبيات حدّها بعضهم بثمانية، و فى عبارة بعض «أو نحوها» لقنه ابنه إياها، و هذا مما يصدق ما قيل بقدر ما تتعنى، تنال ما تتمنى، فجزاه اللّه خيرا عن هذه الهمة العلية!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۱

و ذكر أبو حيان فى الجوازم من تذييله و تكميله، أنه لم يصحب من له البراعة فى علم اللسان، و لذا تضعف استنباطاته و تعقّباته على أهل هذا الشأن، و ينفر من المنازعة، و المباحثة و المراجعة، قال: و هذا شأن من يقرأ بنفسه، و يأخذ العلم من الصحف بفهمه، و لقد طال فحصى و تنقيرى عمن قرأ عليه، و استند فى العلم إليه، فلم أجد من يذكر لى شيئا من ذلك، و لقد جرى يوما مع صاحبنا تلميذه

علم الدين سليمان بن أبى حرب الفارقى الحنفى فقال: ذكر لنا أنه قرأ على ثابت بن خيار من أهل بلده جيان، و أنه جلس فى حلقة الأستاذ أبى على الشلوبين نحوا من ثلاثة عشر يوما، و ثابت بن خيار ليس من أهل الجلالة و الشهرة فى هذا الشأن، و إنما جلالته و شهرته فى إقراء القرآن، هذا حاصل ما ذكره أبو حيان.

قال بعض المحققين، و هو العلامة يحيى العجيسى: و ليس ذلك منه بإنصاف، و لا- يحمل على مثله إلا- هوى النفس و سرعة الانحراف، فنفيه المسند عنه و المتبع، شهادة نفى فلا تنفع و لا تسمع، و يكفى ما سطر فى حقه قوله فى أثنائه: نظم فى هذا العلم كثيرا و نثر، و جمع باعتكاف على الاشتغال به و مراجعة الكتب و مطالعة الدواوين العربية و طول السن من هذا العلم غرائب، و حوت مصنفاته منها نوادر و عجائب، و إن منها كثيرا استخرجه من أشعار العرب و كتب اللغة، إذ هى مرتبة الأكابر النقاد، و أرباب النظر و الاجتهاد، و قوله فى موضع آخر من تذييله «لا يكون تحت السماء أنحى ممن عرف ما فى تسهيله» و قرنه فى بحره بمصنف سيبويه فما ينبغى له أن يغمصه، و لا- أن يحط عليه، و لا- أن يقع فيما وقع فيه، فإنه مما يجرّىء على أمثاله الغبى و النبيه، و الحليم و السفيه، و ما هذا جزاء السلف من الخلف، و الدرر من الصدف، و الجيد من الحشف، أو ما ينظر إلى شيخه أبى عبد اللّه بن النحاس، فإنه لا يذكره إلا- بأحسن ذكر كما هو دأب خيار الناس، و من كلامه فى نقله عنه، و هو الثقة فيما ينقل و الفاضل حين يقول، و إلى تلميذه أبى البقاء الحافظ المصرى حيث يقول فيه، أعنى فى أبى حيان: [الطويل]

هو الأوحد الفرد الّذى تمّ علمه و سار مسير الشّمس فى الشّرق و الغرب

و من غاية الإحسان مبدأ فضله فلا غرو أن يسمو على العجم و العرب

و من غاية الإحسان، فى هذا الشان، التصانيف التى سارت بها الركبان، فى جميع الأوطان، و اعترف بحسنها الحاضر و البادى، و الدانى و القاصى، و الصديق و العدو، فتلقاها بالقبول و الإذعان، فسامح اللّه تعالى أبا حيان! فإن كلامه يحقق قول القائل: كما تدين تدان،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۲

و رحم اللّه تعالى ابن مالك! فلقد أحيا من العلم رسوما دلوسة، و بين معالم طامسة، و جمع من ذلك ما تفرق، و حقق ما لم يكن تبين منه و لا- تحقق، و رحم شيخه ثابت بن الخيار، فإنه كان من الثقات الأخيار! و هو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعى- بضم الكاف على ما كان يضبط بيده فيما حكاه ابن الخطيب فى الإحاطة- و أصله من لبلة، و يعد فى أهل جيّان و توفى بغرناطة سنة ۶۲۸، و كان أبو حيّان يغض من هذا الكتاب و يقول: ما فيه من الضوابط و القواعد حائد عن مهيع الصواب و السداد، و كثيرا ما يشير إلى ذلك فى شرحه المسمى بمنهج السالك، و من غضّه منه بالنظم فى ملأ من الناس من جملتهم شيخه بهاء الدين بن النحاس و الأقسرانى يجاريه مقتفيا له و متأسيا فى تسويد القرطاس: [مجزوء الرجز]

ألفيّة ابن مالك مطموسة المسالك

و كم بها مشتغل أوقع فى المهالك

و لا تغتر أنت بهذا الغرر، فإنه ما كل سحاب أبرق ممطر، و لا كل عود أورق مثمر، و قيل معارضة للقوم، و تنبيها لهم مما هم فيه من النوم: [مجزوء الرجز]

ألفيّة ابن مالك مشرقة المسالك

و كم بها من مشتغل علا على الأرائك

و ما أحسن قول ابن الوردى فى هذا المعنى: [الرجز]

يا عائبا ألفيّة ابن مالك و غائبا عن حفظها و فهمها

أما تراها قد حوت فضائلا كثيرة فلا تجر فى ظلمها

و ازجر لمن جادل من يحفظها برابع و خامس من اسمها

يعنى «صه» فإنه عند الاستقلال بمعنى اسكت، انتهى ملخصا.

و قال أيضا عند ذكره مصنفات ابن مالك: و هى كما قيل غزيرة المسائل، و لكنها على الناظر بعيدة الوسائل، و هى مع ذلك كثيرة الإفادة، موسومة بالإجادة، و ليست هى لمن هو فى هذا الفن فى درجة ابتدائه، بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۳

و اعلم أن الألفية مختصرة الكافية كما تقدم، و كثير من أبياتها فيها بلفظها، و متبوعه فيها ابن معطى، و نظمه أجمع و أوعب، و نظم ابن معطى أسلس و أعذب، و ذكر الصفدى عن الذهبى أن ابن مالك صنف الألفية لولده تقى الدين محمد المدعو بالأسد، و اعترضه العلامة العجيسى بأن الذى صنفه له عن تحقيق «المقدمة الأسدية» قال: و أما هذه- يعنى الألفية- فذكر لى من أثق بقوله أنه صنفها برسم القاضى شرف الدين هبة اللّه بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس الدين بن إبراهيم بن عفيف الدين بن هبة اللّه بن مسلم بن هبة اللّه بن حسان الجهنى الحموى الشافعى الشهير بابن البارزى، و يقال: إن هذه النسبة إلى باب أبرز أحد أبواب بغداد، و لكن خفف لكثرة دوره على الألسنة، انتهى مختصرا.

و قال بعض من عرّف بابن مالك: هو مقيم أود، و قاطع لدد، و مزين سماء موّهت الأصائل ديباجتها، و شعشعت البكر زجاجتها، و جاءت أيامه صافية من الكدر، و لياليه و ما بها شائبة من الكبر، قد خلّقها العشى بردعه، و خلفها الصباح بربعه، فكان كل متعين حول مسجده، و كل عين فاخرة بعسجده، هذا و زمر الطلاب، و طلبة الأجلاب، لا تزال تزجى إليه القلاص، و تكثر من سربه الاقتناص، كان أوحد وقته فى علم النحو و اللغة مع كثرة الديانة و الصلاح، انتهى.

و قال بعض المغاربة: [الطويل]

لقد مزّقت قلبى سهام جفونها كما مزّق اللّخمىّ مذهب مالك

و صال على الأوصال بالقدّ قدّها فأضحت كأبيات بتقطيع مالك

و قلّدت إذ ذاك الهوى لمرادها كتقليد أعلام النّحاة ابن مالك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۳۶۳

و ملّكتها رقّى لرقّة لفظها و إن كنت لا أرضاه ملكا لمالك

و ناديتها يا منيتى بذل مهجتى و مالى قليل فى بديع جمالك

و يعنى بقوله «بتقطيع مالك» مالك بن المرحّل السّبتى رحمه اللّه تعالى!.

و لما سئل ابن مالك عن قول النبى صلى اللّه عليه و سلم «نعوذ بالله من الحور بعد الكور» هل هو بالراء أو بالنون؟ أنكر النون، فقيل له: إن فى الغريبين للهروى، رواية بالنون، فرجع عن قوله الأول، و قال: إنما هو بالنون، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۴

و قد ذكر فى المشارق النون و الراء، فقال «الحور بعد الكور» بالراء رواه العذرى و ابن الحذاء، و للباقين بالنون، معناه النقصان بعد الزيادة، و قيل: من الشذوذ بعد الجماعة، و قيل:

من الفساد بعد الصلاح، و قيل: من القلة بعد الكثرة، كار عمامته إذا لفها على رأسه و اجتمعت، و حارها إذا نقضها فافترقت، و يقال: حار إذا رجع عن أمر كان عليه، و وهّم بعضهم رواية النون، و قيل: معناها رجع إلى الفساد بعد أن كان على خير مما رجع إليه، و قال عياض فى موضع آخر بعد: الحور بعد الكور، كذا للعذرى، و الكون للفارسى و السجزى و ابن ماهان، و قول عاصم فى تفسيره «حار بعد ما كار» و هى روايته، و يقال: إن عاصما و هم فيه، انتهى.

و السائل لابن مالك عن اللفظة هو ابن خلّكان، لأن ابن الأثير سأل ابن خلكان عنها، فسأل هو ابن مالك، رحم اللّه تعالى الجميع!

و قد عرف الحافظ الذهبى بابن مالك فى تاريخ الإسلام، و ذكر فيه ترجمة لولده بدر الدين محمد، و أنه كان حادّ الذهن، ذكيا، إماما فى النحو و علم المعانى و المنطق، جيد المشاركة فى الفقه و التدريس، و أنه تصدّر بعد والده للتدريس، و مات شابا قبل الكهولة سنة ۶۸۶، و من أجلّ تصانيفه شرحه على ألفية والده، و هو كتاب فى غاية الإغلاق، و يقال: إنه نظير الرضى فى شرح الكافية، و للناس عليه حواش كثيرة، رحمه اللّه تعالى أجمعين!

۱۴۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن طاهر القيسى التدّميرى، و يعرف بالشهيد.

كان عظيم القدر جدا بالأندلس، بعيد الأثر فى الخير و الصلاح و العلم و النسك و الانقطاع إلى اللّه تعالى، و كان من وجوه أهل كورة تدمير ذوى البيوت الرفيعة، و برع بخصاله المحمودة، فكان فى نفسه فقيها، عالما، زاهدا، خيّرا، ناسكا، متبتلا، نشأ على الاستقامة و الصلاح و الاهتداء و الدّعة، و طلب العلم فى حدثان سنه. و رحل إلى قرطبة فروى الحديث و تفقه و ناظر، و أخذ بحظ وافر من علم المسألة و الجواب، و كان أكثر علمه و عمله الورع، و التشدد فيه، و التحفظ بدينه و مكسبه، و رسخ فى علم السّنّة، ثم ارتحل إلى المشرق، فمرّ بمصر حاجّا، فأقام بالحرمين ثمانية أعوام يتعيش فيها من عمل يده بالنسخ، ثم سار إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۵

العراق، فلقى أبا بكر الأبهرى و أخذ عنه، و أكثر من لقاء الصالحين و أهل العلم، و لبس الصوف، و قنع، و تورع جدا، و أعرض عن الشهوات، و كان إذا سئم من النسخ الذى جعل قوته منه آجر نفسه فى الخدمة رياضة لها، فأصبح عابدا متقشفا منيبا مخبتا عالما عاملا منقطع القرين، قد جرت منه دعوات مجابة، و حفظت له كرامات ظاهرة، ثم عاد إلى بلده تدمير سنة ست أو سبع و سبعين و ثلاثمائة، و بها أبوه أبو الحسام طاهر حيا، فنزل خارج مدينة مرسيّة تورّعا عن سكناها و عن الصلاة فى جامعها، فاتخذ له بيتا سقفه من حطب السّدر يأوى إليه، و اعتمر جنينة بيده يقتات منها، و صار يغزو مع المنصور محمد بن أبى عامر، ثم تحول من قريته بعد عامين إلى الثغر، و واصل الرّباط، و نزل مدينة طلبيرة، و كان يدخل منها فى السرايا إلى بلد العدو فيغزو و يتقوت من سهمانه، و يعوّل على فرس له ارتبطه لذلك، و كان له بأس و شدة و شجاعة و ثقافة، يحدّث عنه فيها بحكايات عجيبة، إلى أن استشهد مقبلا غير مدبر، سنة ۳۷۹، أو فى التى قبلها، عن اثنتين و أربعين سنة، و أبوه حى، رحم اللّه تعالى الجميع!

۱۴۶- و منهم أبو عبد اللّه القيجاطى محمد بن عبد الجليل بن عبد اللّه بن جهور.

مولده سنة ۵۹۰ بقيجاطة، و كتب عنه الحافظ المنذرى، و من شعره قوله: [بحر الطويل]

إذا كنت تهوى من نأت عنك داره فحسبك ما تلقى من الشوق و البعد

فيا ويح صبّ قد تضرّم ناره و وا حرّ قلب ذاب من شدة الوجد

۱۴۷- و منهم أبو عبد اللّه- و يقال: أبو حامد- محمد بن عبد الرحيم، المازنىّ، القيسى، الغرناطى.

ولد سنة ۴۷۳، و دخل الإسكندرية سنة ۵۰۸، و سمع بها من أبى عبد اللّه الرازى، و بمصر من أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى و أبى الحسن الفراء الموصلى و أبى عبد اللّه محمد بن بركات بن هلال النحوى و غيرهم، و حدّث بدمشق، و سمع أيضا بها و ببغداد، و قدمها سنة ۵۵۶، و دخل خراسان، و أقام بها مدة، ثم رجع إلى الشام، و أقام بحلب سنين، و سكن دمشق، و كان يذكر أنه رأى عجائب فى بلاد شتى، و نسبه بعض الناس بسبب ذلك إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۶

ما لا يليق، و صنف فى ذلك كتابا سماه «تحفة الألباب» و كان حافظا عالما أديبا، و تكلم فيه الحافظ ابن عساكر، و زنّه بالكذب، و

قال ابن النجار: ما علمته إلا أمينا.

و من شعره قوله: [بحر الرمل]

تكتب العلم و تلقى فى سفط ثم لا تحفظ؟ لا تفلح قط

إنما يفلح من يحفظه بعد فهم و توقّ من غلط

و قوله: [بحر البسيط]

العلم فى القلب ليس العلم فى الكتب فلا تكن مغرما باللهو و اللعب

فاحفظه و افهمه و اعمل كى تفوز به فالعلم لا يجتنى إلا مع التعب

توفى بدمشق فى صفر سنة ۵۶۵.

۱۴۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام، القرطبى،

من ذرية أبى ثعلبة الخشنى صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

رحل قبل الأربعين و مائتين، فحجّ، و سمع بالبصرة من محمد بن بشار و أبى موسى الزّمن و نصر بن علىّ الجهضمى، و لقى أبا حاتم السجستانى و العباس بن الفرج الرياشى، و سمع ببغداد من أبى عبيد القاسم بن سلام، و بمكة من محمد بن يحيى العدنى، و بمصر من سلمة بن شبيب صاحب عبد الرزّاق و البرقى و غيرهما، و أدخل الأندلس علما كثيرا من الحديث و اللغة و الشعر، و كان فصيحا جزل المنطق، صارما، ألوفا، منقبضا عن السلطان، أراده على القضاء فأبى، و قال: إبايـة إشفاق لا إباية عصيان، فأعفاه، و كان ثقة مأمونا، و توفى فى رمضان سنة ۲۸۶ عن ثمان و ستين سنة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۴۹- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج، القرطبى.

سمع من محمد بن وضاح و أكثر عنه، و أخذ عن محمد الخشنى و قاسم بن أصبغ و إبراهيم بن قاسم بن هلال، و رحل سنة ۲۷۴، فسمع بمصر من المطلب بن شعيب و المقدام بن داود الرعينى، و أدرك بالعراق إسماعيل القاضى و عبد اللّه بن أحمد بن حنبل.

قال الحميدى: حدّث بالمغرب و بالمشرق، و صنف السنن، و ممن روى عنه خالد بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۷

سعيد، و قال لنا أبو محمد بن حزم: مصنّف ابن أيمن مصنف رفيع احتوى من صحيح الحديث و غريبه على ما ليس فى كثير من المصنفات، و توفى فى ذى القعدة سنة ۳۳۰، بقرطبة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۵۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الملك بن ضيفون [بن مروان]، اللخمى، الرصافى، القرطبى، الحداد.

سمع بقرطبة من عبد اللّه بن يونس و قاسم بن أصبغ، و حج سنة ۴۴۹ سنة ردّ القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه، و سمع بمكة من ابن الأعرابى، و بمصر من ابن الورد، و أبى على بن السكن و عبد الكريم النسائى و غيرهم و سمع بأطرابلس و القيروان من جماعة، و كان رجلا صالحا، عدلا، حدث و كتب عنه الناس، و علت سّنه، و توفى بشوال سنة ۳۹۴، و ولد فيما أظن سنة ۳۰۲، و كانت وفاته بقرطبة، و قد اضطرب فى أشياء قرئت عليه، و ممن أخذ عنه الحافظ أبو عمر بن عبد البر، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۱۵۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الملك، الخزرجى، السعدى، القرطبى.

روى عن أبى الحسن على بن هشام، و روى عنه أبو القاسم بن بشكوال و قدم مصر و حدث بها، و ممن سمع منه بهاء بن وردان و أبو

الرضا القيسرانى فى آخرين، و استوطن مصر، و توفى سنة ۵۸۸.

۱۵۲- و منهم أبو بكر بن السرّاج، النحوى، بتشديد الراء.

و هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن السّرّاج الشّنتمرى، أحد أئمة العربية المبرزين فيها، و يكفيه فخرا أنه أستاذ أبى محمد عبد اللّه بن برى المصرى اللغوى النحوى، و حدث عن أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد النفطى، و قرأ العربية بالأندلس على ابن أبى العافية و ابن الأخضر، و قدم مصر سنة ۵۱۵، و أقام بها، و أقرأ الناس العربية، ثم انتقل إلى اليمن، و روى عنه أبو حفص عمر بن إسماعيل و أبو الحسن على والد الرشيد العطار، و له تواليف منها «تنبيه الألباب، فى فضل الإعراب» و كتاب فى العروض، و كتاب «مختصر العمدة» لابن رشيق و تنبيه أغلاطه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۸

قال السّلفى: كان من أهل الفضل الوافر، و الصلاح الظاهر، و كانت له حلقة فى جامع مصر لإقراء النحو، و كثيرا ما كان يحضر عندى- رحمه اللّه تعالى! مدة مقامى بالفسطاط، توفى بمصر سنة ۵۴۹، و قيل: سنة خمس و أربعين، و قيل: خمسين و خمسمائة، برمضان، و الأول أثبت.

۱۵۳- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أحمد بن على بن سعيد العنسى

، و يكنّى أيضا أبا القاسم، الغرناطى.

سمع من الجلّة بمصر و الإسكندرية و دمشق و بغداد: منهم الحرانى أبو عبد اللّه و أبو محمد عبد الصمد بن داود بدمشق، و كتب الحديث و عنى بالرواية أتم عناية، و فقد بأصبهان حين استولى عليها التتار قبل الثلاثين و ستمائة.

۱۵۴- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن الدفاع

، بالدال المهملة، و قيل: بالراء.

قرطبى، سمع عبد الملك بن حبيب، و رحل فسمع بمصر من الحارث بن مسكين و غيره، و كان زاهدا فاضلا، و توفى سنة ۲۸۱، رحمه اللّه تعالى!.

۱۵۵- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن سعيد بن عابد، المعافرى، القرطبى.

ولد بقرطبة سنة ۳۵۸، و دخل مصر فسمع من أبى بكر بن المهندس و أبى بكر البصرى، و روى عن أبى عبد اللّه بن مفرج و أبى محمد الأصيلى و جماعة، و لقى الشيخ أبا محمد بن أبى زيد فى رحلته سنة ۳۸۱ فسمع منه رسالته فى الفقه و غيرها، و حج من عامه، ثم عاد من مصر إلى المغرب سنة ۳۸۲، و كان معتنيا بالأخبار و الآثار، ثقة فيما رواه و عنى به، خيّرا، فاضلا، دينا، متواضعا، متصاونا، مقبلا على ما يعنيه، صاحب حظ من الفقه، و بصر بالمسائل، و دعى إلى الشورى بقرطبة فأبى، و مات سنة ۴۳۹.

و عابد جده بالباء الموحدة، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۱۵۶- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن سليمان بن عثمان بن هاجد، الأنصارى البلنسى.

أخذ القراءات عن جماعة من أهل بلده، و خرج حاجّا سنة ۵۷۱، فجاور بمكة، و سمع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۶۹

بها و بالإسكندرية من السّلفى، و عاد إلى بلده سنة ۵۹۶، و حدّث و كان من أهل الصلاة و الفضل و الورع، كثير البر، و مفاداة الأسرى، و يحترف بالتجارة، و مولده بعد سنة ۵۲۰، و مات سنة ۵۹۸ بمرسية، رحمه اللّه تعالى!.

۱۵۷- و منهم أبو الوليد محمد بن عبد اللّه بن محمد بن خيرة، القرطبى، المالكى، الحافظ.

ولد سنة ۴۷۹، و أخذ الفقه عن القاضى أبى الوليد بن رشد، و الحديث عن ابن عتاب، و روى الموطأ عن أبى بحر سفيان بن العاص بن سفيان، و أخذ الأدب عن [مولانا] أبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الأموى، و عن مالك بن عبد اللّه العتبى، و خرج من قرطبة فى الفتنة بعد ما درس بها و انتفع الناس به فى فروع الفقه و أصوله، و أقام بالإسكندرية خوفا من بنى عبد المؤمن بن على، ثم قال: كأنى و اللّه بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية، ثم سافر إلى مصر بعد ما روى عنه السّلفى، و أقام بها مدة، ثم قال: و اللّه ما مصر و الإسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد، و حدّث فى قوص بالموطإ، ثم قال: و اللّه ما يصلون إلى مصر و يتأخرون عن هذه البلاد، فمضى إلى مكة، و أقام بها، ثم قال: و تصل إلى هذه البلاد و لا تحج؟

ما أنا إلا هربت منه إليه! ثم دخل اليمن، فلما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن، فتوجه إلى الهند، فأدركه وفاته بها سنة ۵۵۱، و قيل: بل مات بزبيد من مدن اليمن، و كان من جلة العلماء، الحفاظ متقنا متفننا فى المعارف كلها جامعا لها، كثير الرواية، واسع المعرفة، حافل الأدب، من كبار فقهاء المالكية، يتصرف فى علوم شتى حافظا للآداب، عارفا بشعراء الأندلس، و كان علمه أوفر من منقطه، و لم يرزق فصاحة و لا حس إيراد.

قال ابن نقطة: خيرة بكسر الخاء المعجمة و فتح الياء المنقوطة من تحتها باثنتين.

۱۵۸- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبى الفضل، السلمى، المرسى.

قال ابن النجار: ولد بمرسية سنة ۵۷۰، و قال غيره: فى التى قبلها، و خرج من بلاد المغرب سنة ۶۰۷، و دخل مصر، و سار إلى الحجاز، و دخل مع قافلة الحجاج إلى بغداد، و أقام بها يسمع و يقرأ الفقه و الخلاف و الأصلين بالنّظامية، ثم سافر إلى خراسان، و سمع بنيسابور و هراة و مرو، و عاد إلى بلاد بغداد، و حدّث بكتاب السنن الكبرى للبيهقى عن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۰

منصور بن عبد المنعم الفراوى، و بكتاب غريب الحديث للخطابى، و قدم إلى مصر فحدث بالكثير عن جماعة منهم أم المؤيد زينب و أبو الحسن المؤيد الطوسى، و خرج من مصر يريد الشام فمات بين الزّعقة و العريش من منازل الرمل فى ربيع الأول سنة ۶۵۵، و دفن بتل الزعقة، و كان من الأئمة الفضلاء فى جميع فنون العلم من علوم القرآن و الحديث و الفقه و الخلاف و الأصلين و النحو و اللغة، و له فهم ثاقب، و تدقيق فى المعانى، مع النظم و النثر المليح، و كان زاهدا، متورعا، حسن الطريقة، متدينا، كثير العبادة، فقيها، مجردا، متعففا، نزه النفس، قليل المخالطة لأوقاته، طيب الأخلاق، متوددا، كريم النفس، قال ابن النجار: ما رأيت فى فنه مثله، و كان شافعى المذهب، و له كتاب تفسير القرآن سماه «رى الظمآن» كبير جدا، و كتاب «الضوابط الكلية» فى النحو، و تعليق على الموطأ، و كان مكثرا شيوخا و سماعا، و حدّث بالكثير بمصر و الشام و العراق و الحجاز، و كانت له كتب فى البلاد التى ينتقل إليها بحيث إنه لا يستصحب كتبا فى سفره اكتفاء بما له من الكتب فى البلد الذى يسافر إليه، و كان كريما. قال أبو حيان: أخبرنى الشرف الجزائرى بتونس أنه كان على رحلة، و كان ضعيفا، فقال له: خذ ما تحت هذه السجادة أو البساط، فرفعت ذلك، فوجدت تحته أكثر من أربعين دينارا ذهبا، فأخذتها.

۱۵۹- و قال الجمال اليغمورى

: أنشدنى لنفسه بالقاهرة: [بحر الكامل]

قالوا فلان قد أزال بهاءه ذاك العذار و كان بدر تمام

فأجبتهم بل زاد نور بهائه و لذا تضاعف فيه فرط غرامى

استقصرت ألحاظه فتكاتها فأتى العذار يمدها بسهام

و من شعره قوله: [بحر الكامل]

من كان يرغب فى النّجاة فما له غير اتباع المصطفى فيما أتى

ذاك السبيل المستقيم، و غيره سبل الغواية و الضلالة و الرّدى

فاتبع كتاب اللّه و السنن التى صحت، فذاك إذا اتبعت هو الهدى

و دع السؤال بكم و كيف فإنه باب يجرّ ذوى البصيرة للعمى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۱

الدين ما قال النبى و صحبه و التابعون و من مناهجهم قفا

۱۵۹- و منهم أبو بكر محمد بن عبد اللّه، البنتى، الأندلسى، الأنصارى.

قدم مصر، و أقام بالقرافة مدة، و كان شيخا صالحا زاهدا فاضلا، و توجه إلى الشام فهلك.

قال الرشيد العطار: كان من فضلاء الأندلسيين و نبهائهم، ساح فى الأرض و دخل بلاد العجم و غيرها من البلاد البعيدة، و كان يتكلم بألسنة شتى.

و من شعره قوله: [بحر الطويل]

إذا قلّ منك السّعى فالعزم ناشد و كلّ مكان فى مرائك واحد

توجّه بصدق و اتّق المين و اقتصد تجئك رهينات النجاح المقاصد

و البنتى- بضم الباء، و سكون النون- نسبة إلى بنت حصن بالأندلس، و يقال «بونت» بزيادة واو.

۱۶۰- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه، الخولانى، الباجى، ثم الإشبيلى، المعروف بابن القوق.

سمع بقرطبة من جماعة، و رحل إلى المشرق سنة ۲۶۶، فسمع بمكة من على بن عبد العزيز و غيره، و بمصر من محمد بن عبد الحكم و من أخيه سعد، و كان فقيها فى الرأى، حافظا له، عاقدا للشروط، قال ابن الفرضى: كان رجلا صالحا، ورعا ثقة، و كان خالد بن سعيد قد رحل إليه و سمع منه، و كان يقول إذا حدث عنه: كان من معادن الصدق، توفى سنة ۳۰۸.

۱۶۱- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه، اللوشى، الطبيب.

اشتغل بالطب، و برع فيه، و أقام بمصر مدة، و بها مات فى عشر الستين و ستمائة.

۱۶۲- و منهم أبو عبد اللّه محمد بن عبدون، العذرى، القرطبى.

رحل سنة ۳۳۷، فدخل مصر و البصرة، و عنى بعلم الطب، و دبر مارستان مصر، ثم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۲

رجع إلى الأندلس سنة ۳۶۰، و اتصل بالحكم المستنصر و ابنه المؤيد، و له فى التكسير كتاب حسن.

قال صاعد: تمهر فى الطب، و نبل فيه، و أحكم كثيرا من أصوله، و عانى صنعة المنطق معاناة صحيحة، و كان شيخه فيه أبو سليمان محمد بن محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى البغدادى، و كان قبل أن يتطب مؤدبا للحساب و الهندسة، و أخبرنى أبو عثمان سعيد الطليطلى، أنه لم يلق فى قرطبة من يلحق محمد بن عبدون فى صناعة الطب، و لا يجاريه فى ضبطها و حسن دربته فيها و إحكامه لغوامضها رحمه اللّه تعالى!.

۱۶۳- و من الراحلين إلى المشرق من أهل الأندلس أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر محمد بن مروان بن زهر، الإيادى، الأندلسى.

صاحب البيت الشهير بالأندلس، رحل المذكور إلى المشرق، و تطب به زمانا، و تولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر، ثم القيروان، ثم استوطن مدينة دانية، و طار ذكره فيها إلى أقطار الأندلس و المغرب، و اشتهر بالتقدم فى علم الطب حتى فاق أهل زمانه، و مات فى مدينة دانية، رحمه اللّه تعالى!.

و والده محمد بن مروان كان عالما بالرأى حافظا للأدب، فقيها، حاذقا بالفتوى، متقدما فيها، متقنا للعلوم، فاضلا، جامعا للدراية و الرواية، و توفى بطليرة سنة ۴۲۲، و هو ابن ست و ثمانين سنة، حدث عنه جماعة من علماء الأندلس، و وصفوه بالدين و الفضل و الجود و البذل، رحمه اللّه تعالى!.

و أما أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دحية فيه: إنه كان وزير ذلك الدهر و عظيمه، و فيلسوف ذلك العصر و حكيمه، و توفى ممتحنا من نغلة بين كتفيه سنة ۵۲۵ بمدينة قرطبة، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۳

و كانت بينه و بين الفتح صاحب القلائد عداوة، و لذلك كتب فى شأنه إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ما صورته: أطال اللّه تعالى بقاء الأمير الأجل سامعا للنداء، دافعا للتطاول و الاعتداء، لم ينظم اللّه تعالى بلبّتك الملك عقدا، و جعل لك حلّا للأمور و عقدا، و أوطأ لك عقبا، و أصار من الناس لعونك منتظرا و مرتقبا، إلا أن تكون للبرية حائطا، و للعدل فيهم باسطا، حتى لا يكون فيهم من يضام، و لا ينال أحدهم اهتضام، و لتقصر يد كل معتد فى الظلام، و هذا ابن زهر الذى أجررته رسنا، و أوضحت له إلى الاستطالة سننا، لم يتعد من الإضرار إلا حيث انتهيته، و لا تمادى على غيه إلا حين لم تنهه أو نهيته، و لما علم أنك لا تنكر عليه نكرا، و لا تغير له متى ما مكر فى عباد اللّه مكرا، جرى فى ميدان الأذية ملء عنانه، و سرى إلى ما شاء بعدوانه، و لم يراقب الذى خلقه، و أمدّ فى الحظوة عندك طلقه، و أنت بذلك مرتهن عند اللّه تعالى لأنه مكنك لئلا يتمكن الجور، و لتسكن بك الفلاة و الغور، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل فى كل طريق، و أخفق به كلّ فريق، و قد علمت أن خالقك الباطش الغيور، يعلم خائنة الأعين و ما تخفى الصدور، و ما تخفى عليه نجواك، و لا يستتر عنه تقلبك و مثواك، و ستقف بين يدى عدل حاكم، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم، قد علم كل قضية قضاها، و لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها، فبم تحتج معى لديه، إذا وقفت أنا و أنت بين يديه؟ أ ترى ابن زهر ينجيك فى ذلك المقام، أو يحميك من الانتقام، و قد أوضحت لك المحجّة، لتقرم عليك الحجة، و اللّه سبحانه النصير، و هو بكل خلق بصير، لا رب غيره، و السلام.

و قد تذكرت هنا بذكر الفتح ما كتبه و قد مات بعض إخوانه غريقا: [بحر الطويل]

أتانى و رحلى بالعراق عشية و رحل المطايا قد قطعن بنا نجدا

نعىّ أطار القلب عن مستقرّه و كنت على قصد فأغلطنى القصدا

نعوا و اللّه باسق الأخلاق لا يخلف، و رموا قلبى بسهم أصاب صميمه فما أخلف، لقد سام الردى منه حسنا و جمالا و وسامة، و طوى بطيّه نجده و تهامه، فعطل منه النّدىّ و النّدى، و أثكل فيه الهدىّ و الهدى، كم فلّ السيوف طول قراعه، و دل عليه الضيوف موقد ناره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۴

ببقاعه، و كم تشوف إليه السرير و المنبر، و تصرف فيه الثناء المحبّر، و كم راع البدر ليلة إبداره، و روّع العدو فى عقر داره، و أى فتى غدا له البحر ضريحا، و أعدى عليه الحين ماء و ريحا، فبدل من ظلل على و مفاخر، بقعر بحر طامى اللجج زاخر، و بدل من صهوات الخيل، بلهوات اللجج و السّيل، غريق حكى مقلتى فى دمعها، و أصاب نفسى فى سمعها، و من حزن لا أستسقى له الغمام فما له قبر تجوده، و لا ثرى تروى به تهائمه و نجوده، و قد آليت أن لا أودع الريح تحيۀ، و لا يورثنى هبوبها أريحيۀ، فهى التى أثارت فى الموج حنقا، و مشت عليه خببا و عنقا، حتى أعادته كالكثبان، و أودعته قضيب بان، فيا أسفا لزلال غاض فى أجاج، و لسلسال فاض عليه بحر عجّاج، و ما كان إلا جوهرا ذهب إلى عنصره، و صدفا بان عن عين مبصره، لقد آن للحسام أن يغمد فلا يشام، و للحمام أن تبكيه بكل أراكۀ و بشام و للعذارى أن لا يحجبهن الخفر و الاحتشام، ينحن فتى ما ذرّت الشمس إلا ضر أو نفع، و يبكين من لم يدع فقده فى العيش من منتفع، فكم نعمنا بدنوه، و نسمنا نسيم الأنس فى رواحه و غدوّه، و أقمنا بروضۀ موشيّۀ، و وقفنا بالمسرات عشيّۀ، و أدرناها ذهبا سائلۀ، و نظرناها و هى شائلۀ، لم نرم السهر، و لم نشم برقا إلا الكأس و الزهر، و لو غير الحمام زحف إليه جيشه، أو غير البحر رجف به ارتجاجه و طيشه، لفداه من أسرته كل أروع إن عاجله المكروه تثبطه، أو جاءه الشر تأبطه، و لكنها المنايا لا تردّها الصّوارم و الأسل، و لا تفوتها ذئاب الغضا العسّل، قد فرقت بين مالك و عقيل، و أشرقت بعدهما جذيمۀ بالحسام الصّقيل، انتهى.

و قد عرّفنا بالفتح فى غير هذا الموضع فليراجع.

رجع إلى بيت بنى زهر رحمهم اللّه تعالى- و أما أبو بكر محمد بن أبى مروان عبد الملك بن أبى العلاء زهر المذكور، فهو عين ذلك البيت، و إن كانوا كلهم أعيانا علماء رؤساء حكماء وزراء، و قد نالوا المراتب العليۀ، و تقدّموا عند الملوك، و نفذت أوامرهم، قال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۵

الحافظ أبو الخطاب بن دحيۀ فى «المطرب، من أشعار أهل المغرب»: كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زهر بمكان من اللغۀ مكين، و مورد من الطّلب عذب معين، و كان يحفظ شعر ذى الرمۀ و هو ثلث لغۀ العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب، و المنزلۀ العلياء عند أصحاب المغرب، مع سمو النسب، و كثرۀ الأموال و النّشب، صحبته زمانا طويلا، و استفدت منه أدبا جليلا، و أنشد من شعره المشهور قوله: [بحر الكامل]

و موسّدين على الأكفّ خدودهم قد غالهم نوم الصّباح و غالنى

ما زلت أسقيهم و أشرب فضلهم حتى سكرت و نالهم ما نالنى

و الخمر تعلم كيف تأخذ ثارها إنى أملت إناءها فأمالنى

ثم قال ابن دحيۀ: و سألته عن مولده، فقال: ولدت سنۀ سبع و خمسمائۀ، قال: و بلغتنى وفاته آخر سنۀ ۵۹۵، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

و زعم ابن خلكان أن ابن زهر ألمّ فى الأبيات المذكورۀ بقول الرئيس أبى غالب عبيد اللّه بن هبۀ اللّه: [بحر الكامل]

عاقرتهم مشمولۀ لو سالمت شرّابها ما سمّيت بعقار

ذكرت حقائدها القديمۀ إذ غدت صرعى تداس بأرجل العصّار

لانت لهم حتى انتشوا و تمكّنت منهم و صاحت فيهم بالثار

و من المنسوب إلى أبى بكر بن زهر قوله فى كتاب جالينوس المسمى بحيلۀ البرء، [و هو من أجلّ كتبهم و أكبرها] [الخفيف]:

حيلۀ البرء صنعۀ لعليل يترجّى الحياۀ أو لعليله

فإذا جاءت المنيۀ قالت: حيلۀ البرء ليس فى البرء حيله

و من شعره رحمه اللّه تعالى يتشوّق ولدا له صغيرا بإشبيليۀ و هو بمراكش: [المتقارب]

ولى واحد مثل فرخ القطاۀ صغير تخلّفت قلبى لديه

و أفردت عنه فيا وحشتا لذاك الشّخيص و ذاك الوجيه

تشوّقنى و تشوّقته فيبكى علىّ و أبكى عليه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۶

و قد تعب الشوق ما بيننا فمنه إلىّ و منّى إليه

و أخبرنى الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدى أبو القاسم بن محمد الوزير الغسانى الأندلسى الأصل الفاسى المولد و النشأة حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسنى صاحب المغرب رضى اللّه تعالى عنه أن ابن زهر لما قال هذه الأبيات و سمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب و الأندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين إلى إشبيلية، و أمرهم أن يحتاطوا علما ببيوت ابن زهر و حارته، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم فى أقرب مدّة، و فرشها بمثل فرشه، و جعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر و أولاده و حشمه و أسبابه إلى تلك الدار، ثم احتال عليه حتى جاء [إلى] ذلك الموضع، فرآه أشبه شىء ببيته و حارته، فاحتار لذلك، و ظنّ أنه نائم، و أن ذلك أحلام، فقيل له: ادخل البيت الذى يشبه بيتك، فدخله، فإذا ولده الذى تشوّق إليه يلعب فى البيت، فحصل له من السرور ما لا [مزيد عليه، و لا] يعبر عنه، هكذا هكذا و إلا فلا لا.

و من نظم ابن زهر المذكور حيث شاخ و غلب عليه الشيب: [بحر البسيط]

إنى نظرت إلى المرآة قد جليت فأنكرت مقلتاى كلّ ما رأتا

رأيت فيها شويخا لست أعرفه و كنت أعهده من قبل ذاك فتى

فقلت: أين الذى بالأمس كان هنا؟ متى ترحّل عن هذا المكان؟ متى؟

فاستضحكت ثم قالت و هى معجبة: إن الذى أنكرته مقلتاك أتى

كانت سليمى تنادى يا أخىّ و قد صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا

و البيت الأخير ينظر إلى قول الأخطل: [بحر الوافر]

و إذا دعونك عمهنّ فإنه نسب يزيدك عندهنّ خبالا

و إذا دعونك يا أخىّ فإنه أدنى و أقرب خلة و وصالا

و قال ابن دحية فى حقه أيضا: و الذى انفرد به شيخنا و انقاد لطباعه، و صارت النبهاء فيه من خوله و أتباعه، الموشحات، و هى زبدة الشعر و نخبته، و خلاصة جوهره و صفوته، و هى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۷

من الفنون التى أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق، و ظهروا فيها كالشمس الطالعة و الضياء المشرق، انتهى.

و من مشهور موشحات ابن زهر قوله:

ما للموله من سكره لا يفيق

و هذا مطلع موشح يستعمله أهل المغرب إلى الآن، و يرون أنه من أحسن الموشحات.

و من موشحاته قوله:

سلم الأمر للقضا فهو للنفس أنفع

و اغتم حين أقبلا وجه بدر

تهللا لا تقل بالهموم لا

كل ما فات و انقضى ليس بالحزن يرجع

و اصطبح بابنة الكروم من يدى شادن رخيم

حين يفترّ عن نظيم

فيه برق قد أومضا و رحيق مشعشع

أنا أفديه من رشا أهيف القدّ و الحشا

سقى الحسن فانتشى

مذ تولّى و أعرضا ففؤادى يقطّع

من لصبّ غدا مشوق ظلّ فى دمعه غريق

حين أمّوا حمى العقيق

و استقلّوا بذى الغضا أسفى يوم ودّعوا

ما ترى حين أظعنا و سرى الركب موهنا

و اكتسى الليل بالسنا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۸

نورهم ذا الذى أضا أم مع الركب يوشع

و رأيت مع هذا موشحا آخر لا أدرى هل هو لابن زهر أم لا، و هو هذا:

فتق المسك بكافور الصباح و وشت بالرّوض أعراف الرياح

فاستقنيها قبل نور الفلق و غناء الورق بين الورق

كاحمرار الشمس عند الشفق

نسج المزج عليها حين لاح فلك اللهو و شمس الاصطباح

و غزال سامنى بالملق و برا جسمى و أذكى حرقى

أهيف مذ سلّ سيف الحدق

قصرت عنه أنابيب الرماح و ثنى الذعر مشاهير الصفاح

صار بالدّل فؤادى كلفا و جفون ساحرات وطفا

كلما قلت جوى الحب انطفا

أمرض القلب بأجفان صحاح و سبى العقل بجدّ و مزاح

يوسفىّ الحسن عذب المبتسم قمرىّ الوجه ليلىّ اللّمم

عنترىّ البأس علوىّ الهمم

غصنىّ القدّ مهضوم الوشاح مادرىّ الوصل طائىّ السماح

قدّ بالقدّ فؤادى هيفا و سبى عقلى لما انعطفا

ليته بالوصل أحيا دنفا

مستطار العقل مقصوص الجناح ما عليه فى هواه من جناح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۷۹

يا على أنت نور المقل جد بوصل منك لى يا أملى

كم أغنيك إذا ما لحت لى

طرقت و الليل ممدود الجناح مرحبا بالشمس من غير صباح

۱۶۴- و منهم أبو الحجاج الساحلى، يوسف بن إبراهيم بن محمد بن قاسم بن على، الفهرى، الغرناطى.

قال فى الإحاطة: صدر من صدور حملة القرآن على و تيرة الفضلاء و سنن الصالحين حج و لقى الأشياخ بعد أن قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير و طبقته، و من نظمه يخاطب الوزير ابن الحكيم و قد أصابته حمى تركت على شفته بثورا: [بحر السريع]

حاشاك أن تمرض حاشاكا قد اشتكى قلبى لشكواكا

إن كنت محموما ضعيف القوى فإننى أحسد حمّاكا

ما رضيت حمّاك إذ باشرت جسمك حتى قبّلت فاكا

قال أبو الحجاج رحمه اللّه تعالى: و كتب إلى شيخنا محمد بن محمد بن عتيق بن رشيق فى الاستدعاء الذى أجازنى فيه و لمن ذكر معى: [بحر الطويل]

أجزت لهم أبقاهم اللّه كلّ ما رويت عن الأشياخ فى سالف الدهر

و ما سمعت أذناى من كل عالم و ما جاد من نظمى و ما راق من نثرى

على شرط أصحاب الحديث و ضبطهم برىء عن التصحيف عار عن النكر

كتبت لهم خطّى و اسمى محمد أبو القاسم المكنى ما فيه من نكر

و جدّى رشيق شاع فى الغرب ذكره و فى الشرق أيضا فادر إن كنت لا تدرى

ولى مولد من بعد عشرين حجة ثمان على الست المئين ابتدا عمرى

و باللّه توفيقى عليه توكلى له الحمد فى الحالين فى العسر و اليسر

و مولد أبى الحجاج المذكور سنة ۶۶۲، و توفى سنة ۷۰۲، رحمه اللّه تعالى! انتهى باختصار.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۰

۱۶۵- و ممن ارتحل من الأندلس إلى المشرق شاعر الأندلس يحيى بن الحكم، البكرى الجيانى الملقب بالغزال لجماله

، و هو فى المائة الثالثة، من بنى بكر بن وائل.

قال ابن حيان فى «المقتبس»: كان الغزال حكيم الأندلس، و شاعرها، و عرافها، عمر أربعا و تسعين سنة، و لحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس: أولهم عبد الرحمن بن معاوية، و آخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم.

و من شعره: [الرجز]

أدركت بالمصر ملوكا أربعة و خامسا هذا الذى نحن معه

و له على أسلوب ابن أبى حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب. [بحر الكامل]

خرجت إليك و ثوبها مقلوب و لقلبها طربا إليك و جيب

و كأنها فى الدار حين تعرّضت ظبى تعلّل بالفلا مرعوب

و تبسّمت فأتتك حين تبسّمت بجمان درّ لم يشنه ثقوب

و دعتك داعية الصّبا فتطرّبت نفس إلى داعى الضلال طروب

حسبتك فى حال الغرام كعهدها فى الدار إذ غصن الشباب رطيب

و عرفت ما فى نفسها فضممتها فتساقطت بهنانة رعبوب

و قبضت ذاك الشىء قبضة شاهن فنزا إلىّ عضنّك حلبوب

بيدى الشمال و للشّمال لطافة ليست لأخرى و الأديب أريب

فأصاب كفّى منه حين لمسته بلل كماء الورد حين يسيب

و تحلّلت نفسى للذّة رشحه حتى خشيت على الفؤاد يذوب

فتقاعس الملعون عنه و ربّما ناديته خيرا فليس يجيب

و أبى فحقّق فى الإباء كأنه جان يقاد إلى الردى مكروب

و تغضّنت جنباته فكأنه كير تقادم عهده مثقوب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۱

حتى إذا ما الصبح لاح عموده قبسا و حان من الظلام ذهوب

ساءلتها خجلا أما لك حاجة عندى؟ فقالت: ساخر و حروب

قالت حرامك إذ أردت و داعها قرن و فيه عوارض و شعوب

و ذكرها ابن دحية بمخالفة لما سردناه.

قال عتبة التاجر: وجهنى الأمير الحكم و ابنه عبد الرحمن إلى المشرق و عبد اللّه بن طاهر أمير مصر من قبل المأمون، فلقيته بالعراق، فسألنى عن هذه هل أحفظها للغزال؟

قلت: نعم، فاستنشدنيها، فأنشدته إياها، فسربها، و كتبها، قال عتبة: و نلت بها حظا عنده.

و البهانة: المرأة الطيبة النفس و الأرج، كما فى الصحاح، و قيل: اللينة فى منقطها و عملها، و قيل: الضحاكة المتهللة، و الرعبوب: السّبطة البيضاء، و السبطة: الطويلة.

و قال سامحه اللّه تعالى: [بحر السريع]

سألت فى النّوم أبى آدما فقلت و القلب به وامق

ابنك بالله أبو حازم؟! صلّى عليك المالك الخالق

فقال لى: إن كان منّى و من نسلى فحوّا أمّكم طالق

و قال رضى اللّه تعالى عنه: [بحر الوافر]

أرى أهل اليسار إذا توفّوا بنوا تلك المقابر بالصخور

أبوا إلا مباهاة و فخرا على الفقراء حتى فى القبور

فإن يكن التفاضل فى ذراها فإن العدل فيها فى القعور

رضيت بمن تأنّق فى بناء فبالغ فيه تصريف الدهور

ألمّا يبصروا ما خربته الد هور من المدائن و القصور

لعمر أبيهم لو أبصروهم لما عرف الغنىّ من الفقير

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۲

و لا عرفوا العبيد من الموالى و لا عرفوا الإناث من الذكور

و لا من كان يلبس ثوب صوف من البدن المباشر للحرير

إذا أكل الثّرى هذا و هذا فما فضل الكبير على الحقير

و قال رضى اللّه تعالى عنه: [بحر الخفيف]

لا، و من أعمل المطايا إليه كلّ من يرتجى إليه نصيبا

ما أرى ههنا من الناس إلا ثعلبا يطلب الدجاج و ذيبا

أو شبيها بالقط ألقى بعينى ه إلى فارة يريد الوثوبا

و قال رضى اللّه تعالى عنه: [بحر الكامل]

قالت أحبّك قلت كاذبة غرّى بذا من ليس ينتقد

هذا كلام لست أقبله الشيخ ليس يحبه أحد

سيّان قولك ذا و قولك إن الريح نعقدها فتنعقد

أو أن تقولى النار باردة أو أن تقولى الماء يتقد

و حكى أبو الخطاب بن دحية فى كتاب «المطرب» أن الغزال أرسل إلى بلاد المجوس و قد قرب الخمسين، و قد و خطه الشيب، و لكنه كان مجتمع الأشد، فسألته زوجة الملك يوما عن سنه، فقال مداعبا لها: عشرون سنة، فقالت: و ما هذا الشيب؟ فقال: و ما تنكرين من هذا؟ أ لم ترى قطّ مهرا ينتج و هو أشهب؟ فأعجبت بقوله، فقال فى ذلك، و اسم الملكة تود: [بحر السريع]

كلّفت يا قلبى هوى متعبا غالبت منه الضّيغم الأغلبا

إنى تعلقت مجوسيّة تأبى لشمس الحسن أن تغربا

أقصى بلاد اللّه فى حيث لا يلفى إليه ذاهب مذهبا

يا تود يا رود الشباب التى تطلع من أزرارها الكوكبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۳

يا بأبى الشخص الذى لا أرى أحلى على قلبى، و لا أعذبا

إن قلت يوما إنّ عينى رأت مشبهه أم أعد أن أكذبا

قالت أرى فوديه قد نوّرا دعابة توجب أن أدعبا

قلت لها: ما باله؟ إنه قد ينتج المهر كذا أشهبا

فاستضحكت عجبا بقولى لها و إنما قلت لكى تعجبا

قال: و لما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحكت، و أمرته بالخضاب، فغدا عليها و قد اختضب و قال [بحر الكامل]:

بكرت تحسّن لى سواد خضابى فكأن ذاك أعادنى لشبابى

ما الشيب عندى و الخضاب لواصف إلا كشمس جلّلت بضباب

تخفى قليلا ثم يقشعها الصّبا فيصير ما سترت به لذهاب

لا تنكرى وضح المشيب فإنما هو زهرة الأفهام و الألباب

فلدىّ ما تهوين من زهو الصبا و طلاوة الأخلاق و الآداب

و حكى ابن حيان فى «المقتبس» أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم المروانى وجّه شاعره الغزال إلى ملك الروم، فأعجبه حديثه، و خف على قلبه، و طلب منه أن ينادمه، فامتنع من ذلك، و اعتذر بتحريم الخمر، و كان يوما جالسا عنده، و إذا بزوجة الملك قد خرجت و عليها زينتها، و هى كالشمس الطالعة حسنا، فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها، و جعل الملك يحدثه و هولاه عن حديثه، فأنكر ذلك عليه، و أمر الترجمان بسؤاله، فقال له: عرّفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه، فإنى لم أر قط مثلها، و أخذ فى وصفها و التعجب من جمالها، و أنها شوقته إلى الحور العين، فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده، و سرّت الملكة بقوله، و أمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الختان، و تجشّم المكروه فيه، و تغيير خلق اللّه، مع خلوّه من الفائدة، فقال للترجمان: عرفها أن فيه أكبر فائدة، و ذلك أن الغصن إذا زبر قوى، و اشتد، و غلظ، و ما دام لا يفعل به

ذلك لا يزال رقيقا ضعيفا، فضحكت و فطنت لتعريضه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۴

و من شعر الغزال قوله: [بحر الكامل]

يا راجيا ودّ الغوانى ضلّة و فؤاده كلف بهنّ موكّل

إن النساء لكالسّروج حقيقة فالسّرج سرجك ريثما لا تنزل

فإذا نزلت فإنّ غيرك نازل ذاك المكان و فاعل ما تفعل

أو منزل المجتاز أصبح غاديا عنه و ينزل بعده من ينزل

أو كالثمار مباحة أغصانها تدنو لأول من يمر فيأكل

أعط الشبيبة لا أبا لك حقّها منها، فإنّ نعيمها متحوّل

و إذا سلبت ثيابها لم تنتفع عند النساء بكل ما تستبدل

و قال: [بحر مجزوء الرمل]

قال لى يحيى و صرنا بين موج كالجبال

و تولتنا رياح من دبور و شمال

شقت القلعين و ابنتّ ت عرا تلك الحبال

و تمطّى ملك الموت إلينا عن حيال

فرأينا الموت رأى ال عين حالا بعد حال

لم يكن للقوم فينا يا رفيقى رأس مال

و منها:

و سليمى ذات زهد فى زهيد فى وصال

كلما قلت صلينى حاسبتنى بالخيال

و الكرى قد منعته مقلتى أخرى الليالى

و هى أدرى فلماذا دافعتنى بمحال

أ ترى أنا اقتضينا بعد شيئا من نوال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۵

و له: [بحر الكامل]

من ظن أن الدهر ليس يصيبه بالحادثات فإنه مغرور

فالق الزمان مهوّنا لخطوبه و انجرّ حيث يجرك المقدور

و إذا تقلبت الأمور و لم تدم فسواء المحزون و المسرور

و عاش الغزال أربعا و تسعين سنة، و توفى فى حدود الخمسين و المائتين، سامحه اللّه تعالى!.

و كان الغزال أقذع فى هجاء على بن نافع المعروف بزرياب، فذكر ذلك لعبد الرحمن، فأمر بنفيه، فدخل العراق، و ذلك بعد موت أبى نواس بمدة يسيرة، فوجدهم يلهجون بذكره، و لا يساوون شعر أحد بشعره، فجلس يوما مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس، و استهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا فى ذكر أبى نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله: [بحر الطويل]

و لما رأيت الشّرب أكدت سماؤهم تأبّطت زقّى و احتبست عنائى

فلما أتيت الحان ناديت ربّه فثاب خفيف الروح نحو ندائى

قليل هجوع العين إلا تعلّة على وجل منى و من نظرائى

فقلت أذقنيها فلما أذاقها طرحت عليه ريطتى و ردائى

و قلت أعرنى بذلة أستتر بها بذلت له فيها طلاق نسائى

فو اللّه ما برت يمينى و لا وفت له غير أنى ضامن بوفائى

فأبت إلى صحبى و لم أك آئبا فكلّ يفدّينى و حقّ فدائى

فأعجبوا بالشعر، و ذهبوا فى مدحهم له، فلما أفرطوا قال لهم: خفضوا عليكم، فإنه لى، فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيدته التى أولها [بحر الطويل]:

تداركت فى شرب النبيذ خطائى و فارقت فيه شيمتى و حيائى

فلما أتمّ القصيدة بالإنشاد خجلوا، و افترقوا عنه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۶

و حكى أن يحيى الغزال أراد أن يعارض سورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۱) [الإخلاص: ۱] فلما رام ذلك أخذته هيبة و حالة لم يعرفها، فأناب إلى اللّه، فعاد إلى حاله.

و حكى أن عباس بن ناصح الثقفى قاضى الجزيرة الخضراء كان يفد على قرطبة و يأخذ عنه أدباؤها و مرت عليهم قصيدته التى أولها: [بحر الطويل]

لعمرك ما البلوى بعار و لا العدم إذا المرء لم يعدم تقى اللّه و الكرم

حتى انتهى القارئ إلى قوله:

تجاف عن الدنيا فما لمعجّز و لا عاجز إلا الذى خطّ بالقلم

فقال له الغزال، و كان فى الحلقة، و هو إذ ذاك حدث نظام متأدب ذكى القريحة: أيها الشيخ، و ما الذى يصنع مفعّل مع فاعل؟ فقال له: كيف تقول؟ فقال: كنت أقول: فليس لعاجز و لا حازم، فقال له عباس: و اللّه يا بنى لقد طلبها عمّك فما وجدها.

و أنشد يوما قوله من قصيدة: [بحر الطويل]

بقرت بطون الشعر فاستفرغ الحشى بكفى حتى آب خاويه من بقرى

فقال له بكر بن عيسى الشاعر: أما و اللّه يا أبا العلاء، لئن كنت بقرت الحشى لقد و سخت يديك بفرثه، و ملأتهما بدمه، و خبثت نفسك بنتنه، و خشمت أنفك بعرفه، فاستحيا عباس و أفحم عن جوابه.

۱۶۶- و منهم الشهير بالمغارب و المشارق، المحلى بجواهره صدور المهارق، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى.

متمم كتاب «المغرب، فى أخبار المغرب» قال فيه: و أنا أعتذر فى إيراد ترجمتى هنا بما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۷

اعتذر به ابن الإمام فى كتاب «سمط الجمان» و بما اعتذر به الحجارى فى كتاب «المسهب» و ابن القطّاع فى «الدرة الخطيرة» و غيرهم من العلماء.

فمن نظمه عند ما ورد الديار المصرية: [بحر الكامل]

أصبحت أعترض الوجوه و لا أرى ما بينها وجها لمن أدريه

عودى على بدئى ضلالا بينهم حتى كأنى من بقايا التّيه

ويح الغريب توحّشت ألحاظه فى عالم ليسوا له بشبيه

إن عاد لى وطنى اعترفت بحقه إن التغرّب ضاع عمرى فيه

و له من قصيدة يمدح ملك إفريقية أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص:

[بحر الكامل]

الأفق طلق و النسيم رخاء و الروض وشّت برده الأنداء

و النهر قد مالت عليه غصونه فكأنما هو مقلة و طفاء

و بدا نثار الجلّنار بصفحه فكأنما هو حيّة رقطاء

و الشمس قد رقمت طرازا فوقه فكأنما هى حلة زرقاء

فأدر كؤوسك كى يتم لك المنى و اسمع إلى ما قالت الورقاء

تدعوك حىّ على الصّبوح فلا تنم فعلى المنام لدى الصباح عفاء

و له [أيضا]: [بحر الخفيف]

كم جفانى و رمت أدعو عليه فتوقفت ثم ناديت قائل

لا شفى اللّه لحظه من سقام و أرانى عذاره و هو سائل

و له من قصيدة كتب بها إلى ملك سبتة الموفق أبى العباس أحمد بن أبى الفضل السّبتى شافعا لشخص رغب فى خدمته: [بحر الكامل]

بالعدل قمت و بالسماح فدن وجد لا فارقتك كفاية و عطاء

ما كلّ من طلب السعادة نالها و طلاب ما يأبى القضاء شقاء

و منها:

و قد استطار بأسطرى نحو الندى من أنهضته لنحوك العلياء

طلب النباهة فى ذراك فما له إلا لديك تأمّل و رجاء

و هو الذى بعد التجارب أحمدت أحواله و جرى عليه ثناء

لا يقرب الدنس المريب كواصل هجرته خوفا أن يشان الراء

[قد مارس الحرب الزبون زمانه و جرت عليه شدة و رخاء]

و علاك تقضى أن يسود بأفقها لا غرو أن يعلى الشهاب بهاء

و قوله من قصيدة: [بحر الكامل]

ألف التغرّب و التوحّش مثل ما ألف التوحّش و النفور ظباء

حجّابه ألفوا التهجّم و الجفا فهم لكل أخى هدى أعداء

مهما يرم طلب إليه تقربا بعدت بذاك البدر عنه سماء

لكننى ما زلت أخدع حاجبا و مراقبا حتى ألان حباء

و الأرض لم تظهر محجب نبتها حتى حبتها الديمة الوطفاء

قيل: و هذا معنى لم يسمع من غيره، و قوله فى خسوف البدر: [بحر الكامل]

شان الخسوف البدر بعد جماله فكأنه ماء عليه غثاء

أو مثل مرآة لخود قد قضت نظرا بها فعلا الجلاء غشاء

و له من قصيدة عتاب يقول فيها: [بحر الكامل]

و لقد كسبت بكم علا لكنها صارت بأقوال الوشاة هباء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۸۹

فغدوت ما بين الصحابة أجربا كلّ يحاذر منى الأعداء

و لقد أرى أن النجوم تقلّ لى حجبا و أصغر أن أحلّ سماء

فليهجروا هجر الفطيم لدرّه و يساعدوا الزمن الخؤون جفاء

فلقد شكوت لهم إحالة ودّهم إذ لم أكن أرضى بهم خدماء

إيه فذكرهم أقلّ، و إنما أومى إليك فتفهم الإيماء

لو لم يكن قيد لما فتكت ظبا أنت الذى صيرتهم أعداء

و لو اننى أرجو ارتجاعك لم أطل شكوى و لم أستبعد الإغضاء

لكن رأيتك لا تميل سجيّة نحوى و لا تتكلّف الإصغاء

إن لم يكن عطف فمنّوا بالنّوى إن الكريم إذا أهين تناءى

و قوله: [بحر الكامل]

و لكم سرينا فى متون ضوامر تثنى أعنتها من الخيلاء

من أدهم كالليل حجّل بالضحى فتشقّ غرّته عن ابن ذكاء

أو أشهب يحكى غدائر أشيب خلعت عليه الشهب فضل رداء

أو أشقر قد نمّقته بشعلة كالمزج ثار بصفحة الصّهباء

أو أصفر قد زيّنته غرّة حتى بدا كالشمعة الصفراء

طارت، و لكن لا يهاض جناحها هبّت، و لكن لم تكن برخاء

و قوله من أبيات فى افتضاض بكر: [بحر الكامل]

و خريدة ما إن رأيت مثالها حيّت من الألحاظ بالإيماء

فسألتها سمع الشكاة فأفهمت أن الرقيب جهينة الأنباء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۳۸۹

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۹۰

و تبعتها و سألت منها قبلة فى خلوة من أعين الرقباء

فثنت على قوامها بتعانق أحيا فؤادا مات بالبرحاء

و وجدتها لما ملكت عنانها عذراء مثل الدرة العذراء

جاءت إلى كوردة محمرّة فتركتها كعرارة صفراء

و سلبتها ما احمرّ منها صفوه فجرى مذابا منجحا لرجائى

و قوله من أبيات: [بحر الكامل]

أحبابنا عودوا علينا عودة ما منكم بعد التفرق مرغب

كم ذا أداريكم بنفسى جاهدا و كأنما أرضيكم كى تغضبوا

و أزيد بعدا ما اقتربت إليكم كالسّهم أبعد ما يرى إذ يقرب

و أجوب نحوكم المنازل جاهدا و مع اجتهادى فاتنى ما أطلب

كالبدر أقطع منزلا فى منزل فإذا انتهيت إلى ذراكم أغرب

و قوله من أبيات [البحر الطويل]:

سألتك يا من يستلان فيصعب و من يترضّى بالحياة فيغضب

أما خدّك البدر المنير فلم غدت تحلّ به ضدّ القضية عقرب

و قوله، و قد داعبه أحد الفقهاء و سرق سكينه من حرز: [بحر الطويل]

أيا سارقا ملكا مصونا و لم يجب على يده قطع و فيه نصاب

ستندبه الأقلام عند عثارها و يبكيه إن يعد الصّواب كتاب

و قوله فى تفاحة عنبر أهديت للملك الصالح نجم الدين أيوب [بحر الخفيف]:

أنا لون الشباب و الخال أهدى ت لمن قد كسا الزمان شبابا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۹۱

ملك العالمين نجم بنى أى وب لا زال فى المعالى شهابا

جئت ملأى من الثناء عليه من شكور إحسانه و الثوابا

لست ممّن له خطاب و لكن قد كفانى أريج عرفى خطابا

و قوله من قصيدة: [بحر السريع]

فالحمد للّه على ساعة قد قرّبتنى من علا الصاحب

و لعيذر المولى على أننى قد كنت من علياه فى جانب

كمن أتى نافلة أولا ثم أتى من بعد بالواجب

و قوله من أبيات: [بحر الطويل]

فإن كنت فى أرض التغرّب غاربا فسوف ترانى طالعا فوق غارب

فصمصام عمرو حين فارق كفه رموه و لا ذنب لعجز المضارب

و ما عزة الضّرغام إلّا عرينه و من مكة سادت لؤى بن غالب

و قوله فى فرس أصفر أغر أكحل الحلية: [بحر الطويل]

و أجرد تبرى أثرت به الثرى و للفجر فى خصر الظلام و شاح

له لون ذى عشق و حسن معشّق لذلك فيه ذلّة و قراح

عجبت له و هو الأصيل بعرفه ظلام و بين الناظرين صباح

يقيد طير اللحظ و الوحش عندما يطير به نحو النجاح جناح

و قوله من أبيات: [بحر الطويل]

إذا ما غراب البين صاح فقل له ترفّق رماك اللّه يا طير بالبعد

لأنت على العشاق أقبح منظرا و أكره فى الأبصار من ظلمة اللحد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۹۲

تصيح بنوح ثم تعثر ماشيا و تبرز فى ثوب من الحزن مسودّ

متى نحت صح البين و انقطع الرجا كأنك من وشك الفراق على وعد

و قوله فى غلام جميل الصورة أهدى تفاحة: [بحر مجزوء الرمل]

ناب ما أهديت عن عر ف و عن ريق و خدّ

حبّذا تفاحة قد أشبهت أوصاف مهدى

بتّ منها فى سرور فكأن قد بتّ عندى

و قوله من قصيدة: [بحر البسيط]

هذا الذى يهب الدنيا بأجمعها و بعد ذلك يلفى و هو يعتذر

إن هزّه المدح فالأموال فى بدد و الغصن ما هزّ إلا بدّد الثمر

[فقلت لما بدا لى حسن منظره لكنه زاد إشراقا: هو القمر]

متّع لحاظك فى وجه بلا ضرر إن كان شمسا يداه تحتها مطر

و قوله من أبيات: [بحر الكامل]

لى جيرة ضنّوا علىّ و جاروا فنبت بى الأوطان و الأوطار

و من العجائب أننى مع جورهم ما قرّ لى بعد الفراق قرار

و قوله: [بحر الكامل]

أنا شاعر أهوى التخلّى دون ما زوج لكيما تخلص الأفكار

لو كنت ذا زوج لكنت منغّصا فى كل حين رزقها أمتار

دعنى أرح طول التغرب خاطرى حتى أعود و يستقر قرار

كم قائل قد ضاع شرخ شبابه ما ضيّعته بطالة و عقار

إذ لم أزل فى العلم أجهد دائما حتى تأتّت هذه الأبكار

مهما أرم من دون زوج لم أكن كلّا و رزقى دائما مدرار

و إذا خرجت لفرجة هنيتها لا ضيعة ضاعت و لا تذكار

و قوله من قصيدة: [بحر الكامل]

ما كنت أحسب أن أضيع و أنت فى ال دنيا و أن أمسى غريبا معسرا

أنا مثل سهم سوف يرجع بعدما أقصاه راميه المجيد ليخبرا

و قوله سامحه اللّه تعالى: [بحر مخلع البسيط]

وافى علىّ لنا بسيف و البين قد حان و الوداع

فقال شبّه فقلت شمس قد مد من نورها شعاع

و قوله من قصيدة فى ملك إشبيلية الباجى، و قد هزم ابن هود: [بحر الكامل]

للّه فرسان غدت راياتهم مثل الطيور على عداك تحلّق

السمر تنقط ما تسطّر بيضهم و النقع يترب و الدماء تخلق

و قال ارتجالا- بمحضر زكى الدين بن أبى الأصبغ و جمال الدين أبى الحسين الجزار المصرى الشاعر و نجم الدين بن إسرائيل الدمشقى بظاهر القاهرة، و قد مضى حدهم على بسيط نرجس: [بحر السريع]

يا واطئ النرجس ما تستحى أن تطأ الأعين بالأرجل

فتهافتوا بهذا البيت، و راموا إجازته، فقال ابن أبى الإصبع مجيزا: [بحر السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۹۴

فقلت دعنى لم أزل محرجا على لحاظ الرّشإ الأكحل

و كان أمثل ما حضرهم، ثم أبوا أن يجيزه غيره، فقال: [بحر السريع]

قابل جفونا بجفون و لا تبتذل الأرفع بالأسفل

و قوله فى الجزيرة الصالحية بمصر، و هى الشهيرة الآن بالروضة: [بحر الطويل]

تأمّل لحسن الصالحية إذ بدت مناظرها مثل النجوم تلالا

و للقلعة الغراء كالبدر طالعا تفجّر صدر الماء عنه هلالا

و وافى إليها النيل من بعد غاية كما زار مشغوف يروم وصالا

و عانقها من فرط شوق بحسنها فمدّ يمينا نحوها و شمالا

جرى قادما بالسعد فاختط حولها من السعد إعلاما بذلك دالا

و قوله من أبيات فى ملك إفريقية و قد جهز ولده الأمير أبا يحيى بعسكر: [بحر الوافر]

و قد أرسلته نحو الأعادى كما جردت من غمد حساما

و قوله فى قوس: [بحر الخفيف]

أنا مثل الهلال فى ظلم النّق ع سهامى تنقضّ مثل النجوم

تقصر القضب و القنا عن مجالى عند رجمى بها لكل رجيم

قد كستها الطيور لما رأتها كافلات لها برزق عميم

و قوله من أبيات: [بحر الطويل]

و أشقر مثل البرق لونا و سرعة قصدت عليه عارض الجود فانهمى

و لنذكر ترجمته من الإحاطة ملخصة، فنقول:

قال لسان الدين: على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن محمد بن عبد اللّه بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۹۵

سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد اللّه بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحصين العنسى، المدلجى، من أهل قلعة يحصب، غرناطى، قلعى، سكن تونس، أبو الحسن بن سعيد، و هذا الرجل وسطى عقد بيته، و علم أهله، و درة قومه، المصنف، الأديب، الرحالة، الطرفة، الأخبارى، العجيب الشأن فى التجوّل فى الأقطار، و مداخلة الأعيان، للتمتّع بالخزائن العلمية، و تقييد الفوائد المشرقية و المغربية، أخذ من أعلام إشبيلية كأبى على الشّلوبين، و أبى الحسن الدباج و ابن عصفور و غيرهم، و تواليفه كثيرة: منها «المرقصات و المطربات» و «المقتطف، من أزاهر الطرف» و «الطالع السعيد، فى تاريخ بنى سعيد» تاريخ بيته و بلده، و الموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار، و هما «المغرب، فى حلى المغرب» و «المشرق، فى حلى المشرق» و غير ذلك مما لم يتصل إلينا، فلقد حدثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم أنه تخلف كتابا يسمى «المرزمة» يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية و الأخبارية إلا اللّه تعالى، و تعاطى نظم الشعر فى حد من الشبيبة يعجب فيه من مثله، فيذكر أنه خرج مع أبيه إلى إشبيلية و فى صحبته سهل بن مالك، فجعل سهل بن مالك يباحثه عن نظمه إلى أن أنشده فى صفة نهر و النسيم يردده و الغصون تميل عليه:

[بحر المنسرح]

كأنما النهر صفحة كتبت أسطرها، و النسيم ينشئها

لما أبانت عن حسن منظرها مالت عليها الغصون تقرؤها

فطرب و أثنى عليه.

ثم نـاب عن أبيه فى أعمـال الجزيرة، و مـازج الأدبـاء، و دوّن كثيرا من نظمه، و دخـل القاهرة، فصـنع له أدباؤها صـنيعا فى ظاهرها، و انتهت بهم الفرجة إلى روض نرجس، و كان فيهم أبو الحسين الجزار فجعل يدوس النرجس برجله، فقال أبو الحسن: [بحر السريع]

يا واطئ النرجس ما تستحى أن تطأ الأعين بالأرجل

فتهافتوا بهذا البيت، و راموا إجازته، فقال ابن أبى الأصبغ: [بحر السريع]

فقال دعنى لم أزل محنقا على لحاظ الرشإ الأكحل

و كان أمثل ما حضرهم، ثم أبوا أن يجيزه غيره، فقال: [بحر السريع]

قابل جفونا بجفون، و لا تبتذل الأرفع بالأسفل

ثم اسـتدعاه سـيف الـدين بن سـابق إلى مجلس بضـفّة النيل مبسوط بالورد، و قـد قامت حوله شـمامات نرجس، فقال فى ذلك: [بحر السريع]

من فضّل النرجس فهو الذى يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعدا و قام فى خدمته النرجس

و وافق ذلك مماليك الترك وقوفا فى الخدمة، على عادة المشارقة فطرب الحاضرون.

و لقى بمصـر أيدمر التركى و البهاء زهيرا و جمال الدين بن مطروح و ابن يغمور و غيرهم، و رحل صـحبة كمال الدين بن العديم إلى حلب، فدخل على الناصر صاحب حلب، فأنشده قصيدة أولها: [بحر الكامل]

جد لى بما لقى الخيال من الكرى لا بد للضيف الملمّ من القرى

فقـال كمـال الـدين: هـذا رجل عارف، ورّى بمقصوده من أول كلمـة، و هى قصـيدة طويلـة، فاسـتجلسه السـلطان، و سأله عن بلاده و مقصوده برحلته، و أخبره أنه جمع كتابا فى الحلى البلاديـة و العلى العباديـة المختصة بالمشـرق، و أخبره أنه سـماه «المشـرق، فى حلى المشـرق» و جمع مثله فسـماه «المغرب، فى حلى المغرب» فقال: نعينك بما عنـدنا من الخزائن، و نوصـلك إلى ما ليس عندنا كخزائن الموصل و بغـداد، و تصـنف لنا، فخـدم على عادتهم، و قال: أمر مولاى بـذلك إنعام و تأنيس، ثم قال له السـلطان مداعبا: إن شـعراءنا ملقبون بأسماء الطيور، و قد اخترت لك لقبا يليق بحسن صوتك و إيرادك للشعر، فإن كنت ترضى به، و إلا لم نعلم به أحدا غيرنا، و هو البلبل، فقال: قد رضى المملوك يا خوند، فتبسّم السلطان. و قال له أيضا

يداعبه: اختر واحدة من ثلاث: إمّا الضـيافة التى ذكرتها أوّل شـعرك، و إمّا جائزة القصـيدة، و إمّا حق الاسم، فقال: يا خوند المملوك ممـا لاـ يختنق بعشـر لقم [لأـنه مغربى أكول] فكيف بثلاـث؟ فطرب السـلطان و قال: هـذا مغربى ظريف، ثم أتبعه من الـدنانير و الخلع [الملوكية] و التواقيع بالأرزاق ما لا يوصف.

و لقى بحضـرته عون الدين العجمى، و هو بحر لا تنزفه الدلاء، و الشـهاب التّلعفرى، و التاج ابن شقير، و ابن نجيم الموصلى، و الشرف بن سـليمان الإربلى، و طائفـة من بنى الصـاحب، ثم تحول إلى دمشق، و دخل الموصل و بغـداد، و دخل مجلس السـلطان المعظم بن الملـك الصالـح بـدمشق، و حضـر مجلس خلوته، و كان ارتحاله إلى بغـداد فى عقب سـنة ثمان و أربعين و سـتمائة فى رحلته الأولى إليها، ثم رحل إلى البصـرة و دخل أرّجان، و حج، ثم عاد إلى المغرب، و قد صـنف فى رحلته مجموعا سماه ب «النفحة المسكية، فى

الرحلة المكية» و كان نزوله بساحل مدينة إقليبية من إفريقية فى إحدى جمادى سنة اثنتين و خمسين و ستمائة، و اتصل بخدمة الأمير أبى عبد اللّه المستنصر، فنال الدرجة الرفيعة من حظوته.

حدثنى شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم أن المستنصر جفاه فى آخر عمره و قد أسن لجرّاء خدمة مالية أسندها إليه، و قد كان بلاء منه قبل جفوة أعقبها انتشال و عناية، فكتب إليه بنظم من جملته.

لا ترعنى بالجفا ثانية

فرق له، و عاد إلى حسن النظر إليه، إلى أن توفى تحت بر و عناية.

مولده بغرناطة ليلة الفطر سنة عشر و ستمائة، و وفاته بتونس فى حدود خمسة و ثمانين و ستمائة، انتهى باختصار.

و ذكرت حكاية إجازة بيته فى النرجس و إن تقدمت لاتصال الكلام.

قلت: قد كنت وقفت على بعض ديوان شعره المتعدد الأسفار، و نقلت منه قوله من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۹۸

قصيدة يهنئ ابن عمه الرئيس أبا عبد اللّه بن الحسين بقدومه من حركة هوّارة: [بحر الطويل]

أما واجب أن لا يحول وجيب و قد بعدت دار و حان حبيب

و ليس أليف غير ذكر و حسرة و دمع على من لا يرقّ صبيب

و خفق فؤاد إن هفا البرق خافقا و شوق كما شاء الهوى و نحيب

و يعذلنى من ليس يعرف ما الهوى و عذل مشوق فى البكاء عجيب

ألا تعس اللوام فى الحبّ قد عموا و صمّوا و دائى ليس منه طبيب

يرومون أن يثنى الملام صبابتى و لست إلى داعى الملام أجيب

وفائى إذا ما غبت عنكم مجدّد و غيرى ذو غدر أوان يغيب

و لو لم يكن منى الوفاء سجيّة لكنت لغير ابن الحسين أنيب

سموءل هذا العصر حاتم جوده مهلّبه إن مارسته حروب

فتى سيّر الأمداح شرقا و مغربا أبو دلف من دونه و خصيب

إذا رقم القرطاس قلت ابن مقلة و إن نظم الأشعار قلت حبيب

و إن نثر الأسجاع قلت سميه و إن سرد التاريخ قلت عريب

و ما أحرز الصّولىّ آدابه التى إذا ما تلاها لم يجبه أديب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۳۹۹

و منها:

و أما إذا ما الحرب أخمد نارها ففيه تلظّى مارج و لهيب

فكم قارع الأبطال فى كل وجهة نحاها و كم لفّت عليه حروب

و كائن له بالغرب من موقف له حديث إذا يتلى تطير قلوب

بمرّاكش سل عنه تعلم غناءه و قد ساءهم يوم هناك عصيب

إذا ما ثنى الرمح الطويل كأنه مدير لغصن الخيزران لعوب

و إن جرّه أبصرت نجما مجرّرا ذؤابته، منه الكماة تذوب

يهيم به ما إن يزال معانقا له راكعات ما تحوز كعوب

محمد، لا تبد الذى أنت قادر عليه، و خف عينا علاك تصيب

نفوذ سهام العين أودى بمصعب و طاح به بعد الشبوب شبيب

ألا فهنيئا أن رجعت لتونس فأطلعت شمسا و السّفار غروب

كواكبها تبدو إذا ما تركتها و قد جعلت مهما حضرت تغيب

إذا سدت فى أرض فغيرك تابع علاك، و مهما ساد فهو مريب

و منها:

كفانى أنى أستظل بظلكم و من هاب ذاك المجد فهو مهيب

فأصلك أصلى و الفروع تباينت بعيد على من رامه و قريب

و حسبى فخرا أن أقول محمد نسيب علىّ جل منه نصيب

تركت جميع الأقربين لقصده على حين حانت فتنة و خطوب

رأيت به جنات عدن فلم أبل إذا وصلتنا للخلود شعوب

فقبّلت كفا لا أعاب بلثمها و أيدى الأيادى لثمهن وجوب

و كيف و ليس الرأس كالرّجل، فرّقت شيات لعمرى بيننا و ضروب

و لو كان قدرى مثل قدرك فى العلا لحق بأن يعلو الشباب مشيب

و لولا الذى أسمعت من مكر حاسد أتاك بقول و هو فيه كذوب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۰

لما كنت محتاجا لقولى آنفا تخليت من ذنب و جئت أتوب

إذا كنت ذا طوع و شكر و غبطة فمن أين لى يا ابن الكرام ذنوب

لقد كنت معتادا ببشر فما الذى تقلدته حتى يزال قطوب

أ إن رفع السلطان سعيى بقربكم أحلأ عن ورد لكم و أخيب

فأحسب ذنبى ذنب صحر بدارها ألى البرّ عند الخابرين معيب

و حاشاك من جور على، و إنما أخاطب من أصفو له فيشوب

صحاب هم الداء الدفين فليتنى و لم أدن منهم، للذئاب صحوب

كلامهم شهد و لكن فعلهم كسمّ له بين الضلوع دبيب

سأرحل عنهم و التجارب لم تدع بقلبى لهم شيئا عليه أثيب

إذا اغترب الإنسان عمن يسوءه فما هو فى الإبعاد عنه غريب

فدارك برأب منك ما قد خرقته ليحسن منى مشهد و مغيب

و لا تستمع قول الوشاة فإنما عدوهم بين الأنام نجيب

فياليت أنى لم أكن متأدبا و لم يك لى أصل هناك رسوب

و كنت كبعض الجاهلين محببا فما أنا للهم الملمّ حبيب

و ما إن ضربت الدهر زيدا بعمره و لم يك لى بين الكرام ضريب

أ أشكوك أم أشكو إليك فما عدت عداتى حتى حان منك وثوب

سأشكر ما أولى و أصبر للذى توالى، على أن العزاء سليب

فدم فى سرور ما بقيت فإننى و حقك مذ دب الوشاة كئيب

قال: و كان سبب التغير بينى و بين ابن عمى الرئيس المذكور أن ملك إفريقية استوزر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۱

لأشغال الموحدين أبا العلاء إدريس بن على بن أبى العلاء بن جامع، فاشتمل على، و أولانى من البر ما قيّدنى و أمال قلبى إليه، مع تأكيد ما بينه و بين ابن عمى من الصحبة، فلم يزل ينهض بى، و يرفع أمداحى للملك، و يوصّل إليه رسائلى، منبّها على ذلك، مرشحا، إلى أن قبض الملك على كاتب عسكره، و كان يقرأ بين يديه كتب المظالم، فاحتيج إلى من يخلفه فى ذلك، فنبه الوزير على، و ارتهن فىّ، مع أنى كنت من كتّاب الملك، فقلدنى قراءة المظالم المذكورة، و سفر لى الوزير عنده فى دار الكاتب المؤخر، فأنعم بها، فوجد الوشاة مكانا متسعا للقول، فقالوا و زوروا من الأقاويل المختلفة ما مال بها حيث مالوا، و ظهر منه مخايل التغيير، فجعلت أداريه و أستعطفه، فلم ينفع فيه قليل و لا كثير، إلى أن سعى فى تأخير والدى عن الكتب للأمير الأسعد أبى يحيى ابن ملك إفريقية، ثم سعى فى تأخيرى، فأخرت عن الكتابة و عن قراءة المظالم، فانفردت بالكتابة للوزير المذكور، و فوض إلىّ جميع أموره، و أولانى من التأنيس ما أنسانى تلك الوحشة، و من العز ما أنقذنى من تلك الذلة. [بحر الطويل]

فرد علىّ العيش بعد ذهابه و آنسنى بعد انفرادى من الأهل

و قالوا إذا ما الوبل فاتك فاقتنع بما قد تسنّى عندك الآن من طلّ

و و اللّه ما نعماه طلّ و إنما تأدّبه غيث يجود على الكل

رآنى أظمأ فى الهجيرة ضاحيا فرق و آوانى إلى الماء و الظل

و لم أزل عنده فى أسرّ حال ما لها تكدير إلا ما يبلغنى من أن ابن عمى لا يزال يسعى فى حقى بما أخشى مغبّته، و خفت أن يطول ذلك، فيسمع منه، و لا ينفع دفاع الوزير المذكور عنى، فرغبت له فى أن يرفع للملك أنى راغب فى السّراح إلى المشرق برسم الحج: [بحر المتقارب]

و من بلّه الغيث فى بطن واد و بات فلا يأمنّ السيولا

فلم يسعفنى فى ذلك، و لامنى على تخوّفى، و قلة ثقتى بحمايته، فرفعت له هذه القصيدة: [بحر الطويل]

هل الهجر إلا أن يطول التجنّب و يبعد من قد كان منه التقرّب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۲

و تقطع رسل بيننا و رسائل و يمنع لقيانا نوى و تحجب

و لو أننى أدرى لنفسى زلة جعلت لكم عذرا و لم أك أعتب

و لكنكم لما ملكتم هجرتم و ذنّبتم فى الحب من ليس يذنب

إلى اللّه أشكو غدركم و ملالكم و قلبا له ذاك التعذب يعذب

فلو أنه يجزيكم بفعالكم لكان له عنكم مراد و مطلب

و لكن أبى أن لا يحن لغيركم و أن لا يرى عنكم مدى الدهر مذهب

فهلا رعيتم أنه فى ذراكم غريب، و ليس الموت إلا التغرب

لزمتك لما أن رأيتك كاملا جمالا و إجمالا و ذاك يحبّب

و إنى لأخشى أن يطول اشتكاؤه لمن إن أتى مكرا فليس يثرب

فلم أسع إلا لارتياح و راحة و غيرى و قد آواه غيرك يتعب

فأنت الذى آويتنى و رحمتنى و ذو الرحم الدنيا لنارى يحطب

فما مر يوم لا يريد مصيبة عليك، و بالتدبير منك يخيّب

و هبك ثبوتا لا تحيل أما ترى مجر حبال فى الحجارة يرسب

و هبك له سدا فكم أنت حاضر أحاذر خرقا منه أن يتسببوا

و إما إن أرى إلا الفرار مخلصا و ما راغب فى الضيم من عنه يرغب

فأنهى إلى الأمر العلىّ شكيّتى و أن خطوب الدهر نحوى تخطب

و لا تطمعونى فى الذى لست نائلا فلا أنا عرقوب و لا أنا أشعب

ألا فلتمنّوا بالسّراح فإنه لراحة من يشقى لديكم و ينصب

سلوا الكأس عنى إذ تدار فإننى لأتركها هما و دمعى أشرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۳

و لا أسمع الألحان حين تهزنى و لو كان نوحا كنت أصغى و أطرب

فديتكم كم ذا أهون بأرضكم أهذا جزاء للذى يتغرب

أبخل على أن ما سواك يصيخ لى فهل لى مما كدّر العيش مهرب

تقلص عنى كلّ ظلّ و لم أجد كما كنت ألقى من أودّ و أصحب

أ ذو طمع فى العيش يبقى و حوله مدى الدهر أفعى لا تزال و عقرب

أجزنى لأنجو بالفرار فإنه و حقّك من نعماك عندى يحسب

فلا زلت يا خير الكرام مهنأ فعيشى منه الموت أشهى و أطيب

و صانك من قد صنت فى حقه دمى و غيرك من ثوب المروءة يسلب

و لم يزل الوزير- لا أزال اللّه عنه رضاه! يحمى جانبى، إلى أن أصابتنى فيه العين، فأصابه الحين، [فقلت فى ذلك]: [بحر الطويل]

و طيّب نفسى أنه مات عند ما تناهى و لم يشمت به كل حاسد

و يحكم فيه كل من كان حاكما عليه و يعطى الثأر كل معاند

و قلت أرثيه: [بحر الطويل]

بكت لك حتى الهاطلات السواكب و شقت جيوبا فيك حتى السحائب

فكيف بمن دافعت عنه و من به أحاطت و قد بوعدت عنه المصائب

ألا فانظروا دمعى فأكثره دم و لا تذهبوا عنى فإنى ذاهب

و قولوا لمن قد ظل يندب بعده و فاؤك لو قامت عليك النوائب

لعمرك ما فى الأرض واف بذمّة أ يصمت إدريس و مثلى يخاطب

دعوتك يا من لا أقوم بشكره فهل أنت لى بعد الدعاء مجاوب

أيا سيدا قد حال بينى و بينه تراب حوت ذكراك منه الترائب

لمن أشتكى إن جار بعدك ظالم على و إن نابت جنابى النوائب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۴

لمن أرتجى عند الأمير بمنطق تحف به حولى المنى و المواهب

و هى طويلة، و منها قبيل الختم:

و قد كنت أختار الترحّل قبل أن يصيبك سهم للمنية صائب

و لكن قضاء اللّه من ذا يردّه فصبرا فقد يرضى الزمان المغاضب

و منها، و هو آخرها:

و إنّى لأدرى أن فى الصبر راحة إذا لم تكن فيه علىّ مثالب

و إن لم يؤب من كنت أرجو انتصاره عليك فلطف اللّه نحوى آئب

قال رحمه اللّه تعالى: و لما قدمت مصر و القاهرة أدركتنى فيهما وحشة، و أثار [لى] تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التى قطعت بها العيش غضا خصيبا، و صحبت بها الزمان غلاما و لبست الشباب [بردا] قشيبا، فقلت: [بحر مجزوء الرمل]

هذه مصر فأين المغرب؟ مذ نأى عنى فعينى تسكب

فارقته النفس جهلا إنما يعرف الشىء إذا ما يذهب

أين حمص؟ أين أيامى بها؟ بعدها لم ألق شيئا يعجب

كم تقضّى لى بها من لذة حيث للنهر خرير مطرب

و حمام الأيك تشدو حولنا و المثانى فى ذراها تصخب

أى عيش قد قطعناه بها ذكره من كل نعمى أطيب

و لكم بالمرج لى من لذة بعدها ما العيش عندى يعذب

و النواعير التى تذكارها بالنوى عن مهجتى لا تسلب

و لكم فى شنتبوس من منى قد قضيناه و لا من يعتب

حيث هاتيك الشراجيب التى كم بها من حسن بدر معصب

و غناء كلّ ذى فقر له سامع غصبا و لا من يغصب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۵

بلدة طابت و ربّ غافر ليتنى ما زلت فيها أذنب

أى حسن النيل من نهر بها كل نغمات لديه تطرب

كم به من زورق قد حله قمر ساق و عود يضرب

لذة الناظر و السمع على شمّ زهر و كؤوس ۱ تشرب

كم ركبناها فلم تجمح بنا و لكم من جامح إذ يركب

طوعنا حيث اتجهنا لم نجد تعبا منها إذا ما نتعب

قد أثارت عثيرا يشبهه نثر سلك فوق بسط ينهب

كلما رشنا ۳ لها أجنحة من قلاع ظلت منها تعجب

كطيور لم تجد ريا لها فبدا للعين منها مشرب

بل على الخضراء لا أنفكّ من زفرة فى كل حين تلهب

۴حيث للبحر زئير حولها تبصر الأغصان منه ترهب

كم قطعنا الليل فيها مشرقا بحبيب و مدام يسكب

و كأن البحر ثوب أزرق فيه للبدر طراز مذهب

و إلى الحوز حنينى دائما و على شنّيل دمعى صيّب

۶حيث سلّ النهر عضبا و انثنت فوقه القضب و غنّى الربرب

و تشفّت أعين العشاق من حور عين بالمواضى تحجب

ملعب للهو مذ فارقته ما ثنانى نحو لهو ملعب

و إلى مالقة يهفو هوى قلب صب بالنوى لا يقلب

أين أبراج بها قد طالما حثّ كأسى فى ذراها كوكب

حفت الأشجار عشقا حولنا تارة تنأى و طورا تقرب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۶

جاءت الريح بها ثم انثنت أ تراها حذرت من ترقب

و على مرسية أبكى دما منزل فيه نعيم معشب

مع شمس طلعت فى ناظرى ثم صارت فى فؤادى تغرب

هذه حالى، و أمّا حالتى فى ذرى مصر ففكر متعب

سمعت أذنى محالا، ليتها لم تصدّق و يحها من يكذب

و كذا الشىء إذا غاب انتهوا فيه وصفا كى يميل الغيّب

ها أنا فيها فريد مهمل و كلامى و لسانى معرب

و أرى الألحاظ تنبو عند ما أكتب الطرس أفيه عقرب

و إذا أحسب فى الديوان لم يدر كتابهم ما أحسب

و أنادى مغربيا، ليتنى لم أكن للغرب يوما أنسب

نسب يشرك فيه خامل و نبيه، أين منه المهرب؟

أ ترانى ليس لى جدّ له شهرة أو ليس يدرى لى أب

سوف أثنى راجعا لأغرّنى بعد ما جرّبت برق خلّب

و قال بقرمونة متشوقا إلى غرناطة: [بحر الطويل]

أغثنى إذا غنى الحمام المطرب بكأس بها وسواس فكرى ينهب

و مل ميلة حتى أعانق أيكة و ألثم ثغرا فيه للصّبّ مشرب

و لم أر مرجانا و درّا خلافه يطيف به ورد من الشهد أعذب

فديتك من غصن تحمله نقا تطلع أعلاه صباح و غيهب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۷

و جنّته جنات عدن و فى لظى فؤادى و مالى من ذنوب تعذب

و يعذلنى العذال فيه و إننى لأعصى عليه من يلوم و يعتب

لقد جهلوا هل عن حياتى أنثنى إذا نمّقوا أقوالهم و تألبوا

يقولون لى قد صار ذكرك مخلقا و أصبح كل فى هواه يؤنب

و عرضك مبذول و عقلك تالف و جسمك مسلوب و مالك ينهب

فقلت لهم عرضى و عقلى و العلا و فخرى لا أرضى بها حين يغضب

جنون أبى أن لا يلين لعازم بسحر بآيات الرّقى ليس يذهب

فقالوا ألا قد خان عهدك قلت لم يخن من إذا قربته يتقرب

و كم دونه من صارم و مثقف فيا من رأى بدرا بهذين يحجب

على أنه يستسهل الصعب عندما يزور فلا يجدى حمى و ترقّب

و كم حيلة تترى على إثر حالة و ذو الود من يحتال أو يتسبب

على أنه لو خان عهدى لم أزل له راعيا، و الرعى للصب أوجب

فأين زمان لم يخنى ساعة به و هو منّى فى التنعم أرغب

و لا فيه من بخل و لا بى قناعة كلانا بلذات التواصل معجب

و يا رب يوم لا أقوم بشكره على أننى ما زلت أثنى و أطنب

على نهر شنّيل و للقضب حولنا منابر ما زالت بها الطير تخطب

و قد قرعت منه سبائك فضة خلال رياض بالأصيل تذهّب

شربنا عليها قهوة ذهبية غدت تشرب الألباب أيان تشرب

كأن ياسمينا وسط ورد تفتحت أزاهره أيان فى الكأس تسكب

إذا ما شربناها لنيل مسرة تبسّم عن در لها فتقطب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۸

أتت دونها الأحقاب حتى تخالها سرابا بآفاق الزجاجة يلعب

نعمنا بها و اليوم قد رق برده إلى أن رأينا الشمس عنا تغرّب

فقالوا ألا هاتوا السراج فكل من درى قدر ما فى الكأس أقبل يعجب

و قال ألا تدرون ما فى كؤوسكم فلا كأس إلا و هو فى الليل كوكب

كواكب أمست بين شرب و لم نخل بأن النجوم الزهر تدنو و تغرب

ظللنا عليها عاكفين و ليلنا نهار إلى أن صاح بالأيك مطرب

فلم نثن عن دين الصّبوح عناننا إلى أن غدا من ليس يعرف يندب

صرعنا فأمسى يحسب السكر قد قضى علينا و ذاك السكر أشهى و أعجب

و كم ليلة فى إثر يوم و عذّلى و عذّل من يصغى لقولى خيّب

فيا ليت ما ولى معاد نعيمه و أى نعيم عند من يتغرب

قال: و قلت بإشبيلية ذاكرا لوادى الطّلح، و هو بشرق إشبيلية ملتف الأشجار، كثير مترنم الأطيار، و كان المعتمد بن عباد كثيرا ما ينتابه مع رميكيّته، و أولى أنسه و مسرته: [بحر السريع]

سائل بوادى الطّلح ريح الصّبا هل سخّرت لى فى زمان الصّبا

كانت رسولا فيه ما بيننا لن نأمن الرّسل و لن نكتبا

يا قاتل اللّه أناسا إذا ما استؤمنوا خانوا، فما أعجبا

هلا رعوا أنا وثقنا بهم و ما اتخذنا عنهم مذهبا

يا قاتل اللّه الذى لم يتب من غدرهم من بعد ما جرّبا

و اليمّ لا يعرف ما طعمه إلا الذى وافى لأن يشربا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۴۰۸

دعنى من ذكر الوشاة الألى لما يزل فكرى بهم ملهبا

و اذكر بوادى الطلح عهدا لنا للّه ما أحلى و ما أطيبا

بجانب العطف و قد مالت الأغ صان و الزهر يبثّ الصّبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۰۹

و الطير مازت بين ألحانها و ليس إلا معجبا مطربا

و خاننى من لا أسمّيه من شح أخاف الدهر أن يسلبا

قد أترع الكأس و حيّا بها و قلت أهلا بالمنى مرحبا

أهلا و سهلا بالذى شئته يا بدر تمّ مهديا كوكبا

لكننى آليت أسقى بها أو تودعنها ثغرك الأشنبا

فمجّ لى فى الكأس من ثغره ما حبّب الشرب و ما طيبا

فقالها لثمى نقلا و لا تشمّ إلّا عرفى الأطيبا

فاقطف بخدّى الورد و الآس و ال نسرين لا تحفل بزهر الربا

أسعفته غصنا غدا مثمرا و من جناه ميسه قربا

قد كنت ذا نهى و ذا إمرة حتى تبدّى فحللت الحبا

و لم أصن عرضى فى حبه و لم أطع فيه الذى أنّبا

حتى إذا ما قال لى حاسدى ترجوه و الكوكب أن يغربا

أرسلت من شعرى سحرا له ييسر المرغب و المطلبا

و قال عرّفه بأنى سأح تال فما أجتنب المكتبا

فزاد فى شوقى له وعده و لم أزل مقتعدا مرقبا

أمدّ طرفى ثم أثنيه من خوف أخى التنغيص أن يرقبا

أصدّق الوعد و طورا أرى تكذيبه و الحر لن يكذبا

أتى و من سخّره بعد ما أيأس بطئا كاد أن يغضبا

قبلت فى الترب و لم أستطع من حصر اللّقيا سوى مرحبا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۰

هنأت ربعى إذ غدا هالة و قلت يا من لم يضع أشعبا

بالله مل معتنقا لاثما فمال كالغصن ثنته الصّبا

و قال ما ترغب قلت اتئد أدركت إذ كلمتنى المأربا

فقال لا مرغب عن ذكر ما ترغبه قلت إذا مركبا

فكان ما كان فو اللّه ما ذكرته دهرى أو أغلبا

قال: و قلت باقتراح الملك الصالح نور الدين صاحب حمص أن أكتب بالذهب على تفاحة عنبر قدّمها لابن عمه الملك الصالح ملك الديار المصرية: [بحر الخفيف]

أنا لون الشباب و الخال أهدى ت لمن قد كسا الزمان شبابا

ملك العالمين نجم بنى أى وب، لا زال فى المعالى مهابا!

جئت ملأى من الثناء عليه من شكور إحسانه و الثّوابا

لست ممن له خطاب و لكن قد كفانى أريج عرفى خطابا

قال: و لما أنشد أبو عبد اللّه بن الأبّار كاتب ملك إفريقية لنفسه: [بحر الكامل]

للّه دولاب يدور كأنه فلك و لكن ما ارتقاه كوكب

هامت به الأحداق لما نادمت منه الحديقة ساقيا لا يشرب

نصبته فوق النهر أيد قدّرت ترويحه الأرواح ساعة ينصب

فكأنه و هو الطليق مقيّد و كأنه و هو الحبيس مسيب

للماء فيه تصعّد و تحدّر كالمزن يستسقى البحار و يسكب

حلف أبو عبد اللّه بن أبى الحسين ابن عمى أن يصنع فى ذلك شيئا، فقال: [بحر الطويل]

و محنيّة الأضلاع تحنو على الثرى و تسقى نبات الترب، درّ الترائب

تعدّ من الأفلاك أن مياهها نجوم لرجم المحل ذات ذوائب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۱

و أعجبها رقص الغصون ذوابلا فدارت بأمثال السيوف القواضب

و تحسبها و الروض ساق وقينة فما برحا ما بين شاد و شارب

و ما خلتها تشكو بتحنانها الصّدا و من فوق متنيها اطراد المذانب

فخذ من مجاريها و دهمة لونها بياض العطايا فى سواد المطالب

ثم كلفت فى أن أقول فى ذلك، و أنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لى ما أقول: [بحر الطويل]

و ذات حنين لا تزال مطيفة تئن و تبكى بالدموع السواكب

كأن أليفا بان عنها فأصبحت بمربعه كالصّبّ بعد الحبائب

إذا ابتسمت فيها الرياض شماتة ترعها بأمثال السيوف القواضب

فكم رقصت أغصانها فرمت لها نثارا كما بددت حلى الكواعب

لقد سخطت منها الثغور و أرضت ال قدود و لم تحفل بتثريب عائب

شربت على تحنانها ذهبيّة ذخيرة كسرى فى العصور الذواهب

فهاجت لى الكأس ادّكار مغاضب فحاكيتها وجدا بذاك المغاضب

فلا تدع التبريز فى كثرة الهوى فلو لاى كانت فيه إحدى العجائب

قال: و قلت بغرناطة [البحر الرمل]:

باكر اللهو و من شاء عتب لا يلذّ العيش إلا بالطّرب

ما توانى من رأى الزهر زها و الصّبا تمرح فى الروض خبب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۲

و شذاه صانه حتّى اغتدى بين أيدى الريح غصبا ينتهب

يا نسيما عطّر الأرجاء، هل بعثوا ضمنك ما يشفى الكرب؟

هم أعلّوه و هم يشفونه لا شفاه اللّه من ذاك الوصب!

خلع الروض عليه زهره حين وافى من ذراكم فعل صبّ

فأبى إلا شذاه فانثنى حاملا من عرفه ما قد غصب

لست ذا نكر لأن يشبهكم من بعثتم، غير ذا منه العجب

غالب الأغصان فى بدأته ثم لما زاد أعطته الغلب

فبكى الطلّ عليها رحمة أو بكى من وعظ طير قد خطب

كلّ هذا قد دعانى للّتى ملكت رقى على مر الحقب

قهوة أبسم من عجب لها عندما تبسم عجبا عن حبب

حاكت الخمر فلما شعشعت قلت ما للخمر بالماء التهب

و بدت من كأسها لى فضّة ملئت إذ جمدت ذوب الذهب

اسقنيها من يدى مشبهها بالذى يحويه طرف و شنب

لا جعلت الدهر نقلى غير ما لذّ لى من ريق ثغر كالضّرب

لا جعلت الدهر ريحانى سوى ما بخدّيه من الورد انتخب

لم أزل أقطع دهرى هكذا و كذا أقطع منه المرتقب

حبّذا عيش قطعناه لدى معطف الخابور ما فيه نصب

مع من لم يدر يوما ما الجفا من أراح الصب فيه من تعب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۳

كل ما يصدر منه حسن لم يذقنى فى الهوى مر الغضب

أى عيش سمح الدهر به كل نعمى ذهبت لما ذهب

قال: و دخلت بتونس مع أبى العباس الغسّانى حماما، فنظرنا إلى غلمان فى نهاية الحسن و نعومة الأبدان، فقلت مخاطبا له: [بحر السريع]

دخلت حماما و قصدى به تنعيم جسم فغدا لى عذاب

قلت لظى فاعترضت حوره و قلت عدن فنهانى التهاب

و أنت فى الفضل إمام فكن فى الحكم ممن حاز فصل الخطاب

فقال: [بحر السريع]

لا تأمن الحمام فى فعله فليس ما يأتيه عندى صواب

فما أرى أخدع منه و لا أكذب إلا أن يكون السراب

يبدى لك الغيد كحور الدمى و يلبس الشيخ برود الشباب

ظن به النار فلا جنة للحسن إلا ما حوته الثياب

و من فوائده- أعنى ابن سعيد رحمه اللّه تعالى- فى كتابه المحلى بالأشعار نقلا عن القرطبى قضية بناء الهودج بروضة مصر، و هو من منتزهات الخلفاء الفاطميين العظيمة العجيبة البناء البديعة، و ذلك أنه يقال: إن البانى له الخليفة الآمر بأحكام اللّه، للبدوية التى غلب عليه حبها، بجوار البستان المختار، و كان يتردد إليه كثيرا و قتل و هو متوجه إليه، و ما زال منتزها للخلفاء من بعده.

و قد أكثر الناس فى حديث البدوية و ابن ميّاح من بنى عمها، و ما يتعلق بذلك من ذكر الآمر، حتى صارت رواياتهم فى هذا الشأن كحديث البطال و ألف ليلة و ليلة و ما أشبه ذلك، و الاختصار منه أن يقال: إن الآمر قد كان بلى بعشق الجوارى العربيات، و صارت له عيون فى البوادى، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب و أظرفهم، شاعرة جميلة، فيقال: إنه تزيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۴

بزى بـداۀ الأـعراب، و كـان يجول فى الأحيـاء إلى أن انتهى إلى حيهـا، و بات هنالك، و تحيل حتى عاينها هناك، فما ملك صبره، و رجع إلى مقر ملكه، و أرسل إلى أهلها يخطبها، و تزوجها، فلما وصـلت إليه صـعب عليها مفارقۀ ما اعتادت، و أحبت أن تسرّح طرفها فى الفضـاء، و لاـ تنقبض نفسـها تحت حيطان المدينـۀ، فبنى لها البناء المشـهور فى جزيرۀ الفسـطاط المعروف بالهودج، و كان غريب الشكل، على شط النيل، و بقيت متعلقۀ الخاطر بابن عم لها ربّيت معه، يعرف بابن ميّاح، فكتبت إليه من قصر الآمر: [بحر الرمل]

يا ابن ميّاح إليك المشتكى مالك من بعدكم قد ملكا

كنت فى حيى طليقا آمرا نائلا ما شئت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر موصد لا أرى إلا حبيسا ممسكا

كم تثنينا كأغصان النقا حيث لا نخشى علينا دركا

فأجابها فقال: [بحر الرمل]

بنت عمى و التى غذّيتها بالهوى حتى علا و احتبكا

بحت بالشكوى و عندى ضعفها لو غدا ينفع منّا المشتكى

مالك الأمر إليه يشتكى هالك، و هو الذى قد أهلكا

قال: و للناس فى طلب ابن ميّاح و اختفائه أخبار تطول.

و كان من عرب طيىء فى عصر الآمر طراد بن مهلهل، فقال و قد بلغته هذه الأبيات:

[بحر المتقارب]

ألا بلّغوا الآمر المصطفى مقال طراد و نعم المقال

قطعت الأليفين عن ألفۀ بها سمر الحمى حول الرحال

كذا كان آباؤك الأكرمون سألت فقل لى جواب السؤال

فقـال الخليفـۀ الآـمر لمـا بلغته الأبيات: جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله، فطلب فى أحياء العرب فلم يوجـد، فقيل: ما أخسـر صـفقۀ طراد، باع عدۀ أبيات بثلاثۀ أبيات.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۵

و كان بالإسـكندريۀ مكين الدولـۀ أبو طالب أحمـد بن عبـد المجيـد بن أحمد بن الحسن بن حديد، له مروءۀ عظيمۀ، و يحتذى أفعال البرامكـۀ، و للشـعراء فيه أمداح كثيرۀ، و مدحه ظافر الحداد و أميۀ أبو الصّـلت و غيرهما، و كان له بسـتان يتفرّج فيه، به جرن كبير من رخـام، و هو قطعـۀ واحـدۀ ينحـدر فيه المـاء فيبقى كالبركـۀ من كبره، و كان يرى فى نفسه برؤيته زيادۀ على أهل التنعم و المباهاۀ فى عصـره، فوشـى به للبدويـۀ محبوبۀ الآمر، فسألت الآمر فى حمل الجرن إليها، فأرسل إلى ابن حديد فى إحضار الجرن، فلم يجد بدّا من حمله من البسـتان، فلمـا صار إلى الآمر أمر بعمله فى الهودج، فقلق ابن حديـد، و صارت فى قلبه حزازۀ من أخـذ الجرن، فأخـذ يخـدم البدويـۀ و جميع من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمۀ الخارجۀ عن الحد فى الكثرۀ، حتى قالت البدويۀ: هذا الرجل أخجلنا بكثرۀ تحفه، و لم يكلفنـا قـط أمرا نقـدر عليه عنـد الخليفـۀ مولانا، فلما قيل له عنها هـذا القول قال: مالى حاجـۀ بعـد الـدعاء للّه بحفظ مكانها و طول حياتهـا فى عز غير ردّ السّـقيّۀ التى قلعت من دارى التى بنيتهـا فى أيامهم من نعمتهم تردّ إلى مكانها، فتعجبت من ذلك، و ردتها عليه، فقيل له: قد حصلت فى حد أن خيّرتك البدويۀ فى جميع المطالب، فنزلت همتك إلى قطعۀ حجر، فقال: أنا أعرف بنفسى، ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه، و قد بلغها اللّه تعالى أملها.

و كان هذا المكين متولى قضاء الإسـكندريۀ و نظرها فى أيام الآمر، و بلغ من علو همته و عظيم مروءته أن سلطان الملوك حيدرۀ أخا الوزير المأمون ابن البطائحى لما قلّده الآمر ولايۀ ثغر الإسـكندريۀ سنۀ سبع عشرۀ و خمسمائۀ، و أضاف إليها الأعمال البحريۀ، و وصل

إلى الثغر- وصف له الطبيب دهن الشمع بحضرة القاضى المذكور، فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضىّ إلى داره لإحضار دهن الشمع فما كان أكثر من مسافة الطريق إلا و قد أحضر حقّا مختوما، ففكّ عنه، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت و جوهر: بيت دهن ممسك، و بيت دهن بكافور، و بيت دهن بعنبر طيب، و لم يكن فيه شىء مصنوع لوقته، فعند ما أحضره الرسول تعجب المؤتمن و الحاضرون من علو همته، فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر إنعامه، و حلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، و كان [من] جواب المؤتمن: و قد قبلته منك لا لحاجة إليه، و لا نظر فى قيمته، بل لإظهار هذه الهمة و إذاعتها، و ذكر أن قيمة هذا المداف و ما عليه خمسمائة دينار.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۶

فانظر رحمك اللّه تعالى إلى من يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار، و دهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه، فماذا تكون ثيابه و حلى نسائه و فرش داره و غير ذلك من التجملات؟ و هذا إنما هو حال قاضى الإسكندرية و من قاضى الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة؟! و ما نسبة أعيان الدولة و إن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة و أبّهتها إلا يسير حقير.

و ما زال الخليفة الآخر يتردد إلى الهودج المذكور إلى أن ركب يوم الثلاثاء رابع القعدة سنة ۵۲۴ يريد الهودج، و قد كمن له عدة من النزارية على رأس الجسر من ناحية الروضة، فوثبوا عليه، و أثخنوه بالجراحة، و حمل فى العشارىّ إلى اللؤلؤة، فمات بها، و قيل: قبل أن يصل إليه، و قد خرب هذا الهودج، و جهل مكانه من الروضة، و للّه عاقبة الأمور، نقل ذلك كله الحافظ المقريزى، رحمه اللّه تعالى!.

قال النور بن سعيد، و من خطه نقلت: لما نزلنا بتلّعفر حين خرجنا من سنجار إلى الموصل سألت أحد شيوخنا عن والد شهاب الدين التّلّعفرى، فقال: أنا أدركته، و كان كثير التجول، و أنشدنى لنفسه فى عيد أدركه فى غير بلده: [بحر السريع]

يبتهج الناس إذا عيّدوا و عند سرّائهم أكمد

لأننى أبصر أحبابهم و مقلتى محبوبها تفقد

قال: و خرج ابنه الشهاب أجول منه شخصا، و شعرا، و صدق فيما قاله.

و أنشد ابن سعيد للشهاب التلعفرى: [بحر الخفيف]

لك ثغر كلؤلؤ فى عقيق و رضاب كالشّهد أو كالرّحيق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۷

و جفون لم يمتشق سيفها إلا لمغرى بقدّك الممشوق

تهت عجبا بكل فن من الحسن جليل و كل معنى دقيق

و تفردت بالجمال الذى خ لّاك مستوحشا بغير رفيق

باللحاظ التى بها لم تزل تر شق قلبى بالقوام الرّشيق

لا تغر بالغوير إذ تتثنّى فيه أعطاف كل غصن و ريق

و اثن محمّر ورد خدّيك و استر ه و إلّا ينشقّ قلب الشفيق

قال ابن سعيد: و حظى الشهاب التلعفرى بمنادمة الملوك، و كونهم يقدمونه، و يقبلون على شعره، و عهدى به لا ينشد أحد قبله فى مجلس الملك الناصر، على كثرة الشعراء، و كثرة من يعتنى بهم، و لما جمعت للملك الناصر كتاب ملوك الشعر جعلت ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة المتقدمة، فإنه كان كثيرا ما ينشده، و ينوه به، و التشفى من ذكر الشهاب و محاسن شعره له مكان بكتاب «الغرة الطالعة، فى فضلاء المائة السابعة» و هو الآن عند الملك المنصور صاحب حماة قد علت سنه، و ما فارقه غرامه و دنّه، انتهى.

و لما أجرى ابن سعيد فى بعض مصنفاته ذكر الملك العادل بن أيوب قال ما نصه: و كان من أعظم السلاطين دهاء، و حزما، و كان يضرب به المثل فى إفساد القلوب على أعدائه و إصلاحها له، و يحكى أنه بشّره شخص بأن أميرا من أمراء الأفضل بن صلاح الدين فسد عليه، فأعطاه مالا جزيلا، و أرسل مستخفيا إلى المذكور يزيده بصيرة فى الانحراف عن الأفضل، و يعده بما يفسد الصالح فكيف الفاسد، قال: و كان يمنع حتى يوصف بالبخل، و يجود فى مواضع الجود حتى يوصف بالسّماح، و كان صلاح الدين- و هو السلطان- يأخذ برأيه، و قدم له أحد المصنفين كتابا مصوّرا فى مكايد الحروب و منازلة المدن، و هو حينئذ على عكّا محاصرا للفرنج، فقال له: ما نحتاج إلى هذا الكتاب و معنا أخونا أبو بكر، و كان كثير المداراة و الحزم، و من حكاياته فى ذلك أن أحد الأشياخ من خواصّه قال له يوما، و هو على سماطه يأكل: يا خوند، ما وفيت معى و لا رعيت سابق خدمتى، و كلمه بدالّة السن و قدم الصحبة قبل الملك، فقال لمماليكه: انظروا وسطه، فحلّوا الكمران و قال: خذوا الصرة التى فيه، فوجدوا صرّة، فقال: افتحوها، ففتحوها فإذا فيها ذرور، فقال العادل: كل من هذا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۸

الذرور، فتوقف، و علم أنه مطّلع على أنه سم، فقال: كيف نسبتنى إلى قلة الوفاء، و أنا منذ سنين أعلم أنك تريد أن تسمنى بهذا السم، و قد جعل لك الملك الفلانى على ذلك عشرة آلاف دينار، فلا أنا أمكنتك من نفسى، و لا أشعرتك، لئلا يكون فى ذلك ما لا خفاء به، و تركتك على حالك، و أنا مع هذا لا أغير عليك نعمة، ثم قال: ردوا سمه إلى كمرانه، لا أبقى اللّه تعالى عليه إن قدر و أبقى على، فجعل يقبل الأرض و يقول: هكذا و اللّه كان، و أنا تائب للّه تعالى، ثم إن الشيخ جدّد توبة، و استأنف أدبا آخر و خدمة أخرى، و كانت هذه الفعلة من إحدى عجائب العادل.

قال: و كان كثير المصانعات حتى إنه يصوغ الحلى الذى يصلح لنساء الفرنج و يوجّه فى الخفية إليهنّ، حتى يمسكن أزواجهنّ عن الحركة، و له فى ذلك مع ملوك الإسلام ما يطول ذكره.

و لما خرج ابن أخيه المعز إسماعيل بن طغتكين باليمن، و خطب لنفسه بالخلافة، و كتب له أن يبايعه و يخطب له فى بلاده، كان فى الجماعة من أشار إلى النظر فى توجيه عسكر له فى البر و البحر، و إنفاق الأموال قبل أن يتفاقم أمره، فضحك و قال: من يكون عقله هذا العقل لا يحوج خصمه إلى كبير مؤنة، أنا أعرف كيف أفسد عليه حاله فى بلاده، فضلا عن أن يتطرق فساده لبلادى، ثم إنه وجه فى السر لأصحاب دولته بالوعد و الوعيد و قال لهم: أنتم تعلمون بعقولكم أن هذا لا يسوغ لى، فكيف يسوغ له؟ و قد أدخل نفسه فى أمر لا يخرج منه إلا بهلاكه، فاحذروا أن تهلكوا معه، و اتعظوا بالآية وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ [هود: ۱۱۳] و ما لهذا عقل يدبر به نفسه، فكيف يفضل عن تدبير خاصته إليكم وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (۸۸) [ص: ۸۸] فعندما وعت أسماعهم هذا و تدبروه بعقولهم قبضوا عليه و قتلوه، و عادت البلاد للعادل، و قال للمشيرين عليه فى أول الأمر بتجهيز العسكر: قد كفينا المؤنة بأيسر شىء من المال، و لو حاولناه بما أشرتم به لم تقم خزائن ملكنا بالبلوغ إلى غايته.

و كان- على ما بلغه من عظمة السلطان، و اتساع الممالك- يحكى ما جرى له من زمان خلوّه من ذلك، و يحب الاستماع لنوادر أنذال العالم، و اشتهر فى خدمته مساخر أشهرهم خضير صاحب البستان المشهور عند الربوة بغوطة دمشق و من نوادره الحارّة معه أنه سمعه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۱۹

يوما و هو يقول فى وضوئه: اللهم حاسبنى حسابا يسيرا، و لا تحاسبنى حسابا عسيرا، فقال له:

يا خوند على أى شىء يحاسبك حسابا عسيرا؟ إذا قال لك: أين أموال الخلق التى أخذتها؟

فقل له: تراها بأمانتها فى الكرك، و كان قد صنع بهذا المعقل الحسرات، سميت بذلك لأن من رآها يتحسر إذا نظرها، و لا يستطيع على شىء منها بحيلة، و هى خواب مفروغة من ذهب و فضة تركت بمرأى من الناظرين ليشتهر ذلك فى الآفاق.

و قال العادل مرة، و قد جرى ذكر البرامكة و أمثالهم ممن ذكر فى كتاب «المستجاد، فى حكايات الأجواد»: إنما هذا كذب مختلق من الورّاقين و من المؤرخين، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك و الأكابر للسخاء و تبذير الأموال فقال خضير: يا خوند، و لأى شىء لا يكذبون عليك؟.

قال ابن سعيد: من وقف على حكايات أبى العيناء مع عبيد اللّه بن سليمان يجد مثل هذه الحكاية.

قال ابن سعيد: و وجدت الشهاب القوصى قد ذكر السلطان العادل فى كتاب «المعاجم» و ابتدأ الكتاب المذكور بمحاسنه و الثناء عليه، و خرّج عنه الحديث النبوى عن الحافظ السّلفى، و تمثل فيه عند وفاته: [بحر الوافر]

ألام على بكائى خير ملك و قلّ له بكائى بالنّجيع

به كان الشباب جميع عمرى و دهرى كله زمن الربيع

ففرّق بيننا زمن خؤون له شغف بتفريق الجميع

قال ابن سعيد: و دفن العادل بالمدرسة العادلية بدمشق، و كان أنشأها للشافعية، و هى فى نهاية الحسن، و بها خزانة كتب، فيها تاريخ ابن عساكر، و ذيل هذا التاريخ و اختصره أبو شامة، سمعت عليه منه هنالك ما تيسر أيام إقامتى بدمشق.

و أولاد العادل ملوك البلاد فى صدر هذه المائة السابعة، منهم الكامل و المعظم و الأشرف، و هؤلاء الثلاثة شهروا بالفضل و حب الفضلاء و قول الشعراء، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲۰

و قال ابن سعيد، فى ترجمة الرئيس صفى الدين أحمد بن سعيد المرذغانى، و هو من بيت و زارة و رياسة بدمشق: إن من شعره قوله: [بحر الخفيف]

كيف طابت نفوسكم بفراقى و فراق الأحباب مرّ المذاق

لو علمتم بلوعتى و صبابا تى و وجدى و زفرتى و احتراقى

لرثيتم للمستهام المعنّى و وفيتم بالعهد و الميثاق

قال ابن سعيد: وقفت على ذكر هذا الرئيس فى كتاب «تاج المعاجم» و وجدت صاحبه الشهاب القوصى قد قال: أخبرنى بدمشق أنه قد كان عزم على السفر منها إلى مصر، لأمر ضاق به صدره، فهتف به هاتف فى النوم، و أنشده: [بحر الكامل]

يا أحمد اقنع بالذى أعطيته إن كنت لا ترضى لنفسك ذلّها

ودع التكاثر فى الغنى لمعاشر أضحوا على جمع الدراهم ولّها

و اعلم بأن اللّه جلّ جلاله لم يخلق الدنيا لأجلك كلّها

فانثنى عزمه عن الحركة، ثم بلغ ما أمّله دون سفر.

و قال ابن سعيد، فى ترجمة المنتجب أحمد بن عبد الكريم الدمشقى المعروف بدفترخوان، و هو الذى يقرأ الدفاتر بين أيدى الملوك و الأكابر: إنه كان يقرأ الدفاتر بين يدى العادل بن أيوب، و كان يكتب له بالأشعار فى المواسم و الفصول، فينال من خيره، و كتب له مرة و قد أظل الشتاء فى دمشق فقال: [بحر المجتث]

مولاى جاء الشتاء و الكيس منه خلاء

لا زال يجرى بما تر تضى علاك القضاء

و كلّ كاف إليه يحتاج فيه التواء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲۱

فقال له العادل: هذا الضمير الذى فى البيت الأول على ما ذا يعود؟ قال: بحسب مكارم السلطان، إن شئت على الدراهم، و إن شئت

على الدنانير! فضحك و قال: هات كيسك، فأخرج له كيسا يسع قدر مائة دينار، فملأه له، و قال: أظنه كان معدّا عندك، فقال: مثل السلطان من يكون جوده مظنونا.

و كتب إليه مرة و قد أملق: [بحر الكامل]

انظر إليّ بعين جودك مرة فلعلّ محروم المطالب يرزق

طير الرجاء على علاك محلّق و أظنّه سيعود و هو مخلق

فأعطاه جملة دنانير، و قال له: اشتر بهذه ما تخلق به طير رجائك، انتهى.

و أنشد ابن سعيد رحمه اللّه تعالى لبعض المغاربة، و هو أبو الحسن على بن مروان الرباطى الكاتب: [بحر الخفيف]

أنس أخى الفضل كتاب أنيق أو صاحب يعنى بود وثيق

فإن تعره دون رهن به تخسره أو تخسر وداد الصديق

و ربّما تخسر هذا و ذا فاسمع رعاك اللّه نصح الشفيق

قال: و أجابه المخاطب بهذه الأبيات، و هو ابن الرّبيب، بنثر نصه: مثلك يفيد تجربة قد نفق عليها عمر، و ضل عن فوائدها غرّ غمر، و قد أنفذت رهنا لا يسمح بإخراجه من اليد إلا ليدك، فتفضل بتوجيه الجزء الأول، فأنا أعلم أنه عندك مثل ولدك، قال: فوجهه و معه بطاقة صغيرة فيها: يا أخى، إن عرضت بولدى فكذلك كنت مع والدى و قد توارثنا العقوق كابرا عن كابر، فكن شاكرا فإنى صابر.

ثم قال ابن سعيد: و تفاقم أمر ولده فقيّده بقيد حديد و قال فيه: [بحر السريع]

لى ولد يا ليته لم يك عندى يخلق

يجهد فى كل الذى يرغم و هو يعشق

و إن أكن قيّدته دمعى عليه مطلق

و ذكر ابن سعيد أن الكاتب أبا الحسن المذكور كان كثيرا ما يستعير الكتب، فإذا طلبت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲۲

منه فكأنها ما كانت، فذكر لبعض أصحابه- و هو ابن الربيب المؤرخ- أن عنده نسخة جليلة من تاريخ عريب الذى لخص فيه تاريخ الطبرى و استدرك عليه ما هو من شرطه و ذيل ما حدث بعده، فأرسل إليه فى استعارتها، فكتب إليه: يا أخى، سدّد اللّه آراءك، و جعل عقلك أمامك لا وراءك، ما يلزمنى من كونك مضيّعا أن أكون كذلك، و النسخة التى رمت إعارتها هى مؤنسى إذا أوحشنى الناس، و كاتم سرى إذا خانونى، فما أعيرها إلا بشىء أعلم أنك تتأذّى بفقده إذا فقد جزء من النسخة، و أنا الذى أقول:

أنس أخى الفضل كتاب أنيق إلى آخره:

و أنشد للكاتب أبى الحسن المذكور: [بحر الخفيف]

إنّ ذاك العذار قام بعذرى و فشا فيه للعواذل سرّى

ما رأينا من قبل ذلك مسكا صاغ منه الإله هالة بدر

أىّ آس من حول جنة ورد ليس منه آس مدى الدهر يبرى

و لما اشتد مرضه بين تلمسان و فاس قال هذه الأبيات، و أوصى أن تكتب على قبره:

[بحر المتقارب]

ألا رحم اللّه حيّا دعا لميت قضى بالفلا نحبه

تمر السّوافى على قبره فتهدى لأحبابه تربه

و ليس له عمل يرتجى و لكنه يرتجى ربّه

رجع إلى نظم ابن سعيد المترجم به، فنقول: [بحر الكامل]

و قال لما سار المعظم من حصن كيفا، و آل أمره إلى الملك، ثم القتل و الهلك:

[بحر الكامل]

ليت المعظم لم يسر من حصنه يوما و لا وافى إلى أملاكه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲۳

إن العناصر إذ رأته مكمّلا حسدته فاجتمعت على إهلاكه

و مما نقلته من ديوانه الذى رتبه على حروف المعجم قوله- رحمه اللّه تعالى!- و قلت بالقاهرة على لسان من كلفنى ذلك: [بحر الرمل]

شرف الدين أبن لى ما السبب فى انقلاب الدهر لى عند الغضب

فلتدم غضبان أظفر بالمنى ليس لى فى غير هذا من أرب

إنما ظهرك عندى قبلة و وضوئى الدهر من ذاك الشّنب

و أستغفر اللّه من قول الكذب، قال: و قلت بإشبيلية: [بحر السريع]

قد جاء نصر اللّه و الفتح و الصبح لما رضيت صبح

فهنّئونى بارتجاع المنى لولا الرضا ما برح البرح

يا أورقا يا غصنا يانقا يا ظبية بالليل يا صبح

يصحو جميع الناس من سكرهم و لست من سكركم أصحو

بلغت فيه غاية لم يبن غايتها التفسير و الشرح

و ينصح العذال، من لى بأن يعذلنى عن غيك النصح

و قلت بإشبيلية: [بحر الرمل]

وضح الصبح فأين القدح يعرف اللذات من يصطبح

ما ترى الليل كطرف أدهم و ضياء الفجر فيه وضح

و الثرى دبّجه درّ الندى و على الأغصان منه و شح

و مدير الراح لم يعد المنى كل ما يأتى به مقترح

فى بطاح المرج قد نادمنى رشا من سكره ينبطح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲۴

جعل المسواك سترا للمنى فكأن قبّل فاه قزح

كلما شئت الذى قد شاءه فحثى لى كاسه أفتتح

ما أبالى أن رآنى كاشح أم رآنى من لديه نصح

هكذا العيش ودع عيش الذى خاف من نقد إذا يفتضح

و قلت بشريش: [بحر مجزوء الكامل]

طاب الشراب لمعشر سلبوا المروءة فاستراحوا

لا يعرفون تسترا السكر عندهم مباح

متهتكون لدى المنى و فسادهم فيها صلاح

ساقيهم متبذّل هل يمنع الماء القراح

غصن يميل به الصّبا ردته طوع الراح راح

طوع الأمانى كل ما يأتى به فهو اقتراح

ما إن نبالى إن بدا أن لا يلوح لنا الصباح

ما زلت أرشف ثغره و عليه من عضدى و شاح

و القلب يهفو طائرا ولعا و لا يخشى افتضاح

و لو اننا نخشاه كا ن لنا من الظّلما جناح

لكننا فى عصبة ما فى تهتكهم جناح

لا ينكرون سوى ثقى ل لا يميل به مزاح

أفنى الذى قد جمّعو ه الكأس و الحدق الملاح

و قلت بمراكش: [بحر مجزوء الكامل]

قم هاتها لاح الصباح ما العيش إلا الاصطباح

مع فتية ما دأبهم إلا المروءة و السماح

جربتهم فوجدتهم ما للمنى عنهم براح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲۵

يثنيهم نحو الصّبا نقر المثانى و المراح

ما نادموا شخصا فكا ن لهم بخدمته استراح

بل يعرفون مكانه فله إذا شاء اقتراح

هم يتعبون و ضيفهم ما دام عندهم يراح

ما إن يملّون النزى ل و بالرضا منه السراح

يدعونه بأجل ما يدعى به الحر الصّراح

حتى إذا ما بان كدّ رعيشهم منه انتزاح

فعلى مثالهم يبا ح لى المدامع و النواح

كرها فقدتهم فحا لى بعد بعدهم ارتياح

للّه شوقى إن هفت من نحو أرضهم الرياح

فهناك قلبى طائر لهم و من شوقى جناح

قال: و قلت بمدينة ابن السليم فى وصف كلب صيد أسود فى عنقه بياض: [بحر الوافر]

و أدهم دون حلى ظل حالى كأن ليلا يقلده صباح

يطير و ما له ريش و لكن متى يهفو فأربعه جناح

تكلّ الطير مهما نازعته و تحسده إذا مرق الرياح

له الألحاظ مهما جاء سلك و مهما سار فهى له و شاح

و قلت فى نيل مصر: [بحر الكامل]

يا نيل مصر أين حمص و نهرها حيث المناظر أنجم تلتاح

فی کل شط للنواظر مسرح تدعو إلیه منازح و بطاح

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۲، ص: ۴۲۶

و إذا سبحت فلست أسبح خائفا ما فیه تیار و لا تمساح

قال: و قلت و قد حضرت مع إخوان لی بموضع یعرف بالسلطانیهٔ علی نهر إشبیلیهٔ و قد مالت الشمس للغروب: [بحر الکامل]

رقّ الأصیل فواصل الأقداحا و اشرب إلی وقت الصباح صباحا

و انظر لشمس الأفق طائرهٔ و قد ألقت علی صفح الخلیج جناحا

فاظفر بصفو الأفق قبل غروبها و استنطق المثنی و حثّ الراحا

متع جفونک فی الحدیقهٔ قبل أن یکسو الظلام جمالها أمساحا

و قلت بمرسیهٔ: [بحر مخلع البسیط]

أقلقه وجده فباحا و زاد تبریحه فناحا

و رام یثنی الدموع لما جرت فزادت له جماحا

یا من جفا فارفقن علیه مستعبدا لا یری السراحا

یکابد الموت کل حین لو أنه مات لاستراحا

ینزو إذا ما الریاح هبت کأنه یعشق الریاحا

یسألها عن ربوع حمص لما نما عرفها وفاحا

کم قد بکی للحمام کیما یعیره نحوها جناحا

قال: و خرجت مرهٔ مع أبی إسحاق إبراهیم بن سهل الإسرائیلی إلی مرج الفضهٔ بنهر إشبیلیهٔ فتشارکنا فی هذا الشعر: [بحر الکامل]

غیری یمیل إلی کلام اللاحی و یمدّ راحته لغیر الراح

لا سیما و الغصن یزهو زهره و یمیل عطف الشارب المرتاح

و قد استطار القلب ساجع أیکه من کل ما أشکوه لیس بصاح

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۲، ص: ۴۲۷

قد بان عنه جناحه عجبا له من جانح للعجز حلف جناح

بین الریاض و قد غدا فی مأتم و تخاله قد ظل فی أفراح

الغصن یمرح تحته و النهر فی قصف تزجّیه ید الأرواح

و کأنما الأنسام فوق جنانه أعلام خزّ فوق سمر رماح

لا غرو أن قامت علیه أسطر لما رأته مدرّعا لکفاح

فإذا تتابع موجه لدفاعه مالت علیه فظل حلف صیاح

قال: و قلت بمالقهٔ متشوّقا إلی الجزیرهٔ الخضراء: [بحر الخفیف]

یا نسیما من نحو تلک النواحی کیف بالله نور تلک البطاح

أسقتها الغمام ریّا فلاحت فی رداء و مئزر و وشاح

أم جفته فصیرته هشیما ترکته تذروه هوج الریاح

یا زمانی بالحاجبیهٔ إنی لست من سکر ما سقیت بصاحی

آه مما لقیت بعدک من ه مّ و شوق و غربهٔ و انتزاح

أين قوم ألفتهم فيك لما قرّب الدهر آذنوا بالرواح

تركونى أسير وجد و شوق ما لقلبى من الجوى من سراح

أسلمونى للويل حتى تولوا و أصاخوا ظلما لقول اللواحى

أعرضوا ثم عرّضونى لشوق ترك القلب مثخنا بجراح

أسهر الليل لست أغفى لصبح أ ترى النوم ذاهبا بالصباح

قد بدا يظهر النجوم حليّا و هو من لبسة الصبا فى براح

مسبلا ستره منعّم بال و جفونى من سهده فى كفاح

أيها الليل لا تؤمل خلودا عن قريب يمحو ظلامك ماح

و يلوح الصباح مشرق نور فيه للمستهام بدء نجاح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲۸

إن يوم الفراق بدّد شملى طائرا ليته بغير جناح

حالك اللون شبه لونك فاعرف عن عيانى يا شبه طير النّزاح

و إذا ما بدا الصباح فما يش به إلّا لون الخدود الملاح

و قلت بالجزيرة الخضراء: [بحر البسيط]

قد رفعت راية الصباح تدعو الندامى للاصطباح

فبادروا للصّبوح إنى قد بعت فى غيه صلاحى

و لا تميلوا عن رشف ثغر و سمع شدو و شرب راح

و أنت يا من يروم نصحى قد يئس القوم من فلاحى

فلست أصغى إلى نصيح ما نهضت بالكؤوس راحى

قال: و قلت أمدح ملك إفريقية و أهنئه بقتل ثائر من زناتة يدّعى أنه من نسل يعقوب المنصور: [بحر السريع]

برّح بى من ليس عنه براح و من رأى قتلى حلالا مباح

من صرّح الدمع بحبّى له و ما لقلبى عن هواه سراح

ظبى عدمت الصبح مذ صدّنى و كيف لا يعدم و هو الصباح

مورد الخدّ شهى اللّمى منعم الردف جديب الوشاح

تظنه من قلبه جلمدا و منه للماء بجفنى انسياح

لردفه أضعف من صبه و لم أزل من لحظه فى كفاح

نشوان من ريقته عربدت أجفانه بالمرهفات الصّفاح

فها أنينى خافت مثل ما أنا أسير مثخن بالجراح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۲۹

يا قاتلى صدّا أما تستحى أن تلزم البخل بأرض السماح

من ذا الذى يبخل فى تونس و الملح فيها صار عذبا قراح

و أصبحت أرجاؤها جنة مبيضة الأبراج خضر البطاح

لو لا ندى يحيى و تدبيره ما برحت تغبر منها النّواح

لكن يداه سحب كلما حلت بأرض حل فيها النجاح

هذا و قد آمن من حلها و حفها من غربة و انتزاح

كم شتّتوا من قبل تأميره و حكمت فيهم عوالى الرماح

يا سائرا يرجو بلوغ المنى باكر ذرى يحيى و قل لا رواح

و حيّه بالمدح فهو الذى يهتز كالهندىّ حين امتداح

بالشرق و الغرب غدا ذكره يحثّ من حمد و شكر جناح

ساعده السعد و أضحت له ال آمال لا تجرى بغير اقتراح

و يسر اللّه له ملكه من غير أن يشهر فيه السلاح

و كل من كان على غيره ذا منعة أمسى به مستباح

و كم جموح عند ما قام بالأم ر رأى القهر فخلى الجماح

كفّ بكف للنّدى و الردى بها معان و هى خرس فصاح

حتى لقد أحسب من سعده تجرى على ما يرتضيه الرياح

قولوا ليعقوب فماذا جنى و ابن أبى حمزة ما ذا استباح

قد أصبحا من فوق جذعين لا تؤنسهم غير هبوب الرياح

و اسأل عن الداعى الدعى الذى حاول أمرا كان عنه انضراح

أكان من صيره والدا بزعمه أمل فيه فلاح

شكرا لسعد لم يدع فرقة قد صير الملك كضرب القداح

راموا بلا جاه و لا محتد ما حزت بالحق فكان افتضاح

زنانة يهنيكم فعلكم عاجلكم ثائركم باجتياح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۰

كفّر ما قدّمتم آخر و الخير لن يبرح للشر ماح

عهدى به فى موكب الملك ما بينكم نشوان من غير راح

يحسب أن الأرض ملك له و روحه ملك لسمر الرماح

غدا بعز الملك لكنه أهون مملوك على الأرض راح

جاؤوا به يمرح فى عزه و هم أزالوا عنه ذاك المراح

توقّعوا فى القرب منه الردى من صحبة الأجرب يخشى الصّحاح

فأسرعوا نحوك يبغون ما عوّدتهم من عطفة و التماح

فغادروه جانيا غدره لطائر البين عليه نياح

فالحمد للّه على كل ما سنّى لك السعد برغم اللواح

مثلك لا ينفد ما شاده فلست تأتى الدهر إلّا صلاح

لا زلت فى عز و فى مكنة و فى سرور دائم و انفساح

قال: و قلت بنيونش موضع الفرجة بسبتة: [بحر مجزوء الكامل]

اشرب على بنيونش بين السوانى و البطاح

مع فتية مثل النجو م لهم إذا مروا جماح

ساقيهم متبذل لا يمنع الماء القراح

كل يمد يمينه ما فى الذى يأتى جناح

هبّوا عليه كلما هبت على الروض الرياح

طوع الأمانى كل ما يأتى به فهو اقتراح

عانقته حتى تركت بخصره أثر الوشاح

و قلت بإشبيلية: [بحر مخلع البسيط]

أوجه صبح أم الصباح و لحظها أم ظبا الصفاح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۱

و ثغرها أم نظيم در و ريقها أم سلاف راح

و قدّها أم قوام غصن و عرفها أم شذا البطاح

يا حبذا زورة تأتت منها على غفلة اللواح

فلم أصدق بها سرورا و ظلت نشوان دون راح

أما منعت السلام دهرا و لا رسول سوى الرياح

قالت ألا فانس ما تقضّى فمن يدع ما مضى استراح

يا حبذاها و قد تأتّت من دون وعد و لا اقتراح

زارت و من نورها دليل و الليل قد أسبل الجناح

أخفت سراها فباح نشر لها بعرف فشا وفاح

و افت فأمسى فمى مداما و ساعداى لها و شاح

كأنما بتّ بين روض و الغصن و الورد و الأقاح

فبينما الشمل فى انتظام إذ سمعت داعى الفلاح

فغادرتنى فقلت غدرا؟ قالت أما تحذر افتضاح

ولّت و ما خلت من صباح يبدو على إثره صباح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۴۳۱

ل: و قلت بتونس: [بحر السريع]

لا مرحبا بالتين لما بدا يسحب من ليل عليه الوشاح

ممزق الجلباب يحكى ضحى هامة زنجى عليها جراح

و إن تصحّفه فلا حبذا ما قد أتى تصحيفه بانتزاح

و قلت بالجزيرة الخضراء، و قد كلّفت ذلك: [بحر الطويل]

غرامى بأقوال العدا كيف ينسخ و عهدى و قد أحكمته كيف يفسخ

كلامكم لا يدخل السمع نصحه و لكن إذا حرضتم فهو يرسخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۲

و بى بدر تمّ قد ذللت لحسنه فمن ذا الذى فيما أتيت يوبخ؟

إذا خاصمونى فى هواه خصمتهم و يبغون تنقيصى بذاك فأشمخ

أرى أن لى فضلا على كل عاشق فقصتنا فى الدهر مما يؤرخ

فما بشر مثل له فى جماله و وجدى به فى العشق ليس له أخ

و قلت بالإسكندرية، و قد تعذّر على الحج عند وصولى إليها سنة تسع و ثلاثين و ستمائة:

[بحر الكامل]

قرب المزار و لا زمان يسعد كم ذا أقرّب ما أراه يبعد

وا رحمة لمتيّم ذى غربة و مع التغرّب فاته ما يقصد

قد سار من أقصى المغارب قاصدا من لذّ فيه مسيره إذ يجهد

فلكم بحار مع فقار جبتها تلقى بها الصمصام ذعرا يرعد

كابدتها عربا و روما، ليتنى إذ جزت صعب صراطها لا أطرد

يا سائرين ليثرب بلّغتم قد عاقنى عنها الزمان الأنكد

أعلمتم أن طرت دون محلها سبقا وها أنا إذ تدانى مقعد

يا عاذلى فيما أكابد قلّ فى ما أبتغيه صبابة و تسهد

لم تلق ما لقيته فعذلتنى لا يعذر المشتاق إلا مكمد

لو كنت تعلم ما أروم دنوّه ما كنت فى هذا الغرام تفنّد

لا طاب عيشى أو أحل بطيبة أفق به خير الأنام محمد

صلّى عليه من براه خيرة من خلقه فهو الجميع المفرد

يا ليتنى بلغت لثم ترابه فيزاد سعدا من بنعمى يسعد

فهناك لو أعطى منای محلة من دونها حل السّها و الفرقد

عينى شكت رمدا و أنت شفاؤها من دائها ذاك الثرى لا الإثمد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۳

يا خير خلق اللّه مهما غبت عن عليا مشاهدها فقلبى يشهد

ما باختيار القلب يترك جسمه غير الزمان له بذلك تشهد

يا جنة الخلد التى قد جئتها من دون بابك للجحيم توقد

صرم التواصل ذبّل و صوارم ما للجليد على تقحّمها يد

فلئن حرمت بلوغ ما أملته فلدىّ ذكرى لا تزال تردد

فلتنعشوا منى الذّماء بذكره ما دمت عن تلك المعالم أبعد

لو لاه ما بقيت حياتى ساعة هو لى إذا مت اشتياقا مولد

ذكر يليه من الثناء سحائب أبدا على مرّ الزمان يجدّد

من ذا الذى نرجوه لليوم الذى يقصى الظماء به و يحمى المورد

يا لهف من وافى هناك و ما له من حبه ذخر به يتزود

ما أرتجى عملا و لكن أرتجى ثقتى به و لحسب من يتزود

ما صحّ إيمان خلا من حبه أبلا رياش يستعدّ مهنّد؟!

عن ذكره لا حلت عنه لحظة و مديحه فى كل حفل أسرد

يا ما دحى يبغى ثوابا زائلا فثواب مدحى فى الجنان أخلّد

لو لا رسول اللّه لم ندر الهدى و به غدا نرجو النّجاة و نسعد

يا رحمة للعالمين بعثت و الدنى ا بجنح الكفر ليل أربد

أطلعت صبحا ساطعا فهديت للإيم ان إلّا من يحيد و يجحد

لم تخش فى مولاك لومة لائم حتى أقر به الكفور الملحد

و نصرت دين اللّه غير محاذر و دعوت فى الأخرى الألى قد أصعدوا

و لقيت من حرب الأعادى شدّة لو كابدوها ساعة لتبدّدوا

أيّان لا أحد عليهم عاضد إلا الإله و لم يخن من يعضد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۴

فحماك بالغار الذى هو من أدلّ المعجزات و خاب من يترصّد

و وقاك من سمّ الذراع بلطفه كيما يغاظ بك العدا و الحسّد

و الجذع حنّ إليك و الماء انهمى ما بين خمسك و الصحابة شهّد

و الذئب أنطق للذى أضحى به يهدى إلى سبل النجاح و يرشد

و بليلة الإسرا حباك و سمى الص دّيق من أضحى لقولك يسعد

و حباك بالخلق العظيم و معجز الك لم الذى يهدى به إذ يورد

و بعثت بالقرآن غير معارض فيه و أمسى من نحاه يعرّد

فتوالت الأحقاب و هو مبرّأ من أن يكون له مثال يوجد

و لكم بليغ جال فصل خطابه و السرج فى ضوء الغزالة تمهد

زويت لك الأرض التى لا زال حتى الحشر ربك فى ذراها يعبد

و نصرت بالرعب الذى لما يزل يترى كأن ما عين شخصك تفقد

فمتى تعرّض طاعن أو حاد عن حرم الهداية فالحسام مجرد

يا من تخيّر من ذؤابة هاشم نعم الفخار لها و نعم المحتد

لسناك حين بدا بآدم أقبلت رعيا لأخراه الملائك تسجد

لم أستطع حصرا لما أعطيته فذكرت بعضا و اعتذارى منشد

ما ذا أقول إذا و صفت محمدا نفد الكلام و وصفه لا ينفد

فعليك يا خير الخلائق كلها منى التحية و السلام السرمد

قال: و قلت بإشبيلية: [الرجز]

هل تمنع النهود ما أبدت الخدود

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۵

نعم و كم طعين بطعنها شهيد

يا ربّة المحيا حفت به السعود

لم تسكر الحميا بل ريقك البرود

للّه يا عذولى ما تكتم البرود

ما زلت فيه أفنى و الوجد مستزيد

يا هل ترى زمانا مضى لنا يعود

لدى الغروس سقّت جنابها العهود

حيث الغصون مالت كأنها قدود

و زهرها نظيم كأنه عقود

حمامها تغنى أعطافها تميد

و بالنسيم شقّت لنهرها برود

فروعه سيوف و سوره بنود

هناك كم دعتنى إلى الورود رود

فنلت كل سؤل يفنى به الحسود

قضيت فيه عيشا ما بعده مزيد

أضحى به و أمسى مرنحا أميد

كأننى يزيد كأننى الوليد

يجرى الزمان طوعى بكل ما أريد

الخمر ملّكتنى فالخلق لى عبيد

يحق لى إذا ما أبصرتها تجود

فها أنا إذا ما فقدتها فقيد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۶

يا من يلوم بغيا العذل لا يفيد

إذا عدمت كأسى فليس لى وجود

قال: و قلت بإشبيلية: [بحر الكامل]

أو ما نظرت إلى الحمامة تنشد و الغصن من طرب بها يتأوّد

و نثاره تلقاه جائزة لها لما يزل بيد النسيم يبدد

ألقى عليها الطل بردا سابغا فثناؤه طول الزمان يردد

أ ترى الحمامة من محبّ مخلص أولى بشكر حين تغمره يد

فلأثنين عليك ما أثنى بأع لى الغصن حنّان الهديل مغرد

كم نعمة لى فى جنابك؟ كم أكا بد جهدها؟ أيان برك يجهد؟

و قال: [بحر الطويل]

أرى العين منى تحسد الأذن كلما جرت مدحة للعلم و الفضل و المجد

أحقق أنباء و لم أر صورة كتحقيقى الأخبار عن جنة الخلد

فمنّ على عينى بلقياك إننى أخذت لها أمنا بذاك من السهد

قال: و قلت أمدح ابن عمى و أشكره، على ما أذكره: [بحر الخفيف]

آه مما تكنّ فيك الجوانح و دموعى على نواك سوافح

و اشتفاء من العدوّ ببين كدّر العيش، أىّ عيش لنازح؟

يا أتم الأنام حسنا أما تحس ن حتى يتمّ إطراء مادح

يا زمان الوصال عودا فإنى طوّحت بى لما غدرت الطوائح

أين عيش العروس إذ يبطح الس كر حبيبى ما بين تلك الأباطح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۷

و الأمانى تترى و لا أحد ين صح إذ لا يصغى إلى قول ناصح

و زمان السرور سمح مطيع و رسول الحبيب غاد و رائح

و لكم ليلة أتانى بلا طى ب و لكن يزرى بأذكى الروائح

هو ظبى فليس يحتاج طيبا قد كفاه عرف من المسك فائح

مثل عليا محمد لم تكن كس با و ما لا يكون فى الطبع فاضح

يا كريما أتى من الجود مالا كان يدرى فأوجدته المدائح

و علا كل ذى علاء و أضحى نحو ما لا يرومه الناس طامح

قد أتانى إحسانك الغمر فى إث ر سواه فكنت أكمل مادح

فاض بحر النوال منك و لا سا حل يبدو و لم أزل فيه سابح

حلل مثل ما كسوتك فى المد ح تميت العدا و مال و سائح

أورد الورد منطقى كلّ شكر حين أضحى طوع البنان مسامح

لون خد الحبيب حين كسوه حلة الحسن بالعيون اللوامح

شفق سال بين عينيه صبح حسنه قيّد اللحاظ السوارح

لم أجد فيه من جماح و لكنّ ثنائى عليك ما زال جامح

لك يا ابن الحسين ذكر جميل صير الكل نحو بابك جانح

قد هدى نحوك الثناء كما يه دى إلى الروض باسمات النوافح

فاعذر الناس أن أتوا لك أفوا جا فكلّ بقصد فضلك رابح

ما هدتهم إليك إلا الأمانى لم تحلهم إلا عليك القرائح

قل لذى المفخر الحديث تأخّر ليس مهر فى شأوه مثل قارح

أى أصل و أى فرع أقاما شرفا ظلّ للنجوم يناطح

قد حوت مذحج من الفجر لما كنت منها ما ليس يحويه شارح

أفق مجد قد زانه منك بدر فى ظلام الخطوب ما زال لائح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۸

بدر تم حفت به هالة من بيت مجد علاؤها الدهر واضح

يا سماكا بمسكه القلم الأع لى بدا بين أنجم الملك رامح

رفع اللّه للكتابة قدرا بعد ما كابدت توالى الفضائح

يا أعزّ الأنام نفسا و أعلا هم محلّا لا زال أمرك راجح

أين أعداؤك الذين رعى سى فك فيهم فأشبهوا قوم صالح

أفسد الدهر حالهم ليرى حا لك رغما بمن يناويك صالح

دمت فى عزة و سعد مدى الده ر و لا زال طائر منك سانح

و ابن عمه المذكور قال فى حقه فى «المغرب» ما ملخصه: إنه الرئيس الأعلى، ذو الفضائل الجمة، أبو عبد اللّه محمد بن الحسين بن أبى الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف بن سعيد، قال: و اجتماع نسبنا مع هذا الرئيس فى سعيد بن خلف، و هو الآن قد اشتمل عليه ملك إفريقية اشتمال المقلة على إنسانها، و قدمه فى مهماته تقديم الصّعدة لسنانها، و أقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس، و اعتزل فيها بعسكر الأندلس الذين صيّرهم الملك المنصور إلى نظره، و هو كما قال الفتح صاحب القلائد «فقد جاء آخرهم، فجدد مفاخرهم» و من نظمه و قد نزل على من قدم له مشروبا أسود اللون غليظا و خروبا و زبيبا [أسود، و زبيبا] كثير الغصون جاءت به عجوز فى طبق، فقال: [بحر المتقارب]

و يوم نزلنا بعبد العزيز فلا قدس اللّه عبد العزيز

سقانا شرابا كلون الهناء و نقّلنا بقرون العنوز

و جاءت عجوز فأهدت لنا زبيبا كخيلان خدّ العجوز

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۳۹

و نزل السلطان أبو يحيى فى بعض حركاته لموضع فيه نهر، و على شطه نور، فقال الرئيس أبو عبد اللّه بن الحسين يصفه أو أمر بذلك: [بحر الطويل]

و نهر يرفّ الزهر فى جنباته و يثنى النسيم قضبه و يقنطر

يسيل كما عنّ الصباح بأفقه و إلا كما شيم الحسام المجوهر

عليه ليحيى قبة، هل سمعتم بقرصه شمس حل فيها غضنفر؟

فإن قلت هذى قبة لعفاتها فقل ذلك الوادى الذى سال كوثر

و قال أبو عمرو أحمد بن مالك بن سعيد المير اللخمى النشابى فى ذلك: [بحر الطويل]

و أرض من الحصباء بيضاء قد جرت جداول ماء دونها تتفجر

كما سبحت تبغى الحياة أراقم على روضة فيها الأقاح المنوّر

و إلا كما شقّت سبائك فضة بساطا على حافاته الدر ينثر

و قال أبو على يونس: [بحر البسيط]

انظر إلى منظر يسبيك منظره و يزدهيك بإذن اللّه مخبره

و معجب معجب لا شىء يشبهه خرير ماء نمير ثمّ منهره

كأنما فرشت بالدر صفحته فالماء ينظمه طورا و ينثره

كأن خلجانه قدّت على قدر بمائها قسم يجرى مفجّره

أحلّ سيدنا المأمون قبته بحوزه فغدا يزدان جعفره

رجع إلى ما كنا فيه من أخبار الرئيس ابن الحسين، فنقول:

رأيت بالمغرب آخر كتاب «روح السحر» من نسخة ملوكية كتبت له أبياتا علق بحفظى منها الآن ما نصه: [بحر الرمل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۰

تمّ روح السّحر نسحا فأتى مصحبا باليمن و الفخر البعيد

لأبى عبد الإله المرتقى فى ذرا المجد الرئيس ابن سعيد

و لم أحفظ تمام الأبيات:

و قال أبو الحسن على بن سعيد: كتبت إليه من أبيات بحضرة تونس و قد نقل إليه بعض الحساد ما أوجب تغيره: [بحر الطويل]

و من بعد هذا قد أتيت بزلّة أما حسن أن لا تضيق بها صدرا

و علمك حسبى بالأمور فإننى عهدتك تدرى سر أمرى و الجهرا

و قد أصلح اللّه الأمور بسعيكم و نيتكم صلحا على البشر و البشرى

و لم يبق لى إلا رضاك فإن به كتبت و لو حرفا أطبت به العمرا

فبقّيت كهفا للجميع و موئلا و لا زلت ما دام الزمان لنا سترا

فكتب إلى هذه الأبيات، و كان متمرضا، و بعث إلى بما يذكر: [بحر الطويل]

أكفّ الصبا حفت جنى زهر الربا سؤالك عن مضنى يسامى بك الزهرا

بعثت بمثل الزهر فى مثل صفحة لذلك ما قلدتها الشذر و الدرا

معان لها أعنو و أعنى بها فكم وقفت عليها العين و السمع و الفكرا

فلو عرضت للبحر لم يلفظ الدرا و لو عارضت هاروت لم ينفث السحرا

أبا حسن هنئت ما قد منحته ضروبا من الآداب تحلى بها الدهرا

و دونك بحرا من ودادى تلاطمت به زاخرات المدّ لا يعرف الجزرا

فإن خطرت فى جانب منك هفوة فلا تحسبن أنى أضيق بها صدرا

يزلّ الجواد عند ما يبلغ المدى و يعثر بالرّمث النسيم إذا أسرى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۱

فدع ذا و خذها شائبات قرونها عروبا لعوبا جائزا حكمها بكرا

و لو غادرت أوصافها متردّما لشنفت من أشعارها أذن الشعرا

ألا فاحجبنها عن صديق معمم فإن قصارى العمر أن يبكى العمرا

و من كان ذا حجر و نبل ورقة فلا يخلون إلا على الخمرة الحمرا

قرنت بها صفراء لم تعرف الهوى و لا ألفت وصلا و لا عرفت هجرا

و لا ضمّخت نضخ العبير و إن غدت تؤخره لونا و تفضحه نشرا

فإن خلتها بنت الظليم أظلها فقد فرش الإذخر من تحتها تبرا

لها نسب بين الثريا أو الثرى و سل برباها المزن و الغصن النضرا

فشربا دهاقا و انتشاقا و لا ترم عن البيت فترا أو تقيم به شهرا

و له فى الخشكلان: [بحر المجتث]

هو الأهلّة لكن تدعونه خشكلانا

فإن تفاءلت صحف تجد حبيبك لانا

انتهى باختصار.

و حظى المذكور جدّا عند السلطان ملك إفريقية أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص، و لما مات السلطان المذكور، و حدثت فتنة بموته و اختلاف، ثم استقرت الدولة لابنه الشهير الكبير القدر أبى عبد اللّه المستنصر ممدوح حازم بالمقصورة، و قاتل ابن

الأبار القضاعى- سخط على الرئيس ابن الحسين المذكور، و قبض على دياره و أمواله، و صيره كالمحبوس، فكتب إليه رقعة يطلب الاجتماع به فى مصلحة للدولة، فأحضره، و سأله فأخبره بأن أباه صنع دارا عظيمة تحت الأرض، و أودع فيها من أنواع المال و السلاح ما جعله عدّة و ذخيرة لسلطانه، و لم يترك على وجه الأرض من له علم بهذا الموضع الذى أودعه نفائس أمواله غيرى، و أوصانى أنه إذا انتقل إلى جوار به، إذ توقع أن تقع فتنة بين أقاربه، أنه إذا انقضت سنة و استقر الأمر لأحد من ولدى أو من يتيقن أنه يصلح لأمور المسلمين، فأطلعه على هذه الذخائر، فربما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۲

فنيت الأموال بالفتنة، فلا يجد القائم بالأمر ما يصلح به الدولة إذا تفرغ للتدبير و السياسة، ففرح السلطان، و بادر إلى تلك الدار، فرأى ما ملأ عينه، و سر قلبه، و خرج الرئيس ابن الحسين و الخيل تجنب أمامه، و بدر الأموال بين يديه، و أعاده إلى أحسن أحواله، و جعله وزيرا لديه، كما كان أبوه مفوضا أموره إليه، و قال السلطان: إن من أوجب شكر اللّه على أن أفتتح المال بأن أؤدى منه للرعية الذين نهبت دورهم و احترقت فى الفتنة التى كانت بينى و بين أقاربى ما خسروه، و أمر بالنداء فيهم، و أحضرهم و كل من حلف على شىء قبضه و انصرف.

و كان السلطان المستنصر المذكور فى بعض متصيداته فكتب لأبى عبد اللّه الرئيس المذكور يأمره بإحضار الأجناد لأخذ أرزاقهم بقوله: [بحر الوافر]

ليحضر كلّ ليث ذى منال زكا فرعا لإسداء النّوال

غدا يوم الخميس فما شغلنا بأسد الوحش عن أسد الرجال

و حكى أن السلطان المذكور عرض مرة أجناده، و قيل: بل سلم عليه الموحدون يوم عيد بتونس، و فيهم شاب [مليح] و سيم اسم جده النعمان، فسأله السلطان عن اسمه، و أعجبه حسنه، فخجل و احمر وجهه، و ازداد حسنا، فقال السلطان هذا المصراع: [بحر الكامل]

كلّمته فكلمت صفحة خدّه

و سأل من الحاضرين الإجازة، فلم يأتوا بشىء، فقال السلطان مجيزا شطره:

فتفتحت فيها شقائق جده و هذا من البديع مع ما فيه من التورية و التجنيس.

و مما نسبه له أبو حيان بسنده إليه: [بحر الكامل]

ما لى عليك سوى الدّموع معين إن كنت تغدر فى الهوى و تخون

من منجدى غير الدموع و إنها لمغيثة مهما استغاث حزين

اللّه يعلم أن ما حملتنى صعب و لكن فى رضاك يهون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۳

و كان للسلطان المذكور سعد يضرب به المثل، حتى إنه كتب له صاحب مكة البيعة من إنشاء ابن سبعين المتصوف، كما ذكر ذلك ابن خلدون فى تاريخه الكبير، و سرد نصها، و هى من الغرائب.

و من سعده أن الفرنسيس الذى كان أسر بمصر و جعل فى دار ابن لقمان و الطواشى صبيح يحرسه لما سرّح جاء من أمم النصرانية لبلاد المسلمين بما لم يجتمع قط مثله، حتى قيل: إنهم كانوا ألف ألف، فكتب إليه أهل مصر من نظم ابن مطروح القصيدة المشهورة التى منها: [بحر السريع]

قل للفرنسيس إذا جئته مقالة من ذى لسان فصيح

إلى أن قال: [بحر السريع]

دار ابن لقمان على حالها و مصر مصر و الطّواشى صبيح

و القصيدة مشهورة فلذلك لم أسردها، فصرف الفرنسيس جيوشه إلى تونس، فكتب إليه بعض أدباء دولة المستنصر: [بحر الخفيف]

أفرنسيس، تونس أخت مصر فتأهّب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر و طواشيك منكر و نكير

فقضى اللّه سبحانه و تعالى أنه مات فى حركته لتونس، و غنم المستنصر غنيمة ما سمع بمثلها قط، و يقال: إنه دس إليه سيفا مسموما من سلّه أثر فيه سمه، و قلده رسولا إليه بعد أن جعل عليه من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره، و قال للرسول: إن الفرنسيس رجل كثير الطمع، و لو لا ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره، و إنه سيرى السيف، و يكثر النظر إليه، فإذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك و قبله، و قل له: هذا هدية منى إليك، لأن من آدابنا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه و عاود النظر إليه بالقصد فلا بد أن يكون له، و يحرم علينا أن نمسكه، لأن ما أحبه المولى على العبيد حرام، و تكراره النظر إليه دليل على حبه له، ففرح النصرانى بذلك، و أسرع الرسول العود إلى سلطانه، فسلّ النصرانىّ السيف، فتمكن فيه السم بالنظر، فمات فى الحين، و فرّج اللّه تعالى عن المسلمين.

رجع إلى أخبار أبى الحسن على بن سعيد:

قال ابن العديم فى تاريخ حلب: أنشدنى شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۴

التيفاشى بالقاهرة فى أبى الحسن على بن موسى بن سعيد الغرناطى يشير إلى كتاب أبى الحسن الذى جمعه فى محاسن المغرب و سماه «المغرب»: [بحر الخفيف]

سعد الغرب و ازدهى الشرق عجبا و ابتهاجا بمغرب ابن سعيد

طلعت شمسه من الغرب تجلى فأقامت قيامة التقييد

لم يدع للمؤرّخين مقالا لا و لا للرواة بيت نشيد

إن تلاه على الحمام تغنّت ما على ذا فى حسنه من مزيد

و أنشد [نى] أبو العباس التّيفاشى لنفسه فيه: [بحر البسيط]

يا طيب الأصل و الفرع الزكى كما يبدو جنى ثمر من أطيب الشجر

و من خلائقه مثل النسيم إذا يهفو على الزهر حول النهر فى السحر

و من محيّاه و اللّه الشهيد إذا يبدو إلى بصرى أبهى من القمر

أثقلت ظهرى ببر لا أقوم به لو كنت أتلوه قرآنا مع السور

أهديت لى الغرب مجموعا بعالمه فى قاب قوسين بين السمع و البصر

كأننى الآن قد شاهدت أجمعه بكل من فيه من بدو و من حضر

نعم و لاقيت أهل الفضل كلهم فى مدّتى هذه و الأعصر الأخر

إن كنت لم أرهم فى الصدر من عمرى فقد رددت علىّ الصدر من عمرى

و كنت لى واحدا فيهم جميعهم ما يعجز اللّه جمع الخلق فى بشر

جزيت أفضل ما يجزى به بشر مفيد عمر جديد الفضل مبتكر

و من نظم أبى الحسن بن سعيد قوله: [بحر الكامل]

و عشيّة بلغت بنا أيدى النوى منها محاسن جامعات للنّخب

فحدائق ما بينهن جداول و بلابل فوق الغصون لها طرب

و النخل أمثال العرائس لبسها خز و حليتها قلائد من ذهب

و من نظمه رحمه اللّه تعالى فى حلب قوله: [بحر الخفيف]

حادى العيس كم تنيخ المطايا سق فروحى من بعدهم فى سياق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۵

حلب إنها مقر غرامى و مرامى و قبلة الأشواق

لا خلا جوسق و بطياس و السع داء من كل وابل غيداق

كم بها مرتع لطرف و قلب فيه يسقى المنى بكأس دهاق

و تغنّى طيوره لارتياح و تثنّى غصونه للعناق

و علوّ الشهباء حيث استدارت أنجم الأفق حولها كالنطاق

و قوله أيضا فى حماة: [بحر الطويل]

حمى اللّه من شطّى حماة مناظرا وقفت عليها السمع و الفكر و الطّرفا

تغنى حمام أو تميل خمائل و تزهى مبان تمنح الواصف الوصفا

تغنى أن أعصى التّصوّن و النهى بها و أطيع الكأس و اللهو و القصفا

إذا كان فيها النهر عاص فكيف لا أحاكيه عصيانا و أشربها صرفا

و أشدو لدى تلك النواعير شدوها و أغلبها رقصا و أشبهها غرفا

تئن و تذرى دمعها فكأنها تهيم بمرآها و تسألها العطفا

و قوله فى وداع ابن عمه و كتب بهما إليه: [بحر الطويل]

وداع كما ودّعت فصل ربيع يفضّ ضلوعى أو يفيض دموعى

لئن قيل فى بعض يفارق بعضه فإنى قد فارقت منك جميعى

قال: فأرسل إلى إحسانا، و اعتذر و لسان الحال ينشد عنه: [بحر الوافر]

أحبّك فى البتول و فى أبيها و لكنّى أحبّك من بعيد

و قوله، و قد أفلت المركب الذى كان فيه من العدو: [بحر الرجز]

انظر إلى مركبنا منقذا من العدا من بعد إحراز

أفلت منهم فغدا طائرا كطائر أفلت من بازى

و قال رحمه اللّه تعالى لما خرج من حدود إفريقية: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۶

رفيقى جاوزنا حدود مواطن صحبنا بها الأيام طلقا محيّاها

و ما إن تركناها لجهل بقدرها و لكن ثنت عنا أعنّة سقياها

فسرنا نحثّ السير عنها لغيرها إلى أن يمنّ اللّه يوما بلقياها

و كان وصوله الإسكندرية فى السابع و العشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع و ثلاثين و ستمائة.

و قال رحمه اللّه تعالى: أخذت مع والدى يوما فى اختلاف مذاهب الناس، و أنهم لا يسلمون لأحد فى اختياره، فقال: متى أردت أن يسلم لك أحد فى هذا التأليف- أعنى المغرب- و لا يعترض أتعبت نفسك باطلا، و طلبت غاية لا تدرك، و أنا أضرب لك مثلا: يحكى أن رجلا من عقلاء الناس كان له ولد، فقال له يوما: يا أبى، ما للناس ينتقدون عليك أشياء و أنت عاقل؟ و لو سعيت فى

مجانبتها سلمت من نقدهم، فقال: يا بنى، إنك غرّ لم تجرّب الأمور، و إن رضا الناس غاية لا تدرك، و أنا أوقفك على حقيقة ذلك، و كان عنده حمار، فقال له: اركب هذا الحمار و أنا أتبعك ماشيا، فبينما هو كذلك إذ قال رجل: انظر، ما أقلّ هذا الغلام بأدب! يركب و يمشى أبوه، و انظر ما أشد تخلف والده لكونه يتركه لهذا، فقال له: انزل أركب أنا و امش أنت خلفى، فقال شخص آخر: انظر هذا الشخص، ما أقلّه بشفقة! ركب و ترك ابنه يمشى، فقال له: اركب معى، فقال شخص: أشقاهما اللّه تعالى! انظر كيف ركبا على الحمار، و كان فى واحد منهما كفاية، فقال له: انزل بنا، و قدّماه و ليس عليه راكب، فقال شخص: لا خفّف اللّه تعالى عنهما! انظر كيف تركا الحمار فارغا و جعلا يمشيان خلفه، فقال: يا بنى، سمعت كلامهم، و علمت أن أحدا لا يسلم من اعتراض الناس على أى حالة كان، انتهى.

و قال فى أثناء خطبة المغرب ما نصه: الحمد للّه الذى جعل الأدب أفضل ما اكتسب، و أفضل ما انتخب، إذ هو ذخر لا يخاف كساده، و كنز لا يخشى انتقاصه و إن كثر مرتاده، و للّه درّ القائل: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۷

رأيت جميع الكسب يفقده الفتى و تبقى له أخلاقه و التأدّب

إذا حل فى أرض أقام لنفسه بآدابه قدرا به يتكسّب

و أومأ كلّ نحوه، و لعله إلى غير أهل للنباهة ينسب

و قال فى أثناء الكلام لبعض المغاربة: [الطويل]

فأثبتّ فى كل المواطن همّة إلى طلب العلم الذى كان مطّرح

و صيّرت من قد كان بالنظم جاهلا يحاوله كيما تجود لك المدح

و قال أيضا فى الخطبة: و بعد، فهذا كتاب راحة قد تعبت فى جمعه الأسماع و الأبصار و الأفكار، و كل عناء سهل إذا أنجح القصد، و قد بدأ فيه من سنة ثلاثين و خمسمائة، و منتهاه إلى غرة سنة إحدى و أربعين و ستمائة، و أول من كان السبب فى ابتداء هذا الكتاب جدّ والدى عبد الملك بن سعيد، و هو إذ ذاك صاحب قلعة بنى سعيد تحت طاعة على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر، إلى أن استبدّ بها سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة، و قصده فى سنة ثلاثين و خمسمائة حافظ الأندلس أبو محمد عبد اللّه بن إبراهيم بن الحجارى و صنف له كتاب «المسهب، فى غرائب المغرب» فى نحو ستة أسفار، و ابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذى ابتدأه فيه، و هو سنة ثلاثين و خمسمائة، ثم ثار فى خاطر عبد الملك أن يضيف إليه ما أغفله الحجارى، و تولع بمطالعته ابناه أبو جعفر و محمد، و أضافا له ما استفاداه، و لم يزل يزيد إلى أن استبدّ به محمد، فاعتنى به أشد اعتناء، ثم استبد به والدى- و كان أعلمهم بهذا الشأن- و بلغ من اجتهاده فى هذا الكتاب أننى أذكره يوما و قد نوّه به ابن هود و هو ملك الأندلس و ولّاه الجزيرة الخضراء، فأعلمه شخص أن عند أحد المنسوبين إلى بيت نباهة كراريس من شعر شعرائها، و أخبار رؤسائها، الذين تحتوى عليهم دولة بنى عبد المؤمن، فأرسل إليه راغبا فى استعارتها، فأبى، و قال: على يمين أن لا تخرج عن منزلى، و قال: إن كانت له حاجة يأتى على رأسه، و كان جاهلا، فلما سمع والدى ضحك فقال لى: سر معى إليه، فقلت له: و من يكون هذا حتى نمشى له على هذه الصورة؟ فقال: إنى لا أمشى له، و لكن أمشى للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم و أخبارهم، أ تراهم لو كانوا أحياء مجتمعين فى موضع أنفت أن أمشى إليهم؟ قلت: لا، قال: فإن الأثر ينوب عن العين، فمشينا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۴۸

إلى منزل الرجل، فو اللّه ما أنصفنا فى اللقاء، فلما قضينا منها الغرض صرفها إليه والدى، و شكره، و قال: هذه فائدة لم أجدها عند غيرك، فجزاك اللّه تعالى خيرا! ثم انفصل و قال: أ لم تعلم يا بنى أننى سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية، و إن هذا و اللّه أوّل السعادة، و عنوان نجاحها.

و القلعة التى كان بها بنو سعيد تعرف بهم فيقال لها: قلعة بنى سعيد، و كانت تعرف قبل بقلعة أسطلير، و هو عين لها، و قال الملّاحى فى تاريخه: إنها تعرف بقلعة يحصب، قبيل: من اليمن نزل بها عند فتح الأندلس، و بها كما مر صنف الحجارى كتاب «المسهب» لصاحبها عبد الملك بن سعيد.

و فى بنى سعيد يقول الحجارى: [بحر مجزوء الكامل]

قوم لهم فى فخرهم شرف الحديث مع القديم

و رثوا الندى و البأس و ال عليا كريما عن كريم

من كلّ وضّاح به يجلى دجى الليل البهيم

و كان أوّل من دخل الأندلس من ولد عمار بن ياسر رضى اللّه تعالى عنه عبد اللّه بن سعد بن عمار، و قد ذكره ابن حيان فى مقتبسه، و أخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى صاحب الأندلس آخر دولة بنى أمية بالمشرق كتب إليه أن يدافع عبد الرحمن بن معاوية المروانى الداخل للأندلس، و كان إذ ذاك أميرا على اليمانية من جند دمشق، و إنما ركن إليه فى محاربه عبد الرحمن لما بين بنى عمار و بين بنى أمية من الثأر بسبب قتل عمّار بصفّين على يد عسكر معاوية رضى اللّه تعالى عنه، و كان عمار من شيعة على رضى اللّه تعالى عنهما.

و قال الحجارى: أنشدنى أبو بكر محمد بن سعيد صاحب أعمال غرناطة فى مدة الملثّمين لنفسه، فيما يليق بجنسه: [بحر مخلع البسيط]

إن لم أكن للعلاء أهلا بما تراه فمن يكون

و كل ما أبتغيه دونى ولى على همتى ديون

و من يرم ما يقلّ عنه فذاك من فعله جنون

فرع بأفق السماء سام و أصله راسخ مكين

و من نظمه قوله أيضا: [المجتث]

اللّه يعلم أنى أحبّ كسب المعالى

و إنما أتوانى عنها لسوء المآل

تحتاج للكد و البذ ل و اصطناع الرجال

دع كل من شاء يسمو لها بكل احتيال

فحالهم بانعكاس فيها و حالى حالى

و لما ذكر ابن سعيد فى «المغرب» ترجمة الكاتب الرئيس المجيد أبى العباس أحمد الغسانى كاتب ملك إفريقية قال: بماذا أصفه؟ و لو أن النجوم تصير لى نثرا لما كنت أنصفه، و كفاك أنى اختبرت الفضلاء من البحر المحيط إلى حضرة القاهرة، فما رأيت أحسن و لا أفضل عشرة منه، و لما فارقته لم أشعر إلا برسالته قد وافتنى بالإسكندرية من تونس، و فيها قصيدة فريدة منها: [بحر الكامل]

إيه أبا الحسن استمع شدوى فقد يصغى الحمام إذا الحمام ترنّما

ثم سرد بعضا من القصيدة، و ستأتى قريبا إن شاء اللّه تعالى، بزيادة على ما ذكر منها فى المغرب.

رجع- وجد بخطه رحمه اللّه تعالى آخر الجزء من كتاب «المغرب» ما نصه: أجزت الشيخ القاضى الأجلّ أبا الفضل أحمد ابن الشيخ القاضى أبى يعقوب التّيفاشى، أن يروى عن مصنّفى هذا، و هو «المغرب، فى محاسن المغرب» و يرويه من شاء ثقة بفهمه، و استنامة إلى علمه، و كذلك أجزت لفتاه النبيه جمال الدين أبى عبد اللّه محمد بن أبى بكر بن خطلخ الفارسى الأرموى أن يرويه عنى، و يرويه من شاء، و كتبه مصنفه على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد فى تاريخ الفراغ من نسخ هذا السّفر، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۰

و قال فى وسيم من أبناء العجم صحبه فى الطريق من حلب إلى بغداد فمات، و كان ظريفا أديبا: [بحر مجزوء الكامل]

لهفى على غصن ذوى أفقدته لما استوى

ريّان من ماء الصبا و من المدامع ما ارتوى

لا تعذلونى إن نطق ت الدهر فيه عن الهوى

كم ضل صاحبه بسح ر اللحظ منه و كم غوى

أنا لا أفيق الدهر فى ه من الصبابة و الجوى

إن الهوى حيّا و ميت ا لا يزال به سوى

كم قد نويت به النعى م فقدّر اللّه النوى

دار السلام حويت من كلّ المحاسن قد حوى

مجموع حسن قد توى فى جنة و بها ثوى

و ولد أبو الحسن على بن موسى بن محمد يوم الثلاثاء الثانى و العشرين من شهر رمضان عام عشرة و ستمائة، و هو على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد اللّه بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد اللّه بن سعيد بن عمار بن ياسر، رضى اللّه تعالى عنه! و قال فى «المغرب» لما عرف بوالده الكاتب الشهير أبى عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، ما ملخصه: لو لا أنه والدى لأطنبت فى ذكره، و وفيته من الوصف حق قدره، لكن كفاه وصفا ما أثبتّ له فى هذه الترجمة، و ما مر له و يمر فى أثناء هذا الكتاب، و كون كل من اشتغل بهذا التأليف نهرا و هو بحر، و اشتهاره فى حفظه التاريخ و الاعتناء بالآداب فى بلاده، بحيث لا يحتاج إلى تنبيه و لا إطناب، و له من النظم و النثر ما تضج الأقلام من كثرته، و يستمد القطر من درّته، و مما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۱

شاهدت من عجائبه أنه عاش سبعا و ستين سنة و لم أره يوما تخلى عن مطالعة كتاب أو كتب ما يخلده، حتى إن أيام الأعياد لا يخليها من ذلك، و لقد دخلت عليه فى يوم عيد و هو فى جهد عظيم من الكتب، فقلت له: يا سيدى، أفى هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إلى كالمغضب و قال: أظنك لا تفلح أبدا، أ ترى الراحة فى غير هذا؟ و اللّه لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، و لوددت أن اللّه تعالى يضاعف عمرى حتى أتم كتاب «المغرب» على غرضى، قال: فأثار ذلك فى خاطرى أن صرت مثله لا ألتذّ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن، و لو لا ذلك ما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه، و كان أولع الناس بالتجول فى البلدان، و مشاهدة الفضلاء، و استفادة ما يرى و ما يسمع، و فى تولّعه بالتقييد و المطالعة للكتب يقول: [بحر البسيط]

يا مفنيا عمره فى الكأس و الوتر و راعيا فى الدّجى للأنجم الزهر

يبكى حبيبا جفاه أو ينادم من يهفو لديه كغصن باسم الزهر

منعّما بين لذات يمحقها و لا يخلد من فحر و لا سير

و عاذلا لى فيما ظلت أكتبه يبدى التعجب من صبرى و من فكرى

يقول مالك قد أفنيت عمرك فى حبر وطرس عن الأغصان و الحبر

و ظلت تسهر طول الليل فى تعب و لا تنى أمد الأيام فى ضجر

أقصر فإنى أدرى بالذى طمحت لأفقه همتى و اسأل عن الأثر

و اسمع لقول الذى تتلى محاسنه من بعد ما صار مثل الترب كالسور

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة، و هم بعد الممات جمال الكتب و السير

و ولد أبو عمران موسى بن محمد فى الخامس من رجب عام ثلاثة و سبعين و خمسمائة، و توفى بثغر الإسكندرية يوم الاثنين الثامن من شوّال عام أربعين و ستمائة.

و ولد أبوه محمد بن عبد الملك صاحب أعمال غرناطة و أعمال إشبيلية عام أربعة عشر و خمسمائة، و توفى بشعبان عام تسعة و ثمانين و خمسمائة بغرناطة.

و كان محمد بن عبد الملك وزيرا جليلا، بعيد الصيت، عالى الذكر، رفيع الهمة، كثير الأموال، و ذكره ابن صاحب الصّلات فى كتابه «تاريخ الموحّدين» و نبه على مكانته منهم فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۲

الحظوة و الأخذ فى أمور الناس، و أثنى عليه، و ذكره السهيلى فى «شرح السيرة الشريفة» حيث ذكر الكتاب الموجّه من رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إلى هرقل و أن محمد بن عبد الملك عاينه عند أدفونش مكرما مفتخرا به، و القصة مشهورة، و مدحه الرصافى بقصيدة أوّلها: [بحر الكامل]

ذهنا يفيض و خاطرا متوقدا ما ذا عسى يثنى على علم الندى

و لما أنشده قصيدته فيه التى أولها [الكامل]:

لمحلّك الترفيع و التعظيم و لوجهك التقديس و التكريم

حلف لا يسمعها، و قال: علىّ إجازتك، و لكن طباعى لا تحمل مثل هذا، فقال له الرصافى: و من مثلك يستحق هذا فى الوقت غيرك؟ فقال له: دعنى من خداعك، أنا و ما أعلمه من قلبى.

و أنشد له فى الطالع السعيد: [بحر الطويل]

فلا تظهرن ما كان فى الصّدر كامنا و لا تركبن بالغيظ فى مركب و عر

و لا تبحثن فى عذر من جاء تائبا فليس كريما من يباحث فى العذر

و ولى للموحدين أعمالا كثيرة بمراكش و سلا و إشبيلية و غرناطة، و اتصلت ولايته على أعمال غرناطة، و كان من شيوخها و أعيانها، و كتب عليه عقد أن فى داره من الحلى و أصنافه ما لا يمكن إلا فى دار الملك، و أنه إذا ركب فى صلاة الصبح شوش عليه نباح الكلاب، فأمر المنصور بالقبض عليه و على ابن عمه صاحب أعمال إفريقية أبى الحسن سنة ۵۹۳، ثم رضى عنهما، و أمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كل ما أخذ منه، فصرفه عليه، و لم ينقص منه شيئا، و غرم له ما فات منه، و هذا مما يدل على قوة سعد محمد بن عبد الملك المذكور و نباهة قدره، و حسبه من الفخر مدح أديب الأندلس و شاعرها أبى عبد اللّه الرصافى له، و هو ممن يمدح الخلفاء فى ذلك العصر- رحمه اللّه تعالى-!.

و ولد أبوه عبد الملك بن سعيد عام ستة و تسعين و أربعمائة، و توفى بحضرة مراكش عام اثنين و ستين و خمسمائة. قال الحجارى: لما مات يحيى بن غانية الملثّم ملك الأندلس بحضرة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۳

غرناطة، و كان وزيره و مدبر دولته عبد الملك بن سعيد، بادر الفرار لغرناطة عند ما سمع بموته إلى قلعته، و ثار بها، و طلبه خليفة يحيى بن غانية طلحة بن العنبر، فوجده قد فاته.

و قد قدمنا أن عبد الملك هذا هو السبب فى تأليف كتاب «المغرب، فى أخبار المغرب» ثم تممه ابنه محمد بن عبد الملك، ثم تمم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد، ثم أربى على الكل فى إتمامه أبو الحسن على بن موسى الذى قصدناه بالترجمة فى هذا الكتاب، و قد ذكرنا من أحواله جملة كافية.

و من فوائد ابن سعيد أبى الحسن ما حكاه عن صاحب كتاب «الكمائم» و هو: فأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس، و جاء الإسلام و بها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن، و هو الذى عليه نزل عمرو بن العاص، و ضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب إليه، ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل، و نسب المدينة إليه، فقيل: فسطاط عمرو، و تداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر، فاتخذوها سرير السلطنة، و تضاعفت عمارتها، فأقبل الناس من كل جانب إليها، و قصروا أمانيهم عليها، إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون، فبنوا إلى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع، و بها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن إلى جانب القاهرة، و هى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها، و تحطّ فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل و جنوبه بأنواع الفوائد، و بها منتزهات، و هى فى الإقليم الثالث، و لا ينزل فيها مطر إلا فى النادر، و ترابها ينتن الأرجل، و هو قبيح اللون، تستكدر منه أرجاؤها، و يسوء بسببه هواؤها، و لها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة، و مبانيها بالقصب و الطوب طبقة على طبقة، و مذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط، و فرّط فى الاعتناء بها بعد الإفراط، و بينهما نحو ميلين، و أنشدت فيها للشريف العقيلى: [بحر الطويل]

أحنّ إلى الفسطاط شوقا و إننى لأدعو لها أن لا يحل بها القطر

و هل فى الحيا من حاجة لجنابها و فى كل قطر من جوانبها نهر

تبدت عروسا و المقطّم تاجها و من نيلها عقد كما انتظم الدر

و قال عن كتاب إجار: و الفسطاط هو قصبة مصر، و الجبل المقطم شرقيها، و هو متصل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۴

بجبل الزمرذ، و قال عن كتاب ابن حوقل: الفسطاط مدينة عظيمة، ينقسم النيل لديها، و هى كبيرة، و مقدارها نحو فرسخ، على غاية العمارة و الطيب و اللذة ذات رحاب فى محالّها، و أسواق عظام فيها ضيق، و متاجر فخام، و لها ظاهر أنيق، و بساتين نضرة، و منتزهات على ممر الأيام خضرة، و فى الفسطاط قبائل و خطط للعرب تنسب إليها كالكوفة و البصرة، إلا- أنها أقل من ذلك، و هى سبخة الأرض، غير نقية التربة، و تكون الدار بها سبع طبقات و خمسا و ستا، و ربما يسكن فى الدار المائتان من الناس، و معظم بنيانهم بالطوب، و أسفل دورهم غير مسكون، و بها مسجدان للجمعة، بنى أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الفسطاط، و الآخر على الموقف بناه ابن طولون، و كان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلا فى ميل يسكنها جنده، و تعرف بالقطائع، كما بنى بنو الأغلب خارج القيروان رقّادة، و قد خربتا فى وقتنا هذا، و أخلف اللّه بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة.

قال ابن سعيد: لما استقررت بالقاهرة تشوّقت إلى معاينة الفسطاط، فسار معى إليها أحد أصحاب القرية، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدّة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة، لا عهد لى بمثلها فى بلد، فركب منها حمارا، و أشار إلى أن أركب حمارا آخر، فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته فى بلاد المغرب، فأخبرنى أنه غير معيب على أعيان مصر، و عاينت الفقهاء و أصحاب البزة و الشارة الظاهرة يركبونها، فركبت، و عند ما استويت راكبا أشار المكارى إلى الحمار، فطار بى، و أثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى، و دنس ثيابى، و عاينت ما كرهته، و لقلة معرفتى بركوب الحمار و شدة عدوه على قانون لم أعهده، و قلة رفق المكارى، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج، فقلت: [بحر المتقارب]

لقيت بمصر أشدّ البوار ركوب الحمار و كحل الغبار

و خلفى مكار يفوق الريا ح لا يعرف الرفق مهما استطار

أناديه مهلا فلا يرعوى إلى أن سجدت سجود العثار

و قد مد فوقى رواق الثرى و ألحد فيها ضياء النهار

فدفعت إلى المكارى أجرته، و قلت له: إحسانك أن تتركنى أمشى على رجلى و مشيت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۵

إلى أن بلغتها، و قدرت الطريق بين الفسطاط و القاهرة و حققته بعد ذلك نحو ميلين، و لما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة، و تأملت أسوارا مثلمة سوداء و آفاقا مغبرة، و دخلت من بابها و هو دون غلق يفضى إلى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع، غير مستقيمة الشوارع، قد بنيت من الطوب الأدكن و القصب و النخيل طبقة فوق طبقة، و حول أبوابها من التراب الأسود و الأزبال ما يقبض نفس النظيف، و يغض طرف الظريف، فسرت و أنا معاين لاستصحاب تلك الحال، إلى أن صرت فى أسواقها الضيقة، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق و الرّوايا التى على الجمال ما لا تفى به إلا مشاهدته و مقاساته إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع إشبيلية و جامع مرّاكش، ثم دخلت إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء، غير مزخرف، و لا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه، و تنبسط فيه، و أبصرت العامة رجالا و نساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق، و البياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات و الكعك و ما سوى ذلك، و الناس يأكلون فى عدة أمكنة منه غير متحشمين لجرى العادة عندهم بذلك، و عدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا، و فضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع، و فى زواياه العنكبوت قد عظم نسجه فى السقف و الأركان و الحيطان، و الصبيان يلعبون فى صحنه، و حيطانه مكتوبة بالفحم و الحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة، إلا أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق و حسن القبول و انبساط النفس ما لا تجده فى جامع إشبيلية مع زخرفته و البستان الذى فى صحنه، و لقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح و الأنس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم فى ساحته عند بنائه، و استحسنت ما أبصرته من حلق المتصدرين لإقراء القرآن و الفقه و النحو فى عدة أماكن، و سألت عن مواد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة و ما أشبه ذلك، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجاه و التعب، ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل، فرأيت ساحلا كدر التربة، غير نظيف و لا متسع الساحة، و لا مستقيم الاستطالة، و لا عليه سور أبيض، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۶

بالمراكب و أصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل، و لئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا، و النيل هنالك ضيق، لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء و مالت إلى جهة الفسطاط، و بحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل، و قد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط إلى الجزيرة، و هو غير طويل، و من الجانب الآخر إلى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة إليه، و أكثر جواز الناس بأنفسهم و دوابهم فى المراكب، لأن هذين الجسرين قد احترما لحصولهما فى حيز قلعة السلطان، و لا يجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط و الجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان، و بتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل، فقلت: [بحر الطويل]

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد

و قد جمعت فيه المراكب سحرة كسرب قطا أضحى يرفّ على ورد

و أصبح يطفو الموج فيه و يرتمى و يطرب أحيانا و يلعب بالنرد

حلا ماؤه كالرّيق ممن أحبّه فمدت عليه حلة من حلى الخد

و قد كان مثل النهر من قبل مده فأصبح لما زاده المد كالورد

و قلت هذه لأنى لم أذق فى المياه أحلى من مائه، و إنه يكون قبل المد الذى يزيد به و يفيض على أقطاره أبيض، فإذا كان عباب النيل صار أحمر، و أنشدنى علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط. [بحر الرمل]

حبّذا الفسطاط من والدة جنّبت أولادها درّ الجفا

يرد النيل إليها كدرا فإذا مازج أهليها صفا

لطفوا فالمزن لا تألفهم خجلا لما رأتهم ألطفا

و لم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة، و بينهما نحو ميلين، و الحال أن أهل الفسطاط فى نهايـة من اللطافـة و اللين فى الكلام، و تحت ذلك من الملق و قلـة المبالاة و رعايـة قـدر الصـحبة و كثرة الممازحـة و الألفـة ما يطول ذكره.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۷

و أمّا ما يرد على الفسـطاط من متاجر البحر الإسـكندرانى و البحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف، و به مجمع ذلك، لا بالقاهرة، و منها يجهز إلى القاهرة و سائر البلاد.

و بالفسـطاط مطابـخ السـكر و الصابون و معظم ما يجرى هذا المجرى، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند، كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسـطاط، و كذلك ما ينسج و يصاغ و سائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية، و الخراب فى الفسطاط كثير، و القـاهرة أجـد و أعمر و أكثر زحمـة، باعتبـار انتقـال السـلطان إليهـا، و سـكنى الأجناد فيها، و قـد نفـخ روح الاعتناء و النمو فى مـدينة الفسـطاط الآن، لمجاورتها للجزيرة الصالحية، و كثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة، و بنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر، انتهى.

قال المقريزى: يعنى ابن سعيد ما بنى على شقة مصر من جهة النيل، انتهى.

و قال ابن سعيد المذكور فى «المغرب، من حلى المغرب» ما ملخصه: الروضة أمام الفسطاط فيما بينها و بين مناظر الجيزة، و بها مقياس النيل، و كانت منتزها لأهل مصـر، فاختارها الملك الصالح بن الملك الكامل سرير السلطنة، و بنى فيها قلعة مسورة ساطع اللون محكم البناء عالى السّمك لم تر عينى أحسن منه، و فى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الخليفة الآمر لزوجته البدوية التى هام فى حبها، و المختار بسـتان الإخشـيد و قصـره، و له ذكر فى شعر تميم بن المعز و غيره، و لشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار، منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطى: [بحر الوافر]

أرى سرج الجزيرة من بعيد كأحداق تغازل فى المغازل

كأن مجرة الجوزاء خطّت و أثبتت المنازل فى المنازل

قال: و كنت أبيت بعض الليالى بالفسـطاط، فيزدهينى ضـحك البدر فى وجه النيل مع سور هذه الجزيرة الدرى اللون، و لم أنفصل عن مصـر حتى كمل سور [هـذه] القلعة، و فى داخله من الدور السـلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها، و هو من أعظم السـلاطين فى البناء، و أبصـرت بهذه الجزيرة إيوانا لجلوسه لم تر عينى مثاله، لا يقدّر ما أنفق عليه، و فيه من صحائف الذهب و الرخام الآبنوسى و الكافورى و المجزّع ما يذهل الأفكار، و يستوقف الأبصار، و يفضل عما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۸

أحـاط به السور أرض طويلـة فى بعضـها حاظر حصـر فيه أصـناف الوحوش التى يتفرج عليها السـلطان، و بعـدها مروج تنقطع فيها مياه النيل فتنظر فيها أحسن منظر، قال: و قد تفرجت كثيرا فى طرف هذه الجزيرة مما يلى أثر الفسطاط فقطعت به عشيات مذهبات، لم تزل لأحزان الغربـة مـذهبات، و إذا زاد النيل فصل برها عن بر الفسـطاط من جهة خليج القاهرة، و يبقى موضع الجسـر تكون فيه المراكب، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۴۵۸

أورد الصفدى فى تذكرته لابن سعيد المذكور فى هذه الجزيرة: [بحر الكامل]

انظر إلى سور الجزيرة فى الدّجى و البدر يلثم منه ثغرا أشنبا

تتضاحك الأنوار فى جنباته فتريك فوق النيل أمرا معجبا

بينا تراه مفضّضا فى جانب أبصرت منه فى سواه مذهبا

للّه مرأى ما رآه ناظرى إلا خلعت له المقام تطربا

و قال فى «المغرب» نقلا عن بعضهم ما صورته: و أما مدينة القاهرة، فهى الحالية الباهرة، التى تفنن فيها الفاطميون و أبدعوا فى بنائها، و اتخذوها قطبا لخلافتهم و مركزا لأرجائها، فنسى الفسطاط، و زهد فيه بعد الاغتباط، و سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ [عنها] و رام مخالفة أميرها. قال ابن سعيد: هذه المدينة اسمها أعظم منها، و كان ينبغى أن تكون فى ترتيبها و مبانيها على خلاف ما عاينته، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين، و كان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أوّل الديار المصرية إلى البحر المحيط: [بحر الطويل]

و سارت مسير الشمس فى كل بلدة و هبّت هبوب الريح فى البر و البحر

لا سيما و قد عاين مبانى أبيه المنصور فى مدينة المنصورية إلى جانب القيروان، و عاين المهدية مدينة جدّه عبيد اللّه المهدى، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة، و هى ناطقة إلى الآن بألسن الآثار، و للّه در القائل:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

إن البناء إذا تعاظم شأنه أضحى يدل على عظيم الشان

و تهمم من بعده الخلفاء المصريون فى الزيادة فى تلك القصور، و قد عاينت فيها إيوانا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۵۹

يقولون إنه بنى قدر إيوان كسرى الذى بالمدائن، و كان يجلس فيها خلفاؤهم و لهم على الخليج الذى بين الفسطاط و القاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار، و أبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس و الجبس ذكر لى أنهم كانوا يجدّدون تبييضها فى كل سنة، و المكان المعروف بالقاهرة ببين القصرين هو من الترتيب السلطانى، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر و المتفرّجين ما بين القصرين، و لو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية، و لكن ذلك أمد قليل، ثم تسير منه إلى أمد ضيق، و تمرّ فى ممر كدر خرج بين الدكاكين، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور، و تسخن منه العيون، و لقد عاينت يوما وزير الدولة و بين يديه الأمراء، و هو فى موكب جليل، و قد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، و قد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين، و وقف الوزير و عظم الازدحام، و كان فى موضع طباخين، و الدخان فى وجه الوزير، و على ثيابه، و قد كاد يهلك المشاة، و كدت أهلك فى جملتهم، و أكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب و الأزبال، و المبانى عليها من قصب و طين مرتفعة قد ضيّقت مسلك الهواء و الضوء بينها، و لم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك، و لقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى، و تدركنى و حشة عظيمة، حتى أخرج إلى بين القصرين.

و من عيوب القاهرة أنها فى أرض النيل الأعظم و يموت الإنسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل، لئلا يصادرها و يأكل ديارها، و إذا احتاج الإنسان إلى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس، و جوّها لا يبرح كدرا مما تثيره الأرض من التراب الأسود، و قد قلت فيها حين أكثر علىّ رفاقى من الحض على العود فيها: [بحر المتقارب]

يقولون سافر إلى القاهره و مالى بها راحة ظاهره

زحام و ضيق و كرب و ما تثير بها أرجل سائره

و عند ما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا، و جوّا مغبرا، فتنقبض نفسه، و يفر أنسه، و أحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة، لا سيما أرض القرط و الكتان، و قلت: [بحر الطويل]

سقى اللّه أرضا كلما زرت روضها كساها و حلّاها بزينته القرط

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۰

تجلّت عروسا و المياه عقودها و فى كل قطر من جوانبها قرط

و فيها خليج لا يزال يضعف بين حضرتها حتى يصير كما قال الرصافى: [بحر الكامل]

ما زالت الأمحال تأخذه حتى غدا كذؤابة النّجم

و قلت فى نوّار الكتان على جانبى الخليج: [بحر البسيط]

انظر إلى النهر و الكتان يرمقه من جانبيه بأجفان لها حدق

رأته سيفا عليه للصّبا شطب فقابلته بأحداق بها أرق

و أصبحت فى يد أرواح تنسجها حتى غدت حلقا من فوقها حلق

فلم تزرها و وجه الأرض مصطبح أو عند صفوته إن كنت تغتبق

و أعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل، لأنها دائرة كالبدر، و المناظر فوقها كالنجوم، و عادة السلطان أن يركب فيها بالليل، و تسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم و قدرتهم، فيكون لها بذلك منظر عجيب، و فى ذلك قيل: [بحر البسيط]

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت بها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هى و الأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

و نظرت إليها و قد قابلتها الشمس بالغدوة فقلت: [بحر البسيط]

انظر إلى بركة الفيل التى فجرت لها الغزالة فجرا من مطالعها

و خلّ طرفك مجنونا ببهجتها يهيم وجدا و حبّا فى بدائعها

و الفسطاط أكثر أرزاقا، و أرخص أسعارا من القاهرة، لقرب النيل من الفسطاط، و المراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك، و يباع ما يصل فيها بالقرب منها، و ليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة، لأنه يبعد عن المدينة، و القاهرة هى أكثر عمارة و احتراما و حشمة من الفسطاط، لأنها أجلّ مدارس، و أضخم خانات، و أعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها، لأنها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۱

المخصوصة بالسلطنة، لقرب قلعة الجبل منها، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر، و أكثر، و بها الطراز و سائر الأشياء التى يتزين بها الرجال و النساء، إلا أن فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط و صيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط، و انتقل إليها كثير من الأمراء، و ضخمت أسواقها، و بنى فيها السلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة، فنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد التى يباع فيها الفراء و الجوخ و ما أشبه ذلك.

إلى أن قال: و هى الآن عظيمة آهلة، يجبى إليها من الشرق و الغرب و الجنوب و الشمال ما لا يحيط بجملته و تفسيره إلا خالق الكل جلّ و علا، و هى مستحسنة للفقير الذى لا يخاف طلب زكاة و لا ترسيما و لا عذابا، و لا يطالب برفيق له إذا مات، فيقال له: ترك عندك مالا فربما سجن فى شأنه أو ضرب أو عصر، و الفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز و كثرته، و وجود السماع و الفرج فى ظواهرها و دواخلها، و قلة الاعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه، يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة أو صحبة مردان و ما أشبه ذلك، بخلاف غيرها من بلاد المغرب، و سائر الفقراء لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول إلا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة [الحرب] و البحر، و قد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم و من لا يعرف، و هم فى القدوم عليها بين حالين:

إن كان المغربى غنيا طولب بالزكاة و ضيّق عليه، و إن كان مجردا فقيرا حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول.

و فى القاهرة أزاهر كثيرة غير منقطعة الاتصال، و هذا الشأن فى الديار المصرية يفضل كثيرا من البلاد، و فى اجتماع النرجس و الورد

فيها أقول: [بحر السريع]

من فضّل النرجس و هو الذى يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعدا و قام فى خدمته النرجس

و أكثر ما فيها من الثمرات و الفواكه الرمان و الموز، أمّا التفاح و الإجاص فقليل غال، و كذلك الخوخ، و فيها الورد و النرجس و النسرين و النيلوفر و البنفسج و الياسمين و الليمون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۲

الأخضر و الأصفر، و أما العنب و التين فقليل غال، و لكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل، و مع هذا فشرابه عندهم فى غاية الغلاء، و عامتها يشربون المزر الأبيض المتخذ من الحنطة، حتى إن الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك، فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه و كسر أوانيه، و لا ينكر فيها إظهار أوانى الخمر و لا آلات الطرب ذوات الأوتار، و لا تبرج النساء العواهر، و لا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب، و قد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة و مصر و تعظم عمارته فيما يلى القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب، و ربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب، و ذلك فى بعض الأحيان، و هو ضيق، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم و الطرب و المخالفة، حتى إن المحتشمين و الرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب، و للسّرج فى جانبيه بالليل منظر، و كثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر فى الليل، و فى ذلك أقول: [مخلع البسيط]

لا تركبن فى خليج مصر إلا إذا أسدل الظلام

فقد علمت الذى عليه من عالم كلّهم طغام

صفان للحرب قد أطلّا سلاح ما بينهم كلام

يا سيدى لا تسر إليه إلا إذا هوّم النيام

و الليل ستر على التصابى عليه من فضله لثام

و السّرج قد بدت عليه منها دنانير لا ترام

و هو قد امتدّ و المبانى عليه فى خدمة قيام

للّه كم دوحة جنينا هناك أثمارها الأثام

قال المقريزى: و فيه تحامل كثير، انتهى.

و من نظر بعين الإنصاف علم أن التحامل فى نسبة التحامل إليه، و اللّه تعالى الموفق.

قال ابن سعيد: و معاملة الفسطاط و القاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء، كل درهم منها ثلاث من الدراهم الناصرية، و فى المعاملة بها شدة و خسارة فى البيع و الشراء، و مخاصمة بين الفريقين، و كان بها قديما الفلوس، فقطعها الملك الكامل، فبقيت الآن مقطوعة منها، و هى فى الإقليم الثالث، و هواؤها ردىء، لا سيما إذا هبّ المريسى من جهة القبلة، و أيضا فرمد العين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۳

فيها كثير، و المعايش فيها معتذرة نزرة، لا سيما أصناف الفضلاء، و جوامك المدارس قليلة كدرة، و أكثر ما يتعيش بها اليهود و النصارى فى كتابة الطب و الخراج، و النصارى بها يمتازون بالزنّار فى أوساطهم، و اليهود بعمائم صفر، و يركبون البغال، و يلبسون الملابس الجليلة، و يأكل أهل القاهرة البطارخ، و لا تصنع حلاوة القمح إلا بها و بغيرها من الديار المصرية، و فيها جوار طباخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين، و لهن فى الطبخ صنائع عجيبة، و رياسة متقدمة، و مطابخ السكر و المواضع التى يصنع بها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة، انتهى المقصود من هذا الموضع من كلام أبى الحسن النور بن سعيد رحمه اللّه تعالى:

و قال رحمه اللّه: [المجتث]

كم ذا تقيم بمصر معذّبا بذويها

و كيف ترجو نداهم و السحب تبخل فيها

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر الكامل]

لابن الزبير مكارم أضحت بها طير المدائح فى البلاد تغرّد

إن قيدوه و بالغوا فى عصره فالكرم يعصر و الجواد يقيّد

و لنذكر بعض أخبار والده، فإنه ممن رحل إلى المشرق و توفى بالإسكندرية، و قد ذكر ابنه أبو الحسن فى «المغرب» و غيره من أخباره العجائب، و لا بأس بأن نلم بشيء من ذلك، سوى ما تقدم، فنقول:

من أخباره أنه لما اجتاز بمالقة و مشرفها إذ ذاك أبو على بن تقى وجّه إليه من نقل أسبابه إلى داره و أقبل عليه منشدا: [بحر الكامل]

أكذا يجوز القطر لا يثنى على أرض توالى جدبها من بعده

اللّه يعلم أنها ما أنبتت زهرا و لا ثمرا بمدة فقده

عرّج عليها ساعة يا من له حسب يفوق العالمين بمجده

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۴

و انثر عليها من أزاهرك التى تشفى المتيّم من لواعج وجده

و اللّه ما ذاكرت فكرك ساعة إلا و أقبس خاطرى من زنده

قال موسى: فارتجلت للحين: [بحر السريع]

أنت الذى تعرف كيف العلا و تبتدى فى سبل المجد

بدأت بالفضل المنير الذى أكمل بدر الشكر و الحمد

و اللّه ما أبصرتكم ساعة إلّا بدا لى طالع السعد

و انصرفت معه إلى منزله: [بحر المجتث]

فلم أزل فى كرامه ليست كظل غمامه

و لما كان أبو عمران موسى بن سعيد بالجزيرة الخضراء مقدّما على أعمالها من قبل ابن هود وصله كتاب من الفقيه القاضى أبى عبد اللّه محمد بن عسكر قاضى مالقة مع أحد الأدباء، منه:

أفاتح من قلبى بعلياه واثق و إن كانت الأبصار لم تنسخ الودا

و ثقت بما لى من ذمام تشيّعى بآل سعيد و ابتغيت به السّعدا

و بالحبّ يدنو كل من أقصت النوى برغم حجاب للنوى بيننا مدّا

يا سيدى الذى حملنى ما أمال أسماعى من الثناء عليه، أن أهجم على مفاتحته شافعا فى موصّلها إليه، واثقا بالفرع لعلم الأصل، مؤمّلا للإفضال بتحقق الفضل، إن لم تقض باجتماع بيننا الأيام، فلا تجرى بالمشافهة بيننا إلا ألسن الأقلام، و يوحى بعضنا إلى بعض بسور الوداد، و الحمد للّه الذى أطلعك فى ذلك الأفق بدرا، و أدناك من هذه الدار فصرنا لقرب من يرد عنك لا نعدم لك ذكرا، فكلّ يثنى بالذى علمت سعد، و يصف من خلالك ما يقضى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۵

ذلك المجد، و لما كان إحسانك يبشر [به] الصادر و الوارد، و يحرض عليه الغائب و الشاهد، مدّ أمله نحوك موصل هذه المفاتحة، و ليس له وسيلة و لا بضاعة إلا الأدب و هى عند بيتك الكريم رابحة، و هو من شتت خطوب هذا الزمان شمله، و أبانت نوائبه صبره

و فضله، و ما طمح ببصره إلا إلى أفقك، و لا وجّه رجاءه إلا نحو طرقك، و الرجاء من فضلك أن يعود و قد أثنت حقائبه، و أعنقت من الحمد ركائبه، دمت غرة فى الزمن البهيم، مخصوصا بأفضل التحية و التسليم، انتهى.

و ابن عسكر المذكور عالم بالتاريخ متبحر فى العلوم، و له كتاب فى أنساب بنى سعيد أصحاب هذه الترجمة، و من شعره: [بحر السريع]

أهواك يا بدر و أهوى الذى يعذلنى فيك و أهوى الرقيب

و الجار و الدار و من حلّها و كلّ من مرّ بها من قريب

و كلّ مبد شبها منكم و كل من يلفظ باسم الحبيب

رجع- قال ابنه على: لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة أول وصولى إلى الإسكندرية، رأى أن يكتب لى وصية أجعلها إماما فى الغربة، فبقى فيها أياما إلى أن كتبتها عنه، و هى هذه، و كفى بها دليلا على ما اختبر و علم: [بحر السريع]

أودعك الرحمن فى غربتك مرتقبا رحماه فى أوبتك

و ما اختيارى كان طوع النوى لكننى أجرى على بغيتك

فلا تطل حبل النوى إننى و اللّه أشتاق إلى طلعتك

من كان مفتونا بأبنائه فإننى أمعنت فى خبرتك

فاختصر التوديع أخذا، فما لى ناظر يقوى على فرقتك

و اجعل وصاتى نصب عين و لا تبرح مدى الأيام من فكرتك

خلاصة العمر التى حنّكت فى ساعة زفّت إلى فطنتك

فللتّجاريب أمور إذا طالعتها تشحذ من غفلتك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۶

فلا تنم عن وعيها ساعة فإنها عون إلى يقظتك

و كلّ ما كابدته فى النوى إياك أن يكسر من همّتك

فليس يدرى أصل ذى غربة و إنما تعرف من شيمتك

و كلّ ما يفضى لعذر فلا تجعله فى الغربة من إربتك

و لا تجالس من فشا جهله و اقصد لمن يرغب فى صنعتك

و لا تجادل أبدا حاسدا فإنه أدعى إلى هيبتك

و امش الهوينى مظهرا عفّة و ابغ رضا الأعين عن هيئتك

أفش التحيّات إلى أهلها و نبّه الناس على رتبتك

و انطق بحيث العىّ مستقبح و اصمت بحيث الخير فى سكنتك

و لا تزل مجتمعا طالبا من دهرك الفرصة فى وثبتك

و كلما أبصرتها أمكنت ثب واثقا باللّه فى مكنتك

و لج على رزقك من بابه و اقصد له ما عشت فى بكرتك

و ايأس من الود لدى حاسد ضدّ و نافسه على خطّتك

و وفّر الجهد فمن قصده قصدك لا تعتبه فى بغضتك

و وفّ كلّا حقّه و لتكن تكسر عند الفخر من حدّتك

و لا تكن تحقر ذا رتبة فإنه أنفع فى غربتك

و حيثما خيمت فاقصد إلى صحبة من ترجوه فى نصرتك

و للرّزايا و ثبة ما لها إلا الذى تدخر من عدّتك

و لا تقل أسلم لى وحدتى فقد تقاسى الذل فى وحدتك

و لتزن الأحوال وزنا و لا ترجع إلى ما قام فى شهوتك

و لتجعل العقل محكّا و خذ كلا بما يظهر فى نقدتك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۷

و اعتبر الناس بألفاظهم و اصحب أخا يرغب فى صحبتك

بعد اختبار منك يقضى بما يحسن فى الأخدان من خلطتك

كم من صديق مظهر نصحه و فكره وقف على عثرتك

إياك أن تقربه، إنّه عون مع الدّهر عل كربتك

و اقنع إذا ما لم تجد مطمعا و اطمع إذا أنعشت من عسرتك

و انم نموّ النّبت قد زاره غبّ الندى و اسم إلى قدرتك

و إن نبا دهر فوطّن له جأشك و انظره إلى مدّتك

فكل ذى أمر له دولة فوفّ ما و افاك فى دولتك

و لا تضيّع زمنا ممكنا تذكاره يذكى لظى حسرتك

و الشر مهما اسطعت لا تأته فإنه حوب على مهجتك

يا بنى الـذى لا ناصـح له مثلى، و لا منصوح لى مثله [قد] قدمت لك فى هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك فى كل أوان رجوت لك حسن العاقبة، إن شاء اللّه تعالى و إنّ أخفّ منه للحفظ و أعلق بالفكر و أحق بالتقدم قول الأول: [المتقارب]

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهنّ حسن الأدب

و ثانية حسن أخلاقه و ثالثة اجتناب الرّيب

و إذا اعتبرت هـذه الثلاثـة و لزمتها فى الغربة رأيتها جامعة نافعة، لا يلحقك إن شاء اللّه تعالى مع اسـتعمالها ندم، و لا يفارقك بر و لا كرم، و للّه در القائل: [بحر الطويل]

يعدّ رفيع القوم من كان عاقلا و إن لم يكن فى قومه بحسيب

إذا حلّ أرضا عاش فيها بعقله و ما عاقل فى بلدة بغريب

و ما قصر القائل حيث قال: [بحر المنسرح]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۸

و اصبر على خلق من تعاشره و داره فاللبيب من دارا

و اتخذ الناس كلهم سكنا و مثّل الأرض كلّها دارا

و اصغ يا بنى إلى البيت الذى هو يتيمة الدهر، و سلّم الكرم و الصبر: [بحر الكامل]

و لو ان أوطان الديار نبت بكم لسكنتم الأخلاق و الآدابا

إذ حسن الخلق أكرم نزيـل، و الأدب أرحب منزل، و لتكن كما قال بعضـهم فى أديب متغرّب: و كان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد، و إليه قصد، غير مستريب بدهره، و لا منكر شيئا من أمره، و إذا دعاك قلبك إلى صحبة من أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلف له

سلما، و هبّ فى روض أخلاقه هبوب النسيم، و حلّ بطرفه حلول الوسن، و انزل بقلبه نزول المسرة، حتى يتمكن لك وداده، و يخلص فيك اعتقاده، و طهر من الوقوع [فيه] لسانك، و أغلق سمعك، و لا ترخّص فى جانبه لحسود لك منه، يريد إبعادك عنه، لمنفعته، أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك، و مع هذا فلا تغتر بطول صحبته، و لا تتمهد بدوام رقدته، فقد ينبهه الزمان، و يغير منه القلب و اللسان، و لذا قيل: إذا أحببت فأحبب هونا ما، ففى الممكن أن ينقلب الصديق عدوّا و العدوّ صديقا، و إنما العاقل من جعل عقله معيارا، و كان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله، و جعل نصب ناظره قول أبى الطيب: [بحر الوافر]

و لما صار ودّ الناس خبّا جزيت على ابتسام بابتسام

و فى أمثال العامة: من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل، فاحتذ بأمثلة من جرّب، و استمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم و تعبهم من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم، و زبدة تجاربهم، و لا تتكل على عقلك، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم و ابتاعوه غاليا بتجاربهم يربحك، و يقع عليك رخيصا، و إن رأيت من له مروءة و عقل و تجربة فاستفد منه، و لا تضيع قوله و لا فعله، فإن فيما تلقاه تلقيحا لعقلك، و حثّا لك و اهتداء، و إياك أن تعمل بهذا البيت فى كل موضع: [الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۶۹

فالحرّ يخدع بالكلام الطيب

فقد قال أحدهم: ما قيل أضرّ من هذا البيت على أهل التجمل، و ليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه، حتى تتدبره، فإن كان موافقا لعقلك مصلحا لحالك فراع ذلك عندك، و إلا فانبذه نبذ النواة، فليس لكل أحد يتبسم، و لا كل شخص يكلم، و لا الجود مما يعم به، و لا حسن الظنّ و طيب النفس مما يعامل به كل أحد، و للّه در القائل: [بحر الطويل]

و ما لى لا أوفى البريّة قسطها على قدر ما يعطى و عقلى ميزان

و إياك أن تعطى من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء، و لا الكفء بمعاملة الأعلى، و لا تضيع عمرك فيمن يملك بالمطامع، و يثنيك عن مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة، و اسمع قول الأول: [المتقارب]

و بع آجلا منك بالعاجل

و أقلل من زيارة الناس ما استطعت، و لا تجفهم بالجملة، و لكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل و لا ضجر و لا جفاء، و لا تقل أيضا أقعد فى كسر بيتى و لا أرى أحدا، و أستريح من الناس، فإن ذلك كسل داع إلى الذل و المهانة، و إذا علم عدو لك أو صديق منك ذلك عاملاك بحسبه، فازدراك الصديق و جسر عليك العدوّ، و إياك أن يغرك صاحب واحد عن أن تدخر غيره للزمان، و تطيعه فى عداوة سواه، ففى الممكن أن يتغير عليك فتطلب إعانة عليه أو استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها، و كان هو فى أوسع حال و أعلى رأى بما دبره بحيلته فى انقطاعتك عن غيره، فلو اتفق لك أن تصحب من كل صناعة و كل رياسة من يكون لك عدّة لكان ذلك أولى و أصوب، و سلنى فإنى خبير، طال و اللّه ما صحبت الشخص أكثر عمرى لا أعتمد على سواه، و لا أعتدّ إلا إياه، منخدعا بسرابه، موثوقا فى حبائل خطابه، إلى أن لا يحصل لى منه غير العضّ على البنان، و قول لو كان و لو كان، و لا يحملنك أيضا هذا القول أن تظنه فى كل أحد، و تعجل المكافأة، و ليكن حسن الظن بمقدار، و اصبر بمقدار ما، و الفطن لا تخفى عليه مخايل الأحوال، و فى الوجوه دلالات و علامات، و أصغ إلى القائل: [الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۰

ليس ذا وجه من يضيف و لا يق رى و لا يدفع الأذى عن حريم

فمن يكن له وجه مثل هذا الوجه فولّ وجهك عنه قبلة ترضاها، و لتحرص جهدك على أن لا تصحب أو تخدم إلا ربّ حشمة و نعمة، و من نشأ فى رفاهية و مروءة، فإنك تنام معه فى مهاد العافية، و إن الجياد على أعراقها تجرى، و أهل الأحساب و المروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وصمة، و قد قيل فى مجلس عبد الملك بن مروان: أشرب مصعب الخمر؟ فقال عبد الملك، و

هو عدوّ له محارب له على الملك: لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه [بحر الكامل].

و الفضل ما شهدت به الأعداء

يا بنى، و قد علمت أن الدنيا دار مفارقة و تغيّر، و قد قيل: اصحب من شئت فإنك مفارقه، فمتى فارقت أحدا فعلى حسنى فى القول و الفعل، فإنك لا تدرى هل أنت راجع إليه، فلذلك قال الأول: [بحر الطويل]

و لما مضى سلم بكيت على سلم

و إياك و البيت السائر: [بحر الوافر]

و كنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية و تركت عارا

و احرص على ما جمع قول القائل: ثلاثة تبقى لك الودّ فى صدر أخيك، أن تبدأه بالسلام، و توسع له فى المجلس، و تدعوه بأحبّ الأسماء إليه، و احذر كل ما بينه لك القائل:

كلّ ما تغرسه تجنيه إلا ابن آدم فإنك إذا غرسته يقلعك، و قول الآخر: ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن، و قول الآخر: ابن آدم ذئب مع الضعف، أسد مع القوّة، و إياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره، فيحكى أن ابن المقفّع خطب من الخليل صحبته، فجاوبه: إن الصحبة رقّ، و لا أضع رقى فى يدك حتى أعرف كيف ملكتك، و استمل من عين من تعاشره، و تفقّد فى فلتات الألسن و صفحات الأوجه، و لا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك أن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۱

لا تبينه، فإن الكلام سلاح السلم، و بالأنين يعرف ألم الجرح، و اجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك، و آكد ما أوصيك به أن تطرح الأفكار، و تسلم للأقدار: [المنسرح]

و اقبل من الدهر ما أتاك به من قرّ عينا بعيشه نفعه

إذ الأفكار تجلب الهموم، و تضاعف الغموم، و ملازمة القطوب عنوان المصائب و الخطوب، يستريب به الصاحب، و يشمت العدوّ المجانب، و لا تضر بالوساوس إلا نفسك، لأنك تنصر بها الدهر عليك، و للّه در القائل: [بحر الوافر]

إذا ما كنت للأحزان عونا عليك مع الزمان فمن تلوم؟

مع أنه لا يردّ عليك الفائت الحزن، و لا يرعوى بطول عتبك الزمن، و لقد شاهدت بغرناطة شخصا قد ألفته الهموم، و عشقته الغموم، من صغره إلى كبره، لا تراه أبدا خليا من فكره، حتى [لقد] لقب بصدر الهم، و من أعجب ما رأيته منه أنه يتنكد فى الشدة، و لا يتعلل بأن يكون بعدها فرج، و يتنكد فى الرخاء خوفا من أن لا يدوم، و ينشد: [بحر المتقارب]

توقع زوالا إذا قيل تم

و ينشد: [بحر الطويل]

و عند التّناهى يقصر المتطاول

و له من الحكايات فى هذا الشأن عجائب، و مثل هذا عمره مخسور يمر ضياعا، و متى رفعك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحسنه حسدا لك، و قصدا لتصغير قدرك عندك، و تزهيدا لك فيه، فلا يحملك ذلك على أن تزهد فى علمك، و تركن إلى العلم الذى مدحوه، فتكون مثل الغراب الذى أعجبه مشى الحجلة فرام أن يتعلمه فصعب عليه ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه، فبقى مخبل المشى [كما قيل]: [بحر الكامل]

حسد القطا و أراد يمشى مشيها فأصابه ضرب من العقّال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۲

فأضلّ مشيته و أخطأ مشيها فلذاك سمّوه أبا مرقال]

و لا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان و أهله، و يقول: ما بقى فى الدنيا كريم و لا فاضل و لا مكان يرتاح فيه، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون منمن صحبه الحرمان، و استحقّت طلعته للهوان، و أبرموا على الناس بالسؤال، فمقتوهم، و عجزوا عن طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع فى الناس، و إقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم، و تعذير أمورهم، و لا تزل هذين البيتين من فكرك: [بحر مجزوء الرمل]

لن إذا ما نلت عزا فأخو العز يلين

فإذا نابك دهر فكما كنت تكون

و لا قول الآخر: [بحر مجزوء الكامل]

ته و ارتفع إن قيل أقتر و انخفض إن قيل أثرى

كالغصن يسفل ما اكتسى ثمرا و يعلو ما تعرّى

و لا قول الآخر: [بحر البسيط]

الخير يبقى و إن طال الزمان به و الشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

و اعتقد فى الناس ما قاله القائل: [بحر الطويل]

و من يلق خيرا يحمد الناس أمره و من يغو لا يعدم على الغى لائما

[و قريب منه قول القائل: [بحر المتقارب]

بقدر الصّعود يكون الهبوط فإياك و الرتب العاليه

و كن فى مكان إذا ما سقطتّ تقوم و رجلاك فى عافيه]

و تحفظ بما تضمنه قول الآخر: [بحر السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۳

و من دعا الناس إلى ذمّه ذموه بالحق و بالباطل

و للّه در القائل: [بحر الكامل]

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا اقتنعت فكل شىء كافى

و الأمثال يضربها لذى اللب الحكيم، و ذو البصر يمشى على الصراط المستقيم، و الفطن يقنع بالقليل، و يستدل باليسير، و اللّه سبحانه خليفتى عليك، لا رب سواه.

نجزت الوصية و تكفيك عنوانا على طبقته فى النثر.

و له رسالة كتب بها إلى ملك المغرب أبى محمد عبد الواحد بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن مهنئا له بالخلافة حين بويع بها بمراكش، و كان إذ ذاك بإشبيلية، و كان قبل ذلك كاتبا له و مختصا به:

الحضرة العلية، السامية السنية، الطاهرة القدسية، حضرة الإمامة، و جنة دار الإقامة، مدّ اللّه على الإسلام ظلالها، و أنمى فى سماء السعادة تمامها و كمالها، و هنأ المؤمنين باستقبال إمارتها، و أدام لهم بركة خلافتها، عبد أياديها، و خديم ناديها، المتوسّل بقديم الخدمة، المتوصل بعميم النعمة و كريم الحرمة، المنشد بلسان المسرّة، حين أطلع الزمان هذه الغرّة:

[بحر المتقارب]

أتته الخلافة منقادة إليه تجرّر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له و لم يك يصلح إلا لها

موسى بن محمد بن سعيد بن محمد لا زال هذا الأمر العلى محمودا سعيدا، و لا برح يستزيد ترقيا و صعودا.

سلام اللّه الكريم، يخص حضرة الإجلال و التعظيم، و التقديس و التفخيم، و رحمته و بركاته، و بعد حمد اللّه الذى بلغ الإسلام بهذه الخلافة آماله، و حلّى بهذه الولاية السعيدة أحواله، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد نبيه الكريم، الذى أدحض اللّه تعالى به الكفر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۴

و ضلاله، و على آله و صحبه الطاهرين الذين سمعوا أقواله، و امتثلوا أفعاله، و الرضا عن الإمام المهدى المعلوم الذى أفاء اللّه به على الدين الحنيفى ظلاله، و أذهب عنه طواغيته و ضلاله، و الدعاء للمقام العالى الكريم، بالسعد المتوالى و النصر الجسيم، و كتب العبد و قد ملأت هذه البشرى المسرة أفقه، و وسعت عليه هذه المرتبة العلية طرقه: [بحر البسيط]

فهذه رتبة ما زلت أرقبها فاليوم أبسط آمالى و أحتكم

و لا أقنع منى إن اقتصرت على السماء دارا، و الهلال للبشير سوارا، و النجوم عقدا، و الصباح بندا، حتى أسرّ كل أحد بشكله، و أقابل كل شخص بمثله: [بحر الطويل]

و من خدم الأقوام يرجو نوالهم فإنّى لم أخدمك إلا لأخدما

و ما بعد الخلافة رتبة، و دون ثبير تنحط كل هضبة، فالحمد للّه رب العالمين، و هنيئا لعباده المؤمنين، حيث نظر لهم نظر رحمة، فأسبل عليهم هذه النعمة: [بحر الكامل]

و لقد علمت بأن ذلك معصم ما كان يتركه بغير سوار

و اللّه أعلم حيث يجعل رسالاته، و إلى من يشير بآياته، فللّه صباح ذلك اليوم السعيد و ليلته، لقد سفر عن وجه من البشرى أضاءت الآفاق شرقا و غربا غرته، و لقد اجتمعت آراء السداد، حتى أتت الإسلام بالمراد، فأخذ القوس باريها، و حل بالدار بانيها، هنيئا زادك الرحمن [لطفا و] خيرا، و لا برحت المسرات تسير إليك سيرا، و هل يصلح النور إلا للمقل، و هل يليق بالحسن إلا الحلل، فالآن مهّد اللّه البرين، و أفاض العدل على العدوتين، و قدّم للنظر من لا يعزب عن حفظه مكان، و لا يختصّ بحفظه إنسان دون إنسان، خليفة له النفس العمرية، و الآراء العمرية، و الفراسة الإياسية، و لا ينبئك مثل خبير، فلقد شاهد العبد ما لا يحصره تفسير، و لعمرى لقد صار الصباح فى إشراق النهار، و لم يخف عنا ما زاد الدنيا من البهجة و المسار، و شملت الناس هذه البشائر، و عمت كل باد و حاضر، و أصاخوا لتاليها إصاخة المجدبين لمرتادهم، و أهطعوا لها مهللين و مكبرين إهطاع الناس لأعيادهم، و أما العبد قد أخذ بحظه، حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه و لحظه. [المتقارب]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۵

و من فرح النفس ما يقتل

و هذه نعمة يقصر عنها النثر و النظم، و يحسد عليها الهلال و النجم، بل يسلمان لما استحقته من المراتب، و يخضعان إليها خضوع المفترض الواجب، أقر اللّه بها عيون المسلمين، و أفاض سحبها على الناس أجمعين، و حفظها بعينه التى لا تنام، و وقف على خدمتها الليالى و الأيام.

و لما قدم من الأندلس على تونس مدح سلطانها أبا زكريا بقوله: [بحر الكامل]

بشرى و يسرى قد أنار المظلم نجما و قد وضح الصباح المعلم

و رنت عيون الأمن و هى قريرة و بدت ثغور السعد و هى تبسّم

فارحل لتونس و اعتقد أعلام من قوى الضعيف به و أثرى المعدم

حيث المعالى و المعانى و الندى و الفضل و القوم الذين هم هم

أجروا إلى الغايات ملء عنانهم سبقا و بذّهم الجواد المنعم

ساد الإمام الملك يحيى سادة أعطى الورى لهم القياد و سلموا

إن الإمارة مذ غدا يقتادها يقظى و أجفان الحوادث نوّم

للّه منك مبارك ذو فطنة بزغت فأحجم عندها من يقدم

يقظان لا وان و لا متقاعس كالدهر يبنى ما يشاء و يهدم

إن صال فالليث الهصور المقدم أو سال فالغيث المغيث المثجم

أعلى منار الحق حين أماله قوم تبرأت المنابر منهم

أعلى الإله مكانه و زمانه و النصر يقدم و السعادة تخدم

و قال يخاطب ملك المغرب مأمون بن عبد المؤمن، حين أخذ البيعة لنفسه بإشبيلية، و كان المذكور بمراكش و لبنى سعيد بهذا الملك اختصاص قديم: [بحر البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۶

الحزم و العزم موجودان و النظر و اليمن و السعد مضمونان و الظّفر

و النور فاض على أرجاء أندلس و الزور ليس له عين و لا أثر

حثّ الركاب إلى هذا الجناب فقد ضلوا فما تنفع الآيات و النّذر

و اعزم كما عزم المأمون إذ نشرت أرض العراق فزال البؤس و الضرر

و لما قدم العادل القائم بمرسية المتولى على مملكة البرّين إلى إشبيلية كان فى جملة من خرج للقائه، و رفع له قصيدة منها: [بحر الطويل]

لقاء به للبر و الشكر مجمع إلى يومه كنا نخب و نوضع

لقد يسّر الرحمن صعب مرامه فأبصرت أضعاف الذى كنت أسمع

و له أيضا: [بحر السريع]

يا منعما قد جاءنى بره من غير أن أجرى له ذكرا

إنّى أحب الخير ما جاءنى عفوا، و لم أعمل به فكرا

و له فى غلام واعظ، و هو من حسناته: [المجتث]

و شادن ظل للوع ظ تاليا لين جمع

متّعت طرفى بمرآ ه فى خفارة سمعى

و له من أبيات: [بحر الطويل]

و من عجب أنّ الليالى تغيرت و لكنها ما غيرت منى العهدا

و من الفضلاء الذين أدركهم و أخذ عنهم الحافظ أبو بكر بن الجد، و أبو بكر بن زهر، و غيرهما، و حضر حصار طليطلة مع منصور بن عبد المؤمن، و كتب لملك البرين أبى محمد عبد الواحد، و كتب أيضا عن مأمون بن عبد المؤمن، و كتب أخيرا عن ملك بجاية و الغرب الأوسط الأمير أبى يحيى ابن ملك إفريقية، رحم اللّه تعالى الجميع!

رجع إلى أبى الحسن بن سعيد:

قال رحمه اللّه تعالى: حضرت ليلة أنس مع كاتب ملك إفريقية أبى العباس أحمد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۷

الغسّانى، فاحتاجت الشمعة أن تقطّ، فتناول قطها غلام ببنانه، فقلت: [بحر المتقارب]

و رخص البنان تصدّى لأن يقطّ السراج بمثل العنم

فقال:

و لم يهب النار فى لمسه و لا احتاج فى قطّه للجلم

فقلت:

و ما ذاك إلا لسكناه فى فؤادى على ما حوى من ضرم

فقال:

تعوّد حرّ لهيب به فليس به من أوار ألم

و أنشد فى «المغرب» للغسانى المذكور فى خسوف القمر مما قاله ارتجالا: [بحر الوافر]

كأن البدر لما أن علاه خسوف لم يكن يعتاد غيره

سجنجل غادة قلبته لما أراها شبهها حسدا و غيره

و خاطبه المذكور برسالة يقول فى آخرها: و عند حامل هذه الأحرف- سلّمه اللّه تعالى!- كنه خبرى، و استيعاب ما قصر عنه قلمى فضاقت بحمله أسطرى، لتعلم ما أجده و أفقده من تشوقى و تصبرى، و أنى لا أزال أنشد حيث تذكرى و تفكرى: [بحر البسيط]

يا نائيا قد نأى عنى بمصطبرى و ثاويا فى سواد القلب و البصر

إذا تناسيت عهدا من أخى ثقة فاذكر عهودى فما أخليك من فكرى

و اردد علىّ تحياتى بأحسنها تردد علىّ حياتى آخر العمر

و لنمسك العنان عن الجرى فى ميدان أخبار ابن سعيد، فإنها لا يشق غبارها، و منها قوله رحمه اللّه تعالى: سمعت كثيرا من السماع المشرقى، فلم يهزنى مثل قول الشريف الشمس المكى: [مجزوء الرمل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۸

مقل بالدمع غرقى و فؤاد طار خفقا

و تجن و تئن شق جيب الصبر شقا

يا ثقاتى خبرونى عن حديث اليوم حقا

أكذا كل محب فارق الأحباب يشقى؟

لا وعيش قد تقضّى و غرام قد تبقّى

و نعيم فى ذراكم قد صفا دهرا و رقّا

و نسيم من حماكم حمل الوجد فرقّا

برسالات صبابا ت على المشتاق تلقى

و غصون ناعمات بمياه الدنّ تسقى

و وجوه فقن حسنا فملأن الأرض عشقا

لو رضيتم بى عبدا ما رضيت الدهر عتقا

و قال: ما سمعت و لا وقفت على شىء أبدع من قول الجزار، و قد تردد إلى جمال الدين بن يغمور رئيس الديار المصرية فلم يقدّر له الاجتماع به: [بحر الخفيف]

أسأل اللّه أن يديم لكك الع ز و يبقيك ما أردت البقاء

كلّ يوم أرجو النعيم بلقيا ك فألقى بالبعد عنك شقاء

علم الدهر أننى أشتكيه لكك إذ نلتقى فعاق اللقاء

فبعث له بما أصلح حاله من الإحسان، و كتب فى حقه إلى ولاة الصعيد كتبا أغنته مدة عن شكوى الزمان، انتهى.

و قال أيضا: و لم أسمع فى وضع الشىء موضعه أحسن من قول المتنبى: [بحر الرمل]

و أصبح شعرى متهما فى مكانه و فى عنق الحسناء يستحسن العقد

و لم أسمع فى وضع الشىء غير موضعه أحسن من قول أبى الفرج: [بحر الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۷۹

مرّ مدحى ضائعا فى لؤمه كضياع السيف فى كفّ الجبان

و من تأليف النور بن سعيد كتاب «عدة المستنجز، و عقلة المستوفز» و ذكر فيه أنه ارتحل من تونس إلى المشرق رحلته الثانية سنة ۶۶۶، و أورد فى هذا الكتاب غرائب و بدائع، و ذكر فيه أنه لما دخل الإسكندرية لم يكن عنده آكد من السؤال عن الملك الناصر، فأخبر بحاله، و ما جرى له مع التتر حتى قتلوه بعد الأمان، ثم ساق فى دخول هولاكو حلب فقال بعد كلام كثير: و ارتكب فى أهل حلب التتر و المرتدون و نصارى الأرمن ما تصمّ عنه الأسماع، و كان فيمن قتل بتلك الكائنة البدر بن العديم الذى صدر عنه من الطبقة العالية فى الشعر مثل قوله: [بحر مجزوء الكامل]

واها لعقرب صدغه لو لم تكن للماه تحمى

و لغفل خط عذاره لو بت أعجمه بلثمى

و ابن عمه الافتخار بن العديم الذى وقع له مثل قوله:

و الغصن فيه الماء مطّرد و الماء فيه الغصن منعكس

ثم قال، لما ذكر أحوال الناصر بعد استيلاء التتر على بلاد حلب و الشام و ما يليهما، ما نصه: قال من دخل على الملك الناصر و قد نزل بميدان دمشق: قبلت يده، و جعلت أدعو له، و أظهر تعزيته على ما جرى من تلك المصائب العظيمة، فأضرب عن ذلك، و قال لى: فيم تتغزل اليوم؟ ثم أنشدنى قوله فى مملوك فقد له فى هذه الكائنة: [بحر الكامل]

و اللّه ما أبكى لملك مضى و لا لحال ظاعن أو مقيم

و إنما أبكى و قد حق لى لفقد من كنت به فى نعيم

يطلع بدرا ينثنى بانة يمر فيما رمته كالنسيم

فى خاطرى أبصره خاطرا فألتوى مثل التواء السقيم

يا عاذلى دعنى و ما حلّ بى فما سوى اللّه بحالى عليم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸۰

إن مت من حزن له أسترح و إن أعش عشت بهمّ عظيم

قال: ثم إنه سار نحو هولاكو، فلما مر بحلب و نظر إلى معاهده على غير ما يعهد قال:

[بحر الطويل]

مررت بجرعاء الحمى فتلفتت لحاظى إلى الدار التى رحلوا عنها

و لو كان عندى ألف عين و قمت فى معالمها عمرى لما شبعت منها

و صنع فى نعيها أشعارا يغنى بها المسمعون، ثم رحل إلى صحراء يوشن فى جهة طريق أرمينية، فوجد هولاكو هنالك فى تلك المروج المشهورة بالخصب، فأنزله، و أقام يشرب معه إلى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على التتر للملك المظفر قطز صاحب مصر سنة ۶۵۸، فقتلوه، و خلعوا عظم كتفه، و جعلوه فى أحد الأعلام على عادته فى أكتاف الملوك، انتهى باختصار.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸۱

فهرس الرسائل و الخطب و التنويهات للجزء الثانى من كتاب نفح الطيب

* ابن حسداى: جواب منه لابن الدباغ عن رسالة ۶۳
* ابن خفاجة، أبو إسحاق: رسالة فى وصف متنزه ۶۴
رسالة إلى صديق ولى حصنا ۶۵
رسالة يستدعى عود غناء ۶۶
* ابن صاحب الصلاة: رسالته فى وصف جامع قرطبة ۷۶
* ابن طفيل، أبو بكر: رسالته فى شأن المصحف العثمانى ۱۱۶
* ابن عبد الملك الجزيرى: رسالة على لسان بنفسج العامرية ۶۱
* ابن العربى المعافرى: فصل من رحلته ۱۹۹
* أبو بكر اشكنهادة: رسالة فى التوصية ببعضهم ۲۵۳
* أبو بكر الطرطوشى: موعظة قالها أمام الأفضل أمير الجيوش ۲۴۶
* أبو حفص الهوزنى: من رسالة له إلى المعتضد بن عباد ۲۵۱
* (تلميذ لابن سبعين): رسالة له فى الانتصال لأستاذه ۳۳۵
* الفتح بن خاقان: رسالته إلى بعض الملوك فى وصف نزهة ۱۵۶
رسالته إلى بعض الملوك مهنئا ۱۶۹
* الفيروزآبادى: رسالته فى حق ابن عربى الصوفى ۳۱۶
* لسان الدين بن الخطيب
رسالة على لسان السلطان إلى الرسول صلى اللّه عليه و سلم ۴۲
رسالة عن الغنى بالله إلى السلطان المرينى فى وصف بعض الغزوات ۴۳
رسالة أخرى فى منحى السابقة ۴۷
رسالة إلى أبى فارس المرينى فى الشفاعة لابن مرزوق ۲۷۶
* محمد بن عبد البرّ: رسالته إلى المنصور الصغير ۱۰۹
* منذر بن سعيد: خطبته فى التزهيد و ذم البنيان ۸۹
من خطبة فى الاستسقاء ۹۰
* ابن الربيب القيروانى: رسالته إلى أبى مروان الرباطى ۴۲۱
* الفتح بن خاقان: رسالته إلى على بن يوسف فى شأن ابن زهر ۳۷۳
رسالته فى غريق ۳۷۳
* ابن عسكر، أبو عبد اللّه: رسالته إلى أبى عمران بن سعيد ۴۶۴
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸۲
* أبو العباس الغسانى: رسالته إلى أبى الحسن بن سعيد ۴۴۹
* ابن سعيد، أبو الحسن: إجازته للتيفاشى رواية المغرب ۴۴۹
فصول من رحلته فى الفسطاط و القاهرة ۴۵۳

* ابن سعيد، أبو عمران وصيته لابنه أبى الحسن ۴۶۴

رسالته إلى عبد الواحد الموحدى ۴۷۳

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸۳

فهرس موضوعات الجزء الثانى من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى

الباب الرابع فى وصف الأندلس

۳وصف قرطبة لابن سعيد ۳

وصف قرطبة لبعض العلماء ۶

وصف قرطبة للحجارى ۷

من محاسن قرطبة ۸

عناية القرطبيين بالكتب ۸

قصور قرطبة و أبواب تلك القصور ۹

أبواب قرطبة و أرباضها ۱۰

متنزهات قرطبة ۱۱

الرمان السفرى فى قرطبة ۱۲

متنزهات قرطبة و قصورها ۱۳

نهر قرطبة ۲۲

قنطرة قرطبة و نشأتها ۲۲

أسباب دثور قرطبة ۲۳

وصف المبانى العظيمة ۳۰

من وصف الأنهار و البرك ۳۷

وصف الديار الدائرة ۳۷

من رسائل لسان الدين بن الخطيب ۴۲

جامع قرطبة ۵۲

رجع إلى أخبار البنيان ۵۳

ابن فرفور يشكو الدهر ۵۴

رجع إلى أخبار البنيان- مدينة الزهراء ۵۵

أخبار البنيان- قصر المأمون بن ذى النون ۵۹

وصف المجالس و القصور ۶۰

من نثر ابن خفاجة ۶۵

من نظم ابن خفاجة ۶۶

عود إلى وصف قرطبة و مشاهدها ۶۷

مسجد قرطبة ۷۱

الزهراء و مسجدها ۸۴

بين المنذر بن سعيد و الناصر ۸۹

دثور الزهراء ۹۴

الزاهرة ۹۵

المنية العامرية ۹۷

كثرة المنى فى الأندلس ۹۹

بين المنصور و ابن شهيد ۱۰۰

المنصور و عبد الملك بن إدريس الخولانى ۱۰۱

من أخبار المنصور بن أبى عامر ۱۰۳

دثور الزاهرة ۱۰۳

طرف من أخبار المنصور ۱۰۴

ترجمة المصحفى فى المطمح ۱۰۵

من أخبار المنصور ۱۰۷

رسالة ابن عبد البر إلى المنصور الصغير ۱۰۹

من أخبار المنصور الكبير محمد بن أبى عامر و المصحفى ۱۱۱

مآل مصحف عثمان الذى كان بالأندلس ۱۱۴

بناء مسجد مراكش ۱۲۳

من أخبار الوزير أبى المغيرة بن حزم ۱۲۴

بين الرشيد و المأمون و جارية ۱۲۵

ترجمة الوزير أبى المغيرة بن حزم ۱۲۶

ترجمة أبى عامر بن شهيد ۱۲۷

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸۴

استيلاء المعتمد بن عباد على قرطبة ۱۲۹

وصف المتنزهات من ترجمة ابن زيدون (فى القلائد) ۱۳۲

وصف المتنزهات من موشحة ابن الوكيل ۱۳۵

وصف المتنزهات من رجع إلى ما يتعلق بقرطبة ۱۳۶

وصف حير الزجالى بقرطبة ۱۳۷

وصف المتنزهات من ترجمة بنى القبطرنة ۱۳۹

بين أبى بكر بن القبطرنة و الوزير ابن اليسع ۱۴۰

وصف المتنزهات من ترجمة ابن حسداى ۱۴۱

وصف المتنزهات من ترجمة المستعين ابن هود ۱۴۲

وصف المتنزهات من ترجمة عبد اللّه ابن السيد البطليوسى ۱۴۳

وصف المتنزهات من ترجمة ابن العطار ۱۴۹
وصف المتنزهات من ترجمة ابن عمار ۱۵۰
وصف المتنزهات من ترجمة ابن وهبون ۱۵۴
وصف الفتح لمجلس أنس بمنية المنصور ۱۵۵
كتاب من الفتح إلى بعض الملوك يصف متنزها ۱۵۶
وصف المتنزهات من ترجمة الراضى بالله بن عباد ۱۵۷
وصف المتنزهات من ترجمة المتوكل على اللّه بن الأفطس ۱۵۸
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۲؛ ص۴۸۴
ف المتنزهات من ترجمة المعتصم ابن صمادح ۱۶۰
وصف المتنزهات من ترجمة ابن رزين ۱۶۱
وصف المتنزهات من ترجمة ابن طاهر ۱۶۳
وصف المتنزهات من ترجمة ابن عمار ۱۶۳
وصف المتنزهات من ترجمة أبى عيسى بن لبون ۱۶۴
و ترجمة أبى بكر بن رحيم ۱۶۵
وصف المتنزهات من ترجمة ابن عبدون ۱۶۵
وصف المتنزهات من ترجمة ابن مالك ۱۶۶
وصف المتنزهات من ترجمة ابن السقاط ۱۶۶
و من ترجمة ابن أضحى ۱۶۷
وصف المتنزهات من ترجمة ابن خفاجة ۱۶۸
وصف المتنزهات من رسالة للفتح ۱۶۹
وصف المتنزهات من ترجمة ابن عطية ۱۶۹
وصف المتنزهات من شعر ابن خفاجة ۱۷۰
وصف المتنزهات من شعر ابن سعيد ۱۷۹

الباب الخامس فيمن رحل من الأندلسيين إلى المشرق

۱۸۳ ترجمة عبد الملك بن حبيب السلمى ۱۸۴
ترجمة الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثى ۱۸۶
ترجمة القاضى أبى عبد اللّه محمد بن عيسى ۱۸۸
ترجمة عتيق بن أحمد الأندلسى الدمشقى ۱۹۱
ترجمة أبى إبراهيم إسماعيل الأبزى ۱۹۱
ترجمة القاضى منذر بن سعيد البلوطى ۱۹۱
ترجمة أبى القاسم الشاطبى الرعينى المقرى ۱۹۶
ترجمة القاضى أبى بكر بن العربى المعافرى ۱۹۹

ترجمة أبى بكر محمد بن أبى عامر بن حجاج الغافقى ۲۱۳

ترجمة جمال الدين بن ذى النون ۲۱۳

ترجمة زياد بن عبد الرحمن اللخمى (شبطون) ۲۱۴

سوار بن طارق ۲۱۵

بقى بن مخلد ۲۱۵

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸۵

قاسم بن أصبغ ۲۱۵

ترجمة أبى محمد قاسم بن ثابت العوفى السرقسطى ۲۱۷

علم الدين قاسم بن أحمد اللورقى المرسى ۲۱۷

قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار ۲۱۸

ترجمة أبى بكر محمد بن إبراهيم الغسانى ۲۱۹

أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن حيون ۲۱۹

أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم المالقى ۲۱۹

محمد بن إبراهيم اليقورى ۲۲۰

أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الأنصارى ۲۲۰

أبو عبد اللّه القرشى الهاشمى الأندلسى ۲۲۰

أبو عبد اللّه محمد بن على القرطبى ۲۲۳

أبو بكر محمد بن على التجيبى الإشبيلى ۲۲۳

أبو بكر الأنصارى الجيانى ۲۲۳

أبو عبد اللّه التجيبى الدهان الغرناطى ۲۲۴

أبو عمر محمد بن على الإشبيلى ۲۲۴

أبو بكر محمد بن على البلنسى ۲۲۴

أبو عبد اللّه محمد بن على البياسى ۲۲۴

أبو عبد اللّه محمد بن على الشامى الأندلسى الغرناطى ۲۲۵

محمد بن عمار الميورقى ۲۲۵

محمد بن عمر القرطبى الحافظ ۲۲۵

محمد بن عمروس القرطبى ۲۲۶

محمد بن عيسى بن نجيح المعافرى ۲۲۶

محمد بن فطيس الغافقى ۲۲۷

محمد بن القاسم القرطبى ۲۲۷

محمد بن قاسم بن رمان الغرناطى ۲۲۷

محمد بن لب الشاطبى ۲۲۸

محمد بن سراقة الشاطبى ۲۲۸

محمد بن أحمد الفريشى ۲۲۹

محمد بن محمد بن خيرون ۲۲۹

ضياء الدين محمد بن محمد بن بندار القيسى ۲۳۰

أبو بكر محمد الزهرى المعروف بابن محرز البلنسى ۲۳۰

أبو الوليد الباجى ۲۳۰

أبو ذر الهروى عبد بن أحمد ۲۳۳

عود إلى أبى الوليد الباجى ۲۳۴

ترجمة ابن حزم الظاهرى ۲۳۸

عود إلى أبى الوليد الباجى ۲۴۴

أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى ۲۴۵

محمد بن عبد الجبار الطرطوشى ۲۴۹

أبو على الصيرفى القاضى ۲۴۹

ابن أبى روح الجزيرى ۲۵۱

أبو حفص عمر بن حسن الهوزنى ۲۵۱

أبو عمر عثمان بن الحسين ۲۵۲

أبو بكر محمد بن القاسم ۲۵۲

أبو عبد اللّه محمد بن عبد ربه المالقى ۲۵۴

عبد المنعم بن عمر المالقى ۲۵۵

أبو الخطاب بن دحية الحافظ ۲۵۵

خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ ۲۶۰

خلف بن سعيد الكلبى ۲۶۰

أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الإشبيلى ۲۶۰

أبو محمد عبد اللّه بن يحيى السرقسطى ۲۶۴

الفقيه المقرئ أبو عامر التيارى ۲۶۴

أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى ۲۶۵

أبو بكر محمد بن يوسف المعروف (بابن مسدى) ۲۶۵

أبو عبد اللّه بن فتوح الحميدى ۲۶۶

أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشى ۲۶۸

أبو بكر يحيى بن سعدون ۲۶۹

أبو عبد اللّه محمد بن عبد ربه الوزير ۲۷۰

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸۶

أبو عبد اللّه محمد بن الصفار القرطبى ۲۷۱

أبو الوليد بن الجنان الكنانى الشاطبى ۲۷۲

أبو محمد القرطبى ۲۷۵

على بن أحمد القادسى الكنانى ۲۷۵

أبو عبد اللّه بن العطار القرطبى ۲۷۵

حضرة تونس و رسالة للسان الدين بن الخطيب ۲۷۶

أبو الوليد عبد اللّه بن محمد الأزدى القرطبى (ابن الفرضى) ۲۷۹

أبو بكر محمد بن أحمد الشريشى ۲۸۱

أبو محمد عبد العزيز البلنسى القيسى ۲۸۲

أبو الحكم عبيد اللّه بن المظفر (المغربى) ۲۸۳

أبو عمرو الدانى عثمان بن سعيد ۲۸۵

عبد اللّه بن عيسى ۲۸۶

أحمد بن على (ابن شكر) ۲۸۶

القاسم بن أحمد اللورقى ۲۸۶

أبو عبد اللّه بن أبى الربيع ۲۸۶

أبو عامر محمد بن سعدون العبدرى ۲۸۷

أبو عبد اللّه محمد بن سعدون الباجى ۲۸۷

أبو بكر محمد بن سعدون الجزيرى ۲۸۸

محمد بن سعد الأعرج ۲۸۸

محمد بن سعيد الأموى ۲۸۸

محمد بن سعيد القرطبى ۲۸۸

محمد بن سليمان المعافرى ۲۸۹

محمد بن شريح الرعينى ۲۸۹

محمد بن صالح المالقى ۲۹۰

محمد بن صالح القحطانى ۲۹۰

محمد بن طاهر الدانى ۲۹۰

محمد بن بشير المعافرى ۲۹۱

محمد بن عيسى ۲۹۵

محمد بن يحيى الليثى ۲۹۵

محمد بن مروان (ابن أبى جمرة) ۲۹۶

محمد بن أبى علاقة ۲۹۶

محمد بن حزم التنوخى ۲۹۶

محمد بن يحيى بن مالك ۲۹۷

محمد بن عبدون الجبلى العدوى ۲۹۷

محمد بن عبد الرحمن الأزدى الفراء ۲۹۷

محمد بن صالح المعافرى ۲۹۸

محمد بن أحمد السرقسطى ۲۹۸

محمد بن عيسى الأنصارى ۲۹۸

محمد بن طاهر الأنصارى الخزرجى الدانى ۲۹۹

محمد بن الفرج البزار ۲۹۹

محمد بن الحسين الميورقى ۳۰۰

محمد بن عبد الرحمن العبدى الإشبيلى ۳۰۰

محمد بن أحمد الخزرجى الجيانى ۳۰۱

محمد بن على الأنصارى الجيانى ۳۰۱

محمد بن يوسف المرسى ۳۰۲

محمد بن إبراهيم بن وضاح اللخمى ۳۰۴

محمد بن عبد الرحمن التجيبى ۳۰۴

الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى ۳۰۵

أبو الحسن على بن عبد اللّه الششترى النميرى ۳۲۵

أبو الحسن على بن أحمد الحرالى الأندلسى ۳۲۷

أبو العباس أحمد بن عمر المرسى ۳۳۰

أبو إسحاق الساحلى المعروف بالطويجن ۳۳۲

على بن محمد الخزرجى الساعدى ۳۳۳

عبد الحق بن إبراهيم (ابن سبعين) ۳۳۴

محمد بن إبراهيم الإشبيلى الشهير بابن غصن ۳۴۲

أحمد بن يوسف اللبلى ۳۴۳

محمد بن أحمد القرطبى المفسر ۳۴۵

أبو القاسم محمد بن أحمد (ابن حاضر) ۳۴۶

محمد بن أحمد التجيبى ۳۴۶

محمد بن أحمد المالقى الخزرجى ۳۴۷

أبو بكر محمد بن أحمد الهاشمى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۲، ص: ۴۸۷

القرطبى ۳۴۷

محمد بن أحمد بن سلمان الزهرى الإشبيلى ۳۴۸

محمد بن أحمد القرطبى الورشى ۳۴۸

محمد بن أحمد الباجى اللخمى ۳۴۸

محمد بن أحمد العتبى القرطبى ۳۴۹

محمد بن أحمد المعافرى الفرضى ۳۵۰

محمد بن أحمد الطليطلى ۳۵۰

محمد بن أحمد القيسى ۳۵۰

محمد بن أحمد الوائلى ۳۵۱

أبو عبد اللّه محمد بن أحمد القرطبى ۳۵۱

محمد بن أحمد الوضاحى القيسى ۳۵۲

محمد بن أحمد العبدرى البلنسى ۳۵۲

محمد بن أحمد الإشبيلى ۳۵۳

محمد بن أسباط المخزومى ۳۵۳

محمد بن إسحاق القاضى ۳۵۳

موسى بن بهيج الواعظ ۳۵۳

أبو عمران موسى بن سعادة ۳۵۳

عبد اللّه بن طاهر الأزدى ۳۵۴

محمد بن عبد اللّه بن مالك الجيانى ۳۵۴

محمد بن طاهر التدميرى القيسى (الشهيد) ۳۶۴

محمد بن عبد الجليل القبجاطى، و محمد بن عبد الرحيم القيسى الغرناطى ۳۶۵

محمد بن عبد السلام، و محمد بن عبد الملك القرطبى ۳۶۶

ابن ضيفون اللخمى، و محمد الخزرجى، و ابن السراج ۳۶۷

محمد العنسى، و ابن الدفاع، و محمد المعافرى ۳۶۸

محمد الأنصارى البلنسى ۳۶۸

محمد القرطبى (ابن خيرة) ۳۶۹

محمد بن عبد اللّه السلمى المرسى ۳۶۹

محمد بن عبد اللّه البنتى، و محمد بن عبد اللّه الخولانى (ابن القوق) ۳۷۱

محمد اللوشى، و محمد بن عبدون ۳۷۱

عبد الملك بن أبى بكر ۳۷۲

محمد بن مروان، و أبو العلاء زهر بن عبد الملك ۳۷۲

أبو العلاء زهر بن عبد الملك ۳۷۴

أبو الحجاج يوسف بن إبراهيم الساحلى ۳۷۹

يحيى بن الحكم الغزال ۳۷۹

أبو الحسن على بن موسى العنسى ۳۸۶

نقول من ابن سعيد: متنزه الفاطميين بمصر ۴۱۳

نقول من المحلى لابن سعيد: خبر طراد بن مهلهل الطائى ۴۱۴

نقول من ابن سعيد: مكين الدولة أبو طالب ابن حديد ۴۱۵

نقول من ابن سعيد: مقتل الآمر الفاطمى

فی طریق الهودج ۴۱۶

نقول من ابن سعید: بعض خبر شهاب الدین التلعفری و شعره ۴۱۷

نقول من ابن سعید: بعض أخبار الملک العادل بن أیوب ۴۱۷

نقول من ابن سعید: من أخبار أحمد بن سعید المرذغانی، و أخبار أحمد عبد الکریم الدمشقی ۴۲۰

نقول من ابن سعید: بین الرباطی و ابن الربیب ۴۲۱

نقول من ابن سعید: بعض أخبار أبی الجسر الرباطی ۴۲۲

أبو عبد اللّه محمد بن الحسین بن سعید ۴۳۸

عود إلی أخبار الرئیس ابن الحسین ۴۳۵

بعض أخبار السلطان المستنصر الحفصی ملک إفریقیة ۴۴۱

رجع إلی أخبار أبی الحسن علی بن

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۲، ص: ۴۸۸

سعید و شعره ۴۴۳

مقتبسات من خطبة المغرب ۴۴۶

قلعة بنی سعید، و أولیة بنی سعید ۴۴۸

ترجمة أبی العباس أحمد الغسانی من المغرب ۴۴۹

شعر لابن سعید ۴۵۰

ترجمة أبی عمران موسی بن محمد بن عبد الملک بن سعید (من المغرب) ۴۵۱

وصف ابن سعید للفسطاط ۴۵۳

وصف القاهرة ۴۵۴

بعض أخبار أبی الحسن بن سعید ۴۶۳

وصیة موسی بن سعید لابنه أبی الحسن ۴۶۵

رسالة موسی بن سعید إلی عبد الواحد بن عبد المؤمن الموحدی موسی بن سعید یمدح سلطان تونس أبا زکریا ۴۷۳

موسی بن سعید یخاطب مأمون بنی عبد المؤمن ملک المغرب ۴۷۵

رجع إلی أبی الحسن بن سعید ۴۷۶

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰

الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عنايةِ سماحةِ آيةِ الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹